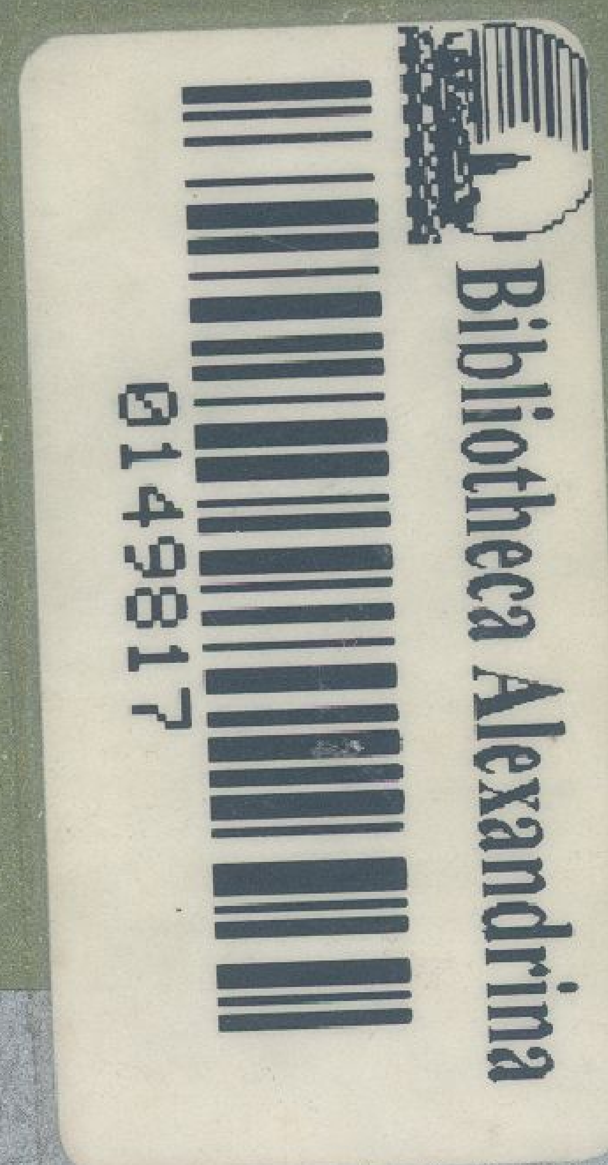
التيار الإسلامي

في قصص :

عبد الحميد جوده السحار



د. صفوت يوسف زيد



د. صفوت يوسف زيد

التيار الإسلامي

في قصص عبد الحميد جودة السحار



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٥

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَمَا تَوْفِيقِي إلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإلَيْهِ أُنِيبُ »

(صدق الله العظيم)

الإهـــداء

إلى من عطر الحياة بنور الإيمان فازدهت
بالحكمة . وعانقت في رحاب الهدى وحي الكلمة
إلى المحبوب الأسمى محمد صلى الله عليه وسلم
أهدي هذا العمل المتواضع لعلي أنال
من شفاعته يوم لا ينفع مال ولا بنون
إلا من أتى الله بقلب سليم

الباحث

فصل تمهيدى

(أ) نشـــأة القصــــــة فى الأدب العــــربى

(ب) نمو التيار الاسلامى وبواعثه فى القصة الحديثة

(أ) نشأة القصة فى الأدب العربى

شغلت قضية نشأة القصة فى الأدب العربى جمهرة كبيره من نقاد الأدب فى العصر الحديث واختلفوا فى ذلك اختلافا بينا ، حيث تنوعت آراؤهم وتعددت وجهات نظرهم ، وراح كل فريق منهم يأتى بالحجج والبراهين الدالة على صحة ما ذهب اليه ، حتى أصبح اللجاج فى هذه المسألة يملأ مساحات واسعة فى كثير من كتب النقد التى تناولت هذه القضية ضمن ما تناولته من حديث حول فنون الأدب وقضاياه ، وقد تبلورت ملامح هذه الخصومة فى اتجاهين أساسيين :

اتجاه يرى أن القصة جاءت وليدة تأثر أدبائنا بالقصص الأوربى بعد معرفتهم له واطلاعهم عليه فى مصادره الأصلية الحديثة ٠

واتجاه آخر يؤكد حقيقة وجود تراث قصصى فى الأدب العربى ، وأن الرواية العربية فى مسيرتها الحديثة ، انما هى امتداد لخط طويل من التراث القصصى يمتد من قصص العرب وحروبهم فى العصر الجاهلى ، الى القصص المترجم فى العصر العباسى ، الى القصص الشعبى فيما تلا ذلك من عصور ، ثم القصص التعليمى والتاريخى فى العصر الحديث ٠

وقد زعم أصحاب الاتجاه الأول أن القصة نتاج صعب لا يستطيع العرب اخراج مثله ، اذ ينقصهم الخيال المبتكر ، والعقل الخالق ، وأرجعوا ذلك الى أسباب كثيرة ، منها طبيعة البيئة العربية الصحراوية ذات الاتساع الشاسع والفضاء الكونى العظيم، الذى وجد العربى نفسه فيه تسير على وتيرة واحدة تتكرر كل يوم بل كل ساعة ، لا تتغير ولا تتبدل ، فكل شىء فى طبيعة تكوين البيئة ، محدد الملامح واضح القسمات ، والهواء هو الهواء ، والجبال عارية الا من الصخر والرمل ولهذا (كان العربى رجل ملاحظة دقيقة ، يتناول التفاصيل ، ولم يكن رجل خيال محلق كسكان الجبال والغابات ، حيث يسبح الخيال الى القمم أو ينطلق بين الدروب الكثيرة الأشجار) (١) ٠

(١) المسرح د٠ محمد مندور ص ١٥ ٠

وقد ترددت هذه المقولة أو قريب منها فى الدلالة على رأيهم فى انكار معرفة العربى للقصص • على ألسنة الكثيرين من أنصار هذا الاتجاه متابعين فى ذلك بعض المستشرقين ممن ينسبون كل فضل الى الجنس الآرى الذى يتسم بنضج عقليته وقوته الذهنية في مقابل العقل العربى السامي الذى (ينزع بطبيعته الى التجريد ولا ينزع الى التجسيد ومن ثم خلت حياة العرب من الأساطير وما وجد منها فهو بسيط ساذج أو دخيل مستعار من مجتمعات أخرى) (١) ومن العجيب أن نرى بعض الدارسين ممن تغلب عليهم النزعة المحافظة يرددون النغمة السابقة في شيء من الاعجاب مؤكدين (أن حياة العربى البسيطة لم تكن تؤهله لبحث أو لدرس ، ولم تدعه الى اعمال ذهن وكد فكر ، واكتشاف مقدمات وترتيب نتائج ، ولم تمكنه طبيعته من تحليل أو تعمق وانما كان يعتمد على اللمحة الخاطفة ، ومن هنا كان يدل دائما بالقول الموجز . والعبارة المختصرة) (٢) أو ما عبر عنه الأستاذ أحمد أمين بقوله فى مجال اتهام العربى بالخيال المحدود بأن عبقريته تعتمد فى الأساس على المهارة اللغوية أكثر مما تعتمد على المعانى العقلية ، فالعربى لسانه أمهر من عقله (٣) وقد أجهد أنصار هذا الاتجاه أنفسهم فى البحث عن سر أكيد وراء قصور الخيال العربى وعدم قدرته على الابداع فى فن القصص الى (أن البيئة العربية لم تكن لها وحدة اجتماعية غير وحدة القبيلة مما يقعد بالخيال عن ادراك وحدة التماسك الاجتماعى وأثر الأحداث فيه ، وهو أساس القصة الفنية الناضجة •

ولا شك أن لتعارض الوثنية اليونانية مع الروح الاسلامية أثر فى صد العرب عن محاكاتهم فى قصصهم ومسرحياتهم ، تلك القصص والمسرحيات التى يرتفع الأبطال فيها الى مصاف الآلهة ، وتنزل الآلهة منزلة البشر فى سفاهتهم ونقائصهم وصراعهم مع قوى الطبيعة والناس ، مما كان له أثر فى تنوع الخيال وعمقه وفى قوة التشخيص، وقد نفر العرب من هذه الوثنية ، وقد يكون للروح القبلية التى عاش العرب فى ظلها أثر فى عدم التعمق فى الخيال والتشخيص ، اذ أن هذه الروح القبلية تدفع الى الاعتداد بالحقائق المأثورة ، والحوادث المروية والوقوف عندها بوصفها عماد ما يفخرون به من حسب) (٤)

والدكتور غنيمى هلال وان كان يجهد نفسه فى البحث عن سبب وراء ضيق الخيال العربى الا أنه ينتصر لرأى أصحاب هذا الاتجاه الرافض لوجود القصة العربية قبل العصر الحديث • ومن هنا فهو لا يعتد بحكايات العرب التى كانوا يتلهون بها فى سمرهم ، ولا بالروايات التاريخية التى كانت تختلط فيها الحقائق بالأساطير والخرافات وكذلك لا يعتد بالقصص الغزلى الذى تردد فى أخبار العذريين لأن كل ذلك لم تتوفر له الصياغة الفنية المناسبة ، التى تجعله فنا روائيا يستحق الاهتمام •

---

(١) تطور الفكر الاجتماعى في الرواية العربية : فتحى سلامة ص ٣٢ •

(٢) الأدب العربى بين الجاهلية والاسلام د• عبد الحميد المسلوت ص ٢٣١ •

(٣) فجر الاسلام الاستاذ أحمد أمين ص ٣٧ بتصرف •

(٤) النقد الأدبى الحديث د• محمد غنيمى هلال ص ٥٣٢ وما بعدها •

بينما يعتد بالمقامات على أنها من قصص العرب الأصيل ويعتقد فى أنها قد أثرت فى قصص الشطار الأسبانية ثم فى القصص الغربية على أثرها (١) .

ومن النقاد من يحاول ابراز زهد العرب فى هذا الفن وما يشبهه مرجعا السبب فى ذلك الى أنهم لم يكونوا بحاجة اليه فى معالجة مشكلات حياتهم فقد أغنتهم الحرية الواسعة ، والكلمة الصريحة على التماس هذا العلاج الواهن البطىء (٢) .

وصاحب هذا الرأى وان كان يتفق مع سابقيه فى اثبات عدم معرفة العرب للقصص غير أنه لا يلجأ الى تجريحهم وسلب مواهبهم التى ينساوون فيها مع سائر التكوينات البشرية .

أما أصحاب الاتجاه الثانى فيقفون فى الطرف المقابل لهؤلاء جميعا حيث يرون أن الواقع التاريخى يثبت (أن الفن الروائى ليس جديدا على الأدب العربى ولم يكن وليد المصادفة للأدب الغربى ، وأنه فن أصيل فى الأدب العربى تطور مع تطوره وتوقف مع نكساته وتعرض للنهب والسرقة كما تعرضت كل فنون الأدب العربى) (٣) وأن العرب توصلوا الى أنواع مختلفة من القصص وأفانين متنوعة من الخيال) (٤) .

وأنه ليس صحيحا ما استقر فى أذهان البعض من أن العقلية العربية تنزع بفطرتها الى التجريد وتنأى بجانبها عن التجسيم والتشخيص ، ذلك أن المجتمعات الانسانية كلها قد عرفت السرد القصصى فى تاريخها وظل هذا الشكل من أشكال التعبير ملازما لتطور هذه المجتمعات بلا توقف أو فتور (٥) .

وأن ملكة السرد القصصى لا تختص بأمة أو بجماعة ولا تتوقف على ثقافة أو حضارة ولكنها تصدر عن وحى الفطرة ، والهام الغريزة فهى ملكة غريزية عامة ترادف ملكة التعبير عند سائر الناس ، على اختلاف سلالاتهم وبيئاتهم (٦) .

وعلى هذا فالأمة العربية ليست بدعا بين الآمم ، فقد عرفت هذا الفن وأبدعت فيه . بل انها أثرت فى القصص الأوربى ووجهته ، فالقصة الأوربية (سارت قدما فى طريق التطور الذى انتهى بها الى ما انتهت اليه متأثرة بالقصة العربية ، وقد أشار بعض مؤرخى الأدب الأوربيين الى أن (بوكاشيو) فى ايطاليا و (شوسر) فى انجلترا و (دون جوان) صاحب كتاب الديوان فى اسبانيا ، لم يتأثروا فحسب بالقصة العربية فيما كتبوه من قصص ، ولكنهم اقتبسوا منها ونقلوا عنها (٧) .

---

(١) المصدر السابق ص ٥٢٤ وما بعدها بتصرف .

(٢) اتجاهات وآراء فى النقد الحديث د. محمد نايل ص ٣١ .

(٣) تطور الفكر الاجتماعى فى الرواية العربية . فتحى سلامة ص ٣٢ .

(٤) فى الأدب والنقد د. عبد الحميد ابراهيم محمد ص ١٥ .

(٥) الحكاية الشعبية د. عبد الحميد يونس ص ٤ .

(٦) الحدوتة والحكاية فى التراث القصصى الشعبى للاستاذ محمد فهمى عبد اللطيف ص ٧ .

(٧) القصة العربية القديمة محمد مفيد الشوباشى ص ٥ .

وهكذا رأينا الهوة تتسع بين طرفين متقابلين أحدهما يؤكد النشأة الحديثة للقصة العربية ، والآخر يعتقد اعتقادا جازما في وجودها القديم واستمرار تطورها على مر الأزمان والعصور بل وتأثيرها في القصة الأوربية ٠

ولعل السبب في تلك الخصومة يرجع الى تأخر ظهور ميلاد الرواية الفنية بمفهومها النقدي الحديث الى ما بعد انتشار الثقافة الأوربية واتساع حركة الترجمة التي شملت القصة ضمن ما ترجم من ألوان الفنون في الأدب الغربي مما هيأ للبعض فرصة القول بحداثتها استنادا الى ما أفادته من الآداب الأوربية التي بهرت الأبصار ، في وقت كاد الظن فيه يتحول الى يقين واعتقاد في أن العربي ضئيل الحجم يقف على أرض منبتة الجذور بلا ماض وبلا تراث ٠ يتسم بالسذاجة والسطحية والخبل وضيق الأفق ٠ وربما كان هذا القصور سببا في تلك التفسيرات التي راحت تتهم العقل العربي وتبعده عن ساحة الابداع في فن القصة ٠ فمعظمها يميل الى التطرف ويتسم بالعمومية في الحكم ، ويشتمل على قدر كبير من مجافاة الفطرة السليمة ومخالفة الواقع المادي ٠

فالذي لا يعتد بحكايات العرب في لهوهم وحروبهم ولا بقصصهم الغزلي فيما تردد من أخبار العذريين استنادا الى عدم توفر الصياغة الفنية التي تجعلها فنا روائيا مناسبا ، يفترض أن القصة ولدت متكاملة النضج من أول مرة ومع أول صحوة في فجر التاريخ ولا شك أن طبائع الأشياء تنكر ذلك وترفضه ٠

والذي يستند الى تكوينات البيئة العربية وأنها لم تعرف الا وحدة القبيلة كشكل للمجتمع السياسي وأن ذلك كان سببا في ضيق الأفق وضآلة الخيال وعدم قدرته على ادراك التماسك الاجتماعي وأثر الأحداث فيه ٠ يفترض أن هذا الشكل ظل ملازما للحياة العربية ٠ ناسيا أن العربي انطلق مع الاسلام الى كل الآفاق وكل البيئات وانفعل بها وتفاعل معها منفلتا من حصار الصحراء التي يزعم انها قتلت في طبيعته غريزة التخيل ٠

يضاف الى ذلك ما قيل عن تفاضل الأجناس (١) من أنه يمثل نزعة استعمارية تعصبية تستمد سطوتها من قوة السياسة لا من سلطان النقد الأدبي وحيدته في الحكم على ما يهيمن عليه من فنون وآداب ٠

والذي نميل اليه ونؤكده هو أن العرب عرفوا فن القصة في كل عصورهم التاريخية على اختلاف في طبيعة الشكل الأدبي ومراحله التطورية ، فقد نزل القرآن بنحو خمسين قصة عبرة لأولي الألباب (وقد أولع العرب بهذه القصص ، وانطلق المفسرون والقصاصون يرضون فيهم تلك العاطفة فأخذوا في تفسير تلك القصص مستعينين بقصص أهل الكتاب ، وفي العهد الأموي كثر في الحجاز نوع من القصص عبر خير تعبير عن الظروف السياسية والاجتماعية التي ابتلي بها الحجازيون في ذلك

---

(١) في الأدب الحديث الأستاذ عمر الدسوقي ص ٣٣٨ ٠

الحين وهي القصص التي نسجت حول العشاق ولا سيما العذريون منهم ، واستمرت القصة أسلوبا للتعبير في العصر العباسي ، وصورت ما انتشر فيه من اباحية ومجون بعد انتشار فلسفة مزدك وماني ، كما صورت جانبا من آراء الفلاسفة في ذلك العصر، واتسعت على رحابتها لتشمل قصص الزهاد والنساك مما يدلنا على هيام العرب بهذا الفن وتشعب أنواعه وتنوع دروبه (١) ويرى الدكتور ابراهيم عوضين أن القصة العربية (في عصر ما قبل الاسلام كانت ساذجة بسيطة سواء في ذلك أسلوبها وموضوعها ومنهج العرض الذى تسير عليه وظلت على هذا الحال حتى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوحى اليه القرآن الكريم فتوفر للقصة العربية من عوامل النمو والترقى ما نهض بها نهضة جعلت لها الريادة في هذا الفن ، فأصبحت بعد أن استقرت تعاليم الاسلام في النفوس ذات أثر فعال في التوجيه والارشاد حيث اعتمد عليها الدعاة في الدعوة الى الله مترسمين في ذلك أسلوب القرآن وقول الرسول الأمين وفي جانب آخر اتجه العرب الى فن القصة كوسيلة لابراز مبادىء الاسلام وقيمه من خلال أشكالها ، وهي في كل ما سارت اليه تنطلق في أداء وظيفتها متأثرة بروح الاسلام وتعاليمه الأخلاقية (٢) ونتيجة لهذا التأثر الواعي بالاسلام كان اسهام الكتاب والمفكرين الاسلاميين عبر العصور المختلفة في اثراء هذا اللون من الفن والترقي به من حال الى حال . ومن القصص التي ظهرت وعرفت بالاتجاه الفلسفي قصة « حي بن يقظان » و « رسالة الغفران » الأولى لابن سيناء (٣) والثانية لأبي العلاء المعرى . والى جانب ذلك ظهرت القصص المترجمة مثل « كليلة ودمنة » و « ألف ليلة وليلة » كما ظهرت ألوان من القصص الشعبي سجلت عن العصر الجاهلي وما فيه من بطولات وفروسية من أمثال قصة عنترة وقصص داحس والغبراء . وحرب البسوس وغيرها الى أن ظهرت المقامات (٤) وفيها استعراض للمواهب اللغوية والبراعة البيانية . ومن أشهرها مقامات الهمذاني ، والحريرى ، وظلت المقامة هي الأسلوب الأمثل للقصة حتى مطلع القرن التاسع عشر (٥) .

وفي العصر الحديث اتصل الشرق بالغرب بعد فترة طويلة من الركود والضعف والتخلف كادت معها معالم حضارتنا العربية الاسلامية أن تضيع وتمحى وأوشكت الصلة بين ماضى الأمة وحاضرها أن تنعدم . فجاءت اليقظة العربية كرد فعل للوجود

---

(١) في الأدب والنقد د. عبد الحميد ابراهيم محمد ص ١٦ .

(٢) في الأدب العربي المعاصر د. ابراهيم عوضين ص ١٢٠ وما بعدها بتصرف .

(٣) وهناك قصة أخرى تحمل نفس الاسم « حي بن يقظان » ألفها الفيلسوف العربي « ابن طفيل » (٥٠٦ - ٥٨١) في أسلوب قصصي رمزي ، يدعو فيها الى فلسفة الاشراق الروحي عن طريق التأمل د. محمد غنيمي هلال ص ٢٣٤ من كتابه « الأدب المقارن » .

(٤) المقامة في الأصل معناها المجلس ، ثم أطلقت على ما يحكى في جلسة من الجلسات على شكل حكاية ذات أصول فنية . تتمثل في أنها حكاية قصيرة يسودها شبه حوار درامي وتحتوى على مغامرات يرويها راو عن بطل . د. غنيمي هلال ص ٢٢٣ من كتابه الأدب المقارن .

(٥) في الأدب العربي المعاصر . د. ابراهيم عوضين ص ١٢٥ وما بعدها بتصرف .

الغربى الذى راح ينشر فكره المادى على امتداد الساحة العربية ، ويمكن لنفســـه ولثقافته بكل ما أوتى من قوة ، وشاء الله أن تتحول عوامل البعث والايقاظ ــ التى ساهم الفكر الغربى فى ايجادها ــ الى وسائل بعث للوعى العربى الناهض ، وقد هب من رقدته يملأ الأرض حركة وحياة فى مواجهة الفكر الغازى ، فانطلق الأدباء يقرأون الأدب القديم ويستلهمونه فى أعمالهم ، وفى الوقت نفسه أخذوا يقرأون الأدب الأوربى ويتعرفون على نواحى الابداع فيه ، واستأنفت الفنون الأدبية العربية سيرها متأثرة بالثقافتين ، على اختلاف فى درجة التأثر من مرحلة الى أخرى ، حسب الظروف العامة التى هيأتها الأحداث ، والصراعات الفكرية والسياسية ، وتبعا لاختلاف درجة الثقافة ونوعيتهــــا ٠

وكان فن القصة فى طليعة الفنون التى بدأت تعيد جسر التواصل بين الماضى والحاضر ٠ فبدأت فى أولى مراحلها الحديثة ، ومع بروز الوعى العربى فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، تتخذ أشكالا فنية تعتمد فى كثير منها على التراث العربى ممثلا فى أدب المقامة وأدب الرحلات ٠

وكان أول ما عرف منها فى الأدب الحديث لون تعليمى غير ناضج من الناحية الفنية ، تمثل فيما كتبه رفاعة رافع الطهطاوى فى كتابه « تخليص الابريز ، فى تلخيص باريز » فهو فى هذا الكتاب يقدم رحلة ومغامرة ، يتخذ لها أسلوب الحكاية فى معظم الأحيان ٠

وجاء بعده عمل آخر لعلى مبارك أكثر تطورا أسماه « علم الدين » حيث جعل هدفه تقديم معارف منوعة أولا ثم المقارنة بين أحوال الشرق وأحوال الغرب ثانيا ، واختار لتلك المعارف والمقارنة ، قالب الحكاية ، واتخذ صورة الرحلة من مصر الى أوربا شكلا لهذه الحكاية (١) ٠

وقد استخدم أحمد فارس الشدياق هذا الشكل أيضا فى كتابه « الساق على الساق » مما يدلنا على أن البداية الأولية لفن القصة فى العصر الحديث بدأت متأثرة بالتراث العربى فى ايثارها هذا الشكل من أشكال التعبير ٠ الذى يعد (من الأشكال التراثية التى حفلت وحظيت باهتمـــام كثير من كبـــار المثقفين العرب على مـــر العصور) (٢) ٠

والى جوار التأثر بالرحلة كشكل أدبى ولون من ألوان التعبير القصصى بهدف الاصلاح والتعليم ، ارضاء لحاجة الوعى الناهض ، ظهرت أيضا أعمال أولية فى فن القصة ، تستلهم الجوانب التراثية ممثلة فى المقامة ، وهى أكثر الأشكال القصصية أصالة فى الأدب العربى ، وربما كانت « المقامة الفكرية » لعبد الله باشا فكرى أكثر الأعمال نضجا فى نتاج تلك الفترة من عمر النهضة ، فهى وان كانت فكرتها من

---

(١) تطور الأدب الحديث فى مصر د٠ أحمد هيكل ص ٧٨ وما بعدها ٠

(٢) تطور الرواية العربية د٠ عبد المحسن طه بدر ص ٦ ٠

أصل أجنبي ، الا أن بها كثيرا من مقومات القصة ، ففيها فكرة وموضوع وشخصيات وحوار وعقدة وحلها (١) ·

وظهرت الى جانب تلك الأعمال التي استلهمت التراث الأدبي في بعض أشكاله · أعمال أخرى مترجمة عن الغرب وكانت رواية (وقائع تليماك) التي ترجمها رفاعة الطهطاوي عن الفرنسية (أول رواية عربية أجنبية مترجمة اطلع عليها العرب في القرن التاسع عشر) (٢) ·

وبعد رفاعة تتابعت الترجمة ، فترجم نجيب الحداد اللبناني المتوفى سنة (١٨٩٩) رواية السيد لكورتيل وسماها « غرام وانتقام » والفرسان الثلاثة لاسكندر ديماس ، كما عرب رواية أرناني لفيكتور هوجو وسماها « حمدان » وروميو وجولييت لشكسبير وسماها « شهداء الغرام » والبخيل لموليير وترجم محمد عثمان جلال باللغة العامية بعض الروايات التمثيلية والقصص مثل « طرطوف » لموليير وبول وفرجيني لبرنادين وسماها « الأماني والمنة » (٣) ·

فانفتح بذلك المجال أمام الأدباء العرب للتأثر بالقصة الأوربية في أشكالها ومضامينها ، وأتيحت لهم بذلك الفرصة للتعبير المتنوع وفقا لما ورد عن الغرب أو استلهاما للتراث العربي القصصي ومن هنا وجدنا الأعمال القصصية للأدباء تسير في اتجاهين :

(اتجاه يستلهم التراث ويتأثر ببعض قوالبه ، وآخر تجديدي يحاكي قصص الغرب وينسج على منواله) (٤) ·

وظهر من النوع الأول الرواية الاجتماعية المقامية التي تمثلها « حديث عيسى ابن هشام » لمحمد المويلحي والقصص التهذيبي البياني الذي كتبه مصطفى لطفي المنفلوطي والذي يعتبر دعامة من دعامات الفن القصصي في الأدب المصري الحديث (٥)·

كما ظهرت الرواية التاريخية التعليمية ، فيما كتبه جورجي زيدان ، الذي تأثر ببعض الكتاب الغربيين ممن اشتهروا بالرواية التاريخية من أمثال اسكندر دوماس الأب وغيره (٦) ·

وفي الجانب الآخر التجديدي ، كانت رواية « زينب » لمحمد حسين هيكل أول رواية فنية في تاريخ الأدب المصري الحديث وذلك لواقعيتها وسيرها على القواعد الفنية للرواية الى حد كبير (٧) ·

---

(١) أثر المقالة في نشأة القصة الحديثة د· محمد رشدي حسن ص ٨٥ ·
(٢) المصدر السابق ص ٧٦ ·
(٣) في الأدب العربي المعاصر د· ابراهيم عوضين ص ١٣٦ ·
(٤) تطور الأدب الحديث في مصر د· أحمد هيكل ص ١٨٢ ·
(٥) المصدر السابق ص ١٩٢ ·
(٦) المصدر السابق ص ١٩٥ ·
(٧) المصدر السابق ص ١٩٨ ·

ولا شك أن الدكتور هيكل يقصد من الأولية فى (قصة زينب) تلك الأولية المتوافقة مع خصائص الفن القصصى فى الأدب الأوربى · وهى القاعدة التى سار على هديها من ينكرون التراث القصصى العربى لعدم ملائمته ـ فى زعمهم ـ لخصائص القصة فى الأدب الأوربى ·

ولسنا ننكر هنا افادة القصة العربية فى نشأتها الحديثة من القصة الأوربية ولكن الذى ننكره هو الحكم من هذا المنطلق على القصة العربية وتحديد بدايتها على أساسه ، فالقصة كغيرها من فنون الأدب العربى الحديث قد أفادت من الخصائص الأوربية للفنون دون أن تنفصل عن تاريخها العربى فى أشكالها ومضامينها التى تهيأت لها فى كل عصر حسب ظروف الثقافة والتطور الاجتماعى ، فمسيرتها الحديثة ليست الا مرحلة تطورية فى تاريخها خضعت فيها لعوامل التأثير والتأثر بالثقافات الأجنبية واختلفت مدارس الكتابة فيها تبعا لدرجة التأثر والمحاكاة · كما أنها حظيت باهتمام الأدباء أكثر من ذى قبل وذلك لأنها أكثر ألوان الفنون الأوربية ملائمة لحاجات الانسان المعاصر وما يواجه حياته من مشاكل وما يصطرع فى ذهنه من آمال ·

ومن هنا وجدنا جيل الرواد فى النهضة الحديثة يعتمد عليها فى التعبير الأدبى بصورة جادة وتجويد مستقيم · فوجدنا لطه حسين « على هامش السيرة » و « الوعد الحق » و « المعذبون فى الأرض » و « دعاء الكروان » كما رأينا (سارة) للعقاد ، و (عودة الروح) لتوفيق الحكيم ، و « الملك الضليل » و « ملكة تدمر » وغيرها لمحمد فريد أبو حديد ، و (نداء المجهول) و (اليوم خمر) و (ابن جلا) وغيرها لمحمود تيمور ·

ووجدناها فى مرحلة تالية أكثر نضجا وأعظم تطورا على يد جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية · من أمثال نجيب محفوظ ، وعادل كامل واحسان عبد القدوس ، وعلى أحمد باكثير ، ويوسف السباعى ، وعبد الحميد جودة السحار وغيرهم من أقطاب القصة العربية الحديثة ·

بل انها تنوعت فى أشكالها ومضامينها تبعا لاختلاف المذاهب والتيارات والاتجاهات الأدبية · فعرفنا الرواية التاريخية فى أعمال باكثير والسحار ومحفوظ وغيرهم كما وجدنا الوجدانية التحليلية فى معظم أعمال محمد عبد الحليم عبد الله والسباعى ، كما تعرفنا على الرواية الواقعية والاجتماعية فى أعمال الكثيرين من هؤلاء الأدباء · وأمثالهم ممن أتى بعدهم كيوسف ادريس ونجيب الكيلانى وعبد الرحمن الشرقاوى ومحمود البدوى ، وسعد مكاوى وغيرهم ممن لا يتسع المجال لذكرهم وذكر أعمالهم · ومعظم هؤلاء جميعا يستنزلون الوحى من سماء الشرق ويستلهمون روحه وتراثه فى تصوير الواقع الفنى لرواياتهم وابداعهم ·

(ب) نمو التيار الاسلامي وبواعثه في القصة الحديثة

منذ الفتح الاسلامي لمصر ، كان الاتجاه الذى يسود حركة الحياة الفكرية والسياسية هو الاتجاه الاسلامي بلا منازع (١) واستمرت هيمنته قرونا عديدة كان الاسلام فيها هو محور الحركة على امتداد نشاطاتها حيوية واقتدارا ٠

حتى كانت القرون الأخيرة من الحكم العثمانى ، حيث بدأت الأوضاع الثقافية تتجه نحو الجمود متأثرة بالاستبداد والتسلط من جانب العثمانيين الذين لم يكن لهم رصيد حضارى . ولم يعملوا على تطوير الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، قاصرين جهودهم على جلب الثروات بشتى الطرق ، فكان من الطبيعى أن ينتهى الوضع بفقد العالم الاسلامى لحركته المتجددة (٢) ٠

وفى أواخر القرن الثامن عشر جاءت الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨) (١٨٠١) فبعثت روح اليقظة الفكرية لما استحدثته من وسائل التنوير والايقاظ التى أثارت دهشة المصرى فى أول الأمر . ثم ما لبثت هذه الوسائل أن تحولت الى عوامل متينة ساهمت مع غيرها من العوامل المحلية فى قيام النهضة الحديثة وكان اللقاء المباشر الذى تم بين الحضارة العربية والفكر الأوربى أثر فعال فى تكوين الثقافة العربية وتشكيل اتجاهاتها ، وبعث روح الوعى فيها ، ومع ازدياد النفوذ الأجنبى فى مصر وما صحب حركته من تغيير فى المفاهيم والأخلاق ، ووجود طائفة من المصريين المتأثرين بالثقافة الأوربية واقتناعهم بها ودعوتهم الناس اليها ، وانتشار الأفكار الانفصالية عن الجامعة الاسلامية بين أوساط المفكرين ، مع كل هذه العوامل ظهر الاتجاه الاسلامى مرة أخرى على مسرح الحياة الفكرية والسياسية ، الى جانب التيار الغربى الذى أخذ يمكن لنفسه ويعلن عن شرعية وجوده من خلال قنوات الفكر الميسرة ووسائل الاتصال المستحدثة ، ويباشر مهمة الدعوة الى التغيير على ضوء من مفاهيمه الوافدة ٠

---

(١) الاخوان المسلمون والجماعات الاسلامية فى الحياة السياسيه المصريه د٠ زكريا بيومى ص ٧ ٠

(٢) الفكر السياسى للامام محمد عبده ٠ للاستاذ عبد العاطى محمد أحمد ص ٣٧ ٠

واذا كانت مناهج الفكر والأدب في كل عصر من عصورها قد خضعت ـ من حيث التأثير والتأثر ـ لعوامل عدة تتنوع في مصادرها وتختلف بين سياسية واجتماعية واقتصادية · الخ فانه مما لا شك أن تيارات الفكر والأدب في العصر الحديث قد تأثرت الى حد كبير بالعامل السياسي مع أول عهدها بالنهضة الحديثة · بل ان ظهور الاتجاه الاسلامي على مسرح الحياة قد تأثر بالعامل السياسي ذاته بدرجة ملحوظة · حيث ظهر أول ما ظهر كرد فعل لفكرة الوطنيـــة أو القومية التى خلفتها الحملة الفرنسية · فقد جاء نابليون محاولا مخاطبة المصريين (بلغة الثورة الفرنسية الداعية الى الحرية والاخاء والمساواة ، وأن يثير فيهم أمجاد مصر القديمة ، عله بذلك يستطيع أن يكسب قلوبهم الى صفه ، فألقى بذلك بذور الفكرة الوطنية التى أخذت تنمو شيئا فشيئا وتكسب لنفسها من الأنصار والدعاة ، ما هيأ لها الوجود الشرعى فى التفكير الحديث ، خصوصا وقد تأثر بها عدد كبير من أعضاء البعثات الذين درسوا الفكر الغربي وتعرفوا عليه في بلاده كرفاعة الطهطاوى وعلى مبارك وغيرهما من المبشرين بهذه الدعوة الجديدة فى مصر) (١) ·

وقد أدى ذلك الى ظهور ما يسمى بالفكرة الاسلامية كرد فعل للتيارات الفكرية الجـــديدة (٢) ·

وقد أخذ كلا التيارين ينمو ويشتد مع نمو النهضة وتطور الأخذ عن الغرب والتأثر به ، حتى أصبح لكل منهما دعاة تفرغوا للدعوة الى ما آمنوا به ، واشتد كل فريق منهما فى الاعلان عن نفسه والتأكيد على مذهبه وقد رأى فيه الطريق الأمثـل للتطور والمصدر الأصيل للقوة ·

فاذا كان خصوم الاتجاه الاسلامي (مقتنعين بالحضارة الغربية من حيث قدرتها على وضع مثل عصرية ، تحل محل القيم الاسلامية التقليدية التى لم تعـد صالحة حســب زعمهم ـ لاقامة مجتمع متقدم ، وقد بدا أثر هذا الاقتناع فيما نادوا به من أفكار ، تمثلت فى الحرية الشخصية والحياة النيابية ، كما عرفوها فى أوربا ، وضرورة فصل الدين عن الدولة) (٣) ·

فان أصحاب الاتجاه الاسلامى ، قد قابلوا الاحتلال (وما بثه من مفاسد خلقية ، وما أشاعه من مباذل ، بدعوات حارة الى الأخذ بالأخلاق الكريمة وازدراء العـادات المريضة الوافدة من الغرب العادى ، وكان أكثر الداعين الى صلابة الخلق واستقامة السلوك ، من أصحاب الاتجاه الاسلامى ، وكانت دعوتهم تتخذ أشكالا مختلفة من أشكال الأدب ، وكان التراث العربى الاسلامى وتقاليده الحضارية فى ماضيها المشرق، تمد هؤلاء الدعاة بكثير مما يؤيد دعوتهم ويمنحها المادة والشكل على السواء) (٤) ·

---

(١) الثورة العرابية د· أحمد عبد الرحيم مصطفى ص ٢٤ ·

(٢) الاخوان المسلمون والجماعات الاسلامية فى الحياة السياسية المصرية ص ٧ ·

(٣) المصدر السابق ص ٢٣ ·

(٤) تطور الأدب الحديث فى مصر د· أحمد هيكل ص ١٠٧ ·

على أن بعض الباحثين يرون أن أصحاب هذا الاتجاه الاسلامي قد انقسموا الى معسكرين أو اتجاهين : اتجاه محافظ يتشدد فى التمسك بالقديم وضرورة استجلائه واستيحائه كمثل أعلى فى التطلع الى حياة أفضل ، واتجاه آخر تجديدى يدعو الى القديم ويتحمس له ، ولكنه لا يرى بأسا فى الأخذ عن الغرب والافادة منه فى كل ما لا يتعارض مع أصول العقيدة وفلسفة الشريعة ٠ (وهكذا تواجدت ثلاث مدارس عبرت عن الاستجابة المصرية للتحـدى الغربى ، شكلت المسارات التى اتجه العقل المصرى ، والاطار الذى تبلور حوله الفكر فى أواخر القرن التاسع عشر ٠

الأولى : محافظة ، تعبر عن الفكر الاسلامى التقليدى ٠ **والثانية** : تجديدية اسلامية تحاول أن تقدم العلاقة الصحيحة بين العلم والدين ٠ **والثالثة** : علمانية (١) تدعو الى تقديم فلسفة للحياة تستلهم أفكارها من الحضارة الغربية ٠ وان كانت لا تعادى الدين بالضرورة أو ترفضه ولكنها تحد من اطاره وتصوره على أنه علاقة بين الانسان وخالقه) (٢) ٠

وقد سارت هذه الاتجاهات معا تتحرك فى صميم الواقع بكل ما توفر لها من نشاط وحركة الا أن التيار الغالب فيها قد اختلف من فترة الى أخرى وفقا لما تيسر له من ظروف وما أحاط به من ملابسات ٠

ويرى بعض الباحثين أن الاتجاه الاسلامى بشعبيته ظل فى المحل الأول من الناحية الفكرية ٠ ولم يستطع الاتجاه الغربى أن يتغلب عليه ٠ بل عاشا معا يمثلان ثنائية أيدلوجية فى الحياة الفكرية والاجتماعية ثم يشكلان أهم اتجاهات الأدب (٣) ٠

وظل الحال كذلك حتى تبـدلت المواقف فى فترة ما بين الحربين (١٩١٤ ــ ١٩٣٩) حيث تغلب الاتجاه الغربى على الاتجاه الاسلامى وبدا هذا الاتجاه حادا فى السنوات الأولى من سنى هـذه الفترة ومثل ما يشبه المراهقة الفكرية أو الحـيرة الأيدلوجية ، التى تبحث عن المثل فى عصبية واندفاع ، ثم بدأ أصحاب هذا الاتجاه يهدئون من ثورتهم فى مواجهة الاتجاه العربى ، ويخففون من اندفاعهم نحو كل ما هو غـربى (٤) ٠

حقيقة ان التيار الغربى قد مكن له فى الثلث الأول من هذا القرن نتيجة لقوته السياسية واعتماده على العناصر الأجنبية لأنه يحقق ما تصبو اليه من صبغ مصـر

---

(١) العلمانية : هى فصل بين مجالين فى حياة الأنسـان ٠ مجال الدنيا وزينتها ومتعها ، ومجـال الصلة الخاصة بين الأنسان وخالقه ٠ وهى فصـل بين سلطتين غير متجانستين ، بين دين أو كنيسـة وسلطه زمنية أو دولة ٠ أنظر العلمانية وتطبيقها فى الأسلام ٠ للدكتور محمد البهى ص ٣ ٠

(٢) الفكر السياسى للامام محمد عبده ٠ عبد العاطى محمد أحمد ص ٤٧ ، وأيضا الاخوان المسلمون والجماعات الاسلامية فى الحياة السياسية المصرية ٠ د٠ زكريا بيومى ص ٢٤ ٠

(٣) تطور الأدب الحديث فى مصر د٠ أحمد هيكل ص ٩٩ ٠

(٤) المصدر السابق ص ٢٤٨ وما بعدها بتصرف ٠

بالصبغة الأوربية · فكرا وسلوكا فلم تعد الشريعة الاسلامية مصدر الالهام فى صياغة القوانين · وانفصل الدين عن الدولة وانحصر دوره فى تنمية النوازع الأخلاقية بعد أن كان هو الوجه السياسى للمجتمع · وقد مكن هذا الجو لبعض الأنماط الغربية أن تنتشر ممثلة فى الحانات والمراقص ودور البغاء وفى مجال الأدب والفن ذاعت الأفكار المعادية للدين ، كما ظهرت دعوات حارة تدعو الى اهمال اللغة العربية واحلال العامية مكانها أو كتابتها بحروف لاتينية وبلغت هذه الموجة ذروتها فى نهاية العشرينات من هذا القرن ثم أصابها الانحسار والضعف » وبدأت فى التردى والاحباط لأنها فى دعوتها الى التحديث والتغريب تجاهلت الظروف الموضوعية للمجتمع وضربت عرض الحائط برصيده الحضارى ومكوناته الأخلاقية والدينية · فضلا عن أنها لم تحقق أحلام الجماهير فى حياة آمنة مستقرة · فقد تحولت آراؤها النظرية الى صراع من أجل الوصول الى كراسى الحكم فحققت افلاسها بيدها ·

ومن هنا تهيأت للتيار الاسلامى فرصة الظهور بقوة ، طارحا أفكاره ومبادئه على الساحة العربية بعد أن ظل خلال الثلث الأول من هذا القرن فى وضع المترقب لما يدور ·

وكان لنجاحه فى التعبير عن الوجدان العربى أثر فعال فى تقوية شأنه وامتداد سلطانه · وأكبر دليل على نجاحه فى استقطابه للرأى العام · أن جماعة المنادين بالتغريب والتحديث ارتدوا عن بعض أفكارهم الغربية · (فبدأ الدكتور محمد حسين هيكل ، الذى احتضن دعوة الفرعونية حينا ودعوة الأدب القومى حينا آخر ، والذى جعل الغرب وقيمه ورجالاته مثلا أعلى فى بعض الأحايين ، بدأ يكتب عن « حياة محمد » ويهيم فى (منزل الوحى) كما بدأ الدكتور طه حسين يحوم « على هامش السيرة » وان بقى سنوات بعد ذلك أكثر من صاحبه افتتانا بالغرب وايمانا به ·

ثم تبعهما بعد سنوات عباس العقاد فشرع يجلو العبقريات الاسلامية ، ويتغنى بالحضارة العربية) (١) ·

ومما ساعد على تأصيل حركة التيار الاسلامى منذ تلك الفترة · ظهور جماعة الاخوان المسلمين التى برزت الى الوجود بدءا من الثلث الثانى من هذا القرن والتى كانت (تنطلق فى دعوتها من قاعدة العودة الى جوهر الاسلام الصحيح ، والاستمداد من طبيعته النقية الأولى ، ونفض ما علق به من أوشاب ليست منه ، وعده نظاما متكاملا للحياة بأسرها فى السياسة والاقتصاد والاجتماع ، وتربية الانسان تربية اسلامية قوية فى السلوك والعادات الشخصية ، وقدم بعض قادتها من خلال الفكر الاسلامى حلولا للقضايا الاجتماعية المطروحة آنذاك ، كقضية الملكية وتوزيع الثروة والعدالة الاجتماعية وغيرها (٢) ·

---

(١) المصدر السابق ص ٢٥١ وما بعدها ·

(٢) اتجاهات الرواية المصرية د· شفيع السيد ص ١٤ بتصرف ·

وفيما يتصل بالمسألة الاجتماعية ، كان حزب مصر الفتاة قريبا من منهج الجماعة وأسلوبهم فقد أخذ ينادى بالاشتراكية التى تأتلف مع الاســـلام ، بل تنبع منــه ولا تخاصمه (١) ·

وليس معنى هذا أن الجو قد خلا تماما للتيار الاسلامى · فقد كان التيار الغربى يواصل مسيرته من خلال تنظيمات أخرى شيوعية (٢) متعددة فى تكوينها وأساليب عملها ، وهى بطبيعتها تحتضن فلسفة تتعارض مع الدين وقد كان لوجود أمثال هذه التنظيمات أثر كبير فى نشاط الفكر الاسلامى فيما بعد الحرب العالمية الثانية ·

والقصة كفن أدبى أصيل فى التراث العربى قامت برصد الواقع العربى منذ بدء النهضة الحديثة واتسعت مضامينها لاستيعاب حركة الفكر فى صراعها بين القيم الاسلامية الرشيدة والأفكار الدخيلة وتبلور الاتجاه الاسلامى فى التعبير القصصى عندما كانت حركة احياء التراث القديم تحتل الجانب الاكبر من اهتمامات المثقفين فى ذلك الوقت ، ترشيدا لحركة الاصلاح الاجتماعى فى مواجهة التقاليد والأنمــاط الغربية · وكانت رواية « حديث عيسى بن هشـــام » لمحمد المويلحى ، أول رواية اجتماعية مقامية تهدف الى « تبصير المواطنين بطائفة من عيوبهم ليعدلوا سلوكهم » (٣) والمويلحى يدين بالولاء فى فكرته الاصلاحية · للمفكرين الذين يؤمنون ببعث التراث العربى الاسلامى القديم ، وعدم الوقوف فى الوقت نفسه موقف الجمود والانغلاق من بعض مظاهر الحضارة الغربية التى قد تكون صالحة لمجتمعهم) (٤) ·

ومن اليسير على الباحث أن يربط جذور الفكر الاجتماعى عند المويلحى بأفكار أستاذه الامام محمد عبده الاصلاحية (٥) ·

وقدم المنفلوطى نوعا آخر من القصص غير مستوح من التراث ولا محاك للغرب ، وانما هو مزيج من العناصر القصصية الى جانب عناصر أخرى خطابية (هادفا الى غاية تهذيبية ، وهى تعميق الاحساس بالمثل العليا والقيم الانسانية الكبرى ، ومحاربة بعض المفاسد والعيوب الاجتماعية كما فى النظرات والعبرات (٦) ·

وهذا المنهج كما نرى يتلائم مع المنطلق الأخلاقى الذى ســار عليه المفكرون الاسلاميون كما ظهر نوع ثالث من القصص يتمثل فى القصص التاريخى التعليمى على يد جورجى زيدان الذى أخرج عددا من الروايات تتناول تاريخ الاسلام (مجاريا

---

(١) المصدر السابق والصفحة ·

(٢) من أهم التنظيمات : الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى ، وطليعة العمال والفلاحين والحزب الشيوعى لمصرى · المصدر السابق ص ١٦ ·

(٣) تطور الأدب الحديث فى مصر د· أحمد هيكل ص ١٨٠ ·

(٤) تطور الرواية العربية الحديثة فى مصر · د· عبد المحسن طه بدر ص ٨٢ ·

(٥) نقد المجتمع فى حديث عيسى بن هشام د· أحمد الهوارى ص ٥٩ ·

(٦) تطور الأدب الحديث فى مصر د· أحمد هيكل ص ١٠٠ ·

في ذلك ٠ هذا الميل الثقافي العام الذى غلب على تلك الفترة وان لم يكن فيه مدفوعا باحساس قومي ، وانما وراءها تعليم للتاريخ بشكل جذاب) (١) ٠

ولا شك أن روايات جورجي زيدان التاريخية كانت حدثا جديدا في القرن التاسع عشر فهي نشر للحقائق التاريخية الاسلامية على سبيل الرواية تسهيلا للمطالعة ، مما حدا بالكثيرين من مؤرخي الأدب الحديث أن يعدوه رائدا في هذا الميدان (٢) ٠

فقد أنتج سبع عشرة رواية تتناول تاريخ العرب والاسلام حتى آخر عهد صلاح الدين الأيوبي ، وأربع روايات تتصل بتاريخ مصر الحديث ، وواحدة تدور حول موضوع الانقلاب العثماني (٣) ٠

وتأتي بعد ذلك مرحلة تالية في تطور القصة الحديثة ، بعد صدور رواية « زينب » للدكتور محمد حسين هيكل على ما عليه اجماع النقاد ، حيث انها تشتمل على العناصر الأساسية للقصة بالمفهوم النقدى الحديث ٠

وهناك من يتجوز في اطلاق صفة الاسلامية على بعض محاورها ممثلة في قضية الحرية ٠ فهيكل على ما يزعم صاحب هذا الرأى « يطالب بالحرية المطلقة ، الحرية لحامد المثقف ، والحرية لابراهيم العاشق ، كما يطالب بالحرية لزينب وهذه الحرية المطلقة أو حرية الفرد هي بالتالي دعوة الى حرية المجتمع كله ٠ حيث الضابط على هذه الحرية هو الاسلام ، والاسلام من أسلم وجهه لله ، حيث لا يملك أحد سلطة الردع على أحد الا الله (٤) ٠

وفي رأيي أن هذا التفسير النقدى لبعض محاور قصة زينب لا يستقيم مع الوجهة الاسلامية في رؤيتها لقضية الحرية كما أنه لا يستقيم مع فكر الكاتب في تلك المرحلة التى كان فيها أشد انتماء الى فكر لطفي السيد ومن نحا نحوه من غيرهم في فهمهم لقضية الدين وموقفهم منه ٠ وهو موقف (لا يستند الى الرابطة الدينية ويدعو الى غرس قيم الثقافة الحديثة وتغيير أنماط السلوك القديم) (٥) ٠

على أن أكثر الأعمال الأدبية أصالة في نتاج هذا الجيل من القصص ٠ هو كتاب « على هامش السيرة » وقد صدر عام ١٩٣٣ للدكتور طه حسين ٠ وهو كما يقول الأستاذ سيد قطب (الكتاب الأول في اللغة العربية الذى يجعل من بعض حقائق السيرة وبعض أساطيرها فنا حيا جذابا ، ولكنه لا يقف عند هذا الحد ، بل يجعل

---

(١) المصدر السابق ص ١٩٥ ٠

(٢) جورجي زيدان ٠ للاستاذ محمد عبد الغنى حسن ص ٩٧ ٠

(٣) المصدر السابق ص ١٠٢ ٠

(٤) تطور الفكر الإجتماعى في الرواية العربية ٠ فتحى سلامة ٦٩ ٠

(٥) اخبار اليوم في ١٩٨٣/٢/١٢ من مقال للاستاذ / جمال بدوى ٠

هذا الفن الحى الجذاب صورة علمية صادقة للجزيرة العربية وأطرافها من الفترة من مولد النبى صلى الله عليه وسلم فى الجزء الأول وانتصار دعوته فى الجزء الثالث · صورة للحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية ، وصورة لما يهجس فى الضمائر والأخلاد وما يبـدو من الاتجاهات والآراء ، وصـــورة للهيئات وللأفراد هنـاك) (١) ·

وعلى الرغم من أن الدكتور محمد رجب البيومى لا يوافق طه حسين على منهجه فى سرده للأساطير نجده يعجب بالكتاب من الناحية الأدبية فان ما كتبه طه حسين فى رأيه (رائع رائع · لأنه رسم ألواحا بارعة للدعوة الاسلامية فى نشأتها الأولى ، وما كتبه عن المولد بالذات من أحسن ما صوره أديب فنان فى مثل هذا الموضوع) (٢)·

ومن الأعمال التاريخية التى استعملت القصة وسيلة للتعبير قصة (باب القمر) لابراهيم رمزى (٣) وقد صدرت سنة ١٩٣٦ وله أيضا قصة (ضيف الرسول) التى أتم كتابتها سنة ١٩٤٧ · (وهما من القصص الاسلامى الذى يصدر فيه المؤلف عن روح ومنهج يختلف عن منهج جورجى زيدان · فقد عبر بصدق عن وجدان دينى قومى فى وقت معا ، وأبرز القيم والمثل التى جاء بها الاسلام والتى صدر عنها المسلمون الأوائل ، وكأنما أراد أن يوازن بين الحاضر وبين النموذج والمثال) (٤) ·

وقد شهد العقد الرابع من هذا القرن ، نشاطا ملحوظا فى مجال الاهتمـام بالفكرة الاسلامية · وجاء هذا الاهتمام نتيجة طبيعية للظروف التى واجهت المجتمع من جراء التمزق السياسى والصراع الحزبى وفساد السلطة وجناية الأجنبى على مقدرات البلاد · وظهور بعض التنظيمات الشيوعية المعادية للدين · فكان الاتجاه الى التاريخ العربى الاسلامى من بعض الأدباء تعبيرا عن احساس بالانتماء القومى ، ومحـاولة للبحث عن الخلاص ، وايمانا بالفكر الاسلامى الأصيل وقدرته على حل معضلات الحياة ومن هنا وجدنا كثيرا من كتاب القصة يتجهون الى ماضى الأمة يستلهمون منه وحيهم ويستمدون منه مادة خصبة لقصصهم · ولم يكن ذلك الاتجاه خاصا بالقصة فحسب بل تعداها الى غيرها من فنون الأدب جميعا ·

(فقد برز النزوع الاسلامى بروزا واضحا فى الأربعينيات من هذا القرن بحيث تبلور هذا النزوع فى الكاتب المسرحى فأصبح الاسلام بأخلاقياته وقيمه يمثل منزعا يسير فى اطاره العمل المسرحى ، ولم يعد ومضات تتخلل المسرحية تارة لتختفى

---

(١) كتب وشخصيات للاستاذ سيد قطب ص ١٠٨ ، وأنظر مجلة الثقافة · عدد ٦٨ سنة ١٩٧٩ د· عبد الواحد علام ·

(٢) الهلال عدد يناير ١٩٨٣ م ·

(٣) أديب مصرى ولد فى مدينة المنصورة ١٨٨٤ · وتوفى عام ١٩٤٩ · وهو من أوائل الذين حاولوا تأصيل الأجناس الأدبية الحديثة كما يقول د· عبد الحميد يونس فقد أنشأ القصة القصيرة وأسهم فى مجال الرواية التاريخية · وله غير الروايتين المشار اليهما رواية (ذئاب الكوفة) ولم تنشر بعد ·

(٤) ضيف الرسول · د· عبد الحميد يونس ص ٧ من المقدمة ·

سريعا تارة أخرى ، ولم يكن هذا الاتجاه مقصورا على المسرح فقط بل تعداه الى غيره من أشكال الفنون ، فقد ساد ذلك الاتجاه كل الفنون الأدبية من قصة ومقال وخطبة وشعر) (١) ٠

ولم يتوقف هذا التيار عند تلك المرحلة وانما امتد فيما بعد ذلك من مراحل تاريخ الأدب المعاصر ٠

فوجدنا أعمالا قصصية عديدة لعدد كبير من الأدباء كان السحار فى مقدمتهم فقد أصدر معظم أعماله الاسلامية التى اتخذت القصة اطارا للتعبير الفنى على اختلاف أشكالها ومضامينها مثل « أبى ذر الغفارى » (٢) و « بلال مؤذن الرسول » (٣) و « سعد بن أبى وقاص » (٤) و « أبناء أبى بكر » (٥) و « أهل بيت النبى » (٦) و « أميرة قرطبة » (٧) و « المسيح عيسى ابن مريم » (٨) و « عمر بن عبد العزيز » (٩) فضلا على السيرة النبوية التى قدمها فى اطار قصصى متميز ٠ بالاضافة الى بروز الخط الاسلامى فى كتابته القصصية ذات الطابع الاجتماعى على ما سنبين ذلك فى مكانه من البحث ٠

ورأينا على أحمد باكثير يصدر فى معظم نتاجه الأدبى عن الاتجاه نفسه فقد كان اهتمامه « منصبا على التاريخ الاسلامى فى أوطانه المتعددة بما احتوى من صراعات سياسية واجتماعية » (١٠) ٠

وتعتبر روايتاه « الثائر الأحمر » و « واسلاماه » من أهم ما كتب فى هــذا الاتجاه فقد ظهرتا فى أواخر الأربعينيات من هذا القرن وكان تاريخ تلك الفترة يشير الى الصراع الدموى بين العرب واليهود فى فلسطين كما يشير الى نمو التيار الشيوعى فى العالم العربى (١١) ويرى بعض النقاد ان رواية « الثائر الأحمر » لباكثير من الأعمال الروائية الرائعة لأن الكاتب حاول فيها أن يقدم رؤية للاسلام فى مصر المعاصرة من خلال معالجته للتاريخ الاسلامى فهو فى هذه القصة يتناول الصراع بين الشيوعيين والاخوان المسلمين فى مصر أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها ولكن فى ضوء تصوير

---

(١) الثقافة عدد ١١١ ديسمبر ١٩٨٢ د٠ ابراهيم عوضين ٠
(٢) صدرت ١٩٤٣ ٠
(٣) صدرت ١٩٤٤ ٠
(٤) صدرت ١٩٤٥ ٠
(٥) صدرت ١٩٤٦ ٠
(٦) صدرت ١٩٤٨ ٠
(٧) صدرت ١٩٤٩ ٠
(٨) صدرت ١٩٥١ ٠
(٩) صدرت ١٩٧٢ ٠
(١٠) اتجاهات الرواية المصرية د٠ شفيع السيد ص ٢٤ ٠
(١١) المصدر السابق ص ٣٦ وما بعدها ٠

الصراع بين القرامطة وأهل السنة داعيا الى العودة الى مبادىء الاسلام الأولى مبينا التحلل الخلقي والروحي الذى نشأ نتيجة الحركات المضادة للاسلام مثل الشيوعية التي رأى فيها مثالا لحركة القرامطة فى العصور السابقة (١) ٠

وتعرفنا أيضا على ملامح هذا التيار من خلال الرواية التاريخية التى قدمها محمد سعيد العريان ٠ فقد (كان تاريخ مصر الاسلامية ، وبخاصة فى عهد الأيوبيين والمماليك ، هو النبع الذى استقى منه مادة فنه الروائى فى ثلاث روايات هي : قطر الندى ، وشجرة الدر ، وعلى باب زويلة ، أما روايته الرابعة « بنت قسطنطين » فقد اعتمد فيها على مرحلة متقدمة من التاريخ الاسلامي ، حيث تقع أحداثها خلال النصف الثاني من القرن الأول للهجرة) (٢) ٠

ويأتي الكاتب القصصي نجيب الكيلاني فيقـدم من خلال القصــة التاريخية والاجتماعية رؤية اسلامية واضحة المعالم تجعله يحتل مكانة عظيمة بين مبدعي هذا الاتجاه ٠ فقد أصدر حشدا هائلا من الروايات التى تتجول عبر العديد من أوطان المسلمين ٠ وتمتد على خريطة الزمان ولوجا فى الماضى واحتضانا لمشاكل الحاضر ٠ وجدنا له : « قاتل حمزة » و « نور الله » و « اليوم الموعود » و « طلائع الفجر » و « رأس الشيطان » و « الطريق الطويل » و « فى الظلام » و « الذين يحترقون » ٠ الى غير ذلك مما أصدر من قصص ، تنهض جميعها لتمثل هذا التيار ٠

ويضاف الى هؤلاء محمد عبد الحليم عبد الله فى « الباحث عن الحقيقة » كما اتسع المجال أمام بعض الأدباء فأبدع فى لون آخر تمثل فى قصص الأطفال ٠ وفيها تقدم القيم الاسلامية الأصيلة والأسوة الحسنة فى الدين والحياة ، بهدف تربية النشىء على أساس متين من الايمان بالله ورسله والسلوك القويم حتى يكون مواطنا صالحا وقد كتب فى هذا الاتجاه أدباء كثيرون من أمثال : السحار ومحمد أحمد برانق . ومحمد عطية الأبراشي وغيرهم ٠

على أنه من الجدير بالملاحظة والاعتبار أن هذا التيار الاسلامي رغم امتداده فى تاريخ الأدب الحديث والمعاصر الا أنه تأثر بالسلطان السياسى والتحول الاجتماعى الذى شكل حركة الحياة مع بداية الربع الثالث من القرن العشرين ٠ بل ان البعض حاول توظيف هذا الاتجاه فى خدمة وجهته المذهبية ٠ ولا يعنى ذلك بالطبع فقدان الذاتية الاسلامية الأصيلة التى ناضل من أجلها المخلصون من الأدباء ٠

فبعد ثورة ١٩٥٢ تأثرت فنون الأدب جميعها بالتغييرات الواسعة التى اتسعت لتشمل مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية ، وكان فن القصة أكثر من غيره استجابة واستيعابا لحركة التغيير فاتجهت بصفة خاصة الى تصوير حياة الطبقة الجديدة الصاعدة ممثلة فى العمال والفلاحين وما كانت تعانيه من مشاكل

---

(١) الثقافة عدد ٦٩ لسنة ١٩٧٩ د٠ عبد الواحد علام ٠

(٢) اتجاهات الرواية المصرية د٠ شفيع السيد ص ٤٦ ٠ بتصرف ٠

وآلام ، وما تتطلع اليه من أمن وطمأنينة ، فوجد الفكر المسمى بالفكر الثورى (١) مجالا للحركة لم يتوفر له من قبل · وسيطر بكل قوته على منافذ الاعلام والثقافة محاولا تعويق الفكر المناوىء له وافساح المجال أمام كل من يساهم معه فى بلورة آرائه والدعوة الى مناهجه ، ونتيجة لذلك اكتسب الفكر الاسلامى رؤية جديدة ، تشكلت أبعادها من فلسفة التفكير السياسى المسيطر على حركة الحياة فى ذلك الوقت، وقد ظهرت بوادر هذا الاتجاه فى قصة « الثائر الأعظم » لفتحى رضوان التى نشرت فى سنة ١٩٥٤ (فى قالب أشبه بالقالب الروائى ، وقد كان عنصر الثـورية فى شخصية محمد يبدو فى عنوان الكتاب أكثر مما يبدو فى مضمونه وقد حاول المؤلف أن يضعه فى اطار سياسى ، وربما كان المغزى الذى يهدف المؤلف الى ابرازه ، ويحاول التأكيد عليه : هو حداثة سن أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وأبطال الاسلام حينما اعتنقوا هذا الدين الجديد ، وقد كانت تلك محاولة من المؤلف للربط بين شباب الضباط فى مجلس قيادة الثورة ، وبين شباب العرب الذين التفوا حول الرسول وأسقطوا النظام الراسخ فى ذلك العهد) (٢) ·

وتعتبر قصة « محمد رسول الحرية » من الناحية الفكرية والفنية أكبر المحاولات دليلا على صدق ما بينا ، فهى كما يقدمها المؤلف (قصة انسان رائع البطولة ، فاضل على الرغم من كل الظروف · ضد القوى الغاشمة المفترسة ، ومن أجل الاخاء البشرى ، ومن أجل العدالة والحرية ، وكبرياء القلب المعذب ، ومن أجل الحب والرحمة ومستقبل أفضل للناس جميعا بلا استثناء ، الذين يؤمنون به والذين لا يؤمنون) (٣) ·

وهى أيضا « قصة صراع يدافع فيه الأغنياء عن وجودهم والفقراء عن حقهم فى الحياة الكريمة وأحلامهم فى عالم أفضل » (٤) فالشرقاوى بهذا التصور ، وبهذه الرؤية يركز على المظهر غير الدينى لرسالة محمد ولذا فان عمله هذا يصبح أكثر التفسيرات علمانية لشخصية الرسول فى الأدب الحديث (٥) ·

---

(١) ويستمد هذا الفكر مبادئه ودعوته من فلسفة الفكر الشيوعى · وان أطلقوا عليه أوصافا خادعة كوصفهم له بالثورية والتقدمية والاشتراكية ·

(٢) الثقافة عدد ٦٩ سنة ١٩٧٩ د· عبد الواحد علام ·

(٣) محمد رسول الحرية عبد الرحمن الشرقاوى ص ٧ ·

(٤) الهلال أكتوبر ١٩٧٢ من مقال لعبد الرحمن الشرقاوى و « كتب فى الميزان » للاستاذ عباس خضر ص ٨٦ وما بعدها ·

(٥) الثقافة عدد ٦٩ لسنة ١٩٧٩ د· عبد الواحد علام ·

وهكذا وجدنا القصة تستوعب حركة التيار الاسلامي في العصر الحديث · وان كانت قد عبرت عن هذا التيار من خلال أعمـال معظمها يحتوى على مضـامين تاريخية · فقد عبرت أيضا وبدرجة ما عن بعض ملامح التيار في القصص الاجتماعي عند كثير من أدباء العصر الحديث · ولعل مظهر ذلك يتمثل في بروز الشخصـية الدينية ، والتأكيد على ملامح الأخلاق والسلوك بما يتلائم مع التصور الاسـلامي ، ويتمثل كذلك في طرحها لكثير من القضايا الاجتماعية التي أثير حولها جدل عنيف· الى غير ذلك من الملامح التي سيتناولها البحث من خلال أعمال عبد الحميد جودة السحار وهو من أعلام هذا الاتجاه ·

الباب الأول

عبد الحميد جوده السحار .. حياته ، وأدبه

الفصل الأول : حياة السحار وثقافته ..

الفصل الثاني : المنحى الديني وبواعثه في أدب السحار ..

الفصل الثالث : أدبه ومنزلته بين أدباء العصر الحديث ..

الفصـــل الأول

حياة السحار وثقافته

ولد عبد الحميد جودة السحار في ٢٤ أبريل ١٩١٣ في حي باب الشعرية بمدينة القاهرة ، وسمي بهذا الاسم تيمنا باسم خاله الأكبر ، ونشأ في رحاب أسرة لها تقاليدها الخاصة ، وأعرافها الأصيلة ، التي تستمد وجودها الحيوي من قيم الدين وتعاليمه الفاضلة ، في الأساس الأول ثم تنهض بعد ذلك قائمة على موروثات الطبيعة المصرية وما تتميز به من بساطة واعتدال .

في هذه الأسرة حشد هائل من البشر موزعين الى قطاعات صغيرة متجاورة تخضع في توزعها الى عامل الكفاءة الزوجية وما تباشر به حياتها الخاصة ، فيما يتصـــل بحضانة الأبناء ورعايتهم وكفالة توجيههم ، ولكنها لا تخرج عن الاطار العام الذي ارتضته هذه القبيلة البشرية برنامجا لحياتها ، ولا مندوحة لأحد فروعها في الخروج عنه أو الثورة عليه ، الا بالقدر الذي لا يلغي دور الزعيم في القيادة والتوجيه ، ولا يطغى في الوقت نفسه على استقلال الفروع ، فيما تباشر به حياتها وحياة أبنائها .

والأسرة بهذا التكوين احوج ما تكون الى ما يحفظ لها كيانها الخاص وحياتها المستقلة القائمة على الألفة والمحبـــة ، وقد وجـــدت ذلك فيما عرفته من قيم الدين وموروثات الأصالة المصرية أما عمل الرجال فهو التجارة وكانت في تلك الفترة من عمر القرن العشرين حرفة النابهين من أبناء الطبقة المتوسطة . ولا يكاد أعمام السحار يعرفون غيرها وسيلة الى كسب لقمة العيش . ولذلك فهم ينفقون نهارهم فيها ، فاذا ما اقترب الليل عادوا الى منازلهم حيث كانوا (يغلقون محالهم اذا أذن المؤذن المغرب ، ثم يعودون الى بيوتهم لا يغادرونها الا في صباح اليوم التالي ، لينطلقوا الى عملهم) (١) .

---

(١) هذه حياتي عبد الحميد جودة السحار ص ١٠ .

أما نساء الأسرة ، فما كن يخرجن من بيوتهن الا لزيارة الموتى لأنه من العيب أن يخرج رجل مع زوجه في الطريق العام ، فكانت غرفات أحواش القرافة ، متنفس النساء حبيسات الدور) (١) ٠

ولهذا كانت للنساء حياتهن الخاصة داخل البيت الكبير ، وهى حياة تتأى بهن عن عالم الرجال وتبعاته ، وفيها تتفرغ المرأة لشئون البيت ورعاية مطالبه ٠ دون أن تجد غضاضة فى التبعية والولاء لسيد البيت وولى أمره ٠

وبلغ من محافظة تلك الأسرة واحتياطها فى رعاية التقاليد أنه لم يكن للمرأة أن تتعرف على أجنبى ، مهما كانت الأسباب حتى لو كان هذا الأجنبي طبيبا ، واحداهن فى أشد حالات المرض قسوة ، وقد روى السحار موقفا يؤكد مدى الحيطة فى رعاية التقاليد ، فقد كانت عمته مريضة والأمر بحاجة الى طبيب ، ولكن الطبيب ما كان يدخل دارهم الا لكتابة شهادة الوفاة ٠٠

وقال قائل :

ـ هاتوا لها دكتور ٠

وارتسم الفزع على وجوه الجميع ، فما كان المغص يستدعى استدعاء طبيب لقد سقوها كل ما جاء فى تذكرة داود ، وكل ما أشار به العطارون ومدعو الطب وازداد ألم عمتي وأصبح جدى بين أمرين ٠ أن يدع ابنته تموت ٠ أو يستدعى الطبيب ، فاختار أن يطلب طبيبا ، وان كان فى قرارة نفسه يؤمن أن طريق الأطباء لا يقود الا الى طريق القبر (٢) ٠

وهى أسرة ملتزمة بتعاليم الدين يحافظ معظم أفرادها على أداء الصـلاة فى أوقاتها ، ويتحركون فى كل علاقاتهم بالآخرين ومعاملاتهم معهم ، فى اطار من تعاليم الدين والشريعة ، فقد كان السلوك الاسلامى الأصيل فى حركته العملية ، التى يصدر الجميع عنها ، بمثابة الأسوة الحسنة والقدوة الراشد للأطفال ، الذين نشأوا على متابعة الآباء والأمهات فيما يقولون وفيما يفعلون ٠ يقول السحار : (لم نكن نسمع فى دورنا الا الحرام والحلال ، فكنا نقيس أفعالنا بذلك المقياس ، ولم يكن أهلنا يرددون كلمة الحرام والحلال بأطراف ألسنتهم ، بل كانوا فى أفعالهم يخشون أن يأتوا ما يغضب الله ، فكانوا لنا قدوة ، وقد غرسوا فى أنفسنا منذ نعومة أظفارنا القيم الروحية ، فراح ينمو معنا وجدان أخلاقى يعرف للمجتمع حقه ٠ فكانت حياتنا متناسقة مع أوامر الدين ونواهيه (٣) ٠

---

(١) المصدر السابق ص ١٢ ٠
(٢) المصدر السابق ص ٥٢ ٠
(٣) المصدر السابق ص ١٢٥ ٠

ولم يشذ والده ولا والدته عن ذلك الجو الديني العام الذى يعطر حياة الأسرة بالايمـــان ٠

أما والده ٠ فقد كان رجلا (رقيق القلب يذرف الدموع لأوهى سبب يمس وترا فى فؤاده) (١) وكان وقورا قلما يضحك فقد كان يكتفى بالابتسام (٢) ٠

وقد كان متدينا غاية التدين ، لا يغتاب أحدا ، ولا يسخر من أحد ولم يفعل فى يوم معصية تغضب الله (٣) وعنـدما هم بشراء سيارة للأسرة ، أبى أن يشتريهـا بالتقسيط ، حتى لا يتحمل وزر التعامل بالربا (٤) ٠ وكان يؤمن ايمانا راسخا أن الرزق فى السماء ، وأن القدر مكتوب ، ان ايمانه بالقدر ، لا يقعده عن السعى فى الحياة فهو يرى أن الدين يحض على العمل وأن لكل درجات مما عملوا (٥) ٠

وكانت والدته سيدة فاضلة لها جانب كبير فى التأثير على الأسرة ولكنها كغيرها من نساء عصرها ، خضعت للتقاليد المرعية ، عن طواعية واقتناع ، وعاشت معنية بشئون أبنائها وزوجها ٠

انها كما يقول السحار كانت (تفرح لغيابى عن البيت ، لتتفرغ للعجين ، والخبز والطبخ والغسيل) (٦) ولكنها كانت الى جانب ذلك على قدر كبير من رجاحة العقل ومفطورة على التدين لا تدخر وسعا فى توجيه أبنائها الى طريق الخير ، فاذا ما حاد أحدهم عن الصواب ٠ أرجعته فى شدة الى الطريق المستقيم من ذلك ما يحدثنا عنه السحار ، فقد ضبط فى طفولته الأولى متلبسا بسرقة سكر ، وكانت قد حرضته على فعل ذلك ندابة فى الحى تدعى أم عباس ، ورأته أمه ٠ (فأمسكته بيديها وراحت تهزه فى عنف والدموع تكاد أن تطفر من مآقيها وتقول :

ــ والله عال ٠ ح تطلع حرامى ٠ حرامى ٠

وحفرت هذه الحادثة فى أعماقى ، وظلت صورة أمى وهى تهزنى فى انفعال شديد تستولى على ، وما كنت أتذكرها حتى يسيل عرق خجلى ، فأطرق وتتقاصر نفسى لكأنما الدنيا كلها تسخر منى وقد أثر ذلك اليوم فى حياتى ، فما عدت أمد يدى الى فاكهة وضعت على البوفيه لنا جميعا ، حتى يؤذن لى . وظل ذلك الســلوك يلازمنى حتى بعد أن تزوجت وأصبحت رجل بيت) (٧) ٠

---

(١) المصدر السابق ص ٥٤ ٠
(٢) المصدر السابق ص ١٤٨ ٠
(٣) المصدر السابق ص ٢١٧ ٠
(٤) المصدر السابق ص ٢٥٥ ٠
(٥) المصدر السابق ص ٢٦٣ ٠
(٦) المصدر السابق ص ١٣ ٠
(٧) المصدر السابق ص ٢٨ ٠

في ظل هذه البيئة الايمانية نشأ عبد الحميد جودة السحار ، وعاش طفولته وصباه وشبابه • وارتضع قيمها فأثرت فيه ووجهت حياته وأدبه •

وما ان تعلم كيف يحبو حتى أسرع يرقب الدنيا من عيون « أم عباس » وهي امرأة دميمة تعمل نادبة على موتى الحي والأحياء المجاورة وكانت هذه المرأة تداعبه وتغريه طمعا فى خير أهله الذى كان يتسلل الى حجرتها المظلمة صباحا ومساء ولعل نزعة الحزن التى تتسم بها بعض محاور حياته وأدبه ترجع فى أحد أسبابها الى تعرفه على تلك العجوز فى بداية حياته وان كان لقاؤه المبكر بها قد أتاح له فرصة ارضاء نزوعه الفطرى المتحفز لمعرفة أسرار الكون والحياة والانطلاق من سجن البيت الرهيب (فقد كانت الفرحة تغمرنى لأننى أصبحت طليقا فى العالم الواسع يداعب وجهى النسـيم) (١) •

وحرصا منه على استمرار هذه المتعة التى يحسها فى الانطلاق منذ صغره كان يسرق السكر والحلوى (ارضـاء للمرأة التى تحقق له حرية الانطـلاق من سجن البيت) (٢) •

وهذا النزوع الفطرى فى تكوينه صاحبه ميل الى الحركة السريعة فى كل مكان حتى أنه كان (لا يستطيع أن يمكث فى مكان واحد لدقائق معدودة) (٣) •

وبدأت مرحلة جديدة فى حياته عندما ألحقه أبوه بالمدارس الخاصة التى انتقل منها الى مدرسة سليمان جاويش الأولية بالدشطونى (٤) ومنها الى مدرسة الجمالية الابتدائية عام ١٩٢١ • وفى هذه المدراس لقى ألوانا من العنت والقسوة • حببت اليه الموت وجعلته يبغض الحياة ـ كما جعلته يكره العلم والتعليم ، فمعظم المدرسين يقابلون التلاميذ بالضرب دائما ، ولم يكن حظه من ذلك أقل من أقرانه ، بل ربما زاد عليهم ، فقد لقى عنتا من مدرس الدين فى مدرسة سليمان جاويش ، ومن حافظ أفندى مدرس العربى وغيره من مدرسى الجمالية الابتدائية ، واقترنت تلك القسوة التى يعامل بها فى المدرسة بقسوة والدته عليه فقد كانت لا تفتأ تضربه لأى سبب مهما كان تافها ، ولم تكن تأبه لنداءات جدته أو ترضخ لشفقة والده ، مما كان سببا فى الحاح فكرة الموت عليه طلبا للراحة من هذا العناء • وقد ساعد على تصور السحار للموت وتفكيره فيه عوامل أخرى يحددها قوله عما وقر فى ذهنه فى تلك المرحلة من حياته (ان نهاية هذه الحياة الموت • فالموت لا مفر منه فلماذا أجهد نفسى اذا كنت قد ولدت لأموت ، الحياة عبث ، كل ما فيها عبث ، وقد استولت على هذه الفكرة فى تلك الأيام لطول عشرتى لأم عباس الندابة ، ولكثرة من ماتوا من أسرتى ، ولأن

---

(١) المصدر السابق ص ٨ •

(٢) المصدر السابق ص ٢٢ •

(٣) المصدر السابق والصفحة •

(٤) المصدر السابق ص ٣٩ •

مدرستى كانت فى الطريق بين مسجد الحسين ومقابر باب النصر ، فما كان يمر يوم دون أن أرى الجنازات) (١) .

ولهذا لا نعجب اذا رأيناه يعلن فى صراحة (كنت أمقت المدارس فى أول عهدى بالتعليم ، وكنت أتمنى الموت كل يوم) (٢) .

ولكنه لم يمت كما تمنى ، وانما ظل فى دراسته الابتدائية على مضض وربما دفعته كراهيته للمدرسة فى تلك المرحلة من حياته الى البحث عن بديل يحقق فيه ذاته وهو المفطور على الحركة والتحفز . وقد وجد ذلك فى السينما والمسرح وكرة القدم . فصار وقته بعد المدرسة موزعا بين البيت الذى كان يحرص دائما على الانفلات منه لقسوة والدته فى معاملته وبين هذه المجالات الثلاث .

أما السينما فقد شغف بها وأكثر من الذهاب اليها مع أخوته ، وكان يضيق اذا ما اشتدت أمه عليه وحرمته هو وأخوته منها فقد كانت تعتبر (الذهاب الى السينما من الكبائر) (٣) وكثيرا ما كانت تقول له كلما ضاقت به :

– والله ما حيتلف أملك غير السينما .

ولكنه ظل حريصا على ارضاء شغفه بها . على الرغم من ضيق الأم وشدتها فى صرفهم عن تلك الكبيرة .

فما كان السحار ولا أخوته يكتفون بالذهاب الى السينما مرة واحدة فى الأسبوع . بل كانوا يطوفون على كل السينمات .

(كان يوم الأحد مخصصا لسينما الكوزمجراف ، ويوم الخميس لسينما ايديال ويوم الاثنين لسينما الشعب ، ويوم الجمعة لسينما الكلوب المصرى . كنا كالدراويش الذين يخصصون كل يوم من أيام الأسبوع لزيارة ضريح من أضرحة أولياء الله الصالحين) (٤) . ولا شك أن هذا الشغف بالسينما منذ طفولته كان له أثر كبير فى توجيه القصصى ، كما كان له أثر كبير فى حياته وادبه ، ومما يدل على ذلك ارتباطه بها الى آخر حياته ، كاتبا لبعض الروايات التى عرضت على شاشتها ومشاركته فى الاشراف عليها فى آخريات حياته . وعلى نفس الدرجة من الشغف والهيام أقبل على لعب كرة القدم فقد كانت لاتقل عن السينما من حيث الاهتمام ، وقد عبر عن هيامه بها بقوله (كنت أهوى الكرة هوايتى للسينما ، وقد لعبت لفريق المدرسة قلب هجوم ، وكنت أعرف طريقى الى المرمى فكنت هداف المدرسة ، وكنت العب فى ملاعب

---

(١) المصدر ص ٤١ .

(٢) المصدر ص ٤٣ .

(٣) المصدر ص ٧٣ .

(٤) المصدر ص ٧٤ .

المدارس المجاورة لمدرستي ولم أشعر أنني صرت شيئا ذا بال ألا بعد أن لعبت عدة مباريات في ملعب مدرسة الحاكم بأمر الله وكانت عند باب الفتوح) (١) ٠

ويأتي احساس السحار بأهميته في لعب الكرة في تلك الفترة نتيجة لما رآه من اعجاب الجمهور به وكان معظم المعجبين من صبية المحال والمقاهي ٠

وبلغ من تفوقه في تلك اللعبة أن صار بعد ذلك ذائع الصيت تتقاذفه الأندية الشهيرة ٠ حتى أنه وصل الى (نادى السكة الحديد) بل وأصبح من لاعبي « الأهلي » وبات الزمالك يترقب فرصة حيازته له فراح يغريه (٢) ٠

ولكنه لم يندمج في ذلك الوسط الذى تتعثر سلوكياته دائما بما لا يتفق وما جبل السحار عليه ونشأ فيه من قيم وتقاليد ٠ ففكر في هجر النادي محاولا الابتعاد عن الشللية والفساد خصوصا عندما رآه أحد الاداريين يصلي ذات مرة فسخر منه وجرح كبرياءه فانسل هاربا (٣) ٠

ويأتي المسرح في الدرجة الثالثة من حيث الأهمية بين الهوايات فقد كان السحار يمضي فترة الصيف في التنقل بين المسارح الصيفية في روض الفرج وعماد الدين والمسارح التي تعمل في الحر في القاهرة (٤) فاذا ما شاهد عرضا ليليا بصحبة أخيه محمد ، كانت اللحظات التي يقضيها تعمل في نفسه عمل السحر ، فالكهرباء تضيء واجهات المسارح المتواضعة والرواد يتدافعون بالمناكب ، وأصوات الموسيقى النحاسية تدوي في كل مكان (٥) والى جانب مجالات الاهتمام السابقة ، كانت بذور التكوين الأدبي تؤسس لنفسها على ساحة حياته البازغة ٠ وأتيح لها أن تمتد في أعماقه يانعة خضراء وسط بيئة مفعمة بالخصوبة والنماء ٠

فأخواه من هواة الأدب وان كانا صغيرين الا أنهما ممن يكتبون القصة والشعر والزجل وعندهما من طموح الأماني ما جعلهما يفكران في عمل صحيفة مع غيرهما من تلاميذ المدارس وأصدقاء الحي ٠ وكانت الحركة الصحفية تشهد نشاطا ملحوظا بعد ثورة ١٩١٩ خصوصا بعد حل مجلس النواب الوفدي ومحاكمة العقاد على ما أثاره في المجلس وعده امتهانا لكرامة الملك ، الأمر الذى نشطت الصحافة في ابرازه وحظيت باهتمام الجماهير ، حتى الناشئة ، ففكر الأشبال في عمل صحيفة وكانت (نهضة الأشبال) أول عمل صحفي أتمه التلاميذ ٠ وقام سعيد بكتابة معظم المواد (كتب القصة وكتب المقالات وكتب الأزجال ، وكان سعيد وهو في تلك السن المبكر قادرا

---

(١) المصدر السابق ص ١٤٢ ٠

(٢) المصدر السابق ص ٢٣١ ٠

(٣) المصدر السابق ص ٢٣٣ ٠

(٤) المصدر السابق ص ٢١٩ ٠

(٥) المصدر السابق ص ٢٢٠ ٠

على أن يحرر وحده مجلة كل أربع وعشرين ساعة) (١) واقتصر دور كاتبنا على الاصغاء الى المواد الأدبية التي كتبت فيها ، وكان ذلك أول عهده بتذوق الأدب (٢) ٠

وهذه المحاولة ان دلت على شيء فانما تدل على نزوعهم الفطرى للأدب وحرصهم على تنميته ٠ وليس أدل على ذلك من تكرار المحاولة فقد طمعوا فى الحصول على رخصة صحيفة يستطيعون اصدارها ٠ وكانت فرحتهم غامرة عندما أتيحت لهم تلك الرخصة فهموا جميعا بالعمل استعدادا لاصدار مجلة تحمل « البهلوان » (وراح أخى سعيد يكتب الازجال استعدادا لنشرها فى المجلة ، وكان سعيد ينظم الأزجال فى يسر فراح يكتب زجلا) (٣) ولكن المجلة لم تصدر ولم يحصلوا على الرخصة ٠ فكان ينشر أزجاله فى مجلـة (السيف) حتى اكتشف صاحب الجريدة أنها لغلام صـغير فامتنع عن النشر (٤) وكان أحمد هو الآخر ينظم الأزجال ويلقيها من اذاعة أهلية (٥) ونتيجة لمتابعة السحار لأخويه ومحاكاتهما فيما يصدران عنه بدأ اهتمامه (بقراءة الصحف ومتابعة ما ينشر فى مجلة الكشكول) (٦) وفى الليل كان مجلس السلاملك يتسع لمجموعة من ظرفاء العشرة ينفقون الساعات الطويلة فى أحاديث شتى حول السياسة والأدب وقراءة سيرة الرسول أو فتوح الشام للواقدى أو فصـلا فى كتاب الأيام للدكتور طه حسين فاشتهى السحار مشاركتهم فيما يفعلون وفيما يقولون ٠ وبعد أن كان يستمع اليهم توجهت همته الى القراءة ، ويتضح أثر ذلك فى قوله (اشتهيت أن أشارك فى تلك الأحاديث وشحذ ذلك همتى ، فعزمت على أن أقرأ كما يقرءون ، وأن أدلى برأيى فيما يقولون ، فأقدمت متهيبا على قراءة ماجدولين للمنفلوطى ولكن ما ان قرأت بضع صفحات حتى أحسست سرورا يغمرنى ٠ اننى أستطيع أن أفهم ما أقرأ وأن أتأثر به وأنفعل له) (٧) ٠

فالمتابعة الواعية لما يدور حوله فى مجلس أبيـــه ٠ وقبلها متابعته لأخويه فيما يفعلان وفيما يقولان من أحاديث تتصل بالبطولة وقصص المغامرات ، كانت عاملا قويا فى توجيه الوجهة الأدبية فى حيـاته ، حتى أصبح له نصيب فى النشرة التى يشتريها مع أخويه من حى الأزهر فقد (كان أحمد وسعيد يعشقان القراءة ، فكانا يتسللان أيام أن كانا معى بمدرسة الجمالية الى المكاتب المتواضعة المنتشرة على جانبى الطريق الملتوية المؤدية الى الأزهـر ، وكنت أتسلل فى أثرهما ، وكان لا هم لهما الا التنقيب عن القصص القديمة بين أكداس الكتب الدينية الصفراء ، حتى اذا انتهيا

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٢ ٠
(٢) المصدر السابق ص ١٧٣ ٠
(٣) المصدر السابق ص ١٤٧ ٠
(٤) المصدر السابق ص ١٥٠ ٠
(٥) المصدر اسابق ص ٢٢٢ ٠
(٦) المصدر السابق ص ١٠١ ٠
(٧) المصدر السابق ص ١٥٣ ٠

من جمع ما يرغبان فيه وضعاه في الميزان ، ثم يدفعان ثمنه بحساب الأقة ، فما كان للقصص والروايات سوق في حي الأزهر ، كان كل منهما يحمل جزءا من الشروة ، وكنت أحمل نصيبي بين ذراعي وأنا مغتبط أتمنى من أعماقي أن يأتي ذلك اليوم الذى التهم فيه هذه الكتب ، بل كل الكتب الصفراء التى رأيتها فى مكتبات الأزهر (١) ٠

ولا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان السحار في تلك المرحلة من حياته تعلم من بيئته الخاصة أكثر مما تعلم فى المدارس الأولية والمدارس الابتدائية التى حصل على شهاداتها بعد مضى سبع سنوات رسب خلالها ثلاث مرات فى السنة الأولى والثانية فقط ، ويتضح أثر بيئته الخاصة فى تكوينه بعد انتقاله الى مرحلة الدراسة الثانوية ، طالبا بمدرسة فؤاد الأول وفيها بدأ وعيه الناضج يرقى وينمو من خلال تتبعه لجلسات أبيه واستماعه لما يدور فيها من حوار حول الدين والأدب والسياسة ، وقراءته عليهم فصولا مما كانوا يقرءون ٠ فقد استمد منها من المعارف والخبرات ما عجزت مناهج الدراسة عن النهوض به وعن اشباع حاجته اليه ، ولذا كان يعجب من تلك المناهج التى تقررها وزارة المعارف العمومية على طلبتها وتلاميذها وفيها يدرس تاريخ الفراعنة وتاريخ الثورة الفرنسية ولكنه لم يدرس فيها شيئا عن تاريخ الاسلام ٠ ولولا قراءات السلاملك ماعرف شيئا عن الاسلام ونشأته وروعته وأثره فى اخراج الناس من الظلمات الى النور (٢) ٠

وكان لهذا الوعى الناضج فى التفكير أثر كبير فى اقباله على الحياة وبعد أن كان يكرهها ، فقد وجد ضالته فى القراءة فأحب المدرسة ضمن ما أحب (وكانت حصص العربى والنصوص والقواعد من الحصص التى أترقبها فى شوق) (٣) ٠

وظهرت ميوله الأدبية فيما يكتب من موضوعات الانشاء ، حتى أن بعض زملائه فى الفصل كان لايتصور أن يكون هو كاتب الموضوعات ، وانما سعيد هو الذى يكتبها لأنه كان مشهورا بالاهتمامات الأدبية (وما كان سعيد يكتب لى موضوعات الانشاء فاننى منذ قرأت المنفلوطى والمازنى وطه حسين وأنا فى السنة الرابعة الابتدائية وأنا أحصل على درجات عالية فى الانشاء) (٤) ٠

بل وان النزعة القصصية قد ظهرت عنده على غيرها من سائر ألوان الفنون الأدبية فيما كان يعالج من موضوعات ٠ فقد طلب مدرس اللغة العربية منهم أن يكتبوا موضوعا انشائيا عن (وردة على ساقها تتحدث) فأنفرد السحار دون زملائه بالوصف والتحليل حتى جعل الوردة تحاور الكون فى اشراق عجيب وأخذ هذا النمو الأدبى يزداد عند السحار ، ولم يتوقف لحظة عن امداده بما يهيىء له النضج والرشاد ،

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٢ ٠

(٢) المصدر السابق ص ١٧٤ بتصرف ٠

(٣) المصدر السابق ص ١٧٧ ٠

(٤) المصدر السابق ص ٢١٨ ٠

فتعرف على قصص محمد فريد أبو حديد في مجلتي الثقافة والرسالة وعلى محمود تيمور وابراهيم عبد القادر المازني وغيرهم ، (ومنذ ذلك الوقت أصبحت الأقاصيص والروايات قراءتي المفضلة) (١) ٠

وبعد انتقاله الى الجامعة طالبا في مدرسة التجارة العليا بدأت اهتماماته الأدبية تتسع وتتنوع فقرأ في الآداب الأوروبية باللغة الانجليزية ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يطالع فيها قصصا باللغة الانجليزية ، فقد قرأ في المدارس الثانوية روايات « ابرهام لنكولن » و « كريتون العجيب » ، « جزيرة الكنز » ولكنها لم تكن محببة الى نفسه ، فقد اكتنفها كثير من التعقيدات الدراسية أما في الجامعة فقد قرأ كثيرا من الآثار الأدبية وكان كتاب (قصتي المفضلة) من أهم ما قرأ ، ويحوى مجموعة أقاصيص لعدد من أشهر الكتاب الانجليز ، واستمر عاكفا على قراءة كل ما يصل اليه من قصص وروايات ، سواء منها ما نشر في الصحف أو كان ضمن ما يصل اليه من كتب ومطبوعات ، فلما استقام له شأن الفن القصصي ، بدأ ينشر قصصه وهو طالب في الجامعة (٢) وكانت أول قصة قصيرة له (رجل البيت) وتحكى قصة امرأة مستبدة تسيطر على زوجها ، كتبها متأثرا بمشاهداته لأحوال تلك المرأة من نافذته ، فقد كان أبطال القصة جيرانا لهم ، وتمكن السحار من نشرها في مجلة الرسالة (٣) ٠

وكان ذلك حافزا له دفعه الى دراسة قواعد الفن وأصوله دراسة فنية ، وبعدها كتب أول قصة طويلة له وهي (أحمس بطل الاستقلال) وفكر في نشرها ولكنه وجد الطريق مسدودا أمامه كما وجده مسدودا في وجه كل نظائره من الأدباء الشبان ٠

وكان قد تخرج في الجامعة والتحق بوظيفة حكومية حيث عمل مترجما في سلاح الطيران الملكى بألماظة ٠ وحدث أن تألفت جماعة (اتحاد خريجى الجامعة) للمطالبة بحقوق الموظفين وعلاواتهم فعرض عليهم انشاء شعبة للأدب تتولى نشر ثمرات قرائح الشباب ، وبعد محاولات اقناع لقيت الفكرة قبولا ، ولكنه ضاق بكثرة المناقشات وطول الاجراءات فقرر أن يعتمد على نفسه ، ولم يكن معه من المال مايستطيع به تحقيق حلمه فكانت أساور زوجته وحليها ، هي الأساس الأول الذى قام عليه بناء (لجنة النشر للجامعيين) يقول السحار عن تضحية زوجته (لاحظت زوجتي كثرة شرودى فاستفسرت عما يشغلنى عن كل ما حولى ــ وكانت أشباح الشك تتراقص في سؤالها، فلما أنبأتها بما يحتل تفكيرى،أشرق وجهها اطمئنانا وحسبت أن كل شيء قد انتهى ، واذا بى أفاجأ في العصر بجنيهات توضع في يدى ، باعت زوجتي أساورها لأحقق حلمي) (٤) ٠

---

(١) صور وذكريات ٠ عبد الحميد جوده السحار ص ١٧٨ ٠
(٢) المصدر السابق ص ١٨١ ٠
(٣) المصدر السابق ص ١٨٠ ٠
(٤) المصدر السابق ص ١٨٦ ٠

وقد ساهمت هذه اللجنة التي تحمل السحار مسئولية القوامة عليها في تقديم أعمال جيل كامل من شباب الأدباء ، الذين تم على أيديهم نضج الوعي بالفن القصصي بعد أن مر بمراحل مختلفة ، توزعت فيها أعمال الأدباء بين ترجمة وتمصير وتعريب الى أن اكتملت لها ملامحها العربية الصميمة فى نتاج الجيل الذى قدمه السحار من خلال لجنة النشر للجامعيين ، فقد قدم نجيب محفوظ ، ومحمد عبد الحليم عبد الله ، وعلى أحمد باكثير ، وعادل كامل ، وغيرهم من الشبان في ذلك الوقت ، كما قدمت بعض الأعمال لجيل الرواد أمثال محمود تيمور والمازنى فضلا على مؤلفات السحار نفسه وكانت في مقدمة ما ينشر من أعمال ، تتابع نشرها بدءا من عام ١٩٤٣ الى أن توفاه الله عام ١٩٧٤ . ولا زالت مكتبة مصر بادارة أخيه تواصل جهودها فى نشر أعمال لم تنشر من قبل واعادة طبع ما نفد من مؤلفاته . ولما كان مجال بحث ذلك يتصل بالفصل الخاص بأدبه،فقد رأينا ــ حتى تكتمل صورة حياته بكل ملامحها ــ أن نتعرض لجانبين غاية من الأهمية يكن وراءهما تفسير الظواهر الأدبية فى بعض محاورها عنده ، ويتمثل أحد الجانبين فى الموقف السياسى ، بينما ينبع الآخر من الموقف العاطفى من المرأة .

أما عن الجانب الخاص بالانتماء السياسى فقد كانت ظروف الحياة المصرية طوال الفترة التى عاشها مليئة بالأحداث والصراعات ففى طفولته المبكرة عاش أحداث الحرب العالمية الأولى ومع مطلع صباه . كانت ثورة ١٩١٩ تجسيدا حيا لواقع النضال المصرى فى مجابهة الوجود الأجنبى ، وان كانت تمثل فكر الداعين للقومية المصرية . وبعدها كانت الصراعات الحزبية وفساد الحكم تعبيرا عن التمزق الداخلى وعدم وضوح الهدف لدى المشتغلين بالسياسة فى معظم الأحوال . ووقعت الحرب العالمية الثانية فزلزلت كيان العالم وأشاعت القلق والرهبة فى كل الأجواء ، وكانت حرب فلسطين وهزيمة العرب بقيام دولة اسرائيل . ولم تمض سنوات حتى قامت ثورة ١٩٥٢ فغيرت معالم الحياة فى كل المجالات ، على امتداد حياتنا المعاصرة ، الى غير ذلك من الأحداث والمتغيرات التى عاشها السحار بكل وجدانه . فتركت آثارها واضحة فى أدبه .

فقد عاش فى طفولته أحداث الحرب العالمية الأولى وانطبعت فى ذهنه بعض صور الرفض التى واكبتها . وعندما اشتد تيار القومية المصرية فى سعيه الدءوب نحو الاستقلال عن الخلافة الاسلامية ممثلة فى سلطان الدولة العثمانية العلية . كان والده متشيعا للخلافة فهو كما عبر السحار « رجل متدين يسوؤه أن تنقضى السيادة التركية على مصر لتحل محلها حماية الكفار ، والظاهر أن ذلك لم يكن موقف أبى وحده، فقد كان الكبار يشاركوننا اذا ما هتفنا أثناء لعبنا ، الله حى ، عباس جى يضرب بمبة وهو جاى » (١) ويزداد موقف أبيه وضوحا فى قول السحار معلقا على هذا الاتجاه (كان يريدها خلافة رشيدة كخلافة عمر بن الخطاب . انه يرى أن الدعوات التى كان يغذيها الاستعمار كشعارات مصر للمصريين ، وسوريا للسوريين ، وفلسطين

---

(١) هذه حياتى عبد الحميد جودة السحار ص ٤٣ .

للفلسطينيين ، والحجاز للحجازيين ان هي الا دعوات يراد بها تفتيت وحـدة الأمة العربية وان ألبسوها لباس الوطنية ، الخلافة ضعيفة هذا حق ، فليبحث عن خلافة قوية تضمن وحدة الأمة العربية والوحدة الاسلامية • وكان أبي وأصدقاؤه على جانب يسير من العلم ، ولكنهم يمتازون بفطرة سليمة لم يفسدها التفرنج وترديد الشعارات التي يلقنها الغرب للزعماء المتفرنجين،فيرددونها دون تعمق أو فحص كالببغاوات) (١)•

والسحار بهذا التعليق قد حدد موقفه تماما من قضية القومية المصرية مبرزا مفاسدها ومبينا أنها ليست الا شعارا يردده المفتونون بالغرب دون وعي أو ادراك• وفي الوقت نفسه رأيناه يتعاطف مع رأى أبيه محددا ولاءه لفكرة الوحدة العربيـة والاسـلامية •

وعلى مستوى الساحة المصرية تعددت فضائح الزعماء بفضل التشهير الذى كان يلجأ اليه خصوم كل حزب فى مواجهة الآخرين كوسيلة للوصول الى السلطة • فلم يسترح السحار لهذا الأسلوب الرخيص ودفعه ذلك الى عدم الايمان بالأحزاب جميعها واتخاذ موقف أمين لا ينتمي فيه الى حزب بعينه • وانما ينتمي فيه الى كل فكر يساعد على الخلاص من طغيان العادى وبغى المعتدى ويحقق للوطن كرامته • يعبر عن ذلك بقوله (كنت منذ صغرى أعتقد أن لا أحد يحقق مصالح الشعب الا الشعب ، لذلك لم أنتم الى حزب ، ولم أنحمس لحزب) (٢) ويحدد السبب فى ذلك بالهجوم القاسى الذى يتعرض له الزعماء من الأحزاب فلم يرض لنفسه أن يكون (مطية لأهواء نفر كل همهم الوصول الى الحكم باسم الأغلبية تارة ، وباسم مصلحة البلاد العليا تارة أخـرى) (٣) •

وهذا الموقف الصارم من الأحزاب والحزبية ، يعاضده موقف آخر أشد صرامة وحزما تمثل فى كراهيته للاستعمار والامتيازات الأجنبية (٤) •

ولم تكن اهتمامات السحار السياسية طارئة على حياته ، فقد كان معنيا بها منذ تلك اللحظة التى وعى فيها ما يدور فى مجلس السلاملك ، ففيه امتص رحيق الفن وتجرع السياسة ، (فقد كان نزلاء الليل يخوضون فى السياسة اليومية ، قبل أن يقرءوا كتابا من كتب التاريخ أو كتب الأدب الحديث ، أو تفسير الأحلام ، وقراءة الطالع) (٥) فلما نضج وعيه وتعرف على ملامح الحركة والصراع عزم على أن يعيش طليقا من قيود الحزبية وأن يؤيد كل عمل يستهدف مصلحة بلاده (٦) •

---

(١) المصدر السابق ص ٤٦ •
(٢) المصدر السابق ص ١٨١ •
(٣) المصدر السابق ص ١٨٨ •
(٤) المصدر السابق ص ١٩١ •
(٥) المصدر السابق ص ٢٧١ •
(٦) المصدر السابق ص ٢٥٧ •

وقد يحلو للبعض أن يفسر ذلك بالسلبية أو الهروبية في مواجهة المواقف وهذا وهم كبير ينأى عن الصواب ويتسم بالضحالة لأن البعد عن متاهات المتنافرين والاحتكام الى الفكرة الراشدة أكثر ايجابا وأعمق وعيا بالمصلحة من سلبية الانتماء الى ما يحقق التخريب ويمزق الكيان الواحد للأمة الضائعة وعلى هذا كان السحار أكثر وطنية ممن نصبوا أنفسهم أبواقا للدعاية تحت شعار الانتماء الكاذب ٠

ولعل هذه الوطنية التي عرفت عن السحار تتكشف في جلاء ٠ خلال الفترة التى قضاها موظفا فى السلاح الجوى بألماظة ، وكان لجنود الاحتلال سلطان القوامة على شئونه والاشراف عليه ، وطوال المدة التى قضاها كان مصدر قلق دائم لكل من عمل معه من البريطانيين (١)لموقفه المعادى من سيطرتهم ، وسخريته المريرة من استعلائهم وتشجيعه للعامل المصرى وابراز مهارته الفنية فيما يتصل بشئون العـدد والآلات ورفضه التعاون مع قادتهم مثل ما فعل مع المستر (أولد لند) عندما رقى ضابطا فى الوحدات البريطانية العاملة على شاطىء القناة ٠ رغم اغرائهم له بالأموال والمناصب كما تتجلى وطنيته فى رفضه التعامل مع المخابرات البريطانية وامتناعه عن طبع ترجمة عربية لبعض الأعمال الانجليزية التى عرضت عليه لنشرها ضمن ما تنشره لجنـة النشر للجامعيين (٢) ٠

وبعد قيام الثورة سنة ١٩٥٢ وتم على يديها تخليص البلاد من مفاسد الاحتلال وأطماع المستعمرين ، كما تم على يديها الغاء الأحزاب ، وتوحيد الصف والقضاء على الاستغلال بكل صوره ٠ تعاطف السحار معها واستبشر بها خيرا وعبر فى قصصه عن موقفه منها ، فقد عاد حسان أحد أبطال قصة (الشارع الجديد) الى رشده وهجر الكأس بعد رحلة طويلة من التمزق والضياع عانى فيها معاناة شديدة من فقدان الثقة والهروب من المسئولية الى الحانات ، ولكنه بعد طرد الملك من البلاد (يحس الدموع تتحرك فى مآقيه وينطلق نشوان حتى اذا ما هدأت نفسه راح يغمغم :

ـ أصـبح فى الحيـــاة ما يستحق أن أفيق من أجله ٠ أن أرى بزوغ الفجر الجديد (٣) ٠

وفى رواية « الحصاد » صور نهاية الاقطاع وانتكاس حركته وعودة الأرض الى أصحابها الأصليين ٠ كما صور انحسار الأحزاب ونهاية المطامع ، وسار مع الثورة يرصد حركتها فى مواجهاتها للأعداء فى « السهول البيض » ٠

ولكنه على ما نعتقد لم يبارك خطوها عندما سيطر عليها الاتجاه الشيوعى مع بداية العقد السادس من هذا القرن ٠ ورأى فيما تصنعه خروجا عن حدود الحق وبعدا عن ساحة الصواب ٠ فأرسل الى جمال عبد الناصر رسالة حدد فيها تصوره الاسلامى

---

(١) صور وذكريات عبد الحميد جوده السحار ص ١٣٢ ومابعدها ٠
(٢) المصدر السابق ص ١٦١ ومابعدها ٠
(٣) الشارع الجديد ٠ عبد الحميد جوده السحار ص ٥٥٢ ٠

لما يجب أن تنهض عليه أحوال البلاد وكان ذلك عقب صدور القوانين الاشتراكية سنة ١٩٦١ م · وأبرز في مقدمتها أنه (اذا أردنا تحقيق العدل الحقيقى الشامل الكامل ، فأمامنا التشريع الالهى ، علينا أن نفرع منه ولا نشرع فالناس لا يعلمون العلم المطلق الذى يعلمه الله ، لذا كان عسيرا عليهم أن يضعوا مناهج للبشرية تحقق العدل والحرية) (١) ·

ويبدو أن هذا الموقف الرافض لمنهج الثورة فى التفكير ، قد ترك آثارا بعيدة المدى فى حياته الأدبية ، فقد تعرض للنقد من أنصار التيار الشيوعى ، ولم تحظ أعماله باهتمام غالبية النقاد · وان تعرض لها البعض فانما يتعرض لها للتقليل من شأنها وشأنه ويضعها فى غير مكانها من التصنيفات الفنية ·

وربما كان لابعاد السحار نفسه عن فكرة الانتماء الا للمصلحة العامة كما يراها هو حسب تصوره الاسلامى أثر قوى فى عدم التعرض لبطش المخالفين وعدوانهم ويتضح ذلك من سلسلة الوظائف التى شغلها فى ظل تلك الفترة ·

فقد (تولى العديد من المناصب الاقتصادية العامة كمدير ادارة الاستيراد والتصدير ، ومدير قطاع النقل والتجارة بالمؤسسة الاقتصادية ، ورئيس مجلس ادارة الشركة العامة للتجارة الداخلية ، وعضو مجلس ادارة المؤسسة الاقتصادية ، ومدير عام مؤسسة الحراريات ورئيس مجلس ادارتها ، ثم رئيسا لمجلس ادارة المؤسسة المصرية العامة للسينما والمسرح والموسيقى) (٢) ·

وكانت آخر ما شغل من الوظائف (٣) ·

وتكتمل ملامح الشخصية فى مسارها الحياتى بأبراز محورها العاطفى فيما يتصل بتجارب السحار مع المرأة · ولا شك أن التعرض للكشف عن هذا الجانب سيثرى الرؤية النقدية ويمدها برصيد ضخم من عوامل البحث عن مطابقة المسلك الشخصى للتصور الفكرى فى نزعة السحار لكن ما الذى نجده فى هذا الجانب ؟ · وقد نشأ فى بيت يلقن أبناءه أول ما يلقن · تعاليم الحلال والحرام ، دون أن يكون الأمر مجرد تلقين ، وانما حركة سلوكية ملتزمة بالاطار الدينى المرسوم ، فى كل ما تصدر عنه من قول أو فعل ، بالاضافة الى صرامة التقاليد التى تحول بين الرجال والنساء فى عصر كان النزول فيه الى الشارع (لا يحدث الا لتجهيز العرائس ، وكان يعبر عن ذلك فى زهو وتقول المرأة لجارتها فى استبشار · انها ذاهبة الى المدينة وانها ستركب الترام) (٤) ·

وموقف آخر يسمح فيه للمرأة بالخروج · وذلك لزيارة الموتى ·

---

(١) صور وذكريات للسحار ص ٢٢٢ ·

(٢) السحار والفكر الاسلامى ، للأستاذ مأمون غريب ص ٣ ·

(٣) كما أخبرنا بذلك الدكتور صلاح السحار « نجل الكاتب » ·

(٤) هذه حياتى ـ عبد الحميد جوده السحار ص ١٣٧ ·

وكان ذكر اسم الأم عورة وجريمة لا تغتفر · حتى أن السحار هم بالهجوم على معاون المدرسة عندما قرأ أسم أمه وهو ينظر فى شـهادة الميلاد · ولكنه لم يفعل لضآلة كيانه فى ذلك الوقت (١) ·

وكان الناس ينظرون شذرا الى أية محادثة بين ولد وبنت فى الطريق (٢) · ولم يكن يسمح لفتاة من بيتهم أن تخرج سافرة الوجه أو وحدها (٣) ·

اذا كان هذا هو وضع الفتاة فى الأسرة ووضع المرأة فى المجتمع اذا ما نظرنا الى سمة العصر وتقاليده التى وجهت مساره فى معظم الأحوال · فان وضع الرجال كان على غير ذلك حرية وانطلاقا فى معاشرة النساء ومغازلة الصبايا ، فقد أتيح للرجل ما لم يتح للمرأة فى غالبية الأحيان ·

لهذا عرف السحار الحب وتعلق بكثير من تجاربه فيه ، ولم يشأ والده أن يحجر عليه فى علاقاته العاطفية لأنه كان رجلا يسوس أمور أبنائه بحكمة العاقل وتجربة الخبير ، فترك لهم شـئون حياتهم الخاصـة دون أن يعترض أو يثور ، ما دام هؤلاء الأبناء محوطين بحصانة الدين ومنجذبين الى القدوة الحسنة · وكانت حياتهم فى حى الظاهر — بعد باب الشعرية — وهو يومئذ ممتلىء باليهود وكانت فتياتهم على درجة من التحلل والتحرر كبيرة لا يهوى اليها ، ولا الى بعض منها فتيات مصر ولا نسائها فى ذلك الوقت ، فوجد السحار نفسه عندما بلغ مبلغ الرجال يميل الى (فورتينية) اليهودية وما لبث هذا الميل أن تحول الى عاطفة جموحة تملك عليه لبه ، وتقيد مشاعره . فأحبها وكان يحس راحة كبيرة كلما حدثها أو حدثته ، وكان ينظر اليها نظرة روحية متسامية ، أما هى فتريده جسدا ومتعة فلم تعرف (أكثر من اسكات صراخات الشهوة وتلبية نداء الغابة) (٤) ·

وقد أوجد هذا الموقف المتنافر صراعا حادا وعنيفا بينه وبين نفســه · ونجح فى مقاومة تيار الغريزةفيه بكل ما ملك من عزيمة وايمان · وتكررت المواقف وتعددت لحظات الضعف البشرى فى مواجهة سلطان الغريزة لكنه قاوم مؤمنا ووطن النفس على عدم السقوط · يقول (قد وطنت نفسى على أن لا أهبط بانســانيتى الى ما هبطوا اليه (٥) وألا أكون عبدا لكأس تجرح كبريائى وتمرغ كرامتى فى التراب) (٦) ·

وقد كان لهذه التجربة العاطفية أثر كبير فى توجيه السحار ومساره الفكرى — فقد خرج من معركة الصراع بين تسميات الروح وهبوط الغريزة منتصرا · والسحار يعبر عن ذلك مصـورا معاناته فى هذه المعركة (كرامتى ثارت على ثورة عارمـة

---

(١) هذه حياتى — عبد الحميد جوده السحار ص ١٤٨ ·

(٢) هده حياتى — عبد الحميد جوده السحار ص ١٧٣ ·

(٣) هده حياتى — عبد الحميد جودة السحار ص ٣٨٤ ·

(٤) المصدر السابق ص ٢٢٧ ·

(٥) يقصد أهلها · وقد كانوا على درجة من الانحلال كبيرة ·

(٦) المصدر السابق ص ٢١٧ ·

وراحت تؤنبني على ربط الأسباب ، بيني وبين بغي لا تعرف الا الاستجابة الرخيصة لنزواتها • وكانت معركة عبودية الروح وحريتها ، بين الاستسلام للقلب أو الانقياد للعقل • انه صراع مرير بذرت فيه بذور نموى الروحى ، وبدأت حياتى الباطنية تتعمق ، وجعلت أهيب بارادتى أن تعبر هذا الجسر) (١) وعزمت على أن أفر منها ولم أجد لى ملجأ الا الله فرحت أصلى (٢) •

لقد فر منها حتى ينساها ويطرد شبحها من حياته • فنعرف على (استر) وباشر معها علاقة ودية لا تزيد عن الحديث العابر وكانت هى الأخرى يهودية من طبقة فقيرة • وكان اذا ما شعر بحاجته الى الجنس الآخر نهض اليها يسامرها على النيل ، ولكنها لم تستطع أن تغسل عن قلبه بصمات « فورتينية » (٣) •

ويتضح ذلك من موقفه الرافض عندما ألحت عليه نطلب الزواج منه فأعرض عنها وقطع صلته بها ، ولما علم بزواجها لم يستشعر ندما ولا حزنا بل انطلق هادىء النفس الى طريق الله • واذا بطاقات الشهوة والنزوات تنحول (الى حب صوفى يهدينى الى الجمال فى كل مافى الوجود من صنع الله الذى أتقن كل شىء بديع السموات والأرض ، لم يعد هناك انقسام فى ضميرى ، وأصبح شعور أخلاقى يسيطر على ذاتى ، وصرت أتوكل على القدرة الالهية المطلقة فاذا بضباب حياتى ينقشع ، واذا بى أرتفع فوق حواجز الدنيا وعقباتها واذا بنفسى تتغذى بالمحبة وتشرئب بعنقها الى الفناء فى روح الكون) (٤) •

وليس معنى ذلك أن السحار قد اعتزل الكون والحياة ولبس مسوح الصوفية منزويا فى كهف بعيد عن ضوضاء الحياة وانما يعنى أن عامل الغريزة فى النظر الى المرأة لم يعد يحتل مكانه فى دائرة الصراع بين طبيعة الخير وغريزة الشهوة الجامحة فيه ، وأصبحت العلاقة العاطفية تشكل فى اطار من العفاف والسمو يتلاشى معه نداء الشهوة • فقد أضاف الى رصيد تجاربه السابقة عددا آخر من التجارب نذكر منها علاقته بفتاة الليسية التى كانت تقطن فى البيت المواجه لبيتهم وقد راحت تمارس ألوانا من فنون المرأة فى لفت الانتباه محاولة اصطياده ، وأعجب بها وفكر فى الزواج منها • خصوصا وأن فكرة الزواج كانت قد شغلت اهتمام أهله فرأوا أن يزوجوه ابنة عمه • ولكنها ليست على درجة فتاة الليسيه ثقافة وعلما • مما جعله يفكر فى الارتباط بجارته المثقفة فهى أكثر فهما للحياة من قريبته نجد ذلك فى قوله (اذا كان على أن أتزوج ولا بد أن سيأتى يوم أتزوج فيه . فلن تكون زوجتى الا هذه الفتاة الواقفة الى جوارى على رصيف الترام انها تستطيع أن تقطع على مشوار الحياة الطويل

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨٤ •

(٢) المصدر السابق ص ٢٨٥ •

(٣) لمصدر لسابق ص ٣٠٢ •

(٤) المصدر السابق ص ٣٤٨ •

الشاق ، سأفهمها وتفهمني ، وسيكون بيني وبينها شيء مشترك يخفف من وطء قسوة الأيام ٠٠) (١) ٠

ومادام سيتزوج منها فلا بد أن يعاملها بحذر والا يسمح لنفسه أن يدنس حياة زوجة المستقبل ٠ ولكنه فوجيء بها وهي تمارس حظها من متع الحياة في سفور أخلاقي تأباه نفسه ولا يتواءم مع طبيعته الدينية وتكوينه الأخلاقي ، فأعرض عنها وعاد الى بيته ليتزوج من ابنة عمه تلك التي نشأت ــ على حد قوله ــ (في مثل بيئتي ، وان لم تتح لها الظروف لتواصل تعليمها ، فلست في حاجة الى زوجة لبقة تحسن استقبال أصدقائي) (٢) ٠

وما كان للسحار أن يختار غير ذلك ٠ وهو الذى تشير كل مؤهلات حياته الى نمط من السلوك القويم يتنافى كل التنافي مع معطيات الحياة الحديثة وما منحته للمرأة من حرية وسفور ٠ وهو بما فعل كان أمينا مع نفسه ووفيا لمبادئه التي عاشها واقعا حيا وعبر عنها فكرا وعقيدة في كل دروب حياته منذ نشأته في حارة صلاح بباب الشعرية ٠ الى أن لقى ربه في ٢٢ يناير سنة ١٩٧٤ ٠ بعد حياة حافلة بالايمان والابداع ٠

ثقافته :

نشأ السحار في عصر اتسعت فيه مجالات التأثير الثقافي وتشعبت واختلط بعضها ببعض الى درجة يصعب معها الفصل بين الروافد المختلفة التي كانت تتصارع على الساحة في محاولة طموحة لاثبات وجودها وفرض سلطانها بما تملك من وسائل القوة والنفاذ ٠

فالثقافة الأجنبية الوافدة تكثف وجودها ونشاطها في كل مجال وتتفنن في الوصول الى الجماهير مستخدمة كل وسائل الاتصال الحديثة ٠

والثقافة العربية ٠ قد اشتد ساعدها بعد حركة الاحياء فراحت هي الأخرى تعلن عن نفسها في محاولة جادة لمجابهة الفكر الدخيل وكشف الأقنعة الزائفة عنه ٠ ومع تصارع الفكرين العربي والأجنبي لم يجد المتعلمون في ذلك الجيل (تناقضا بين هذين المظهرين ٠ وانما استجابوا لأشواق المعرفة وتطلعاتها مع احساسهم بموقفهم الوطني ، فأوغل النابهون منهم في قراءة الأدبين : العربي والانجليزي ، وصادفت كثرة القراءة هذه طبيعة خلاقة عند الأدباء ، هيأت لنتاج خصيب ، انتقل بالأدب العربي الى طبيعة الآداب الحية في القرن العشرين) (٣) ٠

---

(١) المصدر السابق ص ٣٨٥ ٠

(٢) المصدر السابق ص ٣٩٦ ٠

(٣) محمد فريد أبو حديد د٠ محمد عبد المنعم خاطر ص ٣٠ ٠

والباحث عن الروافد الثقافية في فكر السحار وأدبه يجدها تنبع من المصدرين معا ، على اختلاف فى درجة التأثر تتباين فى حياته من مرحلة الى أخرى ٠

فقد تعلم غيره من أبناء جيله في المدارس الأولية والابندائية والثانوية وكانت اللغة الانجليزية هى لغة التعليم فى تلك المدارس فيما عدا ما يتصل بالدين واللغة العربية غير أننا نجده لم يتأثر كثيرا بما درس فى المدارس في مراحل تعليمه الأولى بل انه لم يقرأ شيئا بالمرة كما يقول هو عن نفسه (كنت أمقت المدارس فى أول عهدى بالتعليم وكنت أتمنى الموت كل يوم) (١) ٠

وكانت العداوة مشبوبة بينى وبين الكتب المدرسية فلا أذكر أننى فتحت كتابا طوال مدة دراستى الابتدائية (٢) وما كان عزوفى عن القراءة يرجع الى كسلى بل ضنا بجهد أنفقه بلا ثمرة فقد كانت فكرة الموت تلازمنى ، وكنت أقنع نفسى أنه عبث أن أتعب نفسى فى المذاكرة ، ثم أصبح ميتا) (٣) ٠

ولا شك أن السحار يبالغ بعض الشيء فى اظهار عدم انتفاعه بشيء مما درس فى تلك المراحل ، فانه لابد وقد تأثر بها والا فكيف تأتى له الحصول على شهادة المدرسة الابتدائية دون قراءة ٠ وربما كان هدفه ابراز عدم تأثره بالمدارس بالقدر المناسب وقد لعبت السينما دورا كبيرا فى تنمية قدراته الثقافية والأدبية فى المراحل الأولى من حياته ٠ فقد قامت بدور البديل عن المدارس فى امداده بالمعارف والخبرات ، فضلا عن الخيال الخصب الذى كان أحد عوامل مكوناته الأدبية ٠

والسينما (من أخطر الفنون تأثيرا على الجماهير ، انها قادرة على أن تسلبهم عقولهم ، وعلى أن تستولى على عواطفهم ، وأن تجرفهم الى حيث تريد) (٤) وهى الى جانب وظيفتها الترفيهية والاجتماعية ، تقدم ألوانا من المعارف والثقافات البشرية فى مجالات مختلفة من الحياة ٠

ولا شك أن السحار تأثر بها صغيرا وأثر فيها كبيرا ، فقد هام بها فى صغره وكانت تعرض قصص المغامرات الأجنبية والروايات الترفيهية ٠ وبلغ من هيامه بها أنه كان يحرص على مشاهدة معظم العروض التى تقدم على شاشات العرض فى دور السينما الشهيرة فى ذلك الوقت ٠ (فقد كان يوم الأحد مخصصا لسينما الكوزمجراف ، ويوم الاثنين لسينما الشعب ، ويوم الجمعة لسينما الكلوب المصرى) (٥) وامتد هيام السحار بالسينما حتى كان أحد المشتغلين بها بل وأصبح فى أخريات حياته رئيسا لمجلس ادارتها ٠

---

(١) هذه حياتى للسحار ص ٤٤ ٠

(٢) المصدر السابق ص ١٠٩ ٠

(٣) المصدر السابق ص ١١٠ ٠

(٤) ذكريات سينمائية عبد الحميد السحار ص ٨٧ ٠

(٥) هذه حياتى للسحار ص ٧٤ ٠

ومن ذلك نستطيع أن نقول ان تأثر السحار بالفكر الأوربي بدأ منذ صغره متمثلا في السينما كشكل من أشكال التعبير الفني يحوى مضامين فكرية مستمدة من الثقافة والحياة الأوربية · وظل تأثير هذا الرافد ملازما له وان تطورت أشكاله وتعددت ألوانه ·

وتأتي مرحلة تالية في حياة السحار بعد أن تغيرت نظرته ويئس من مجيء الموت · وانطلق مع رفاقه وأخويه يفعل ما يفعلون ويقرأ ما يقرءون فعرف الصحف وأخذ يقرأ فيها ويطالع أحداث العصر ويتأثر بها وفي بعض الأحيان كان يستمع الى رفاقه وهم يقرءون عليه ما كتبوا من شعر وقصص وأزجال ومقالات ، فيما حاولوا اصداره من صحف ومجلات · فيتأثر بهم وتتفتح نوافذ ذهنه على الصحافة فيهتم بها ويتابع ما ينشر على صفحاتها من معارف وآداب وصراعات سياسية ·

ويتضح ذلك من قوله محددا اهتمامه بالصحف خصوصا بعد حل مجلس النواب الوفدى الذى سخر العقاد فيه من رأس السلطة في البلاد · (ابتدأت أهتم بقراءة الصحف ، ومتابعة ما ينشر في مجلة الكشكول) (١) واستمر اهتمامه بها طوال حياته فمنها تعرف على كثير من أدباء العصر ومفكريه وقرأ لهم وتأثر بهم — فقد تعرف على محمد فريد أبو حديد وقرأ كل ما كان يكتبه في الرسالة والثقافة · كما تعرف على محمود تيمور وابراهيم عبد القادر المازني — وكان يتابع ما ينشره المازني في جريدة البلاغ وما تنشره الصحف من قصص ومقالات نقدية · نجد ذلك واضحا في قوله (وأصبحت التهم جميع الفصول الأدبية التي تنشرها الصحف ، فتتبعت يوميات نائب في الأرياف في مجلة الرواية والأساطير اليونانية التي كان ينشرها الاستاذ دريني خشبة وقصص تيمور والمازني وطاهر لاشين وأبو حديد ، وأخذت أنشر بعض أقاصيص في الرسالة والجامعة وال ٢٠ قصة) (٢) ·

وهذا يدل على أن الصحف لعبت دورا كبيرا في تنمية وعيه الثقافي بصفة عامة والأدبي بصفة خاصة · الأمر الذى يجعلنا نعد الصحف رافدا من أهم الروافد التي أمدته بالثقافة والوعي وهي كما تبدو مختلطة العناصر بين عربية وأجنبية ٥

وثمت مؤثر آخر أمده برافد ثقافي أصيل تسلل الى وجدانه منذ صغره ، ويتمثل ذلك الرافد في مجلس (السلاملك) الذى كان رواده يقرءون عادة السيرة النبوية لابن هشام أو فتوح الشام للواقدى أو فصلا في كتاب الأيام للدكتور طه حسين (٣) وكان ذلك في مجلس الليل فاذا طلع النهار تكون مجلس آخر من الشبان في نفس المكان ، وجاء اليهم راغب النجار وهو أحد العمال الكادحين وكان (يهوى القراءة والأدب فكان يستعير بعض الرويات من أخوى ثم يقرأها في نهم ولذة ، ثم يتحدث مع نزلاء السلاملك الشبان عن جونسون وبن جونسون ، وفانتوماس ،

---

(١) المصدر السابق ص ١٠١ ·
(٢) صور وذكريات عبد الحميد السحار ص ١٨١ ·
(٣) هذه حياتي ص ١٤٨ ·

وطرزان ، وكنت أصغى الى الاحاديث وأتمنى فى قرارة نفسى أن يأتى اليوم الذى أقرأ فيه بعض هذه القصص) (١) .

واذا كان دوره لايزيد عن مجرد الاستماع الى مايدور حوله ليلا ونهارا لعدم قدرته على القراءة فانه بعد اشتداد عوده ودخوله المرحلة الثانوية . بدأ يقرأ عليهم جزءا كانوا يقرءون (٢) .

ولهـذا كان السلاملك بالنسبة للسحار مدرسـة كبيرة تعلم فيهـا الكثير (٣) ففيها تعرف على لونين من المعارف .. أحدهما عربى يتمثل فى قراءات مجلس الليل وثانيهما أجنبى يتمثل فى أسمار الشباب وحكاياتهم التى تدور حول قصص المغامرات فى مجلس النهار .

وفى الجامعة تفتحت أمام ناظريه آفاق الحياة فاستمر فى تنمية معارفه الأدبية والثقافية . وبدأ يقرأ فى الآداب الأوربية . فقرأ (قصتى المفضلة) وهى مجموعة قصص لأشهر الكتاب الانجليز ومنتخبات من المسرحيات الانجليزية (٤) .

ولا شك أن السحار قد تأثر الى حد كبير بالثقافة الانجليزية ـ خصوصا ـ وقد عمل مترجما فى سـلاح الطيران . واختلط بعدد كبير من الخبراء البريطانيين واحتك بهم عن قرب مما هيأله أكثر من غيره فرصة التعرف على الثقافة الانجليزية . الا أننا نلاحظ أن تيار الثقافة العربية كان بارزا فى حياة السحار وفى نتاجه الأدبى ، وان نظرة واحدة الى ما كتب من قصص وروايات تتصل بتاريخ الاسلام ممثلا فى حياة أعلامه وما تركوا فى الحياة من أثر وأسوة وعلى رأسهم النبى صـلى الله عليه وسلم . هاديا وقائدا وانسانا .

الى جانب ماكتب من دراسات تتناول كثيرا من قضايا الفكر الاسلامى وتنتصر للحق فى مواجهة افتراءات المستشرقين ومن نحا نحوهم فى التفكير والخصومة كل ذلك يعبر عن أصالة الفكر الاسلامى والثقافة العربية فى أدبه .

وأنها تغلبت على الفكر الدخيل والثقافة الأجنبية . دون أن يحول ذلك بينه وبين الافادة منها والاستعانة ببعض أشكالها الفنية وطريقتها فى التعبير . كما نرى ذلك بوضوح فى مجالات عرضه فى مكانة من الدراسة .

---

(١) المصدر السابق ص ١٥١ .

(٢) المصدر السابق ص ١٦١ .

(٣) المصدر السابق ص ١٧٥ .

(٤) المصدر السابق ص ١٧٨ .

الفصـل الثـانى

المنحى الدينى وبواعثه فى أدب السحار

يعتمد الباحث عن النزوع المذهبى فى نتاج أديب ما ، على المادة الأدبية التى صدر الأديب عنها ، وابدع القول فيها ، متتبعا ظواهر التفرد الفكرى أو الفنى التى ينحاز الأديب اليها فيما يعالج من قضايا ومشكلات •

وقد يستعين الباحث على اثبات حقيقة ما ينتهى اليه من رأى فى هذا المجال بالوفرة العددية في مجموع ما أصدر الأديب من فن فى قطاع ما من الموضوعات،يستريح اليه ويكثر العطاء فيه ، أويلجا الباحث عن النزوع المذهبى ، والاتجاه الفكرى فى أعمال الأديب الى درجة الجودة الفنية ، فيعتمدهما مقياسا يزن على أساسه المادة الأدبية ، ويضعها فى مكانها بين تصانيف المذاهب والاتجاهات ومن خـلال بلورته للقضية موضوع البحث ، يتحدد منزع الأديب ، ويتضح انتماؤه الفكرى •

والناقد فى هذه الحالة لا تعنيه الكثرة العددية ، فربما وجد ضالته فى كتاب واحد من جملة ما أصدره الأديب ، فيتكىء عليه ، ويعتمده أساسا للحكم ضاربا عرض الحائط بما هو دونه من المؤلفات •

وقد يأتى باحث آخـر فيكون من محاسن النظرتين مذهبا ثالثا فى البحث عن النزوع الفكرى للأديب ، معتمدا فيه على عنصرى الوفرة العددية والجودة الفنية معا على اعتبار أن كليهما لازمتان أساسيتان للحكم على ظواهر التفرد وملامح النبوغ • ولعل هذه النظرة الثالثة أكثر انصـافا وموضوعية اذا ما قوبلت بغيرها من الرؤى النقدية التى تنتصر فى أسلوبها للنظرة الأولى أو الثانية •

وفى محاولة للبحث عن ظواهر التميز الفكرى التى ينحاز اليها الكاتب القصصى عبد الحميد جودة السحار نجد كما هائلا من المؤلفات تختلف فى أشـكالها الفنية وتعـدد موضوعاتها • ممتدة فى أعماق الماضى لاستجلاء ما فيه من موفور الأحـداث وموفور القيم ، وموصولة الوقت نفسه بالحاضر ، ترسم أبعاده ، وتصور معالمه ، وتبرز عناصر الخير فيه ، وصراعات الشر حوله ، وتتسع فى استجلائها وتصوراتها لتسجل وعى الانسان ، ونبض حركته فى كثير من البيئات والأجواء •

وحدناه يجمع في كتاباته بين الفن القصصي والبحث الديني والنقد الأدبي في خصوبة وثراء وقوة استيعاب لانجد لها نظيرا عند المعاصرين له من أبناء جيله ٠٠ الأمر الذى جعل بعض الكتاب يتحيرون في اتخاذ موقف صارم محـدد من أدبه ، ويحتاطون في تصنيفه وفي تحديد انتمائه الفكرى ٠

وربما ساعدهم على هذه الحيرة قول السحار نفسه (اننى على الرغم من طول السنين التى مارست فيها الكتابة لم أجد نفسى ، كتبت الأقصوصة والقصة والروايه وقصص الأطفال والتراجم الاسلامية ، وقصص الرحلات ، تبعثرت ذاتى ، حيرت قرائى تخيلنى بعضهم شيخا معمما قد جاوزت الستين ، وهاجمنى بعضهم على أننى عابث ماجن) (١) ٠

ويرجع ذلك الى جمعه في أدبه بين الكتابة التاريخية ذات الطابع الدينى وبين الكتابة عن قضايا العصر ومشاكله وحياة الانسـان فيه وما تتسـم به من مظاهر التحلل والضعف في مواجهة حاجاته الغريزية ٠ بأسلوب منفتح لايجد بأسا في تصوير مشاعر الانسان ، ورغائبه الجسدية ، وقد كان هذا المنحى من السحار سببا في حيرة بعض نقاده واتهامهم له بازدواجية الفكر (فهو يكتب القصـة الطويلـة والقصيرة وأدب الرحلات بروح الأديب ، وهو في الوقت نفسه يكتب القصة الدينية والبحث الدينى بدافع من نزوعه الشديد نحو الدين) (٢) حتى ان القارى يحس (عندما يقرأ الجانب الأدبى من أعماله أنه أمام فنان يرسم لوحاته بواقعية كأنه عاش حياة أبطاله نفسها ٠ ويخيل اليه عندما يقرأ أعماله التى تتناول النواحى الدينية أنه أمام عالم تخرج في الأزهر) (٣) ٠

وهذه القضية تدفعنا الى قضية أخرى تتمثل في الاتجاه نحو الفصل بين الدين والفن عند كثير من نقادنا المعاصرين فقد توهموا الخصومة بينهما متأثرين بما شـاع في التراث الغربى ابان الثورة الفرنسية عندما جرى الصدام بين الكنيسة والسلطة المدنية ٠ أما عندنا في الاسلام فقد (كان التفهم سائدا بين العلم والدين والفن ، وكانت قصـور الحكام والخلفـاء تذخر بالشـعراء والمثقفين ورجـال الطب والفلك والمترجمين) (٤) فالخصومة بين الدين والفن لا وجود لها في حضارتنا الاسلامية ، وعلى ذلك فالقول بازدواجية الفكر عند السحار لا تخضع لميزان صحيح في الحكم على الأشياء خصوصا وأن التدين في منظور السحار (تفتح ورقى ، فهو مرحلة تتجاوز مرحلة الشك ، وانطلاقة نحو التحرر الروحى الذى لا زيف فيه) (٥) ٠

---

(١) ذكريات سينمائية ص ١١٧ ٠

(٢) السحار والفكر الاسلامى ٠ مأمون غريب ص ٩ وما بعدها ٠

(٣) المصدر السابق ص ١٠ ٠

(٤) حوار مع مجاهد مسلم ٠ محمود حنفى كساب ص ٣٠ ٠

(٥) السحار والفكر الاسلامى ص ١١١ ٠

ومن هنا نستطيع أن نقول بداءة ان السمة الغالية على أدب السحار تتجه اتجاها مباشرا نحو الاسلامية فكرا ومنهجا وأنها سارت على امتداد عمره الأدبى تمثل خطا فكريا واضح الملامح ، وان اختلفت أشكال التعبير وتعددت ألوانه · فقد قدم للمكتبة العربية أعمالا عديدةتتصل فى معظمها بالاسلام تاريخا وبحياة الرسول صلى الله عليه وسلم سيرة ومثلا ، وبحياة أعلام صحابته قدوة واقتداء وباستعراض نتاج السحار على امتداد هذا الخط يتضح المنزع ويتبدى الانتماء فمنذ بدأت رحلته الأدبية وعرفت كتبه طريقها الى الجمهور ومجالات اهتمامه تنصب على هذا الاتجاه ·

فقد أصدر (أبو ذر الغفارى) (١) و (بلال مؤذن الرسول) (٢) و (سعد بن أبى وقاص) (٣) و (أبناء أبى بكر) (٤) و (أهـل بيت النبى) (٥) و (حيـاة الحسين) (٦) و (عمر بن عبد العزيز) (٧) وفيها تناول حياة هؤلاء الأعلام بالوصف والتحليـل مبرزا دورهم البطولى فى الكفـاح من أجل رفعة الدعوة الاسـلامية ، وما صادفهم فى سبيل ذلك من صعاب وعقبات ، وفى الوقت نفسـه أبرز القيم الاسـلامية الأصيلة والمثـل التى جاء بها الدين ، وفيها يكمن الخير ويتحدد صـلاح المجتمعات · كل ذلك فى أسلوب فنى بديع حيثاستخدم قالب القصة فى بلورة ما شاء من أفكار دون أن يعتدى على موثوق الأخبار فيما سجله التاريخ ·

كما قدم السحار أكبر انجاز فنى يكفى قيامه وحده دليلا على صـدق المنزع وسلامة الاتجاه · وقد تمثل ذلك فى السـيرة النبوية التى ألفها فى عشرين جزءا صدرت تباعا على مدى ما يقرب من ست سنوات (٨) وتناولت حقبة من التاريخ القديم تبدأ من حياة ابراهيم أبى الانبياء عليه السلام وتستمر فى تواصلها مرورا باسماعيل وهاجر وأبناء اسماعيل فاذا وصل الى مولد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم تناول حياته الشريفة بالكشف والابانة فى كل مرحلة من مراحلها ، على نمط خاص ومن منظور محدد ويظل فى حركته الراصدة الى وفاة الرسول وما تبعها من خلافة أبى بكر رضى الله عنه وجهاده فى حروب الردة · مستعرضا من خلال ذلك كله صور الكفاح الدينى والبطولة الفذة فى مواجهة زيف الشرك ، وفساد الطغيان ، ومبرزا دور الاسلام فى تغيير المفاهيم الشركية ، وبث القيم الجديدة التى جاء بها من أجـل رفعة البشر جميعا ، مستخدما نفس القالب القصصى الذى استخدمه قبل ذلك فيما عالج من سـير الأعلام وقد أراد السـحار من ذلك (عرض حقبة مشرقه من تاريخ

---

(١) صدرت سنة ١٩٤٣ ·
(٢) صدرت سنة ١٩٤٤ ·
(٣) صدرت سنة ١٩٤٥ ·
(٤) صدرت سنة ١٩٤٦ ·
(٥) صدرت سنة ١٩٤٨ ·
(٦) صدرت سنة ١٩٥٤ ·
(٧) صدرت سنة ١٩٧٢ ·
(٨) صدر الجزء الأول منها ١٩٦٥ وصدر الجزء الأخير سنة ١٩٧٠ ·

البشرية ارتفع فيها الانسان حين أسلم وجهه لله ، ورفع عبادته من الطبيعة الى ما فوق الطبيعة ، حقبة تحرر فيها من العبودية ، من أن يتخذ بعضهم بعضا أربابا ، من أن يكون عبدا للشهوات ورغبات الجسد ، من أن ترتعد فرائصه خوفا من بطش الأقوياء وظلم الظالمين) (١) ٠

كما أراد بهذه السيرة أن يفسر التاريخ روحيا وأن يطهر ضمير الانسان من أدران المادية الطاغية وأن يعيد اليه رفاهيته التى بلغت غايتها فى ظل الدين ، وأن يعيد للانسان كرامته التى تتألق وتزكو كلما سما فوق مطالب الأبدان وضرورات الغرائز ، وما تهفو اليه النفوس (٢) ٠

وعلى ضوء هذه الدوافع راح يستعرض الجوانب المختلفة من حياة صاحب السيرة فى تفصيل دقيق وتحليل أمين وعرض شيق ، مأخوذا بجوانب العظمـة فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم الذى شغف به منذ طفولته وأعجب بشخصيته وكان كلما تعمق فى تتبع مراحل حياته ازداد اعجابه وحبه له ولقد عبر عن ذلك الحب بقوله (بهرتني منذ نعومة أظفاري شخصية محمد صلى الله عليه وسلم ، فعكفت على قراءة السيرة ، فكنت كلما تعمقت فى دراستي ازداد اعجابى بشخصية الرسول الكريم ، فهو الانسان الكامل والأسوة الحسنة للبشرية (٣) ومما يتصل بالمضمون التاريخى رأيناه يتناول الحياة الدينية فى مجموعات قصصية ذات مستوى خاص ، يتناسب مع مدارك الأطفال ودرجة نموهم ، هادفا الى غاية تهذيبية ، وخطة تعليمية ، فقدم للأطفال قصص الأنبياء فى ثمانى عشرة قصـــة ، وقصص السيرة النبوية فى أربع وعشرين قصة ، وقصص الخلفـــاء الراشدين فى عشرين قصة ، والعرب فى أوربا فى أربع وعشرين قصة ٠ تناول فيها جميعا بالعرض الواضح ٠ جوانب مختلفة من حياة البشرية وتطورها وموقفها من دعوات الرسول والأنبياء ، وما تعرض الرسول له فى حياته من أذى المشركين فى مكة ، وما قام من حروب فى سبيل الدعوة الى الله ، مبرزا شمائله وأخلاقه فى المعاملات الانسانية كما تناول بالبيان حيـاة الراشدين وجهادهم وما أخذوا أنفسهم به من حب للدين وايثار لمصلحته على ذوات أنفسهم ، والعمل على اعلاء كلمة الله وتطبيق أحكامه قولا وعملا ٠ الى غير ذلك مما تعرض له فى أسلوب سهل ولفظ رشيق ، مستخدما وسائله الفنية فى القصص والحكاية ٠

كما اتجه السحار بقصته (أميرة قرطبة) (٤) الى التاريخ الاسلامى فى الأندلس ، ليؤكد ولاءه القومى للذاتية العربية الاسلامية ٠ وعلى مستوى آخر من الأداء قدم السحار المسيح عيسى بن مريم (٥) مبرزا من خلال عرضه لحياته ودعوته ، وجهـة

---

(١) أبو الأنبياء ٠ عبد الحميد جودة السحار ص ٢٩٦ ٠

(٢) المصدر ص ١٩٧ ٠

(٣) السحار والفكر الاسلامى ص ١١٤ ٠

(٤) صدرت فى سنة ١٩٤٩ م ٠

(٥) صدرت فى سنة ١٩٥١ م ٠

النظر الاسلامية في كل ما يتصل بالنبى عيسى عليه السلام ، فى مواجهة زيف التصورات الخاطئة التى أحاطت به وبالمسيحية كدعوة سماوية ، استهدفت هداية بنى اسرائيل في زمانها ، وانتهت وظيفتها بظهور الدعوة الاسلامية الخاتمة ، ومبعث محمد عليه الصلاة والسلام ٠

وهذا الحشد الهائل من الأعمال القصصية التى تتصل اتصالا مباشرا بالاسلام دعوة وفكرا ، ان دل على شيء فانما يدل على صدق المنزع الدينى وأصالته في أدب السحار ، فاتجاهه الى مراحل بعينها من مراحل التاريخ واستيحائه أعماله السابقة منها لم يكن مصادفة بحتة ، ولا استجابة لحاجات موجة طغت على سطح الحياة الأدبيه فجأة ثم اختفت مستكينة فى ظلام المجهول ، وانما كان استجابة لوعى حضارى بالفكر الاسلامى ، ايمانا بأصالته الفذة وقدرته الفريدة على تحقيق المجد والعزة والرفاهية للانسان ، وأنه ليس فى مقدور البدائل المطروحة على ساحة الانسان العربى المعاصر أن تنهض بوضع الحلول الملائمة لحاجاته ومشكلاته مهما تحصنت بالعلمية والنفعية . لأنها في الأساس وليدة بيئات الحادية شركية لا تبذر بمعطياتها الا بذور الشك والقلق ، كما أن السحار فى اختياره لأشخاص معينين يؤكدون صدق الولاء الفكرى للنزعة الاسلامية ، فقد قدم الأسوة كاملة فى شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال حياته وجهاده فى سبيل تحقيق الخير للانسان والارتفاع به من المادية البغيضة الى مدارج السمو الروحى ٠ مبرزا منهجه الالهى فى قيادة الحياة على كافة مستوياتها ٠ وأنماطها ، هادفا من وراء تلك الغاية الى اثبات قدرة الاسلام على صياغة حياة راقية للأفراد والجماعات ٠ فهو ليس دينا فى صومعة راهب وانما دين لخير الدنيا والآخرة وتدليلا على عمق فعاليته وأصالته ، اختار السحار نماذج حية من أعلام الصحابة قاموا بتطبيق المنهج الالهى فكرا وسلوكا فأخضعوا الحياة لما يريدون دون أن يفت فى عضدهم جهل الجاهلين وحماقة الموتورين ٠

ولم يكن هدف السحار فى اختيار ذلك كله عرض التاريخ لمجرد العلم به ٠ وانما قدمه فى صورة قصصية تستمد معظم خصائص الفن فى طرائقه التعبير به ، وهذه الصور التى قدمها ــ وان كانت تعتمد فى الأساس على الأصول التاريخية والوقائع الثابتة ــ قد اكتسبت حلة بديعة من الخيال الأدبى الجميل الذى لا يجوز على الحقيقة وانما يساعد على اجلائها فى ثوب قشيب ومعرض أنيق ٠

واذا كان السحار قد توجه بقلبه وفنه الى تلك المرحلة العطرة ، واستشرف أبعادها على امتداد الزمان ولوجا فى الماضى الى حياة الأنبياء واشراقات الوحى وتتبعا لالهامات الهدى على سنة الاحتذاء والاقتداء فانما يضع رؤية واضحة المعالم أمام انسان العصر الحديث ليستلهم ان اراد ــ عناصر القوة فى ماضيه ويسترشد بها فى يومه وغده ٠ وقد ظلت وحدة الفكر فى شخص السحار خاضعة لأبعاد تلك الرؤية دون أن

تنحرف عنها أو تبعد عن ساحتها فيما أبدع فيه من قصص عصرية (١) تناولت حياة الانسان المعاصر في بيئاته المختلفة بالتصوير والتحليل ، وفيها يعالج الكاتب قضايا الانسان ومشاكله واهتماماته ، وتطلعاته وأفكاره وسلوكياته ، كما يعالج قضية صراعه الدائم من أجل البقاء في لحظات قوته ولحظات ضعفه البشرى ، يعالج السحار كل ذلك فى قصصه العصرية دون أن يتخلى عن أفكاره وتصوراته التى تخضع فى تكوينها الأصيل الى الفكر الاسلامى فى سخائه وثرائه ٠

ويتضح ذلك من خلال حرص السحار على الاكثار من الشخصيات التى تتحرك على مسرح الأحداث فى قصصه ، والتى تتميز فى سلوكها بالايجابية المتلائمة مع السلوك الدينى الرشيد ٠ ويخلع السحار على هذا النوع من الشخصيات من سمات الحركة والتفاعل ما يجعلها أكثر ايجابية وحيوية وأمنا فى كل المواقف وعلى مستوى كافة الأحداث ٠

ففى أول رواية له : (فى قافلة الزمان) (٢) نجد الحاج أسعد (يحرص على صلاة الفجر كل ليلة) (٣) ويحزن أشد الحزن عندما يقرأ فى كتاب عنده عن اقتراب خروج المرأة سافرة كاشفة صدرها أو عارية ٠ فيرى أن ذلك من علامات الساعة ٠ فيظل مستغرقا فى بكائه ولوعته حتى أن « زكية » حفيدته قد أنكرته يوما عندما رأته مطأطئا بصره ، مسبلا جفنيه ، والدمع يسح من عينيه فينحدر على خديه ٠ يبلل لحيته ، فاقتربت منه فى خفة وهمست :

ـ أتبكى يا جدى ؟

فرفع الحاج أسعد رأسه ونظر اليها من خلال دموعه ، ولم ينبس بكلمة ٠

فعادت تسأله :

فأشار الى الكتاب المفتوح فى حجره ، فقالت :

ـ وما به ؟

فقال فى صوت خفيض أسيف :

ـ سيأتى أوان تخرج فيه النساء عرايا ، سافرات الوجوه كاشفات الصدور ٠

فأنكرت زكية مقالة جدها وعدتها ضربا من الأوهام والخيالات ، وعبرت عن انكارها بقولها لجدها :

---

(١) العصرية فى مفهوم السحار تعنى تلك القصص التى تعالج حياة الانسان المعاصر ٠ وقد عبر عن هذا المفهوم عندما أصدر روايته العصرية الأولى (فى قافلة الزمان) ، وقد فهم بعض النقاد العصرية على أنها الرواية التى اكتملت مواصفاتها الفنية ، بصرف النظر عن مدة المعالجة التى استمد السحار منها موضوعه ٠٠ أنظر :

القصة من خلال تجاربى الشخصية للسحار ص ٢٥ ٠

(٢) صدرت سنة ١٩٤٧ ٠

(٣) فى قافلة الزمان ٠ للسحار ص ٤ ٠

ـ هذا لا يصدق .
فقال الحاج أسعد فى يقين :
ـ وسيتكلم الحديد .
فاشتد انكارها . فمحال أن يتكلم الحديد .
فهمس جدها فى حسرة :
ـ ان ذلك من علامات الساعة ، وسيقع كل ذلك (١) .

و (حسن) على جانب كبير من الورع والتقوى ، فعندما بنى طابقه الأول فى البيت الجديد ذهب مع جمع من الرفاق يجوس خلال الغرف وكان (يتمتم ببعض آى الذكر الحكيم فى خشوع ثم حان وقت صلاة المغرب ، فأذن أحدهم بصوت مجلجل واصطفوا جميعا يصلون ، فقد كان حسن يحب أن يذكر اسم الله أول ما يذكر فى البيت الجديد (٢) .

ونفيسة كانت تعامل الخادم المعاملة نفسها التى تعامل بها سيدات الأسرة وبناتها فما كانت تأكل وحدها أبدا ، بل كانت تأكل وخادمها فى جفان واحدة . ولا تطيق أن يتعرض لها أحد بسوء (٣) .

ونجد شخصية « على » فى (الشارع الجـــديد) أصدق مثال على تميز الشخصيات ذات السلوك الدينى فى قصص السحار العصرى فقد كان (على) مغرما بقراءة أسفار التاريخ ، فكان يقتنى كتب السيرة وتراجم أبطال المسلمين ، يقرؤها فى شغف ، وينفعل بها ، ويحاول أن يتمثل بالسلف الصالح ، فكان يثور على الظلم وينتصر للحق (٤) .

وهو متعلق أشد التعلق بالمثل الأعلى فى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكان اذا جلس ليكتب قفزت الى ذهنه رسالة النبى صلى الله عليه وسلم الى المقوقس فكان يكتب رسائله على نمطها (٥) ورغم فقره وشدة حاجته الى المال لا يرضى استقراض مال بالربا حتى لو أدى ذلك الى حرمان ابنه (خالد) من دخول الجامعة . فهو لا يحب أن يربى أولاده من أموال الربا (٦) .

والشيخ « حسن » فى (السهول البيض) أنموذج آخر للشخصية ذات المسلك الدينى التى يحرص السحار على ابرازها وتميزها ، فقد جعله يتحرك فى كل موقف مدفوعا بنظرة اسلامية ، وطرح من خلاله أفكارا وقضايا عديدة تتصل أحيانا بالحدث

---

(١) المصدر السابق ص ٨ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٢٢ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٢٧ .
(٤) الشارع الجديد ص ٢١ .
(٥) المصدر السابق ص ٢٢ .
(٦) المصدر السابق ص ٢١٤ .

النامى فى القصـــة وفى أحيان أخرى نجدها تنبع من مجـال الحركة فى تعامله مع الآخرين ٠

هذا الشيخ حسن كما حدد السحار ملامحه كانت أحـلام يقظته تدور حول الدعوة ، وكثيرا ما كان يرى نفسه بعين خياله يدعو الناس الى الهدى ، ويعيد الضالين الى الصراط المستقيم وهو شخصية تهتم بالدين وتتمسك به وترى فيه الحل لكل القضايا والمشكلات كما تهتم بالماضي ومجده وتهيم به ، ان الشيخ حسن يريد أن يواجه مشكلات الحاضر بمنطق الاسلام (١) ٠

بل انه ليحرص فى كل أعماله على الاقتداء بالرسول وصحابته فيما كانوا يفعلون ، فقد قام يعمل عقيقه في اليوم السابع من ولادة ابنه وذبح خروفا وعندما سألته صغرى بنات صديق الفرارجي :

ـ لماذا ذبحت خروفا اليوم ؟

فقال حسن :

ـ لأن النبى صلى الله عليه وسلم نحر في اليوم السابع من مولد سيدنا الحسين خروفا وأعطى القابلة فخذه وأمر ابنته السيدة فاطمه أن تحلق شعر ابنها وأن تتصدق بوزنه فضة (٢) والمثل الاسلامي لا يغيب عن خاطره فى كل ما يعرض له من قضايا ومشكلات ٠ فعندما استعد للتدريب العسكرى كى يشارك فى الجهاد ضد العدوان الثلاثى على مصر ٠ طلب من « عبود » صديقه أن يفعل ما فعل ، ولكن عبودا كان يرفض القوة من أول الأمر ويأخذ نفسه بمبدأ السلام نجد حسن يقول له :

ـ لو تسلحت أنا وأنت وكل الشعب لأصبحنا قوة تستطيع أن تقهر عدوانهم ولحاربهم الله معنا ، فالله الى جانب الحق ، والحق فى جانبنا ، ألم ينصر الله الفئة القليلة في غزوة بدر على الفئة الكثيرة ٠٠ لماذا ؟ لأن الله أراد أن يظهر الحق (٣) ٠

واذا كان المظهر السلوكى يستقطب اهتمامات السحار فى جانب من حركة الشخصية فى العمل القصصى ٠ فانه لا تكاد تخلو رواية من رواياته من هذه الظاهرة مما يدل على نزوع السحار وحرصه الدائم على تأكيد القيم الاسلامية ٠ من خلال أعماله الفنية ٠

ولعل أكثر المظاهر وضوحا فى تلك الأعمال يتمثل فى معالجته لقضية المرأة فى البناء الروائى ٠ حيث تتسم حركتها ومحاور الصراع حولها بكثير من النظرة السلفية التى تتخذ من قيم الاسلام وتعاليمه أساسا ومنطلقا للحكم على حركتها داخل اطار المجتمع ٠

---

(١) السهول البيض للسحار ص ١٩ ٠

(٢) المصدر السابق ص ١٧٤ ٠

(٣) المصدر السابق ص ٢٢٧ ٠

فالموقف الذى يستريح اليه « حسين » من المرأة فى (النقــاب الأزرق) (١) يتمثل فى سيادته عليها ، وبغضه للانقياد اليها مهما كانت درجة ثقافتها ومهما كان مستواها الطبقى الذى تنتمى اليه ، ونجد فكرة القوامة هذه تسيطر عليه سيطرة كاملة ، حتى أنها تطارده فى منامه ويقظته على السواء · ومن هنا لا نعجب اذا ما رأيناه قبل الدخول بهدى يتصور وهو فى جلسة حالمة بمذخور العطاء فى مستقبل سعيد ، يتصور « هدى » ويحدد معالمها كزوجة وشريكة حيــاة بما يتفق تمــاما مع نظرته السلفية ، فهى ستكون الى جواره تمسح بيدها الرقيقة المتاعب من صدره ، واذا غادرها فى جوف الليل ، يتخيلها تقول له :

ــ سأكون لك خير عون على تأدية عملك ، سأودعك فى سكون الليل مشرقة الوجه ، وسأنتظر أوبتك فى تشوق ورجاء سأقاسمك الحياة كما ينبغى أن تقاسم المرأة زوجها راضية بما تأتى به الأقدار (٢) ·

وهى راضية قانعة فكرت كثيرا فى كل ما يمكن أن يعترض حياتهما ولكنها لم تجزع · وقالت :

ــ فكرت وأنا أتبعك راضية النفس (٣) ·

وطغت على سطح ذهنه تلك التصورات الحوارية وهو فى شبه حلم بهيج حتى أنه تخيل أنه يقبلها فلم يسترح الى ذلك الخاطر لأن هدى لن تسمح له بالتقبيل الا بعد اتمام الزواج (٤) فهى فتاة رائعة ليست كفتيات هذه الأيام (٥) ولهذا فقد أعجب بها منذ اللحظة الأولى ومس قلبه ذلك الحياء وتلك الأنوثة المستكينة (٦) ·

ويشعر فى قراراته النفسية بسيادته عليها فيناجيها بغير هياب (٧) ومن أجل ذلك فهو يرفض ابنة عمه « عليه » لأن مطلبه فى الزواج محدد عبر عنه بقوله (أريد امرأة تخدمنى لا امرأة أخدمها ··) (٨) على الرغم من تفوق ابنة عمه على هدى فى العلم والمال والمركز الاجتماعى ·

ومصطفى فى (قافلة الزمان) لا يستريح لسماع صوت «كوثر» وهى تغنى فقد كان (يتمنى صادقا أن تصمت ، فقد كان يرى أن صوت المرأة عورة ، وقد ورث ذلك عن أهله ، فقد كانوا يشمئزون اذا ما ارتفع صوت نسوى) (٩) ·

---

(١) صدرت سنة ١٩٥٠ ·
(٢) النقاب الأزرق للسحار ص ٥٨ ·
(٣) المصدر السابق ص ٦٠ ·
(٤) المصدر والصفحة ·
(٥) المصدر السابق ص ١٠٩
(٦) المصدر السابق ص ٤٠ ·
(٧) المصدر السابق ص ٤٥ ·
(٨) المصدر السابق ص ١٠٣ ·
(٩) فى قافلة الزمان ص ٣٨٦ ·

هذا وغيره من المظاهر المؤكدة للنزعة الدينية وأصالتها فى فن السحار ، والتى سنعرض لها فى مكانها من الدراسة تبين بجلاء درجة انحيازه للفكر الدينى وحرصه على ابرازه ، • فيما عالج من قضايا ومشكلات •

على أن هناك جانبا آخر لا يمكن اغفاله فى أدب السحار يتمثل فى كتاباته الاسلامية التى أورد بعضا منها كتذييل ألحقه بأجزاء السيرة النبوية وأصدر بعضها الآخر فى كتب مستقلة ، وفيها جميعا يعرض لكثير من القضايا والمسائل التى ثار حولها الجدل وتعددت فيها الآراء • وبعضها يتصل بالرسول صلى الله عليه وسلم وحياته • بينما يتصل الجانب الأكبر منها بالمنهج الاسلامى ومبادئه وقيادته الرشيدة للحياة •

نجد ذلك فى تناوله بالبحث مسـائل ، البشارات والارهاصات بالمولد النبوى الشريف ، والوحى وفتوره ، والاسراء والمعراج واتصال الرسول ببعض الأحبار فى مكة ، كما تناول قضايا انتشار الاسلام بالسيف ، وزواج النبى وكثرة نسـائه ، ومسألة الرق وموقف الاسلام منها • ونظرية المال فى الاسـلام ، وقضية موقف الاسلام من المرأة • الى غير ذلك من الدراسات التى اسـتقطبت اهتمامه ، وكان الدافع الأساسى لهذه الدراسات فى معظم الأحـوال ، بيان وجه الحق فى الفـكر الاسلامى ، والدفاع عنه فى مواجهة حملات التشكيك والطعن التى قام بها خصوم الاسلام من المسـتشرقين واليهود والى جانب هذا الدافع تقف دوافع أخرى كثيرة منها . تنقية التراث الاسلامى من مظاهر الزيف التى حاول المغرضون ادخالها عليه لتشويه وجهه • ومنها هدف هام وحيوى يكمن فى تأكيد السحار على اظهار (فضل العرب على الحضارات الأخرى ، وكيف شاركت الثقافة الاسلامية فى تنوير أوروبا فى العصـور الوسطى ، وسـاهمت مساهمة غنيـة فى التقـدم الانسـانى فى كافة الميادين) (١) •

كل ذلك يدلنا على سيطرة الفكر الاسلامى وبروزه وأصالته فى أدب السحار • على أن هناك تساؤلات عديدة تطرح نفسها للبحث عن تعليلات مقنعة وراء انحيازه الدينى فيما قدم من فن وأدب •

ولعل أبرز العوامل أثرا فى بذر النزعة الدينية عنده يرجع الى ظروف النشأة الأولى فى بيت له تقاليده الدينية الراسخة التى تهيمن على كل فرد من أفراد الأسرة ، فلا يستطيع الانحراف عنها أو التحرك فى اطار مخالف لها • وقد بلغت الحيطة فى الأخذ بالقيم الاسلامية درجة صارمة عند القوامين على شئون البيت من الآباء والأمهات، فيما يسوسون به أبناءهم فقد جعلتهم هـذه الصرامة يشتدون فى معاملة الصغار ومحاسبتهم على كل فعل يرتكبونه من منطلق الحرام والحلال حتى ولو كان الفعل سرقة قطعة من السكر ، وكاتبنا فى طفولته لم ينج من العقاب والتعنيف عندما ضبط

---

(١) السحار مفكرا واديبا وسينمائيا الاستاذ عبد المنعم صبحى ص ١٣٩ •

متلبسا بسرقة سكر لأم عباس الندابة فقد رأته أمه (فأمسكته بيديها ، وراحت نتهره في عنف والدموع تكاد أن تطفر من مآقيها وتقول :

ـ والله عال ح تطلع حرامى . حرامى .

وحفرت هذه الحادثة في أعماقي ، وظلت صورة أمي وهي تهزني في انفعال شديد تستولى على ، وما كنت أتذكرها حتى يسيل عرق خجلى فأطرق ، وتتقاصر نفسى لكأنما الدنيا كلها تسخر منى ، وقد أثر ذلك اليوم في حياتي ، فما عدت أمد يدى الى فاكهة وضعت لنا على البوفيه حتى يؤذن لى ، وظل ذلك السلوك يلازمنى حتى بعد أن تزوجت وأصبحت رجل بيت ..) (١) .

فمنذ تفتح وعى السحار على الحياة وهو يباشر حظه فيما يقول وفيما يفعل تحت مظلة من السلوك القويم محكمة النسج موفورة القدوة ، فتعمقت في وجدانه أصول القيم المرعية ، ووجهت سلوكه ، وحددت أنماط تفكيره وتعبيره .

وثمت عامل آخر كان له أبلغ الأثر في توجيه السحار وتفكيره فنشأ من ظروف الأسرة واقامتها في حي لا يبعد كثيرا عن مقابر الموتى فما كان يوم يمر الا والنعوش تترى في جلال مهيب حاملة أعز الأحباب الى الدار الآخرة ، وتعاطفت معها على احداث الأثر في فؤاد الصغير كثرة الموتى من أهل الدار الكثيرة العدد . مما لفت نظر الصغير واسترعى انتباهه ، وجذبه الى التفكير في ظاهرة الموت والحياة والتأمل في أسرار الوجود ، واستغرق في ذلك التفكير استغراقا دفعه الى تمني الموت والخلاص من عناء الحياة ، وقد عبر السحار عن انطباع هذا الأثر في وجدانه بقوله : (لم أكن قد بلغت السادسة من عمرى بعد ، ولكنى تعلمت أن الجسد ليس الا ثوبا خلقا اذا ما غادرته الروح ، وأن الروح اذا ما غادرت الجسـد تذهب الى السماء لتخلد مع الأرواح عند خالقها) (٢) .

وما كان يوم يمر الا وأنا أذكر الموت ، ولا شك أن النعوش التى كانت تلازمنى كظلى ، كان لها أثر عميق فى نفسى . بل انها صارت احدى مكوناتى ، فقد عشت منذ نعومة أظفارى أفكر فى الموت ، وأعتقد أنه الحقيقة الوحيـدة فى الكون وأشرد طويلا مفكرا فيما بعد الموت ، وما أكثر الصور الحسية التى أمدنى بها خيالى فى ذلك الوقت للحساب ووضع الموازين والصراط والجنة والنار (٣) .

ولا شك أن ظروف الأسرة فى نشأتها وفى تمسكها بالقيم الدينية وتفتح الوعى عليها ومباشرة حياته فى ظلها واقتران ذلك كله بالتفكير فى الموت والحساب كان له أعمق الأثر فى تهيئة الكاتب للنزعة الدينية سلوكا وعقيدة وممارسة فنية . وظلت

---

(١) هذه حياتى عبد الحميد السحار ص ٣٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٨ .

(٣) المصدر ص ٨٦ .

تنمو في تكوينه على امتداد عمره الطويل ، فكانت حياته متناسقة مع أوامر الدين ونواهيه ولقد عبر عن وضوح هذا الامتداد بقوله : (لم تخمد نار جهنم فى ضمائرنا أبدا ، فكل من نحتك به من أهل البيت لا يفتأ يذكرها ، وكان أبى وأمى وجدتى وعمى الذى يسكن معنا فى دار واحدة يبذرون بأفعالهم الطيبة بذور الخير فى أعماقنا ، فقامت الجنة والنار فى سرائرنا جنبا الى جنب ، وعرفنا مذ كانت لنا مدارك أن لكل فعل مثوبة وعقوبة فى الدنيا والآخرة) (١) ·

لهذا نجد السحار يمارس هواياته منطلقا فى رحابة الحياة ، مادامت لا تتعارض مع ما غرس فى نفسه من مثل ، وما عاش فى داخله من قيم ، فكان لا يستجيب لنزوة طارئة أو فعل دنىء يخل بالشرف ، أو يتعارض مع الدين ، ملتمسا سبيل حياته على نهج الأسوة الرشيدة فى شخص أبيه خاصة وأسرته عامة · ولم يترك السحار فى مجال الاعتراف بتأثره بسلوك أبيه مجالا لجدل مفترض يجنح بالباحث الى الرفض أو التشكيك فى خصوبة الحياة الدينية التى أحاطت به من كل جانب · وهناك عامل آخر كان له فضل توجيه السحار وتأصيل المنزع الدينى فى حياته وأدبه ، يتمثل فى مجلس « السلاملك » الذى كان أشبه بمدرسة تعلم فيها الكاتب الأدب كما تعلم الدين · وقد كانت مطالعات القوم فى قصص التاريخ الاسلامى تلهب وجدانه ، وتثير عواطفه ، فكان يستمع الى مطالعاتهم فى شغف واعجاب حتى اذا تقدم فى السن ، وبلغ فى دراسته درجة يستطيع معها القراءة ، كان عليه أن يقرأ فى السيرة النبوية لابن هشام أو فتوح الشام للواقدى فاتاح له هذا الجو الروحي الفياض مجالات رحبة للرياضة الفكرية والروحية ظهر أثرها بعد ذلك عليه فى اهتماماته وكتاباته ، ولا يجد السحار بأسا فى الاعتراف بأثر السلاملك فيه وأنه كان معلما له تعلم فيه أشياء كثيرة فى السياسة والفن والحياة (٢) ·

أما فى مجال تأثره به فى الناحية الدينية فيتضح من قوله فى معرض القاء اللوم على مناهج الدراسة فى المدارس آنذاك بسبب اغفالهم الجوانب المشرقة فى تاريخ الاسلام · يقول · (درست تاريخ الفراعنة وتاريخ الثورة الفرنسية ولم أدرس شيئا عن الاسلام ونشأته ، ولولا قراءات السلاملك ما عرفت شيئا عن تاريخه وروعته فى اخراج أناس كانوا خير أمة أخرجت للناس) (٣) ·

وثمت عامل آخر ينبع من تجربة عاطفية عاشها السحار فى مطالع شبابه بكل أحاسيسه · وكانت فتنة واختبارا لكل ما ترسب فى وجدانه وتأصل فى ذاته من مثل وقيم ·

فقد أحب فتاة يهودية حبا جما ، وكانت داعرة من الرأس الى القدم ، كان

(١) المصدر السابق ص ١٢٥ ·
(٢) المصدر السابق ص ١٩٠ ·
(٣) المصدر السابق ص ٢٧٤ ·

يحبها حب روح لروح ، أما هى فكانت مدفوعة اليه بصبوة جسدية ورغبة شهوانية طاغية ولم يستجب لنداء الجسد رغم احتدام الصراع فى داخله بين متطلبات الغريزة وآفاق الروح وانتهى هذا الصراع بأن ثارت عليه كرامته ثورة عارمة وراحت تؤنبه على ربطه الأسباب بينه وبين بغى لا تعرف الا الاستجابة الرخيصة لنزواتها (وكانت معركة عبودية الروح وحريتها بين الاستسلام للقلب أو الانقياد للعقل : انه صراع مرير بذرت فيه بذور غوى الروحى ، وبدأت حياتى الباطنية تتعمق ، وجعلت أهيب بارادتى أن تعبر هذا الجسر) (١)

واستطاع السحار أن يعبر الجسر وأن يسمو فوق نزوات نفسه فما كانت تجربته تلك الا رياضة روحية واختيارا لفعالية رصيده الايمانى فى مواجهة شراسة الغريزة · وبلغ به السمو درجة عالية من الشفافية الصوفية جعلته يرى فى الظلام بعين بصيرته أنوارا تشع عليه ألوانا من الأمن · والطمأنينة ، عبر عنها وعن آثارها بقوله (صرت أتوكل على القدرة الالهية المطلقة ، فاذا بضباب حياتى ينقشع واذا بى أرتفع فوق حواجز الدنيا وعقباتها ، واذا بنفسى تتغذى بالمحبة ، وتشرئب بعنقها الى الفناء فى روح الكون ، الى الخلود (٢) ·

واذا كانت تلك العوامل جميعها تنبع من طبيعة الظروف والنشأة وتستمد وجودها من ذاتية الأديب وبيئته ، فان هناك عوامل أخرى ساعدت على تأصيل المنزع الدينى فى أدب السحار وتشكيل فكره وفنه · وهذه العوامل قد استمدت وجودها من محيط العصر وملابساته السياسية والفكرية والاجتماعية ، ولعل من أهمها فساد النظام الحزبى الذى عاصره السحار فى شبابه ورأى فيه هوة الخلاف يتسع مداها بين المتنافرين بما لا يشجع على اصلاح حال الأمة ولا يحقق جزءا ولو ضئيلا من أمانيها · فقد راح كل حزب يتهم الآخر ويعمل على تعريته بالحق وبالباطل حتى انعدمت الرؤية الصحيحة لمسار السياسة المصرية ، وأصبح الجو العام مشحونا بحالة ما يمكن أن يسمى (فقدان الثقة) ، وقد أصابت تلك الحالة أول ما أصابت شباب المثقفين فأرهقتهم من أمرهم عسرا وراح كل منهم يجتر أحلام ذاته منطويا على مشاعره وأحزانه — مما كان له أبعد الأثر فى ظهور الحركة الوجدانية فى الأدب المعاصر ·

ولا شك أن السحار قد تأثر بهذا الجو العام ، واتخذ موقفا محددا من أحداثه وصراعاته — بما يتلاءم وطبيعة تكوينه فقد قرر (ألا يكون مطية لأهواء نفر كل همهم الوصول الى الحكم باسم الأغلبية تارة وباسم مصلحة البلاد العليا تارة أخرى) (٣) ·

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨٤ ·

(٢) المصدر السابق ص ٣٤٨ ·

(٣) المصدر السابق ص ١٨٨ ·

كما قرر ألا ينضم الى الجماهير الا فيما يقبله عقله وألا يكون أحد خراف القطيع. وعزم على أن يعيش طليقا من قيود الحزبية يؤيد كل عمل يستهدف مصلحة بلاده(١)٠

وراح يبحث عن منفذ للطاقة المذخورة فى كيانه ٠ وكانت الماسونية (٢) هى أشهر التنظيمات فى ذلك الوقت فحاول التعرف على مبادئها ، ولكنه بعد أن عرفها لم يسترح اليها ، فهجرها الى البهائية (٣) وحضر بعض مجالسها ولكنه لم يقتنع بها ٠ وكان قد عرف من رواد السلاملك شيئا عن الدمرداشية (٤) فدفعه الفضول الى الذهاب اليهم فى جامع المحمدى للتعرف على أذكارهم ومبادئهم فلم يجد عندهم ما يشبع حاجته الروحية فانطلق يعدو فى كل مكان باحثا عن منفذ ومنقذ وبعد أن استبد به القلق وأفزعه ضجيج هذا الخلط والاضطراب الذى يغمر كل ما حوله ومن حوله ٠٠ فكر كثيرا حتى انتهى الى قرارعظيم استراح له وأخذ نفسه به معتصما فى رحابه من شطط الحياة وطغيانها ٠ وقد عبر عن شاطىء النجاة الذى آوى اليه بقوله : (وطنت النفس على أن يكون القرآن أمامى ، وأن أتبع سنة الرسول صلى الله عليه وسلم بلا اعتناق مذاهب أو الانتماء الى فرق فالحلال بين والحرام بين) (٥) ٠

فمظاهر الفساد السياسى التى أوجدت حالة من التمزق ، وغمرت جو الحياة بضباب كثيف ، كانت ذات أثر كبير فى اتجاه كثير من الأدباء الى ذوات أنفسهم يجترون همومها وأزانها ويصدرون فيما يعبرون عن أدب وجدانى حزين (٦) كما أنها فى الوقت نفسه كانت ذات أثر واضح فى اتجاه بعض الأدباء الى البحث عن بديل يستمدون منه عناصر الهامهم ، ووجد السحار بديله الحيوى فى النزعة الايمانية ، فاتخذها عاصما له من الزلل وراح يبدع فى فنه على هدى من الهاماتها ووحيها ٠

وكان لتصاعد نشاط التنظيمات اليسارية بعد الحرب العالمية الثانية (٧) أثر كبير فى تشكيل حركة الفكر السياسى والاجتماعى فى مصر وفى اشتداد حركة التيار الاسلامى خصوصا بعد أن احتلت قضية توزيع الثروة واقرار العدالة الاجتماعية

---

(١) المصدر والصفحة ٠

(٢) هيئة واسعة الانتشار أقيمت فى لندن سنة ١٧١٧ تهدف الى حمل أعضائها على ممارسه نشاطهم داخل اطار العالمية بغض النظر عن فوارق الدين والعنصرية والوطن ٠ أنظر د٠ محمد البهى فى ٠ الاسلام ومواجهة المذاهب الهدامة ص ١٩ وما يليها ٠

(٣) نحلة مارقة عن الاسلام تغذت من نزعات مختلفة ثم خرجت تزعم انها وحى سماوى أنظر كتاب البابية أو البهائية للشيخ محمد الخضر حسين ص ٧ وما بعدها ٠

(٤) طريقة صوفية ٠

(٥) هذه حياتى للسحار ص ٢٥٧ ٠

(٦) بانوراما الرواية العربية الحديثة د٠ سيد حامد النساج ص ٤٥ ٠

(٧) من التنظيمات اليسارية التى مارست نشاطها فى تلك الفترة ٠ الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى ، وطليعة العمال والفلاحين ، والحزب الشيوعى المصرى ٠ وكانت جماعة الاخوان المسلمين هى أبرز التنظيمات مواجهة للفكر اليسارى ، ويقترب منها فى فهمها لقضية العدالة الاجتماعية حزب مصر الفتاة ٠

جانبا كبيرا من اهتمامات هذه التنظيمات (١) واختلفت حلولهم المطروحة لها تبعا لاختلاف مبادئهم الفكرية وانتمآتهم المذهبية ، وظهر أثر ذلك كله فى القصة العربية التى عبرت عن تلك المرحلة ، وأبرزت ملامح ذلك الصراع العقائدى · بصوره المختلفة ، فظهرت رواية « الثائر الأحمر » لعلى أحمد باكثير تعبيرا عن طبيعة المرحلة فى اطار تاريخى من وراءه معالجة قضايا الواقع المعاصر أكثر من اهتمامه بابراز الصراع بين القرامطة ومخالفيهم فى العصر العباسى (٢) ·

والى جانب باكثير ظهرت بعض أعمال السحار فى تلك المرحلة ، وفيها يتوجه الى التاريخ الاسلامى يستلهم منه ابداعات فنه القصصى ، وكانت (أبو ذر الغفارى) أول قصة اسلامية له تتناول بالكشف معالم حياة هذا الرجل ودعوته الى الاشتراكية التى تنهض أساسا على تعاليم الدين ولا نكون مغالين اذا قلنا ان السحار وضع فى اعتباره عندما كتبها الرد العملى على من يتغنى بأمجاد الاشتراكية اليسارية ، وما صنعه الغرب من مكاسب ثورية تمثلت فى الحرية والمساواة ·

فجاءت قصة السحار عن أبى ذر متضمنة قيم الاسلام ومثله ، ومعبرة عن سبقه للغرب فى الدعوة الى الحرية والمساواة · يقول السحار فى مقدمته لقصة أبى ذر : (يزعم الاقتصاديون الأوربيون أن الاشتراكية وليدة التفكير الأوربى ، ألم يقولوا بأن الحرية والمساواة والاخاء من نتاج الثورة الفرنسية ، ألم يمجدوا تلك الثورة ، التى اطاحت رءوسا كثيرة ، وجرت فى سبيلها الدماء أنهارا · ؟! متجاهلين أن الحرية والاخاء والمساواة من غرس الدين الاسلامى ، متناسين أن الاسلام هو الذى تعهد هذه المبادىء حتى نمت وترعرعت وأظلت العالم) (٣) ·

والسحار كان بهذا التصور (ممن اكتشفوا أصول الاشتراكية ، فى تعاليم الاسلام وأصوله الأولى ، من خلال هضمه للثقافة الاسلامية فى جوهرها) (٤) ·

ولهذا اعتبرناه فى توجهه الى الفكر الاسلامى والابداع على أساسه كان مدفوعا بعامل الدفاع عن الاسلام واظهار محاسنه فى مواجهة الفكر الغربى فى فهمه لهذه القضية موضوع الصراع وفى غيرها من القضايا التى شغل بها الانسان المعاصر · تأكيدا للذاتية الاسلامية ورفضا لكل القيم الواردة التى لا تتناسب وطبيعتنا العربية ، وتتنافى فى مضامينها مع الاسلام عقيدة وسلوكا ، وهناك عامل آخر كان له عظيم الأثر فى توجه السحار الى الدين ، نبع من رؤيته الصادقة لواقع الانسان المعاصر ، الذى انتابه القلق من كل جانب وأصبح فريسة للنزعات والأهواء ، وأضحى يواجه فى صباحه ومسائه زفرات الشك وجراحات التمزق ·

---

(١) اتجاهات الرواية المصرية · د· شفيع السيد ص ١٤ وما بعدها ·

(٢) المصدر السابق ص ٣٧ والسحار مفكرا وسينمائيا وأديبا · للاستاذ عبد المنعم صبحى ص ٣١ ·

(٣) أبو ذر الغفارى · عبد الحميد السحار ص ١٣ · بتصرف يسير ·

(٤) السحار مفكرا واديبا وسينمائيا · عبد المنعم صبحى ص ١٣١ ·

لقد بات الانسان محوطا بذلك كله لأنه خاصم الايمان ٠٠ ولن يعود الى واحة الامن الا اذا عاد اليه مرة ثانية ٠ ومن أجل ذلك راح السحار يكتب هادفا من وراء كتابته خيره والارتفاع به الى مدارج السمو الروحي ٠ وقد أوضح هدفه بقوله عن دافع كتابته للسيرة النبوية : أردت بهذه السيرة أن أفسر التاريخ تفسيرا روحيا وأن أظهر ضمير الانسان من أدران المادية الطاغية ، وأن أعيد اليه رفاهيته التى بلغت غايتها فى ظل الدين) (١) ٠

وكانت كتابات المستشرقين وحملاتهم الضارية على الاسلام والمسلمين ـ بما تحمل فى طياتها من مفتريات وأكاذيب تهدف الى التشهير والتشكيك ـ عاملا قويا فى استنهاض الهمم وشحذ القرائح بألوان الابداعات العلمية والأدبية ٠ للرد على حملاتهم وكشف زيفهم وازاحة الريب عن ساحة الاسلام وأهله ٠ وقد تأثر السحار بهذا العامل وشارك فى الجهاد بالكلمة الفنية والصورة الصادقة والبحث الدقيق مبرزا صفاء العقيدة الاسلامية وسلامة منهجها وقدرتها على قيادة الحياة ٠ ومفندا لكل مزاعم المستشرقين سواء فى أبحاثه التى أوردها كتذييلات لأجزاء السيرة (٢) أو فى قصصه التى تناولت أحداث الاسلام ورجاله وجاءت تعبيرا صادقا وأصيلا عن الفكر الذى ينتمى اليه ٠ وهو فى جملته يستمد أصوله فى الأساس الأول من الفكر الاسلامى ٠

---

(١) أبو الأنبياء ٠٠٠ عبد الحميد السحار ص ٢٩٧ ٠

(٢) أنظر ـ السحار والفكر الاسلامى ٠٠ مأمون غريب ص ٨١ وما بعدها ٠

الفصـــل الثالث

أدبه ومنزلته بين أدباء العصر الحديث

ترتبط عملية الابداع الأدبي عند الفنـــان ببعض القدرات المزاجية والميول الفطرية التي تنشأ مصاحبة له في مراحل نموه المختلفة ، وتظل عنصرا أساسيا في تكوينه ، تؤثر فيه وتوجه مسار حياته وأدبه متفاعلة مع غيرها من عوامـل الثقافة والمؤثرات الاجتماعية (١) .

والنظرة الفاحصة لظاهرة التنوع في أدب عبد الحميد جودة السحارتؤكد صدق هذا التفسير الى حد كبير ، فقد صدر في أدبه عن ألوان متعددة وأنماط مختلفة . من أشكال التعبير الأدبي ، اتسعت لتشمل في امتدادها القصة القصيرة والطويلة والرواية والبحث الأدبي والدراسة الاسلامية ، والى جانب هذا الاتساع نراها تختلف فيما بينها مضمونا ودرجة فنية . وقد أدت هذه الظاهرة الى حيرة بعض نقاده واهتزاز تفسيراتهم النقدية ، عندما حاولوا البحث عن رؤية واضحة المعالم لاتجاهات فكره ومذاهب فنه ، كما أدت الى الانصراف عنه والابتعاد عن عالمه عند البعض الآخر ممن لا يمارسون عناء في بحوثهم ودراساتهم مكتفين بالمشهور من الأعمال الأدبية والقواعد النقدية التي وردت بشأنها .

ومع هذه الحيرة التي يصادفها نقاد السحار نجد هذا الحشد الهائل من مؤلفاته يدل دلالة أكيدة على اتساع أفقه ورحابة فكره وفنه واتسامه بالحركة والانطلاق ، وأنه عندما صدر عن هذا التعدد قد أرضى ميلا فطريا في ذاته نشأ معه وجبل عليه . فمنذ أن تعرف على الحياة وعرف كيف يحبو على الأرض ، وهو يتوق شوقا الى الانطلاق في رحابة الكون يستكشف أسراره ويستجلي غرائبه ، وكانت الفرحة تغمر كيانه لأنه أصبح طليقا في العالم الواسع يداعب وجهه النسيم (٢) في كل مكان حتى أنه كان (لا يستطيع أن يمكث في مكان واحد لدقائق معدودة) (٣) .

---

(١) الأسس النقدية للابداع الفني في الرواية د. مصرى عبد الحميد حنورة ص ٢١ « بتصرف » .

(٢) هذه حياتي . عبد الحميد جودة السحار ص ٨ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٢ .

ومن هنا كان التنوع فى أدبه نابعا من طبيعة فيه لم تفارقه منذ أن كان صغيرا، وهو تنوع ـ رغم اختلاف أشكاله ـ يشير الى أنه نتاج شخص عبقرى يرصد حركة الحياة من زوايا متعددة بحثا عن الحقيقة فى حياة الانسان ومواجهاته الشرسة مع عناصر الخير والشر فيه ، يعرض ذلك فى صور مختلفة الأشكال والألوان لتلائم فى كل حالة منها طبيعة الفكرة التى يعالجها والغاية التى يهدف اليها ـ وقد تبلورت هذه الغاية فى جميع أعماله الأدبية من خلال مايؤمن به وما يعتقد فيه من أننا (يجب ألا نكون فى الحياة مثل « دون كيشوت » نصارع طواحين الهواء · انه من العبث أن نتطاول على السماء ، ومن الخير للانسان أن يتناسق مع وجوده الانسانى ، ومع عالمه الخارجى وعالمه الداخلى ، وأن يسمو فى كل أفعاله ليتصل بعالمه العلوى) (١) ·

ومن خلال تتبعنا لرحلة السحار الأدبية وجدناه لا يسير فيها وفقا لخطة مرسومة. يأخذ نفسه بها ، ويصدر عنها ولكنه يصدر فى جميع أعماله الأدبية من منطلق حاجته الى التعبير وفقا لما تمليه عليه طبيعته الفنية ، والحاح فكرة بعينها على ذهنه تريد الانفلات من عالم الوجدان لتحيا طليقة فى عالم الأحياء ·

لهذا آثرنا تناول أدبه على ضوء ما تحدد من الأشكال الأدبية فى العصر الحديث مما يتصل بمجالات الابداع التى تفرغ لها ، واشتهر بها ، والتى تتنوع لتشمل القصص التاريخى بروافده المتعددة ، والقصص الاجتماعى بألوانه المتميزة الى جانب قصص الأطفال والكتابة الدينية والبحث الأدبى · الى غير ذلك مما لا يكفى معه الاقتصار على جانب واحد منها بالعرض والبيان · بل لابد من ولوج جميع المجالات للاحاطة بمناحى التفرد فى أدبه ، وحتى تتبلور الملامح وتبرز السمات ·

أولا : القصص التاريخى :

وفى هذا المجال كان السحار على قدر كبير من الخصوبة والثراء ، ففيه وحده أصدر كثيرا من القصص . بعضها يعالج قضايا المجتمع المعاصر من خلال التاريخ المصرى القديم فى (أحمس بطل الاستقلال ـ ١٩٤٣) وكان أول أعماله وبعض منها عالج قضايا مصر الحديثة فى (قلعة الأبطال ١٩٥٤) و (السهول البيض ١٩٦٥) وفى جانب آخر من هذا اللون راح يستلهم أحداث التاريخ العربى الاسلامى مستمدا منه أفكاره والهاماته ، وذلك من خلال قصصه عن (أبى ذر الغفارى ١٩٤٣) و (وبلال مؤذن الرسول ١٩٤٤) و (سعد بن أبى وقاص ١٩٤٥) وكذا عن (أبناء أبى بكر الصديق ١٩٤٦) و (أهل بيت النبى ١٩٤٨) و (أمير قرطبة ١٩٤٩) وأيضا عن (المسيح بن مريم ـ ١٩٥١) و (حياة الحسين ـ ١٩٥٤) وقصة السيرة النبوية عن (محمد رسول الله والذين معه) فى أجزائها العشرين التى صدر الجزء الأول منها

---

(١) السحار والفكر الاسلامى مأمون غريب ·

١٩٦٥ · بينما صدر الجزء الأخير من أجزائها سنة ١٩٧٠ ثم كانت قصته عن (عمر بن عبد العزيز ١٩٧٢ (هى الأخيرة فى هذا المجال ·

والسحار فى كل هذه الأعمال لم يكن معنيا بتقديم التاريخ المجرد على أنه أخبار ووثائق ومدونات بقدر ما كان معنيا بابراز مثله وقيمه من خلال وسائله الفنية التى يستعين بها فى بلورة أفكاره وعرض قضاياه ، موائما بين حاجة المؤرخ الى الحقيقة لايعدوها وبين حاجة الأديب الى التعبير الجميل وفق ما يتراءى له الأشكال الأدبية وقدرتها على النهوض بعبء الوظيفة المنوطة بها ·

والفصل بين التاريخ والأدب من هذه الزاوية له أهمية كبرى فى تناول القصص التى قدمها السحار فى هذا المجال لأن بعض النقاد قد عزل عنه صفة الأديب فى بعض منها وآثر الصاق صفة المؤرخ به للدلالة عليه فيها ، وأخضعه لموازين الكتابة التاريخية والدرس العلمى استنادا الى أن هذه القصص لا ينهض بناؤها على عناصر تكوين القصة بالمفهوم النقدى الحديث (١) · وهذا الاتجاه النقدى ينحرف كثيرا عن جادة الصواب ويبعد عن الموضوعية وهى لازمة أساسية للناقد الحصيف ، فاذا كانت الرواية التاريخية (لا تعنى بتقديم التاريخ للقارىء بالدرجة الأولى ، لأن وثائق التاريخ كفيلة بأداء هذه المهمة · وانما تكمن قيمتها الفنية فى مدى براعة الكاتب فى استغلال الحدث التاريخى واعتماده اطار ينطلق منه لمعالجة قضية حية من قضايا مجتمعه الراهن) (٢) فان السحار قد صدر فى قصصه التاريخى بمختلف روافدة عن وعى كامل بهذه الوظيفة للقصة التاريخية ، وطبيعة دورها فى معالجة قضايا الانسان المعاصر ، والتعبير عن همومه ومشاكله بل انه لجأ الى التعبير عن ذلك من خلالها منذ البداية الأولى التى انطلق نتاجه القصص منها ، فقد كانت قصة « أحمس بطل الاستقلال » صرخة من أجل الحرية حيث استخدم الكاتب ظروف القهر التى كان المجتمع المصرى القديم يحياها فى ظل الغزو الأجنبى من عناصر الهكسوس ، ليعبر بها عن ظروف المجتمع المصرى فى الثلاثينات ومطلع الأربعينات (٣) وكان الدافع الذى دفعه وغيره الى ولوج هذا الطريق فى التعبير عن هموم الانسان المصرى فى ذلك الوقت يرجع الى ظروف التسلط والاستبداد التى كان يعيشها الشعب ، والتى وقفت حائلا بين المثقفين وبين التعبير الحر عما يعانونه من أزمات · فلم يكن أمامهم الا الكتابة التاريخية كمادة يستلهمونها فى عرض قضاياهم وأفكارهم ، وكان اختيار السحار حياة أحمس بطل الاستقلال لأنها كانت تمثل من وجهة نظره (مرحلة انطلاق للمصرى فى مناهضته للغزو والتحرر من نير الأجنبى) (٤) ولم يكن السحار وحده فارس

---

(١) اتجاهات الرواية المصرية د· شفيع السيد · ص ٢٣ ·

(٢) المصدر السابق ص ٢٤ ·

(٣) السحار مفكرا واديبا وسينمائيا ·الاستاذ عبد المنعم صبحى ص ٣٠ ·

(٤) المصدر السابق ص ٢٠ ·

الميدان فى مجال الاتجاه الى التاريخ فقد شاركه نجيب محفوظ الذى صدر له فى هذا الاطار روايات « عبث الاقدار » و « رادوبيس » و « كفاح طيبة » ٠

وكانت رواية « ملك من شعاع » لعادل كامل وقصص محمد فريد أبو حديد وعلى أحمد باكثير ، ومحمد سعيد العريان ، وعلى الجارم من أبرز الأعمال أصالة فى هذا الاتجاه ٠

وهؤلاء جميعهم قد توجهوا فى جانب من أعمالهم الى التاريخ وان اختلفت المرحلة التى استمدوا منها مادة ابداعهم ٠٠٠ فالسحار قد توجه الى مصر القديمة أول ماتوجه ثم هجرها متفرغا بعد ذلك للتاريخ الاسلامى ، ولم يبدع نجيب محفوظ فى مجال الرواية التاريخية الا فى رواياته الثلاث منتقلا الى الواقعية وكان اهتمام سعيد العريان منصبا على مصر الاسلامية ، بينما اتجه محمد فريد أبو حديد الى تاريخ العرب قبل الاسلام فى معظم أعماله (١) ٠

والظاهرة التى تعنينا هنا بالدرجة الأولى تتصل بالمنحى الذى سار السحار عليه فى أعماله التاريخية ٠ فقد توجه الى التاريخ المصرى القديم فى قصة واحدة ٠ ثم تفرغ بعدها للتاريخ الاسلامى يستلهم منه مادته القصصية كما هو واضح ، وهذا المسار يؤكد حقيقة ولائه للفكر الاسلامى وتأثره به أكثر مما تأثر بالنزعة الفرعونية فلم تكن هـذه النزعة أصيلة فى فكره وفنـه على السواء بل ظاهرة عارضـة واستجابة طارئة لموجة فرضت نفسها على واقع الحياة والفن وتحمس لها بعض من تهيأت لهم من ظروف النشأة وعوامل الثقافة والتكوين ما أهلهم لتلقن أفكار تلك النزعة بالقبول والاعتقاد ٠ فنجيب محفوظ (كان مشبعا بالدعوة الى الفرعونية ، واحياء أمجاد مصر القديمة التى كان يحمل لواءها بعض الكتاب المصريين اذ ذاك) (٢) وهذا ما لا نجد له نظيرا فى حياة السحار وثقافته ٠

ومن هنا لا نعجب اذا وجدنا أول رافض للقصة الوحيدة التى كتبها فى هذا الاتجاه ، وان كان يبنى رفضـه لها على أسـس فنية ترجع الى خصائص الصـياغة وواقعية البناء ٠ فقد حشد فيها الحوادث حشـدا وجعل بطلها قادرا على كل شىء ، يقتحم الأخطار وينتصر ، ويغزو القلوب وينتصر ، ويغنى بنفس المهارة التى يخوض بها الحرب ، ويلعب بالآلات الموسيقية لعبه بالرماح (٣) ٠ وبلغ من رفضه لتلك القصة أنه بعد صدورها فى كتاب فكر فى جمعها من السوق واعدامها (٤) عن السبب فى التنكر لها عقب ولادتها بقوله : (ان هذه القصة لم تتم مدة حملها ، فلكل قصة مدة

---

(١) بانوراما الرواية العربية الحديثة د٠ سيد حامد النساج ص ٤٥ وانظر اتجاهات الروايـة المصرية د٠ شفيع السيد ص ٢٣ ٠

(٢) اتجاهات الرواية المصرية د٠ شفيع السيد ص ٢٣ ٠

(٣) صور وذكريات عبد الحميد جوده السحار ص ١٨٢ ٠

(٤) المصدر السابق ص ١٨٦ ٠

حمل لابد أن تعيشها فى عقل المؤلف قبل أن ترى النور ، حتى اذا تم تلوينها ألحت عليه تريد الخروج وان القصة التى تستوفى مدة الحمل تخرج سليمة واضحة الملامح ، نابضة بالحياة ، أما التى تخرج قبل استيفاء مدة الحمل فانها تخرج عادة جثة هامدة لا حيـاة فيها ، والذى حـدث لقصتى الأولى كان اجهاضا) (١) ولم يحـدث هذا الاجهاض لها ــ فى رأيى ــ الا لأنها كانت بمثابة ابن غير شـــرعى فى أدب الكاتب فالأدب بأشكاله المختلفة ما هو الا تعبير عن فكرة صاحبه وفلسفته فى الحياة ، وقد تبلور فكرة السحار وفلسفته الخاصة فيما صدر بعد هذه القصة من أعمال ترتبط فى أغلب مناحيها بالنزعة الاسلامية وتكشف (عن بداية خروج مجتمعنا من اطار فكرة القومية المصرية الضيقة ، ليلتقى بالأقاليم العربية الأخرى على مستوى القومية العربيـة) (٢) ٠

وجاءت أعماله الاسلامية تأكيدا لهذا الاتجاه ٠ فقد أكثر فيه وأجاد وعرض من خلاله صورا مشرقة للحياة السياسية التى عاشها العرب والمسلمون فى ظل كفـالة الدين ومثله العليا ونماذجه الراشدة وأبطاله الخالدين الذين ساسوا الناس بالعدل وقاموا الظلم على مســـتوى النفس والجماعة ، وارتفعوا عن الدنايا بعـــد أن داسوا رغائبهم ولذائذ حياتهم ، واشتشعروا لذة الايمان بالله فجاهدوا فى سـبيله حتى دانت لهم الدنيا وتغيرت قيم الجاهلية ٠

والسحار فى ذلك يقدم البديل الأمثل للانســان المعاصر الذى غلفه ضـباب الحيرة ومزق حياته صراع القلق ، ففى كل ما عرض يقدم الحلول العملية لصـلاح حال الحياة ، مستوعبا مشاكل الانسان المعاصر وهمومه وأوجاع نفسه ، ايحاء منه بالمطلوب ، وتلميحا بضرورة التغيير على أساس من هداية الدين ومبادئه ، واقتداء بجهاد أبطاله فى سبيل تغيير قيم الحياة الى ما هو أفضل ، وعلى أساس هذا الفهم تكون رؤية السحار الفنية والفكرية نابعة من ايمان يقينى بالقيم التى قدمها وقدرتها على التغيير فى المجتمع المعاصر ، ومن ثم تكون هذه الرؤية موصولة بالتاريخ ومرتبطة بالواقع الاجتماعى والقومى الذى عاشه الكاتب وليست رؤية مجردة يهدف الكاتب بعرضه لها تقديم التاريخ خاليا من الجفاف فحسب ٠

وبعض النقاد قد أسقطوا من حسابهم عددا كبيرا من قصص السحار الاسلامية لجافاة الربط بينها وبين الواقع المعاش على أساس ما يسمى بعلاقة « التنظير » فقد آشار د٠ شفيع السيد فى احدى صفحات كتابه عن الرواية المصرية ٠ الى أن سلسلة كتابات السحار الدينية بأسلوب قصصى لا تعنيه ولم يعدها ضمن الرواية التاريخية التى كتبها (٣) بل انه حتى فى موقفه من الروايات الثـلاث التى اختارها للسحار

(١) القصة من خلال تجاربى الذاتية ٠ عبد الحميد جودة السحار ص ٩ ٠

(٢) تطور الرواية العربية الحديثة فى مصر د٠ عبد المحسن طه بدر ص ٤٠٢ ٠

(٣) اتجاهات الرواية المصرية د٠ شفيع السيد ص ٢٣ ٠

ممثلة للاتجاه التاريخي عنده نجده يضعها في المرتبة الثالثة بعد روايات نجيب محفوظ وعادل كامل . للسبب السابق نفسه . وهو مجافاة الربط بين التاريخ والواقع .

ومن خلال تتبع المنهج النقدى الذى سار الناقد عليه في الحكم على الأعمال التى اختارها ممثلة للرواية التاريخية رأيناه يناقض نفسه فقد علق على رواية « مالك من شعاع » لعادل كامل بقوله : (وقد نهج الكاتب فى بناء روايته نهج كتاب الرواية التاريخية من حيث الاعتماد على حقائق التاريخ التى استقاها من مصادر مصرية وأجنبية ثم ملء الفجوات بأحداث خيالية تتسق مع قيم العصر وظروفه وتستند الى حقائق السلوك الانسانى العام) (١) .

واذا طبقنا ذلك على نتاج السحار فى هذا المجال بصفة عامة نجده قد سار عليه والتزم به فلم يقدم فى أعماله ما يتنافى مع المنهج السابق أو يناقضه فلماذا أخرج الناقد أعماله التاريخية بصفة عامة من ساحة الرواية الفنية .. ؟.

ان ذلك يرجع فى نظرى الى سبب آخر يكمن فى قضية المضمون الفكرى الذى عالج السحار من خلاله أعماله بما يحمل من قيم ومفاهيم لم يرض عنها بعض نقاده لأنها فى حسابهم التقدمي تمثل رجعية وفنية . مما سوف نعرض لمناقشته فى فصل آخر من فصول هذه الدراسة .

وبالنظر الى قصص السحار عن أبطال الاسلام نجده يقدم نماذج شتى لابطال تفردت ذواتهم وتباينت ملامحهم ولكنهم رغم هذا التباين وذلك التفرد يشتركون فى الخصائص الايمانية العامة التى كونت الشخصية الاسلامية فى ذلك الوقت وجعلتها تتمتع بكثير من الايجابية فى مواجهة الحياة .

وكان (أبو ذر الغفارى) صورة حية للبطل الثورى الرافض الزاهد الذى (هب فى وجه السلطان لما انحرف عن الجادة يصيح فى وجهه ان المال مال الله) (٢)ويبدأ السحار فى ابراز ملامح أبى ذر الرافض فقد رفض أولا آلهة قومه وأجهد نفسه فى البحث والتفكير دون أن يستسلم لأوهام عبدة الأصنام ، وبعد أن اهتدى الى شيء من الحقيقة أعلن عصيانه وأظهر رفضه فأخذ حجرا ورمى به (منـــاة) فالفاه مفرقا فى البله والوجوم فقال فى صراحة للاله الذى لا يسمع (انك عاجز لا قادر ، مخلوق لا خالق ، لا حول لك ولا قوة فعلام تعبد ولم تنحر لك العقائر ، وتقدم لك القرابين ؟ ان قومى فى ضلال مبين) (٣) وظلت رحلة البحث عن الحقيقة تصطرع فى داخله حتى انقشع الظلام وتبددت سحائب اليأس بالاسلام .

فارتحل الرجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولزمه على سبيل الأسوة

---

(١) المصدر السابق ص ٢٧ .

(٢) صور وذكريات عبد الحميد جودة السحار ص ٢٩ .

(٣) أبو ذر الغفارى عبد الحميد جودة السحار ص ٦٢ .

الحسنة جهادا من أجل الدين وزهادة في الدنيا حتى اذا لحق الرسول بالرفيق الأعلى وامتد الزمان الى عهد عثمان رضى الله عنه وبدأت بعض مبادىء الدين تختل فى نفوس طبقة الأمويين ومن نحا نحوهم · ورأى الرجل معالم ظلم يوشك أن يسود وبوادر افتئات على الدنيا توشك أن تعم أعلن رفضه وصار محط رحال المظلومين وأمـل المناوئين للسلطة الطاغية · فجاهد فى سبيل زلزلة البغى والعدوان داعيا الى الزهادة فى المال وانفاقه فى وجوه الخير واحقاق حق الفقراء فيه · وكان صوت ثورته يثير الرعب فى قلوب الطبقة الاموية الحاكمة ومن والاهم من الأغنياء فكان نفيه هو القرار الذى استراحوا اليه اتقاء الفتنة وخوفا من الثورة · وظل فى منفاه زاهدا عابدا حتى مات وحيدا آمنا فى جوار الله ·

قدم السحار ذلك من خلال محاور عديدة أقام عليها بناء القصة مبرزا معالم البيئة وتناقضاتها وعناصر الصراع ، معتمدا على وسائله الفنية التى يجيدها من سرد ووصف وحوار ، خصوصا ذلك الحوار الداخلى الذى يقيمة السحار بين الشخصية ونفسها وهو وسيلة بارعة يتمكن بها من الولوج الى أعماق النفس البشرية فى لحظات صفائها ، ومواجهاتها لأحداث الحياة ·

وعلى هذا المستوى الفنى فى الأداء قدم « بلال مؤذن الرسول » عارضا قصـة حياته وجهاده مبرزا ملامح البيئة الجاهلية فى بيت أمية بن خلف وما امتلأت به ساحة مكة من أوهام وعقائد تتصل بالآلهة المعبودة عندهم · وكيف كان بلال يحيا وسط هذا الخضم المتناقض وهو فى بيت سـيده لا وجود له · ولا حرية فى قول ولا فعل · انه يفكر ويتكلم ويعبد عندما يريد سـيده لا عندما يريد هو ، اذ كان لا يعدو الا ان يكون دمية تتحرك على غير وعى من ذاتها ، ويظـل كذلك حتى تبدأ نقطة التحول فى حياته عندما بدأت بذور الشك فى « هبل » تبذر فى أعماقه ·· وتظل فى نمائها حتى يبددها حديث أبى بكر عن محمد والنبوة فتبدأ رحلة جديدة فى حياته يندرج فيها تحت مظلة الانسان · وتعود اليه السيادة على ذاته فيتحرك من منطلق الأخوة الانسانية على هدى من شريعة المساواة مجاهدا فى سبيل الله وملازما رسوله ، ومن بعده صحابته الراشدين ·

وهكذا استمر عطاء السحار متدفقا ذاخرا بالخصوبة والعطاء واتساع النظرة وتعدد الاهتمامات · فقد قدم قصة (أهل بيت النبى) صلى الله عليه وسلم وما حدث لهم من مواجهات بعد وفاة النبى وانقضاء عهد أبى بكر وعمر ، وقد بلغت الخصومة بينهم وبين الأمويين أشدها على عهد عثمان ومع اشتداد الفتنة ، وكانت قصة الصراع الدامى الذى أنهك حياة الأمة الاسلامية فى حروب كثيرة دارت رحاها بين المسلمين · وكيف كان أهل البيت يجاهدون فى سبيل اعادة الحياة الاسلامية الى ما كانت عليه انصافا وعدلا فى حياة الراشدين من الخلفاء وظل جهادهم من أجل ذلك دون فتور حتى سقط الحسـين شهيدا فى معركة كربلاء · ووقع أهـل بيته فى أسر الأمويين متعرضين لبطشهم وقسوة تنكيلهم ·

وقد أبرز السحار ذلك كله متبعا حركة الخصومة التاريخية بين الهاشميين والأمويين بدءا من عودة علي مع النبي الى المدينة مغتبطا بعد انتصار بدر (فقد صال وجال في بدر وجدل صناديد المشركين وما دار بخلده أنه أوغد صدور الأمويين ؟ فما حصد رءوس رجالهم الا سيفه ، فجرعهم الحزن المرير ، فيا للفتى الشاب ! ما اشتد ساعده حتى أذاق سادات الأمويين وأصهارهم المنون ، فبات بينه وبينهم تارات ، وبذر في صدورهم بذور الغل والأحقاد) (١) ٠

واستمر السحار في تتبعه لحركة الخصومة وعواملها من خلال سرده القصصي حتى استشهاد الحسين في كربلاء وخروج أهل بيته من دمشق (قاصدين مدينة جدهم العظيم ، وراح رسول يزيد يسايرهم بالليل فيكونون أمامه حيث لا يفوتون طرفه ، وجعل يسألهم عن حوائجهم ويلاطفهم حتى بلغوا المدينة ، فخرج الناس من دورهم وقد لبسوا السواد ، وقد لاح في محياهم أعمق الحزن ، وران على المدينة وجوم ، فقد كان اليوم أشبه بيوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) ٠

وعلى مستوى آخر من الأداء الفني الرائع عبر السحار عن ملحمة الجهاد الذى خاضه المسلمون من أجل رفع راية الدين على امتداد الفترة التاريخية التي صحبت مبعث الرسول في مكة وحتى انتصار المسلمين على الفرس ودخولهم قصر كسرى العظيم وقد عرض السحار ذلك من خلال (سعد بن أبي وقاص ١٩٤٥) وما تعرض له من تعذيب وطرد وتشريد حتى اشتد ساعد الاسلام فخاض سعد في سبيله معارك هائلة يشيب من هولها الوليد ، حتى توطدت دعائمه ورفعت أعلامه ورفرفت على العالمين فقرت عين سعد وأطمانت نفسه وأخذ الاسلام في الاشراق ، وأخذ سعد في الغروب) (٣) حتى لقي الله راضيا مرضيا ٠

ولم يتوقف السحار عند هذا الحد وانما راح يقدم لنا من خلال (عمر بن عبد العزيز ١٩٧٢) صورة رائعة لخامس الراشدين ، وقد وقف مناضلا في سبيل اعادة الحياة الى منهج الدين بعد أن كان الأمويون قد ضلت بهم السبل وانحرفوا عن طريق الاسلام الصحيح منغمسين في اللهو والترف وايثار الدنيا وحب الذات ٠ فأعاد الخليفة الراشد تيار الحياة الى ماكانت عليه زمن جده عمر بن الخطاب عدلا وزهدا وسهرا على مصالح الناس ورفع المعاناة عنهم فكان مثلا أعلى للحكام المخلصين وكانت قصة حياته وكفاحه لوحة ايجابية قدم السحار من خلالها بالدليل العملي قدرة الدين على الانتفاع بالانسان الى أعلى مدارج الأمن والسعادة ٠ مثيرا في الانسان المعاصر عوامل التطلع الى المثل عن طريق الوعي بالماضي والعمل على محاكاته ، وكانت السيرة النبوية أكثر الأعمال أصالة وابداعا اذا قيست بغيرها من القصص التي تناولت أعلام الاسلام ٠ فقد قدم السحار فيها تصوره لتلك المدة الطويلة الممتدة من أبي الأنبياء

(١) أهل بيت النبي ص ٧ ٠

(٢) المصدر السابق ص ٤٣٩ ٠

(٣) سعد بن أبي وقاص للسحار ص ٢٣٤ ٠

ابراهيم عليه السلام الى وفاة أبي بكر رضى الله عنه • عارضا خلالها أحداث التاريخ وصراعاته من منطلق ايمانه بالتفسير الروحى له حيث يرتبط تطور الأمم والشعوب فيه بازدهار الدين (فما كان هناك رقى بشرى الا فى ظل الديانات ، ويتبع كل نهضة دينية نهضة في العالم،ويعقبالنهضة الدينية عصور مادية هابطة ورفاهيةوانحلال)(١) وعلى أساس هذه النظرية راح السحار يطل من نافذته على العالم فى الأزمنة السحيقة وعلى مستوى البيئات المختلفة بحثا عن تأكيد يفسر صدق نظرته • فتجول فى ربوع الدولة الرومانية والامبراطورية الفارســية وغيرهما من الأماكن مبرزا جانب الحياة الدينية وأثرها فى حياة الشعوب ، قوة وضعفا حتى اذا وصل الى جزيرة العرب وقف طويلا يستنطق التاريخ ويحاور الزمان والأشخاص على اختلاف ملامحهم وصورهم فاذا به يراهم فى سفاهة الجاهلية قد غرقوا فى محيط المادية يتجرعون الجهل غصة في حلوقهم ويلتمسون الأمن الكاذب في بيوت الأصنام حتى أشرقت شمس الاسلام فازدهرت الحياة به وعلا شأن العرب وكان لهم فضل كبير على العالمين وماكان ذلك الفضل الا بسبب ارتباطهم بالدين •

وعلى اساس هذا التصور راح السحار يكتب قصة السيرة النبوية على نحو لم يسبق اليه • فقد تتبع تفاصيل حياة الرسول منذ ولادته وما أحاط به من قيم المجتمع الجاهلي وعاداته وعقائده • وكيف عاش رسول الله معها فى طفولته وصباه وشــبابه ورجولته حتى بعثه الله بالنبوة والهداية • فدعا الى الله على وعى وبصيرة مجابها صناديد العرب ومتحملا حماقاتهم حتى استقام سبيل الهدى وارتفعت كلمة الله فانطلق بالدين الى كل الآفاق ليعيد للحياة شبابها وقوتها • يعرض السحار ذلك من منظوره الخاص بأسلوب أدبى يتخذ من الشكل القصصى وسيلة للتعبير عن أفكاره ورؤاه • فكانت مهمته صعبة وعسيرة لأن الامتداد الزمنى والمكانى الذى اعتمده ارضا لمعالجة قصنه يبلغ من الاتساع ما لا قدرة لأحد على الاحاطة به وتتبع دقائقه الا من أتاه الله عبقرية فذة وقدرة موفورة المواهب حتى يستطيع بلورة ملامح تلك الفترة بأسلوب المعالجة القصصية فتتحول على بديه من التاريخ المجرد الى عالم الأدب بقيمة الجمالية •

واذا كانت السيرة بمعناها العام (هى البحث عن الحقيقة فى حياة انسان فذ ، والكشف عن مواهبه وأسرار عبقريته ، من ظروف حياته التى عاشها والأحداث التى واجهها في محيطه والأثر الذى خلفه في جيله ، لذلك كانتأقرب الى التاثير الدرامى من كل ألوان التاريخ الأخرى ، وكانت أكثر اثارة للقارىء من كل كتابة تاريخية غيرها ، حيث تجيش بكافة الانفعالات والعواطف التى تثور فى أعماق البشر والتى تنجرد منها الواقعة التاريخية كحدث) (٢) فان الأديب الموهوب يستطيع أن ينتقل بها الى عالم الأدب بما فيه خصوبة وحيوية • فنراه من أجل ذلك يستحضر الشخصية

---

(١) صور وذكريات • عبد الحميد جوده السحار ص ٢٣٦ •

(٢) التاريخ والسير د• حسين فوزى النجار ص ١٤ •

في وجدانه وينفعل بها وبالمواقف والأحداث التي واجهتها فيكون تعبيره عنها مليئا بالحياة والحركة .

وقد وفق السحار في قصة السيرة الى حد كبير على الرغم من الصعوبة البالغة التي تنفرد بها ممثلة في الحشد الهائل للشخصيات التاريخية التي تموج في داخلها على امتدادها واتساعها .

ان تتبع هذه الشخصيات وبلورة ملامحها ومواقفها في أحداث متلاحمة متناسقة يحتاج الى قدرات خارقة وثقافات تاريخية متنوعة تمنح الكاتب قدرا من البصيرة الواعية ينفذ على ضوئها الى عالم كل شخصية وموقفها من الصراع الدائر على خريطة الحياة . وقد كانت تلك القدرات موفورة عند السحار . فنحن في قصة السيرة التي ألفها نجد أنفسنا (أمام قصة كاملة وأمام شخصيات تنمو مع الأحداث ، وأمام أحداث واقعية مثيرة ومن كل هذه الزوايا كان المؤلف موفقا كل التوفيق في رسم صورة لعصر ما قبل الرسالة وعصر الرسالة ..) (١) ونعلم أن السحار كتبها في أخريات حياته بعد خبرة طويلة وممارسة فنية أصيلة لفن القصة الذي كان واحدا من أعلامه فأودع فيها عصارة فنه ولهذا جاءت على درجة عالية من الجودة في الصياغة والتسلسل جامعة لكل أنماط الفن القصصي نجد فيها الوجدانية التحليلة والصوفية السامية ، والواقعية الملتزمة والخيال البديع الذي لا يبعد عن الحقيقة ولا يجافيها بل يترك من الظلال ، والرؤى ما يمنح الصورة قدرا كبيرا من الحيوية والاثارة ويجعلها تعيش في وجدان الانسان المعاصر وكأنه واحد من أبطالها وشاهد على أحداثها .

وعلى مستوى الجانب الثالث من جوانب القصة التاريخية عند السحار قدم قضية الكفاح في مواجهة الأجنبي في قصتين تناول في الأولى منهما (قلعة الأبطال) مرحلة كانت حياة مصر السياسية والاجتماعية فيها يسودها البؤس والشقاء بسبب فساد السلطة الحاكمة ممثلة في الخديوى اسماعيل وما منى الشعب به على يديه من ضياع نتيجة لترفه وديونه . ثم من بعده كان الخديوى توفيق واستبداده واستعانته بالأجانب الأمر الذي أدى الى الاضطراب وقيام الثورة العرابية تعبيرا عن نمو الوعى العربى واشتداد ساعده ، يبلور السحار ذلك من خلال شخصية أحمد عرابى وبطولته، مبرزا دور رفاقه الأحرار بصفة خاصة ، دون أن يفصل ذلك عن الوعى العام الذي مثلته الشخصية الوطنية على كافة مستوياتها . وقد كان (حامد) بطل القصة بلورة من الكاتب لدور الشخصية الوطنية ورمزا لتفتح معالم الوعى في حياتها وكانت أسرة حامد هي المنطلق الذي اعتمد السحار عليه في التعبير عن ظروف مصر السياسية والاجتماعية خلال تلك المدة من الكفاح الوطني . والقصة في رأى بعض النقاد أقرب الى تسجيل بطولات الشعب وتضحياته بصورة ساذجة ، منها الى الرواية التاريخية التي تستشرف آفاق الحاضر من خلال المعالجة الواعية لأحداث مرحلة زمنية ماضية (٢)

---

(١) السحار والفكر الاسلامي . مأمون غريب ص ٦٩ .

(٢) اتجاهات الرواية المصرية د. شفيع السيد ص ٣٦ .

بمعنى أن القصة تتضمن من الاسقاطات مايجعلها ترتبط بالحياة المعاصرة • فتكون تعبيرا عن وعى الكاتب بالمرحلة التى يعيشها وما تموج به من قضايا سياسية واجتماعية والسحار فى تناوله لقضية الكفاح الوطنى ابان الثورة العرابية لم يبعد كثيرا عن ساحة الصراع السياسى الذى ظل موجودا حتى اصدار الرواية فقد صدرت وآن الانجليز لا يزالون يحتلون الأرض ويمارسون عليها نشاطهم رغم قيام ثورة ١٩٥٢ •

فهو بما عرض يقدم رؤية سياسية لحلقة من حلقات الصراع ضد الفساد الأجنبى تمثلت فى الثورة العرابية كبداية وتجربة تتصل اتصالا مباشرا بطبيعة المرحلة المعاصرة ومتطلبات الوعى الحاضر فى مجابهتها •

وفى « السهول البيض » يتحدث عن حرب بور سعيد والعدوان الثلاثى ١٩٥٦ مبرزا دور الوعى الشعبى الناهض وتفهمه لقضية العدوان • وذلك من خلال رؤية اسلامية للموقف تتحول معها الحرب ضد العدوان الى حرب مقدسة لصيانة بلاد الاسلام من غزو المعتدين وتأكيدا لهذا المفهوم راح السحار يعرض على لسان أبطال القصة جذور الخلاف بين الحضارة العربية وحضارات البلاد المناوئة للعرب فى ميدان القتال وخارجه على امتداد الساحة العالمية • وموضحا فى الوقت نفسه من خلال الأشخاص فى القصة رؤية الغرب للعرب وللاسلام وأنه الأساس فى قضية الصراع والغزو منذ القدم •

ونتيجة لهذا الخط الفكرى الذى انتهجه فى معالجة الحدث كانت شخصياته فى القصة على هذا المستوى النفسى والدينى •

ولعل شخصية الشيخ « حسن » أبرز مثل على هذا فقد رسم السحار ملامحه بما يتفق وطبيعة المعالجة التى يسير عليها • فقد جعله يتحرك فى كل موقف على أساس نظرة اسلامية فقهية ويلتزم بالسلوك الاسلامى قولا وفعلا وعقيدة • ولا عجب فى ذلك فقد (كان مغرما بقراءة الكتب الدينية • يحفظ كثيرا من السور القرآنية والأحاديث النبوية وكان يقتطع من أجره المحدود كل شهر مبلغا يشترى به الكتب الاسلامية •• وكانت أحلام يقظته تدور حول الدعوة وكثيرا ما كان يرى نفسه بعين خياله يدعو الناس الى الهدى ويعيد الضالين الى الصراط المستقيم) (١) •

ومن هنا رأيناه فى كل حالة من حالاته على وعى كامل بالدين يجد نفسه فيه ويعتقد الخير فى رحابه • فيرفض التفرنج ويتمرد على كل ما يخالف نهج الاسلام ويثور على الأوضاع الاجتماعية انتصارا للكرامة وللدين فثورته دائما مرتبطة بالجذور السلفية •

---

(١) السهول البيض • عبد الحميد السحار ص ١٩ •

ثانيا : القصة الاجتماعية :

وفى هذا المجال تعددت ألوان العطاء وتنوعت أشكال الابداع فقد قدم أول قصة اجتماعية له (فى قافلة الزمان ١٩٤٧) ثم تتابع نتاجه بعـدها فأصـدر (النقاب الأزرق) و (الشارع الجديد ـ ١٩٥٢) و (المستنقع ـ ١٩٥٧) و (أم العروسة) و (كان مساء) و (أذرع وسيقان) سنة (١٩٥٨) و (الحصاد ـ ١٩٥٩) و (جسر الشيطان ـ ١٩٦٢) و (النصف الآخر ـ ١٩٦٤) وكانت قصة (الحفيد ـ ١٩٧٤) آخر أعماله فى هذا المجال • وهذه الأعمال القصصية لا تمثل فى مجموعها بيئـة اجتماعية واحدة • ولكنها تنتقل بين البيئات المختلفة حيث نجد المصرية الأصيلة فى قصـته الأولى (فى قافلة الزمان) وفى (النقاب الأزرق) و (الشارع الجـديد) و (المستنقع) و (أم العروسة) و (الحصاد) و (النصف الآخر) و (الحفيد) كما نجد العربية فى (وكان مساء) والاسلامية غير العربية فى (أذرع وسيقان) والأوروبية فى (جسر الشيطان) وقد صاغ السحار هذه الثلاث على شكل حرلة تولى فيها دور الراوى والمحرك لجميع شخوصها عارضا من خلالها ملامح تلك المجتمعات فى عاداتها وعقائدها وحياتها الاجتماعية كما عرض من خلالها أيضا رؤيته الفكرية الخاصة وفلسفة حياته الشخصية •

أما سائر القصص الأخرى فقد تناول فيها حياة المجتمع المصرى وظروفه السياسية والاجتماعية والاقتصادية وما طرأ على فكره وحياته من تغيير • جاء نتيجة لانتشار العادات والقيم الغربية التى فرضـت نفسها على الساحة المصرية بفضل انتشـار الثقافة الأوربية والدعوات المادية • نجد ذلك فى (قافلة الزمان) التى يعالج فيهـا الكاتب حياة أسرة مصرية ويتابع ما طرأ عليها من تغير فى الفكر والسلوك من خلال أجيال ثلاثة عاشت فى تواصل زمنى امتد من أواخر القرن الماضى الى ما يقرب من الحرب العالمية الثـانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) • معتمدا على نمـاذج متمايزة من الشخصيات • تتبلور حركتها من منطلقات عقائدية مختلفة وأنماط سلوكية متباينة • وهى رغم تباينها واختلاف حركتها تسجل بوعى ملامح الحياة الاجتماعية فى فترة من أخصب فترات التاريخ الحديث عطاء وحيوية •

والقصة تنزع الى تصوير الحيرة والتفكك الذى عاشه التفكير المصرى موزعا بين موروثاته وأصالته وبين الدخيل عليه والطارىء من عادات وسلوكيات وافدة • ويتضح تطور النظرة واختلاف السلوك اذا قارنا بين نظرة الجيل الأول وطبيعة تفكيره وبين نظرة الجيل الثالث وما عايشه من ملابسات •

فالحاج أسعد رأس العائلة فى الجيل الأول ، كان يحرص على الصلاة خصوصا صلاة الفجر كل ليلة ، فكثيرا ما يتناهى الى سمعه صوت ينادى الناس أن يهبوا من نومهم ، فى ترتيل يأخذ بمجاميع القلوب ويأسر الأفئدة • الصلاة يا مؤمنين الصلاة • الصلاة خير من النوم (١) ويأسى ويحزن ، ويستغرق فى الحزن والبكاء حسرة ولوعة

---

(١) فى قافلة الزمان ، عبد الحميد السحار ص ٤ •

على ما سيأتي من بدع وضلالات حتى أن « زكية » حفيدته قد أنكرته يوما عندما رأته مطأطئا بصره مسبلا جفنيه والدمع يسح من عينيه فينحدر على خديه ويبلل لحيته فاقتربت منه في خفة وهمست :

– أتبكي يا جدي ؟

فرفع الحاج أسعد رأسه ونظر اليها من خلال دموعه ولم ينبس بكلمة ، فعادت تسـألـه :

– وما يبكيك ؟

فأشار الى الكتاب المفتوح في حجره فقالت :

– وما به ؟

فقال في صوت خفيض أسيف :

– سيأتي أوان تخرج فيه النساء عرايا ، سافرات الوجوه ، كاشفات الصدور ·

فأنكرت زكية مقالة جدها وعدتها ضربا من الأوهام والخيالات وعبرت عن انكارها بقولها لجدها :

– هذا لا يصدق ·

فقال الحاج أسعد في يقين :

– وسيتكلم الحديد ·

فاشتد انكارها فمحال أن يتكلم الحديد · فهمس جدها في حسرة :

– ان ذلك من علامات الساعة وسيقع (١) ·

اذا كانت هذه هي نظرة الجيل الأول وعقيدته وسلوكه فان مصطفى في الجيل الثالث قد باشر دروبا مختلفة من الحياة ، واختلط بالمرأة وعاشرها ورآها في الطريق بل وعارية على الشـاطيء واستمع الى غنائها ، ولمحها تتأبط ذراع شـاب أجنبي · ولكنه على الرغم مما يرى حائر قلق تنتابه الظنون وتدك حصون أمنه الهواجس · فهو مشدود الى الأعماق بتقاليد أهله وعقيدتهم فقد ورث عنهم ان صوت المرأة عورة وأن ما تفعله المرأة على الشاطيء رجس من عمل الشيطان · وامام هذاالقلق (ثار الدم في عروقه وشعر بتقزز وضيق ، فقد بدت لعينيه بغيضة تافهة ، أصبحت رؤيتها (٢) تؤذيه وعندما قامت ترقص في أحد الملاهي الليلية ثار الدم في عروقه وغضب ولكنه تحلمورأى أنها فتاة لا تستحق أن يتفكر فيها أو يحزن عليها) (٣) ·

---

(١) المصدر السابق ص ٨ ·

(٢) يقصد رؤية كوثر احدى شخصيات الرواية ·

(٣) في قافلة الزمن ص ٣٨٨ ·

وفى « النقاب الأزرق » يتابع السحار رؤيته للواقع الاجتماعى من خلال (حسين) الفقير الذى ترسبت فى ذهنه منذ طفولته صورة ابنة عمه (عليه) الغنية المثقفة التى تظللها حياة النعيم من كل جانب بينما يتجرع حسين هموم فقره وأساه فى بيت والده (محمود) الذى يسوس بيته على الرضا والقناعة انتظارا لأمل باسم فى تزويج ابنه حسين من ابنة عمه عليه ، ومن هذا المنطلق تتجمع خيوط القصة ، وتنمو أحداثها ، حتى يصل الأمر الى رفض حسين لفكرة الزواج من عليه لانه لا يرضى أن يكون تابعا أو أن يكون دمية فى يدها تحركها بارادتها كيفّ تشاء · ولأن فكرة السيادة على المرأة تسيطر عليه ، وقد وجدها فى الزواج من «هدى» ذات النقاب الأزرق · تلك الأنثى الوديعة التى يكمن فيها ضعف الأنثى وجفولها واستكانتها اليه فى خفر وحياء · حتى أنها عندما ترنو اليه فى اعجاب يشعر فى قرارته النفسية بسيادته عليها فيناجيها غير هياب (١) ·

وفى « الشارع الجديد » التى أصدرها السحار سنة (١٩٥٢) يقدم رؤية واضحة المعالم لحياة أسرة مصرية عاشت على أرض الواقع محكومة بظروف فكرية واجتماعية وسياسية كانت تنتظر حياة النصف الأول من القرن العشرين وذلك من خلال أنماط من السلوك البشرى تستمد مقومات وجودها من أرض الواقع على أكتاف مجموعة من الشخصيات تتحرك فى الاطار المناسب لها دون أن تفلسف حركتها بما يخالف السمت المحدد لمسارها الفنى والفكرى ·

وقد أقام السحار بناءه على عدة محاور فى تشكيل الشخصية داخل القصة ولعل أبرزها يتمثل فى محورين متباينين حركة وسلوكا وطريقة تفكير ، فاذا كان أحد المحورين يتمثل فى الحركة الايجابية والوعى بالعصر وقضاياه وصراعاته السياسية وتناقضاته الاجتماعية · والشخصيات التى تمثل هذا المحور تنحاز دائما الى جانب الخير وتأخذ نفسها بالسلوك القويم ومن خلالها تبرز ملامح الأصالة فى المجتمع ولعل أبرز هذه الشخصيات (يونس) رأس العائلة وامتداده (على) و (صفية) زوجة على وما بعدهما فى (زكريا) ·

أما المحور الثانى فنراه يتمثل فى العناصر المجسمة لأمراض المجتمع وشروره والمعبرة عن رؤية مريضة للحياة تنبع من فلسفات سلبية لا قدرة لها على النهوض بأعباء الحياة ومجموعة هذه العناصر تنحاز دائما الى الشر فى سلوكها وتصرفاتها ومن خلالها تبرز معالم الفساد فى المجتمع نجد ذلك فى الثيران أزواج بنات يونس كما نجده ممثلا بصفة خاصة عند شقيقات على وبعض أبنائه · كجلال وسعيد ويحيى وحتى يتمكن السحار من بلورة الخط السياسى فى المدة التى عالجها كانت شخصية حسان هى المنطلق التى اعتمد عليه فى ذلك · فمن خلال ملامحه نراه فى أول شبابه وطنى متحمس للوطنية يشترك فى خلايا الحزب الوطنى ويجاهد أعداء الدين والوطن حتى

---

(١) النقاب الأزرق · عبد الحميد جوده السحار ص ٤٥ ·

اذا خابت آماله وتكشفت له معالم الفساد فى السياسة والحرب فترة حماسة وذابت فى كئوس الخمر على موائد المقامرة فى الحانات الليلية وانطلق كارها للحياة معبرا عن فلسفة علائية متشائمة ترى الزواج جريمة والارتباط بالحياة عبثا ، حتى اذا قامت الثورة وبدت بشائر الأمل فى أفاق من غيبوبته وانطلق فى حماس يعانق الحياة على وجه كل من رآه فى الطريق ، فالجميع يهرول فى سرور ويبتسم فى أمل ، ولم تعد الحياة عبثا ولا كأس خمر ، مما جعل بعض النقاد يعدون (الشارع الجديد) ارهاصة فكرية واجتماعية كبيرة للثورة والأدب الرافض للقديم المتمثل لكل جديد من شأنه أن يغير أفكار المجتمع القديم الذى طالما يرسف الواقع فيه (١) ٠

حقيقة ان السحار يقدم فى هذه القصة رؤية واضحة المعالم لمرحلة زمنية من عمر الحياة الحديثة فى مصر بصدق وموضوعية دون أن يضع فى حسابه رفضا لقيم قديمة جملة وتفصيلا فليست هـذه فلسفته انه يرفض قيم المجتمع المريض كبداية مطلوبة لتأصيل الأصيل فى فكر المجتمع ومقوماته حتى يقوى فى مواجهة أعدائه ومواجهة نفسه ٠

أما أن نضع السحار تحت لافتـة الرفض وصـولا الى وصفه بالتقـدمية فهذا ما لا ينطبق على العمل الفنى فى الشارع الجديد ٠ كما أنه لا ينطبق على السحار نفسه وفلسفة حياته ٠

وفى « المستنقع » يبعد السحار بعض الشيء عن الاطار التصورى الشامل لحركة المجتمع متجها الى النفس البشرية فى لحظات ضعفها وانتكاس القيم فى داخلها وهو تحول ــ كما نرى ــ من العام الى الخاص ٠

ولا شك أن ابراز الفنان لحركة الصراع فى داخل النفس البشرية بين نوازع الخير والشر ، ومحاولته الكشف عن الدوافع الفعالة التى تجعلها تنحاز الى جانب الخير أو تنحرف الى طريق الشر ٠ من أهم وظائف الأدب الهادف الذى يحاول عن طريق تصوير لحظات الضعف البشرى اعطاء بعد موضوعى للقارىء أو للمتلقى يتمثل فى اطلاعه على ذات نفسه من خلال مرآة صادقة يرى فيها معايبه وعن طريق المقارنة بين ما يرى وما يجب يسهل الوصول الى لحظة الوعى بالذات وما يتطلبه ذلك من ضرورة الموائمة بين حاجات الروح وحاجات الجسد طبقا لـما تقرر فى عقائد المجتمع وأعرافه ونظرته الفطرية المنحازة الى الخير فى أصل نشأته ٠

فعن طريق عرض نماذج السقوط والكشف عن الحركة الدافعة اليه يتعرف القارىء على الظاهرة موضوع القصة ، ويرصد بنظرته الواعية الأبعاد التى يهدف اليها الأديب ، والرؤية التى يراها كفيلة بالقضاء على نوازع الشر فى الانسان ٠ وقصـة المستنقع تنطلق فى مضمونها من هذا التصوير حيث يعرض الكاتب فيها قصة خاطئة

---

(١) السحار مفكرا وأديبا وسينمائيا ــ عبد المنعم صبحى ص ٣٦ ٠

شاذة التكوين النفسي والخلقي ، قد أنهكها السقوط حتى خرجت صريعة اثر طعنة نجلاء بيد أحد الأبطال الذين جذبتهم معها الى الهاوية ٠

ونجد السحار فى (أم العروسة) يعرض لمشاكل الأسرة المصرية العادية مصورا بعض أزماتها المادية وحياتها الاجتماعية من خلال أب وأم وسبعة أولاد ولهما دخل محدود لا يستطيعان به مواجهة مطالب الحياة الضرورية ، وذلك بأسلوب ضاحك وبلغة عامية لجأ اليها فى هذه القصة وكانت أول تجربة له فى هذا المجال ويبدو انه لم يقتنع بها ولهذا لم يعاود الكتابة بالعامية (١) لأنها فى رأيه لا تحلق أبدا ، ولأنها محلية تختلف من قطر الى آخر بل من اقليم فى القطر الواحد الى اقليم آخر منه ، فاللجوء الى العامية يجعل القصة محبوسة داخل اطار النطاق المحلى ٠

وفى قصته (الحصاد) يقدم لنا من خلال أسرة سليم باشا رؤية فنية وفكرية لملامح الصراع في المجتمع المصرى فى الفترة التى تمتد من بداية حكم الملك فاروق الى قيام الثورة على عدة محاور بعضها يتصل بحياة الاقطاع والاقطاعيين كطبقة لها عالمها الخاص في مقابل طبقة أخرى معدمة تتمثل فى الفلاحين وبعضها يتصل بالاستبداد السياسى والصراع الحزبى وبعض منها يتصل بجوانب الانحراف الجنسى عند الباشا ، وبثينة زوجة ابنه وحلمى تجله الأصغر وعلى مستوى عبد الخالق ابنه الأكبر ورفاقه رواد الحانات ، وشعبان غنى الحرب ٠٠٠ الخ ٠

نجد ذلك كله من خلال أحداث تنمو وشخصيات حية تتحرك من داخلها دون أن نرى من الكاتب تدخلا مباشرا فى تحريكها أو تلوين اتجاهاتها ٠ وقد عدها بعض النقاد تصويرا لنهاية عهد الاقطاع وانتصارا للفلاحين بقيام الثورة وتوزيع الأرض (٢) بينما عدها بعضهم تعبيرا عن أزمة الفنان في التعبير عن موقفه بحرية ٠ حيث لجأ السحار الى تجاهل اللحظة الحاضرة مصورا مرحلة سابقة من تاريخ المجتمع (٣) فهى سياسة المغزى عند جماعة تاريخية الاتجاه عند آخرين ٠

والحقيقة أن القصة اجتماعية المنحى والأسلوب فالكاتب تناول فيها شرائح مختلفة وأنماط متعددة من الشخصيات بالكشف عن مسلكها تجاه المواقف والأحداث مع بلورة جوانب الخير والشر فى الطبيعة البشرية وما تنحاز اليه من فكر وسلوك بفعل عوامل التأثير الاجتماعى وموروثات الأصالة الحضارية ٠

وبالنظرة الفاحصة لجملة انتاج الأديب فى هذا الاتجاه نجده قد استوعب حركة العصر ورصد تطلعاته على مستويات مختلفة من المعالجة ٠ تتسم فى معظم أحوالها

---

(١) القصة من خلال تجاربى الذاتية ٠ عبد الحميد السحار ص ٢١ ٠

(٢) بانوراما الرواية العربية د٠ سيد حامد النساج ص ٦٣ ـ والسحار مفكرا وأديبا وسينمائيا عبد المنعم صبحى ص ٥٦ ٠

(٣) الرواية العربية في رحلة العذاب ـ غالي شكري ص ١١١ وما بعدها ٠

بصدق النظرة وواقعية الأداء بدءا من أول قصة كتبها في اتجاهه الاجتماعى (فى قافلة الزمان) الى آخر ما صدر له دون أن تنحرف رؤيته الفكرية للواقع المعاصر ودون أن يفقد وعيه الحضارى الذى يستمد أصوله فى أغلب الأحيان من الفكر الاسلامى ٠

ثالثا : القصة القصيرة :

ولدت القصة القصيرة يوم قامت الحاجة الى التعبير عن لون معين من الاحساس بطريقة خاصة ، لم تحققها الأشكال الأدبية الأخرى ٠ ولعل هذا هو الذى جعل القصة القصيرة تلتقط موقفا موحدا مكثفا خصبا بالدلالات لأنها تدور حول محور واحد ، وتنصب على فكرة واحدة أو عاطفة واحدة أو موقف واحد ، فانتقلت بذلك من التعميم الى التخصيص فلم تعد تتناول حياة بأكملها أو شخصية كاملة بكل ما يحيط بها من حوادث وظروف وملابسات ٠ ولهـــذا كانت أقــرب الفنون الأدبية مسايرة لروح العصر (١) ٠

وكاتب القصة القصيرة يلتقط من العالم المحيط به عن طريق العطف والفهم نظرة خاصة للأشياء ، ادراكا بديهيا لما هو قيم وما هو تافه ، وهذا الادراك هو لب فنه ، هو الخلاصة الشعرية التى تكمن خلف جميع أعماله وبغير هذا الادراك العطوف لن تكتب القصة لها وزن ، ولن يوجد أسلوب له أصالة (٢) ٠

ويبدو ان السحار قد فطن منذ بداية رحلته الأدبية الى هذا الشكل من أشكال التعبير الأدبى فأصدر فيه عددا كبيرا من القصص صدرت فى مجموعات مختلفة على امتداد عمره الأدبى فقد صدرت المجموعة الأولى له فى هذا المجال تحت عنوان (فى الوظيفة ــ ١٩٤٤) وبعدها كانت (همزات الشياطين ــ ١٩٤٦) و (قصص من الكتب المقدسة ــ ١٩٥٢) و (صدى السنين ــ ١٩٥٣) ثم صدرت له (أرملة من فلسطين ــ ١٩٥٩) و (ليلة عاصفة ــ ١٩٦٣) وبعد وفاته قامت دار مصر للطباعة باصدار بعض قصصه القصيرة فى مجموعات ثلاث كانت (خفقات قلب) و (صور وذكريات) (وكشك الموسيقى) سنة ١٩٨١ ٠

وهذه المجموعات بما احتوته من قصص تمثل رصدا واعيا من الأديب لحركة الانسان الفرد فيما يتصل بذاته هو أخــلاقا وغرائز وسلوكا وما يتصل بالمجتمع كأساس لوحدة البناء فيه وتفاعلا معه أو انعزالا وسلبية عن مساره بما يمثل من قيم وعادات وعقائد ٠

وعندما تتركز النظرة فى اتجاه واحد تنفذ الى أعماق النفس مسجلة على هذا المستوى من العمق أبعاد الحركة فى الفعل الانسانى ٠ بل قد تنفذ الى ما هو أعمق من ذلك لتستنبىء خواطر الانسان ونواياه ٠ وهذا ما فعله السحار فى قصصه

---

(١) القصة القصيرة ٠ د٠ سيد حامد النساج ص ١٤ وما بعدها بتصرف ٠

(٢) تجارب فى الأدب والنقد د٠ شكرى عياد ص ٢٢٤ ٠

القصيرة انه يطوف بعدسته الفنية وراء الانســان فى بيئات مختلفة ليسجل دوافع حركته وأبعادها في صورة معبرة تفضح الساقط وتعلي من شأن الرفيعفي رهافة حس ونبالة مقصد وصولا الى غاية يناضل من أجلها وقد تحددت فى جميع أعماله بضرورة الارتفاع بالانسان الى مستوى المثل العليا والقيم الخالدة ٠

ففي مجموعته القصصية الأولى (فى الوظيفة) يعيش تجربة الحياة على أرض الواقع في بيئة الموظفين يرقب حركاتهم وسكناتهم بعين مفتوحة وبصيرة واعية فيرى كثيرا من المفارقات تملأ حياتهم ٠ انه تنقل فى مكاتب الحكومة ليستجلى حقيقة الحركة فيها فاذا به يراها حركة مبتورة تصعد أحيانا على سلم من النفاق والرياء والرشوة ، وتهبط فى الأحيان الأخرى الى درك الخيانة والغدر وانعدام المروءة ، فيصور ذلك أبدع تصوير فى لوحات متتابعة يرقص فيها على وتر واحد وان تفاوتت دقاته ، فهو ينسل فى خفة الى مكاتب الموظفين فى عملية تعرية كاملة للمفاسد الخلقية التى سادت المجتمع فى ذلك الوقت ، وهي في جملتها وان كانت تعطينا تصورا كاملا لمعالم الفساد الا أنها فى الوقت ذاته تجعلنا نتمثل السحار فى ثوب مصلح وناقد اجتماعى ٠ وهذه النزعة النقدية التى ينتهجها فى هذه المجموعة تتلاءم مع منهجه الأخلاقي الذى ينتصر له ويفزع من أجــله ٠

وفى (همزات الشياطين) يرصد حركة الانسان في داخله مبرزا صراع النفس بين الخير والشر فى (وسوسة الشيطان) من هذه المجموعة ، وأنانيتها وايثارها حب الذات حتى فى لحظة العبرة عند الموت فى (على القبر) ٠

كما نجده يرصد لحظة الافاقة فى حياتها عندما تستشرف آفاق الكون بحثــا عن فلسفة حقيقية للحياة والموت فى (العجلة تدور) ٠

ولعل هذه القصص الثلاث هى أهم ما فى المجموعة وأكثرها جودة واتقانا أما سائر القصص الأخرى فنراها ليست الا تسجيلا سريعا لبعض نزعات النفس وشرورها أو تعبيرا عن عاطفة صادقة واحساس نبيل ٠

وفى (صدى السنين) نجد السحار يتناول جانبا من أمراض النفس بالنقــد والكشف عن دوافعها معتمدا على التحليل النفسى ، والتصوير الدقيق لملامح تلك الأمراض من خلال رؤية متعمقة ، تنفذ الى الأغوار الدفينة داخل الذات الانسانية ٠

نجد ذلك فى (صديقي جيمس) المتعالى بغطرسته الانجليزية وقد وضع وسط هالة كثيفة من التملق والرياء ٠ كان محوطا بها من النفعيين ومرضى النفوس ٠

ونلمح ذلك أيضا فى (كازنوفا الجديد) ومرضى الادعاء الذى غلف حيــاته فجعله يحكي قصصا خيالية عن مغامرات عاطفية لا وجود لها الا فى محيط وهمه وخياله ونلمح الشح وعبادة المال فى (البخيل) والغيرة القاتلة فى (غيرة القصير) ٠

وعلى مستوى آخر فى هذه المجموعة نجد اهتمامه بابراز صورة المرأة على أنها شر مطلق ووراء كل فساد وانحراف ٠

نلمح ذلك فى (غضبة الحريم) ونرى (حسن) فى (ترويض امرأة) يتنقل فى بيته على جسور من الطاعة المطلقة لأوامر زوجته التى تستمد سلطانها عليه من ضعفه ويوم فكر فى الثأر لنفسه منها لطمها لطمة قوية فجرت دماءها فلم يتمالك نفسه وخر مغشيا عليه ٠

ونرى السحار يلح على ابراز هذا التصور عن المرأة وأنها تجد سلطانها حين تغيب رجولة الرجل وقوته ، وترتاح الى القسوة التى تعامل بها من الرجال سعيدة راضية ، فاذا انعدم ذلك فى الرجل ألقته تحت أقدامها ٠

ونلمح عليه أيضا فكرة سقوط المرأة من أول نظرة ، واستماتتها فى الوصول الى ارضاء الرغبة الجنسية مهما كلفها ذلك ٠ مما نجده فى (رجل وامرأة) و (رسالة حارة) و (قصر فى الجنة) وأيضا فى (فارس وامرأة) الى غير ذلك من القصص فى هذه المجموعة ٠

وتنفرد مجموعة (قصص من الكتب المقدسة) بمعالجة قضايا تاريخية دينية حيث يتناول فيها عرض ملامح من قصص الأنبياء على هيئة صور ملخصة لأحداث طولية تمتد فى حياتهم وهو فيها لا يلتزم بأسلوب المعالجة المطلوبة فى القصة ٠ نجد ذلك واضحا فى (ابن الذبيحين) و (موسى) و (داود) و (سليمان وبلقيس) و (استر) و (سالومى) مع الحاحه على ابراز تاريخ اليهود وزيف أفكارهم ودنس حياتهم من خلال ما عرض من أفكار ٠

بينما تنفرد مجموعة (ليلة عاصفة) بلون آخر من المعالجة يتصل بالبيئات غير العربية التى احتك بها فى رحلاته العديدة اليها ٠ وفيها يعرض بصدق رؤيته الاسلامية لملامح الحياة فى تلك البيئات ومدى سيطرة النزعة المادية الالحادية على التفكير والسلوك ٠ مبرزا فى الوقت نفسه أفكاره الاسلامية فى مواجهة الحاد الغرب وتناقضاته ٠

ومما تجدر الاشارة اليه أن السحار فى قصصه القصيرة لا يصدر عن اتجاه محدد ومنهج مرسوم بدأ به ونما نتاجه على أساسه وانما نجد أشتاتا من الاتجاهات لا يمكن اخضاعها لفواصل زمنية يقف عند نهاية كل مرحلة منها ليعدل مساره مرجحا بين الاتجاهات ولعل ذلك يرجع الى تنوع اهتماماته واتساع أفقه وشمولية نظرته الى الحياة والفن ، وقد يكون سبب ذلك راجعا الى اختلاط المناهج الأدبية وعدم تمايزها بالقدر الذى يتيح للأديب فرصة الاندماج فى المدرسة التى تعبر عن فكره وفنه ٠ فراح الأدباء يجربون أنفسهم فى كل اتجاه استكشافا لطريق تتضح معالمه فيسيرون عليه ٠

فالسحار فى كل واحدة من مجموعاته القصصية يجمع ألوانا من الاتجاهات التعبيرية منها ما يعتمد على الملاحظة الخارجية للفعل الانسانى دون أن يلج الى داخل النفس بحثا عن دوافع الفعل ٠ ومنها ما نجد فيه التحليل النفسى لحركة الصراع بين

الانسان ورغائبه - هو الأساس فى تشكيل مضمون القصة وبنائها · وفى زاوية أخرى نلمح اهتمام الكاتب بالقضايا الكونية وموقف الانسان منها · بينما نجـــد أحداث الماضى هى الأساس فى الاستلهام والايحاء فى القصص ذات الطابع التاريخى ·

وعلى كافة هذه المستويات نجد الشخصية التى يقدمها ليست ذات طبيعة واحدة· ولا وليدة بيئة خاصة · وانما تتعدد أنماطها على مستوى البيئة المحلية · كما تتعدد فى معالجته الفنية لتشمل ألوانا من الشخصيات فى حركتها على المستوى الأجنبى ·

وهذا كله ان دل على شىء فانما يدل على تعدد الاتجاهات الأدبية واختلاطها فى فنه بدرجة لا يمكن معها الفصل بينها على المسار الزمنى فى نمو نتاجه القصصى ·

فقد كتب قصصا قصيرة تتناول عيوب الأفراد وصفاتهم المرضية مصورا الجانب السلبى فى حياتهم وسلوكهم هادفا من وراء ذلك النقد والاصلاح الاجتماعى مما يعد من أبرز اهتمامات الواقعية الاجتماعية ·

كما كتب متأثرا بالنزعة الوجدانية التحليلية فى القصص التى تتناول الفرد من داخله بحثا عن دوافع الحركة والسلوك ·

كما نجده أيضا لجأ الى التاريخ فى كتابة القصة القصيرة واستمداد شخصيته ونماذجه منه ·

وفى الوقت ذاته نلمح آثارا عديدة لاتجاهات فلسفية ورمزية تبرز فى قصصه على أن أبرز هذه الاتجاهات وضوحا فى أعماله من هــذا النوع يتمثل فى الاتجــاه الاجتماعى الواقعى ·

رابعا : قصص الأطفال الدينى :

لا شك أن الكتابة الروائية للأطفال « نوع من التربية على جانب كبير من الفعالية والتأثير وأن كاتب الأطفــال هو بالدرجة الأولى مرب قبل أن يكون مؤلف قصــة أو رجل مسرح ·· وأن الاعتبارات التربوية يجب أن تحتل مكان الصدارة فى أى عملية موازنة بين الاعتبارات » (١) ·

وقد فطن عبد الحميد جودة السحار لأهمية القيمة التهذيبية والتربوية التى يمكن أن تشتمل عليها قصة تقدم لطفل لا زال غضا طريا لم يتشكل عقله ولا وجدانه بعــــد ·

فأصدر أربع حلقات فى هذا المضمار تستقل كل حلقة فيها بجانب خاص من جوانب التاريخ الدينى الذى عرض من خلاله قصصه وفق منهج خاص حدده بقوله

---

(١) محمد فريد أبو حديد - دراسة تحليلية فى الرواية والاقصوصة وأدب الأطفال والشعر المرسل د· محمد عبد المنعم خاطر ص ٢٣٥ ·

(أن تكون النصوص القرآنية هى المصدر الأول لما نكتب ــ اذا كنا نعتقد أن للقرآن فى هذه الناحية فكرة تهذيبية معينة ــ وأن نحقق السرد الفنى للقصص بما يربى فى الطفل الشعور الدينى ويقوى الحاسة الفنية وينمى الذوق الأدبى) (١) ٠

وقد تضمنت الحلقة الأولى قصص الأنبياء ، بينما تناولت الثانية قصص السيرة النبوية بدءا من هاشم بن عبد مناف الى وفاة الرسول ، وكانت الحلقة الثالثة خاصة بالخلفاء الراشدين على حين خصص السحار الحلقة الرابعة لعرض حياة العرب فى أوربا الى آخر أيامهم فى الأندلس ٠ وهو فى هذه الحلقات جميعها يعتمد على الحكاية فى رواية أحداث التاريخ بصورة مبسطة تتناسب مع مدارك الأطفال واستعدادهم الذهنى بعيدا عن المبالغة والتهويل واقتحام الخيال الكاذب والاثارة المفتعلة عن طريق المغامرات والحيل الخداعية مما تمتلىء به قصص الأطفال المشهورة سواء منها ما يرجع فى تأليفه الى أصول شعبية مصرية وعربية أو ما كان منها مترجما عن الأدب العالمى ٠ فانها فى جانب كبير منها تفسد الناشئة وتبذر فى نفوسهم بواعث القلق والخوف كما أنها قد تدفعهم الى مجاراة الخيال الكاذب والمغامرات الشريرة محاكاة لما يقرءون فيتعودون منذ نعومة أظفارهم على ممارسة ما يخالف قيم مجتمعهم ٠

ولهذا كانت القصة التى تعتمد على الحقيقــة فى مضمونها دون اغفــال للقيم الجمالية فى التعبير الأدبى أقرب الى الاعتدال فى الأخذ بيد الصغير وتنشئته التنشئة الصالحة خصوصا اذا تضمنت بعض القيم التهذيبية التى تعلى من شأن الأخلاق وتمجد الخير وتبرزه متعاطفة معه ٠ وذلك فى مقابلة الشر والرذيلة وكل ما يمثل الفساد ٠

ولعل هذا الهدف الأسمى كان وراء اختيار السحار لمضمون قصصه على اختلاف حلقاتها حيث (يلعب المضمون فى أدب الأطفال دورا خطيرا فى عمليات بناء الأجيال الجديدة التى ستحمل عبء تشكيل الحياة على هذه الأرض فى الغد ، لأن ما يكتسبه الطفل فى سنوات عمره الأولى من مثل وقيم يؤثر فى تكوين أخلاقه وشخصيته وأفكاره حيث يبصر الطفل بالقيم الخلقية الفاضلة وينمى اعجابه وتقديره وحبه للخصائص الطيبة ، ونفوره من الصفات المذمومة ، وجوانب الانحراف الخلقى ٠ كما أنه من الناحية الروحية يحقق التوازن بين الاتجاهات المادية فى العصر الحديث وبين القيم الدينية التى لايستطيع الانسان أن يحقق السعادة بدونها) (٢) ، فعملية اختيار ما يقدم للأطفال لا تقل أهمية عن الشكل الذى يختاره الكاتب كوسيلة من وسائل التعبير ، ومن هنا كانت أعمال السحار الخاصة بالأطفال من أهم ملامح أدبه خاصة ، وانجازا متميزا فى مجالسه اذا ما قورن بغيره عامة ــ على أن هدفا آخر قد حققه من خلال تلك القصص يتمثل فى الغاية التعليمية التى تعطى للأطفال قدرا كبيرا من المعارف تغطى فترة طويلة زاهرة من ماضيهم فينمو بنموهم احساس أصيل بالولاء لهذا الماضى الممتد بعد أن أقيمت بينهم وبينه جسور متينة من التواصل والقربى ٠

---

(١) مقدمة القصة الأولى من الحلقة الأولى ــ قصص الأنبياء ص ٣ للسحار ٠

(٢) المضمون فى أدب الأطفال ٠ الأستاذ أحمد نجيب ص ٤٥ وما بعدها ٠

نجد هذه الأهداف جميعها واضحة بلا خفاء في كل ما قدم من حلقات دون أن يقف بينه وبين التعبير الفنى عنها مانع من جفاء العرض أو غرابة اللفظ وشطط الخيال. فقد استقامت له أدواته الفنية فى معظم الأحيان .

خامسا : الكتابة النقدية :

الى جانب ما تفوق السحار فيه من ألوان القصص نجده أيضا قد مارس لونا آخر من الكتابة يتمثل في الدراسات الأدبية النقدية التي كتب بعضا منها كتذييل جاء ملحقا بمجموعته القصصية (همزات الشياطين) وفيه تناول بالتعريف والايضاح القصة كفن له أصوله وقواعده ، مبرزا الفرق بين نوعين منها (الرواية ـ والأقصوصة) وموضحا خصائص الفن فى كلا النوعين .

وبعض هذه الكتابات جاء فى كتاب مستقل جمع فيه عددا من أفكاره الفنيـة ورؤيته لبعض قضايا الفن القصصى مما يتصل بالمضمون والشكل والمذهب الأدبى والكفاءة التعبيرية من خلال مناقشته لبعض أعماله عارضا فى النهاية رأيه فى النقد والنقاد والمنهج الذى يستريح اليه ، وجاء ذلك كله فى كتابه (القصة من خلال تجاربى الذاتية) (١) .

وهو فيه يصدر عن وعيه الخاص وتصوره الذاتي لمفهوم القصة ووظيفتها بصرف النظر عن مدى المطابقة بين أفكاره وما تقرر من القواعد والاتجاهات النقدية .

سادسا : الترجمة الذاتية :

وفى هذا المجال قدم السحار ملامح حيـاته فى تعرية كاملة لجانب منها فى (هذه حياتى) (٢) ويتناول فيه حياته في طفولته وصباه وشبابه الى أن التحق بوظيفة مترجم في سلاح الطيران الملكى ١٩٣٧ . ويعتبر هذا الكتاب وثيقة تاريخية تسجيلية للفترة التى تناولها . حيث أبرز الكاتب فيه صورة صادقة عن الحياة السـياسية والاجتماعية والاقتصادية التى كانت تتحكم فى مسار الحياة وتوجه طريقها ، وذلك فى أسلوب قصصى وعرض رشيق ، يجمع بين الصدق التاريخى والجمال الأدبى ، وتمتزج فيه العاطفة الذاتية الصادقة بالأسلوب الفنى الجميل ، ومن أهمية هذا الكتاب الى جانب ذلك أنه يعد بمثابة علامة على طريق حياته . لا تنفصل عن نتاجه الأدبى وانما توضحه وتكشف كثيرا من نواحي الابداع فيه ، ولا يستطيع باحث أن يتعرف على السحار الأديب الا اذا رجع الى هذا الكتاب وتابع خطا الكاتب فيه .

---

(١) صدر سنة ١٩٦٢ « يتضمن سلسلة من المحاضرات كان قد ألقاها فى معهد الدراسات العربية ».
(٢) صدرت سنة ١٩٧٥ .

فبهذه المتابعة يستطيع أن يلتمس من التفسيرات ما يساعده على الوصول الى الحكم الصحيح فيما يصدره من أحكام نقدية ٠

والى جانب هذا الكتاب عرض السحار بعضا من ذكريات حياته على نحو موجز غير متكافىء مع عمله الأول من حيث الدقة التفصيلية والبراعة التسجيلية ، فقد صدر له (ذكريات سينمائية) (١) متضمنا مواقف من حياته تتصل بالفترة التى عاشها فى رحاب السينما كاتبا ومنتجا لها ورئيسا لمجلس ادارتها كما صدر له (صـور وذكريات) (٢) مشتملا على بعض جوانب حياته أيام عمله فى سلاح الطيران الملكى وبعض ذكرياته الأدبية ٠ الا أن العملين معا لم يقدما صورة واضحة الأبعاد لتلك المرحلة من عمره على امتدادها فقد كان السحار فيهما مكتفيا باللمحة السريعة واللقطة الخاطفة والموقف الظاهر ٠

ومع ذلك فقد كان لما سجله قلمه عن نفسه فى مجال الترجمة الذاتية فضل كبير فى نفهم أدبه والتعرف على حياته وفلسفته ٠

وهناك بعض الكتابات الدينية عرض فيها عددا من القضايا والأفكار الاسلامية التى عالجها بطريقة الدارس لا باسلوب الأديب وهى وان كانت تتصل ببعض القصص التاريخى والأحداث المطروحة على ساحته الا أنها تبعد كثيرا عن جو الأدب وفنونه فى الوقت الذى تتصل فيه بالجو العلمى والدراسة الأكاديمية كتلك التذييلات التى ألحقها بقصص السيرة النبوية باحثا فيها عددا من المسائل التى كانت هدفا لسهام المستشرقين أو افتراءات المضللين ـ وقد تناولها بالبحث والدراسة كاشفا زيف خصوم الاسلام ومدافعا عنه بالحجج والبراهين ٠

كما ألف كتابا عن (وعد الله واسرائيل) (٣) تناول فيه حياة اليهود ودسائسهم ومؤامراتهم ضد العرب والمسلمين وأطماعهم التوسعية القائمة على دعاو باطلـــة فى اثبات شرعية تواجدهم فى فلسطين ، كما تناول فيه أفكارهم التخريبية منذ أقدم العصور ودورهم الخطير فى افساد جو الحياة بما أشاعوا من أفكار مادية هابطة عن طريق بعض العلماء الذين ملأت شهرتهم الآفاق فى جميع مجالات العلوم والفنون ٠

وبالنظرة الموضوعية الى نتاج السحار المتعدد على ضوء ما تقدم من موفور العطاء نجد أنفسنا أمام محيط زاخر بألوان الدور والنفائس تتشكل على كافة مستوياتها بحلة بيانية بهيجة معلنة عن اقتدار مبدعها وعبقريته الفذة وتراثه العجيب وتميزه عن غيره من أدباء عصره بوافر العطاء فى أكثر من مجال فقد ارتبطت البدايات الأدبية للسحار بظهور جيل من الأدباء كان لهم فضل ارساء دعائم الفن القصصى وتثبيت

---

(١) صدر سنة ١٩٧٥ ٠

(٢) صدر سنة ١٩٨١ ٠

(٣) صدر سنة ١٩٦٧ ٠

أصوله بما توفر لهم من ظروف الموهبة الأدبية والثقافة المتنوعة والتخصص عنــد معظمهم فى مجال الكتابة القصصية فقط وإيثارها على غيرها من الألوان الأدبية الأخرى ·

ومن أبرز أعلام هذا الجيل كان محمد عبد الحليم عبد الله (١٩١٣ ـ ١٩٧٠) الذى تفرغ للكتابة القصصية وظل وفيا لاتجاهه التحليلي الوجدانى متكئا على أزمة الانسان الفرد بوجوهها المتعددة والنفاذ منها الى تحليل أحاسيسه ومشاعره . واستطاع بهذا أن يقدم اتجاها متميزا فى الرواية المصرية فى تفردها بعد الحرب العالمية الثانية بأصالة واقتدار (١) ·

وكان نجيب محفوظ الذى تنقل بين عدد من الاتجاهات فقد كتب القصـــة التاريخية أولا ثم الرواية الاجتمــاعية فى الثلاثية وغيرها · وكانت المرحلة الثالثة التطورية باتجـــاهه الى ما يســـمى بالواقعيـــة الجـديدة التى بدأها بقصـــة (أولاد حارتنا) (٢) ·

والى جانب هذين كان يوسف السباعى (١٩١٧ ـ ١٩٧٨) الذى كتب قصصه فى اتجاهات ثلاثة فقد اتجه الى التاريخ فى قصصه التى سجل فيها أهم الأحـداث التى وقعت بعد ثورة ١٩٥٢ كما اتجه الى الفانتازيا فى (البحث عن جسد) و (نائب عزرائيل) و (أرض النفاق) · وفى بعض قصصه الأخرى اتجه الى الواقعيـــة فى (السقا مات) و (نحن لا نزرع الشوك) (٣) ·

ومع هؤلاء الثلاثة كان على أحمد باكثير علامة واضحة فى هذا الجيل فقد تنوعت ملكاته الأدبية · فكان شاعرا ومسرحيا وروائيا وكان مهتما بصفة خاصة بالكتابة التاريخية فى المسرح والرواية على السواء ·

وجاء عبد الحميد جودة السحار ليسير معهم على الطريق مشاركا فى تأصيل عدد من الاتجاهات الأدبية فى مجال القصة فقد برزت الكتابة التاريخية على يديه ممتدة فى اتساعها لتجمع بين تاريخ مصر القديمة والتاريخ الاسلامى العربى وتاريخ مصر الحديثة كما توفرت له عناصر الابداع فى مجال القصة الاجتماعية الواقعية الطويلة والقصيرة متفردا وحده بالكتابة القصصية للأطفال · ومهتما بصفة خاصة بالناحية الدينية فى أدبه (فقد سار وحده خلال تاريخنا الدينى لكى يقدم روايات وقصصا وكتبا عن الأنبياء والصالحين مستعملا الأساليب الجديدة فى تقديم حياة هؤلاء الذين ساروا على الطريق ينيرون للبشرية الحياة) (٤) كما أنه قد شارك فى تطور الرواية من ناحية البنائية الفنية وسار بها قدما الى الأمام وكان له فى ذلك فضل الريادة مع

---

(١) اتجاهات الرواية المصرية د· شفيع السيد ص ٦٧ ·

(٢) الروائيون الثلاثة ·يوسف الشاروتى ص ٥ ١وما بعدها ·

(٣) المصدر السابق ص ١٠٦ وما بعدها ·

(٤) السحار مفكرا وأديبا وسينمائيا عبد المنعم صبحى ص ١٦٧ ·

نجيب محفوظ وبقية أبناء جيله الذين مهدوا الطريق لأجيال ما بعد الحرب العالمية الثانية ومن جاءوا بعدهم من أجيال أخرى (١) ٠

على أن اللافت للنظر فى أمر السحار أن قلة من النقاد تعرضت لأعماله الأدبية بالنقد من زوايا متعددة ٠ وجاءت معظم أحكامها النقدية لتسلبه مكانته الأدبية دون غيره من أبناء جيله وتعزله عن حركة الابداع الفنى التى ارتبط ظهورها بنهاية الحرب العالمية الثانية ٠ والتى ذكرنا من أعلامها (نجيب محفوظ) و (يوسف السباعى) و (محمد عبد الحليم عبد الله) و (على أحمد باكثير) ووضعنا السحار بينهم وعلى درجتهم بل ذكرنا تفرده فى مجال الاهتمامات الدينية ، كما حاول بعض هذه القلة الصاق صفة الرجعية بأدبه وفنه لأنه صدر عن مفاهيم وقيم تتنافى - فى زعمهم - مع القيم التقدمية التى يعتقدون فيها ويدينون لها ٠

فرأينا غالى شكرى ينتقص أدب السحار لأنه لا يستوعب حركة التطور الاجتماعى فى الفترة التى عاشها وأبدع فيها ، وأنه ينتمى الى فريق من الأدباء (يستشعر خوفا كبيرا على جعبة القيم القديمة من المثاليات والأديان والسماويات ويحس خطورة عظمى على هذه كلها من قبل التطور الجارى فى النظام الاقتصادى والاجتماعى والأخلاقى أيضا ، انهم ينظرون الى تلك القيم باعتبار أنها مبادىء خالدة خارج الزمان والمكان ، ولا تخضع للتطورات المادية فى حياة البشر ، وهم يكرسون أنفسهم للحفاظ عليها دون أن يتبينوا تفاصيل هذا التطور وكيفية شموله الأخلاقى) (٢) ٠

وعلى طريق الاتجاه النقدى لغالى شكرى رأينا ناقدا آخر يعتقد أن الرؤية السلفية للسحار تمثل موقفا فكريا ازاء قضايا التطور لدى بعض المفكرين والأدباء الذين يتخوفون من التطور الاجتماعى خاصة فى مجال القيم والسلوك ، ويعتبرون كل جديد فيه بدعة تؤدى الى ضلال) (٣) ٠

وقد كانت هذه النظرة النقدية هى الواجهة التى أطل منها دعاة الفكر التقدمى على أدب السحار وحاولوا النيل منه على أساسها حيث تتحدد مهمة الفنون عندهم فى الدعوة الى التغيير والثورة على القيم الثابتة فى المجتمع لأنها تمثل معوقا كبيرا للحركة الجدلية التى يتوهمونها سبيلا ممهدا للوصول الى حتمية انتصار الارادة الانسانية وسيادتها وقدرتها على التغيير وعلى وأد الموروثات القديمة ، وهذه الرؤية النقدية « تنبثق عن آداب مغايرة لأدبنا ومزاج يختلف عن مزاجنا وأصحابها يعتقدون بأن القيم النبيلة قيم مغلقة لا وجود لها فى عالمنا وأن القوانين والشرائع والديانات اخترعها أناس مثلنا » (٤) ٠

---

(١) المصدر السابق ص ١٥١ ٠

(٣) ازمة الجنس فى القصة العربية ٠ غالى شكرى ص ٢١٦ وما بعدها ٠

(٢) صورة المرأة فى الرواية المعاصرة د٠ طه وادى ص ١٤١ ٠

(٤) مجلة الثقافة عدد ٨٩ سنة ١٩٨٠ من مقال للأستاذ / السيد أبو ضيف المدنى ٠

ولما كانت أعمال السحار جميعها تنهض أساسا على النظرة الروحية فى تفسير التاريخ وربط تطور المجتمع بالدين فقد راح يعلى من شأن القيم فى حياة الانسان وقدرتها على الارتفاع به من مستوى المادية البغيضة الى آفاق سامية فى عالم الروح ، مما جعله هدفا لطعن الماديين ومن نحا نحوهم ٠

ومن القلة الناقدة لأعمال السحار من حاول انصافه ووضعه فى المكان اللائق به بين أدباء عصره فجعله يسير مع نجيب محفوظ فى خط مواز وذلك باعتبار أنهما كاتبان (تلازمت رواياتهما واتفقت مشاربهما وتقاربت رؤيتهما الى حد ما) (١) ٠

وهما من أبرز الكتاب الروائيين الذين مثلوا مرحلة التحول والاستكشاف فى تطور القصة العربية ، فقد استطاعا أن يتلمسا مواضع أقدامهما المستقبلية بالنسبة لكتابة الرواية وتمكنا من استكشاف معالم الطريق للرواية الواقعية (٢) ٠

واذا كان بعض النقاد قد عاب عليه استغراقه فى اللون التاريخى واجهاد نفسه على دربه فقد عده البعض الآخر قصاصا عصريا يلتفت الى قضايا عصره ومشكلات وطنه ومجتمعه (٣) بل انه يعتبر واحدا من كبار الأدباء والفنانين الذين تجمع رؤيتهم بين أدب الكلمة واحساس الفنان وتفوقه للجمال ٠ فهو قصاص وأديب الى جانب كونه مفكرا اسلاميا (٤) ٠

---

(١) بانوراما الرواية العربية الحديثة د٠ سيد حامد النساج ص ٤٨ ٠

(٢) المصدر السابق ص ٤٩ ٠

(٣) الثقافة ــ عدد (٨٩) ــ ١٩٨٠ ٠ السيد أبو ضيف المدنى ٠

(٤) السحار مفكرا وأديبا وسينمائيا ٠ الاستاذ عبد المنعم صبحى ٠ والنص للأديب يوسف السباعى من مقدمة الكتاب ٠

الباب الثانى

التيار الاسلامى فى القصة عند السحار

الفصل الأول : القصة التاريخيـــة
الفصل الثانى : القصـــة الاجتماعية
الفصل الثالث : القصـــة القصـــيرة
الفصل الرابع : قصص الأطفـــال

الفصـل الأول

القصة التاريخية

احتلت القصة التاريخية مكانا بارزا فى أدب السحار ، فقد توجه ابداعه أول ما توجه اليها واستمر يصدر عنها بين حين وآخر فى رحلة حياته الأدبية حتى كان ما اصدره فيها يفوق من حيث الوفرة العددية ما صـدر له من قصص فى المجالات الأخـرى ٠

ومن الجدير بالملاحظة والاعتبار أن السمة الغالبة على قصصه فى المجال التاريخى تتمثل فى غلبة القصص ذات الاتجاه الاسلامى على غيرها ٠ فقد أصدر ثلاث عشرة قصة تاريخية واحدة منها فقط تمثل الاتجاه الى التاريخ الفرعونى لمصر القديمة بينما كانت سائر قصصه الأخرى تتصل فى تصميمها الفكرى بالتاريخ الدينى والنزعـة الاسلامية ٠ مما يدل على احتفال الكاتب به وهيامه فيه ورؤيته المستنيرة له ، وايمانه بصلاحية القيم والمثل التى ازدهرت فى حضانة هذا التاريخ ٠٠ لاعادة تشكيل الحياة المعاصرة وبث روح الأمن والطمأنينة فى النفوس البشرية بعد أن أنهكتها قيم الحياة المادية وما غلفت به عوالم الناس من قلق وخوف ٠

وقد اعترف السحار فى حوار له بأهمية التراث الاسلامى وسر توجهه اليه فى مرحلة مبكرة من حياته الأدبية بعد صدور (أحمس بطل الاستقلال) قال : (أحسست أن التراث الاسلامى والثقافة العربية تمثلان شيئا هاما وجوهريا داخل حلقات التطور الفكرى لمصر عبر العصور ، وأنه لا يمكن تطوير الأدب وتطور الثقافة المصرية دون العودة الى استلهام هذا التراث وتحقيقه على المستويين الفكرى والفنى ٠

لذلك كتبت العديد من الأعمال القصصية بعد محاولة هضم هذه الألوان من الثقافة التى لم تشارك فقط فى تطوير ثقافة وفكر المنطقة بل كان لها آثارها البعيدة فى تطوير الثقافة الانسانية العالمية بشكل عام) (١) ٠

(١) السحار مفكرا واديبا وسينمائيا ٠ عبد المنعم صبحى ص ٢٨ وما بعده ٠

وأمام هذا الوعى المبكر بأهمية التراث الاسلامى تعرف السحار على الأرض التى يقف عليها مع شروق حياته الآدبية فلم يطل بحثه عن نفسه ولم يتعرض لحالة من حالات الاغتراب التى عاشها بعض أدباء جيله عندما ضلوا الطريق وهم يبحثون عن وجودهم وسط ضباب الالحاد وقتامة الأفق ·

انه تعرف منذ اللحظة الأولى على نفسه واكتشف الطريق الموصل الى الغـاية فانطلق يجوب آفاق الماضى بحاسته الباصرة ووعيه الرشيد منقبا عن كنوزه المطمورة ودرره النفيسة حتى استوى له من مذخور العطاء الاسلامى مددا فياضا فى كل اتجاه· فجعل ينهل من عذوبته ويمتص رحيقه بقلب مفتوح وبصيرة نافذة واحساس مرهف· حتى ارتوت روحه وهفت للعلا أمانيه فراح يصدر عن وعى أصيل مستمدا الهامات فنه منه وخرج على الناس بآيات من الفن الواعى الذى يجمع بين جمال الابداع وجلال الايمـــان ·

وسواء أكان الباعث له على اتجاهه هذا توافق المنزع مع مطلب التكوين النفسى فى بيئة دينية · أو كان استجابة لوعى قومى دعت اليه ظروف الحياة السياسية فى الوقت الذى توجه فيه اليه · أو كان ردا لعاديات دعاة التغريب فى طعنهم على الاسلام· أو كان كل ذلك أو غير ذلك من الدواعى والأسباب · فان كاتبنا وجد نفسه فى استلهام ماضيه ، فانطلق يبدع آيات فنه على منهج خاص وطريقة أدبية فريدة ، وكانت القصة التاريخية الاسلامية أبرز مناحى التعبير دلالة على اتجاهه الاسلامى · فقد استوعبت أعماله التى قدمها فى اطار البيئة التاريخيـة حقبة طويلة من عمر الزمان ، وامتدت فى اتساعها من عصر ابراهيم عليه السلام الى ما بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فى قصة السيرة وحدها (١) بينما نراه فى قطاع آخر من هذه الأعمال يتجه بصفة خاصة الى عصر صدر الاسلام وما بعده من خلال تناوله لسير الأعلام فى قصص (أبو ذر الغفارى ــ ١٩٤٣) و (بلال مؤذن الرسول ــ ١٩٤٤) و (سعد بن أبى وقاص ــ ١٩٤٥) و (حياة الحسين ــ ١٩٥٤) و (عمر بن عبد العزيز ــ ١٩٧٢) ·

وفى قطاع ثالث من أعماله نجده ينتقل سريعا على جسر الزمان مشدودا الى بعض المراحل التاريخية ذات الملامح الخاصة ليؤكد صدق نظرته التى انطلق منها فى تفسيره للتاريخ على أساس دينى يرى من خلاله ازدهار الحياة والحضارة فى ظل الدين ما دام مطاعا فاذا تقلصت هيمنته على النفوس ضلت الحياة وانتكست الحضارة ·

ومن هنا توقف السحار عند آخر عهد العرب بالأندلس فى (أميرة قرطبة ــ ١٩٤٩) كما توقف على مشارف مصر الحديثة فى (قلعة الأبطال ــ ١٩٥٤) وفى حربها ضد العدوان الثلاثى فى (السهول البيض ــ ١٩٦٥) والسحار فى كل هذه الأعمال لا يقدم التاريخ مجردا مدعوما بالوثائق والأسانيد فليست هذه وظيفته بحال

---

(١) وفى (المسيح عيسى بن مريم) والسحار وان كان قد أفردها فى كتاب الا أنه تعرض لحياة المسيح فى بنى اسرائيل وعالجها فى بعض أجزاء من قصة السيرة ·

من الأحوال وانما هي وظيفة المؤرخ الذى (ينشد الحقيقة ومن ثم فهو يتسلح بمنهج التاريخ ذى الصفة الاستردادية ، مسترشدا بمصادره في محاولة اعادة تصوير الماضى بهدف كشف الحقيقة) (١) والبحث عن الدوافع الخفية وراء أحداثه وصراعاته ٠

ولا شك أن وظيفة المؤرخ بهذا المفهوم تقوم أساسا على رصد الحقائق كما هى في اطارها الموضوعي وتحتاج في الوقت نفسه الى قدر من الاحساس الفنى يتمثل فى اعادة صياغة الماضي من جديد على صورة لا يمكن تجريدها من الذاتيــة التى تنبع من رؤيته للحدث التاريخى بعينه الباصرة وتكوينه النفسى والمذهبى ٠ على أن هذه الذاتية مهما تسللت الى الصياغة التاريخية لا يمكن أن تلحق بالطبيعة الأدبية ولا يصح أن يتحول التاريخ معها الى مجال الأدب والفن ٠ أما الفنان الذى يستلهم التاريخ فى ابداعه الفنى فانه وان كان يعتمد على الحدث التاريخى أو الشخصية التاريخية كمادة أولية ــ يرى هذا الحدث ليس أكثر من ركيزة ينطلق منها الى عالم من التصورات والرؤى ليستشرف آفاق الحياة الانسانية فى رحلة الانسان عبر خطوطها وصراعاته الحياتية والمصيرية ٠ ان الفنان فى اعادة تشكيله للماضى (يتخذ من الأحـــداث التاريخية المجردة نواة ينطلق منها خياله الخالق ، ينسج حولها من رؤيته ورؤاه الابداعيـــة) ٠

فاذا كانت المادة التاريخية تحظى باهتمام المؤرخ والأديب معا فانها تتشكل فى رحاب كل منهما بلون المهمة الخاصة التى يصدر عنها ، وهى على قدر كبير من التباين والاختلاف ٠

ونظرا لما بين التاريخ والفن من وشائج الاتحاد وعناصر الاختلاف فى الوقت ذاته فقد شغل النقاد بالبحث عن مفهوم للرواية التاريخية تتحدد به طبيعتها ومهمتها حتى لا تختلط بالتاريخ المجرد وان كانت تستلهمه وتستعين به ، وحتى لا يتحول الأديب الى مؤرخ يجعل جل همه استقراء الأحداث التاريخية بحثا عن حقيقة يريد ايصالها للناس ٠٠

ومن الحقائق المقررة التى لامجال للخلاف حولها من نقاد الأدب ودارسيه على السواء أن القصة التاريخية غير التاريخ المجرد وأن المؤرخ غير الأديب فاذا كان المؤرخ يقتصر مجال عمله على رصد الحقائق التاريخية وتسجيلها ، ولا يستطيع مهما تسلح بوسائل الثقافة والاســتعداد العلمى أن يكشــف عن ظواهر التميز التى تتصــل بالأحداث أو بالشخصيات ٠ فان الأديب يستحضر الشخصية أو الحدث فى وجدانه وينفعل به ويستمطر من التصورات الخيالية ما يهيىء الجو لاعادة تشكيل ذلك الماضى من خلال رؤية خاصة يعبر عنها بالكلمة الصادقة ٠ فيكون تعبيره مليئا بالحياة الدافقة

---

(١) الرواية التاريخية فى الأدب العربى الحديث ٠ للدكتورين : أحمد الهوارى وقاسم عبده قاسم ص ٨ ٠

والحركة السخية ، وتبرز الأحداث أو الشخصيات حية وكأنها تعيش واقعها في ساعته وتؤثر في مجريات التاريخ وتوجهه بكل ما أوتيت من عظمة وعبقرية ومن هنا يمتد تأثيرها الى القارىء المعاصر • ويختلف هذا التأثير قوة وضعفا تبعا للجودة الفنية ومدى قدرة الأديب على الاقناع • وقد تباينت آراء النقاد في الحكم على القيمة الفنية للرواية التاريخية ، وجاء هذا التباين نتيجة للخلاف حول مهمتها الابداعية • ويمكن بلورة ذلك من خلال موقفين نقديين :

الموقف الأول : ويرى أن القصة التاريخية (لا تعنى بتقديم التاريخ للقارىء بالدرجة الأولى وانما تكمن قيمتها الفنية في مدى براعة الكاتب في استغلال الحدث التاريخي واعتماده اطارا ينطلق منه لمعالجة قضية حية من قضايا مجتمعه الراهن) (١) •

ونتحدد القيمة الفنية للقصة التاريخية عند أصحاب هذا الموقف في مدى ارتباطها بالواقع الحاضر الذى يعايشه الأديب وما يصطرع فيه من مشاكل وقضايا وتحديات ترشد القصة اليها وتعبر عنها ، وعن طريق المقارنة والتنظير بين الواقع المعاش وبين التاريخ المطروح بطريقة فنية يتحقق الأثر في نفس القارىء الذى تتم عملية المقارنة في ذهنه أثناء قراءته •

ومن هذا الفهم لمهمة القصة عندهم كان من ألزم واجبات الفنان الذى يتعامل مع التاريخ أن (ينظر اليه بعيون معاصرة لا تنسلخ عن عصرها وعن اهتمامات الانسان بكل ما يدور حوله من أحداث وما يطرحه الواقع من تحديات) (٢) •

الموقف الثاني : وقد توسع بعض النقاد في تحديد مهمة القصة التاريخية حيث يرى أن (الرواية التاريخية التى تتخذ مادتها الأساسية من التاريخ اما أن تقصد الى تعليمه ، ويكون صبه في القالب الروائي لاساغته وتحسين عرضه وهذه هى الرواية التاريخية التعليمية • واما أن تقصد الى احياء الماضى وتمجيده ، ويكون عرض التاريخ في قالب روائي خدمة لهدف قومي أو تعبيرا عن احساس وطني ، وهذه هى الرواية التاريخية القومية) (٣) •

وهذا الموقف النقدى في تحديده لمهمة الرواية التاريخية لم يلتفت الى مدى ارتباطها بالواقع المعاش قاصرا مهمتها على التعليم تارة وعلى تمجيد الماضى تأكيدا لعاطفة الولاء القومي تارة أخرى ، وقد نبع هذا الموقف على ما يبدو من تتبع تطور

---

(١) اتجاهات الرواية المصرية د• شفيع السيد ص ٢٤ وما بعدها •

(٢) الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث للدكتورين : أحمد الهوارى وقاسم عبده قاسم ص ١٠ •

(٣) الأدب القصصي والمسرحي في مصر من أعقاب ثورة ١٩١٩ الى قيام الحرب الكبرى د• أحمد هيكل ص ٢٤٢ •

الرواية التاريخية فى الأدب العربى الحديث · فقد بدأت بالتعليم على يد جورجى زيدان ثم تطورت مع بداية العقد الرابع من هذا القرن لتعبر عن الولاء القومى (١) ·

واذا كانت البداية الأدبية لعبد الحميد السحار ترتبط بالمرحلة التى صدر فيها الأدباء عن وعى بالولاء القومى · على ما يؤكده النقاد · فهل كان السحار مدينا فى اتجاهه التاريخى لهذه النظرة ؟ أم أن رؤيته للقصة التاريخية تنبع من شيء آخر غير ما تعارف النقاد عليه ·· ؟

وبالتعرف على ذلك ·· نجد الكاتب قد حدد فى تصوره الخاص مهمة الرواية التاريخية بقوله : تستخدم الرواية التاريخية لأغراض ثلاثة :

١ ـ تقديم صورة تاريخية لفترة ما ، نابضة بالحياة ، زاخرة ببيئة العصر وعاداته ، قد توافق الحقيقة التاريخية وقد لا تلتفت اليها ·

٢ ـ تفسير الحوادث الهامة فى التاريخ تفسيرا لا يبعد عن الحقيقة ، ولا يغفل العواطف والمثل الانسانية ، والعناية بالنفس البشرية فى هذا النوع من القصص يفوق العناية بالجو والعادات ·

٣ ـ استغلال التاريخ والأساطير لابراز أزمة الحضارة الانسانية ، ومشكلة الفرد وعلاقته بالمجتمع (٢) ·

ونراه فى تصوره للغرض الأول لا يلتقى على طريق مع الموقفين السابقين حين جعل الهدف من الرواية التاريخية مجرد تقديم صورة فنية مشحونة بجو العادات والتقاليد التى يزخر بها العصر الذى يستلهم ابداعه منه · دون أن يكون لذلك أثر مباشر على المتلقى سوى اشباع حاجته الفنية فقط · ومما يؤيد هذا التفسير اشارته الى أن الصورة التى يقدمها للعصر لا يعنيه فيها أن تكون متوافقة مع الحقيقة التاريخية أو مخالفة لها ·

لأن الواقعية التى تبرزها القصة الفنية فى رأيه (ليست الواقعية التى يشهد بصدقها المؤرخون وتقدم الوثائق دليلا على صحتها ، ولكنها الواقعية التى تلقى فى روع القارىء أنها صحيحة) (٣) وواقعية القصة التاريخية بهذا المفهوم عنده (هى مطلب الفن الصحيح ولا عبرة بعد ذلك أكان الموضوع من خلق الخيال أم من حوادث التاريخ (٤) ·

---

(١) أنظر فى هذه المسألة : تطور الرواية العربية الحديثة د· عبد المحسن طه بدر ص ٩٩ وما بعدها واتجاهات الرواية المصرية د· شفيع السيد ص ٢١ وتطور الأدب الحديث فى مصر د· أحمد هيكل ص ١٩٣ والأدب القصصى والمسرحى له ص ٢٤٢ وما بعدها وبانوراما الرواية العربية الحديثة د· سيد حامد النساج ص ٩٤ ·

(٢) القصة من خلال تجاربى الذاتية عبد الحميد السحار ص ٨١ ·

(٣) المصدر السابق ص ٨٠ ·

(٤) المصدر والصفحة ·

ونراه فى الغرضين الثانى والثالث يلتقى بطريق غير مباشر مع الموقفين السابقين وان كانت نظرته تتسم بالتفرد والتميز الى حد كبير ٠

فهو فى الغرض الثانى يحدد مهمة القصة التاريخية فى تفسير الأحداث من منطلق الحقيقة دون اغفال للانسان صانع الأحداث وما يملأ كيانه من عواطف ومشاعر ومثل ٠ ترتفع به أحيانا الى درجة من السمو تجعله يهيم فى الآفاق العليا ، وفى أحيان أخرى ينحدر بفعل مكوناته السابقة الى الهاوية ٠

وفى كلتا الحالتين تكون التجربة البشرية فى تذبذبها تعبيرا عن وحدة (العنصر البشرى) فاعل الحدث ٠ على اختلاف الأزمان والأماكن ونتيجة لذلك يجد الانسان المعاصر نفسه من خلال ما يقرأ فى روايات التاريخ وتقوم فى نفسه علاقة التنظير بين الماضى والحاضر ٠

ونراه فى الغرض الثالث يحدد المهمة فى ابراز أزمة الحضارة وعلاقة الفرد بالمجتمع وهو تصور تفسيرى أيضا لمهمة القصة ينهض على الكشف عن حركة الفرد داخل المجموعة البشرية فى اطار من العلاقات المتعارف عليها فى عصرها ٠ وانعكاس أثر الأزمات والتحديات التى يواجهها فى تفكيره وسلوكه وتعامله مع الآخرين ٠ وتعتبر هذه النظرة امتدادا للنظرة السابقة فى اعتمادها على وحدة التجربة البشرية ٠

وكان فى اختيار السحار أحداث قصصه التاريخية وأبطاله من فترة بعينها أو حدث معين دلالة على منزعه وصدق ولائه القومى حيث لجأ فى ابداعه الى عرض جوانب مشرقة من التاريخ الاسلامى والعربى يرى الانسان المعاصر فيها معالم الأصالة والقوة فى وقت هو أحوج ما يكون الى التعرف على ذاته وتحقيق أصالته لينطلق على وحى منها فى حاضره القلق أملا أن يكون الغد أكثر اشراقا وأوفر عطاء من يومه الذى يعيش فيه ٠

ولما كانت عملية تناول القصة التاريخية فى جميع ما أصدر السحار تحتاج وحدها الى بحث مستقل ، يتتبع ظواهر نموه الفنى وتطوره فى هذا المجال ٠ رأينا الاكتفاء ببعضها مما تتوفر فيه خصائص الفن ، وتبرز المعالم المميزة للاتجاه الاسلامى، كما راعينا أن يكون هذا البعض ممثلا لمراحل زمنية متباينة من التاريخ العربى تتمايز فيما بينها بيئة وخصوبة وتختلف طبيعة وتناولا ٠٠

وتأتى السيرة النبوية فى مقدمة الأعمال الأدبية التى أصدرها السحار معتمدا فيها على التاريخ كركيزة أساسية ينطلق منها بناؤه القصصى ، وفقا لمنهج جديد فى التناول ، يتسم بالطرافة والجدة فى عرضه لأحداث السيرة وتتبعه للشخصيات التاريخية التى عاشت هذه الأحداث بأسلوب سهل يخلو من الجفاف الأكاديمى تسلسل منطقى فريد يتحول معه المروى من أشتات الكتب ومختلف المصادر الى وحدة متماسكة البناء ، مترابطة الأجزاء على الرغم من اتساعها وتعدد شخصياتها وكثرة أحداثها ٠ واختلاف البيئات التى تنقلت بين ربوعها ٠ فقد احتشد السحار بكل ما يملك من مواهب الابداع وراح يؤلف قصة مثيرة تجمع بين خصائص الفن الجميل وبين الحقيقة

الناصعة التى تجلت فى حياة صاحب السيرة ۰ وفى الوقت ذاته تبرز فكره ورؤيته من خلال أحداثها وأبطالها ۰ وهذه الطريقة فى تأليف السيرة لم تعرف الا فى العصر الحــــديث ۰

فأول ما استعملت لفظة السيرة كان فى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأريد بها حياته ومغازيه وأول من أطلقها محمد بن اسحاق المتوفى سنة ١٥١ هـ ۰ وظلت مقصورة على حياته الشريفة حتى تعدد تاريخ الأفراد وظهرت كتب الطبقات التى تلت الرواية والتدوين مع بداية القرن الثالث الهجرى ، ومن ثم تطورت الكلمة من المدلول الخاص الى المدلول العام فبعد أن كانت تطلق على سيرة الرسول خاصة اتسع مدلولها فأصبحت تطلق على سير الأعلام ممن تناولتهم كتب المؤرخين ، ودراساتهم (١) ۰

وقد حظيت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم باهتمام المؤرخين والأدباء والعلماء عبر العصور ۰ فتناولوا حياته بالكشف والابانة فى دقة فريدة ، معتمدين على حقائق التاريخ ومروياته فى كل ما كتبوا وجميع ما ألفوا ، ونهضت طوائفهم على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم بحمل هذا العبء الجسيم ، حتى وصلت الينا أخبار الرسول وأسرار حياته بكل ما فيها من عظمة وجلال ۰

والسيرة النبوية بهذه الدقة التفصيلية فى البحث والتحرى ، تتسم بالصبغة العلمية التاريخية مما قد يؤدى بالبعض الى عدها تاريخا محضا يبعد فى مساره ومنهجه عن مجال الأدب وفنونه ، ولكن السيرة أى سيرة وان كانت تحتل فى مدونة التاريخ مكانا مرموقا باعتبار أن التاريخ هو البحث وراء الحقيقة وتمحيصها ، فانها تبحث عن الحقيقة) فى حياة انسان فذ ، وتكشف عن مواهبه وأسرار عبقريته من ظروف حياته التى عاشها ، والأحداث التى واجهها فى محيطه ، والأثر الذى خلفه فى جيله ، لذلك كانت أقرب الى التأثير الدرامي من كل ألوان التاريخ الأخرى ، وكانت أكثر اثارة للقارىء من كل كتابة تاريخية غيرها ، حيث تجيش بكافة الانفعالات والعواطف التى تثور فى أعماق البشر ، والتى تتجرد منها الواقعة التاريخية كحدث) (٢) ۰

ولهذا التميز الذى تتسم به كتابة السير كانت الكتابة فيها (أمرا غير يسير ، لا يقدر عليها الا من أربى على قدرة المؤرخ واحساس الأديب معا ، فالسيرة ليست سجلا لحياة فرد من مولده الى مماته ، ولكنها قصـــة انسان فذ أو متميز ، بكل ما ينبض به قلب هذا الانسان من أحاسيس وعواطف ، وما اعتور عقله من فلتات الذكاء الفذ والخيال الجامح) (٣) ۰

ولهذا فانها تحتاج (الى قدر لا بأس به من الفنيـــة الروائية التى يظهر بهــا

---

(١) مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية ۰ د۰ السيد أبو ذكرى ص ٣٥ العدد الثانى ۰

(٢) التاريخ والسير د۰ حسين فوزى النجار ص ١٤ ۰

(٣) المصدر السابق ص ٦١ ۰

الأشخاص وكأنهم أحياء يتحركون على مسرح الحياة ، ويغدون ويروحون بما يختلج فى نفوسهم من نوازع) (١) .

واذا كانت التراجم والسير العربيـــة قد لقيت اهتماما لا مثيل له فى الآداب العالمية ، الا أنها فى الغالب ، كانت تتناول حقائق الحياة المتصلة بالأشخاص بلا تزويق ولا تنميق ، وبدون اسراف ولا افتعال ، وظلت معنية طوال تاريخها بايراد الحقيقة فقط . حتى جاء العصر الحديث فتأثرت بما تأثر به الأدب العربى من الفكر الأوربى وعلومه المستحدثة ، ونظرياته فى التحليل النفسى والاجتماعى ، فأخذت السير والتراجم العربية (تنزع عنها أثواب القدم وتخرج عن ذلك النهج الرتيب الذى سارت عليه خلال عصور التاريخ الاسلامى ، وتجد فى أساليب الفرنجة فى ذلك الفن متجها تسير نحوه . وتتابع خطاه) (٢) .

ومع بداية الثلث الثانى من القرن العشرين تحولت الكتابة فى السير تحولا كبيرا حيث (أخذت شخصيات التاريخ الاسلامى من الصحابة والتابعين والخلفــاء والقواد والملوك والولاة والعلماء والأدباء ، تكتب بأقلام جديدة ، تستمد حقائق التاريخ من قديم المصادر ، وعتيق المراجع ولكنها تعرضها فى طبق شهى وتحللها على أضواء من علم النفس ، وتبين فى ذكاء ووعى ، أثرها فى البيئة التى أخرجتها وأثر البيئة فيها) (٣) وكان كتاب الدكتور طه حسين (على هامش السيرة) ١٩٣٣ ، هو كما يقول بعض النقاد ، الكتاب الأول فى اللغة العربية الذى يجعل من بعض حقائق السيرة وبعض أساطيرها فنا حيا جذابا ، ولكنه لا يقف عند هذا الحد بل يجعل هذا الفن الحى الجذاب صورة علمية صادقة للجزيرة العربية وأطرافها فى الفترة بين مولد الرسول صلى الله عليه وسلم فى الجزء الاول وانتصار دعوته فى الجزء الثالث ، صورة للحياة الاقتصادية والسياسية ، والاجتماعية والفكرية ، وصورة لما يهجس فى الضمائر والأخلاد ، وما يبدو من الاتجاهات والآراء ، وصورة للبيئات وللأفراد هناك) (٤) .

وعلى الرغم من اختلاف النقاد حول منهج طه حسين فى كتابه (٥) الا أنه كان رائدا لمن جاء بعده فى هذا الاتجاه الذى أصبحت السيرة تعرض فيه من خلال قصة فنية . فقد تتابعت الأعمال الأدبية التى تستلهم قصة السيرة أو جانبا منها ، ولعل من أهمها : (الثائر الأعظم) لفتحى رضوان ١٩٥٤ ، و (محمد رسول الحرية) لعبد الرحمن الشرقاوى ١٩٦٤ . وبعدهما بدأ السحار كتابة الجزء الأول منها عام

---

(١) التراجم والسير الأستاذ / محمد عبد الغنى حسن ص ١٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٤ .

(٣) المصدر السابق والصفحه .

(٤) كتب وشخصيات الاستاذ سيد قطب ص ١٠٨ .

(٥) رضى بعض النقاد عن استخدامه للأساطير وتوسعه فيها . ورفض البعض الآخر هذا المنهج .. أنظر فى هذه المسألة . المدائح النبوية للدكتور زكى مبارك ص ٢٤٥ والدكتور محمد رجب البيومى فى الثقافة ١٩٨١ عدد نوفمبر والهلال فى يناير ١٩٨٣ . وتوفيق الحكيم فى الهلال . أغسطس ١٩٧٨ .

١٩٦٥ ·· متأثرا (بطريقة طه حسين فى السرد التى جعلته يعيش بكل جوارحه فى ذلك العصر الذى تمكن الدكتور من جعله ينبض بالحياة) (١) ·

على أنه وان كان قد أعجب بطريقته فى العرض القصصى الا أنه يخالفه فى المنهج والأسلوب ، فاذا كان طه حسين قد استعان بالأساطير فى خلق جو شعرى محبب يقرب السيرة من قلوب العامة (٢) ، فان السحار اكتفى بنوع من الخيال لا يتناقض مع نص صحيح ، ولا يتنافى مع العقيدة الدينية فى صفائها · واستخدمه فقط لملء الفجوات التى تقطع التسلسل الزمنى للأحداث · وكانت طريقة السحار فى منهجه عامة تقترب كثيرا من أسلوب المعالجة القصصية من حيث الاعتماد على العناصر البنائية للقصة فى بلورة الأحداث · والتصوير الجيد للشخصيات ومكوناتهم النفسية والعضوية والخلقية ومدى تفاعلهم مع البيئة وطرق تفكيرهم ، والعادات والعقائد التى يدينون بها ويخضعون لها · فى سياق متكامل تتآزر فيه جميع العناصر وتتآلف لتحقق الاثارة المطلوبة والتشويق الجاذب ، وبما يحقق أيضا تعاطف القارى بوجدانه مع ذلك الجو الأدبى الذى تحول التاريخ فيه الى حياة نابضة بالحركة والايجابية · ويتضح ذلك من قوله : (اخترت أن أكتب السيرة بأسلوب قصصى ، وأنا على علم بما يعانيه كاتب التاريخ من مشقة اذا حاول أن ينهج فى كتابته نهج القصة فانه سيشقى فى سبيل دراسة أشخاص السيرة دراسة دقيقة ليبرز ملامحها وجوانبها ، وسيبذل كل الجهد لتصوير الحياة اليومية والمعتقدات والديانات السائدة بأدق تفاصيلها ، وتفاعل الشخصيات مع البيئة ، والاعتماد على الخيال فى سد الثغرات والفجوات التى تعترض التسلسل الزمنى على أن يتناسق الخيال مع المادة التاريخية ليبرز جوهر الحقيقة ويعين على استقراء الأحداث لتوفير التسلسل المنطقى ، انه جهد شاق ولكنه يهون فى سبيل اتاحة الفرصة للقارىء ليأخذ الكتاب فى يسر دون جهد أو تعب ·

حاولت جهدى ـ وان كنت أكتب قصة أو ما يشبه القصة ـ أن أحافظ على الحقيقة التاريخية ، فما من حادثة دونتها الا ولها سند · وقد محصت الروايات المختلفة واخترت أقربها الى المنطق وروح الدعوة ، وان تعارضت مع ما ورد فى التوراة أو بعض الأحاديث ، أو مع المتواتر بين المؤرخين (٣) · ونستطيع أن نستخلص من هذا القول رؤيته ومنهجه فى كتابة السيرة فهو يرى أن بلورة السيرة النبوية فى قصة عملية شاقة وعسيرة لاعتبارات عديدة تنفرد بها وحدها عن غيرها من القصص العادية ·

ومن أهم هذه الاعتبارات ذلك العدد الهائل من الشخصيات التى تزدحم بها والتى تحتاج الى دقة شديدة فى تصويرها وابراز ملامحها · وعملية تتبع هذه الشخصيات التى عاصرت البعثة عملية ليست بالسهولة كما يتصور البعض ، فهى

---

(١) أبو الأنبياء ·لعبد الحميد جوده السحار ص ٢٨٩ ·

(٢) على هامش السيرة د· طه حسين المقدمة ص ك ·

(٣) السحار ـ والفكر الاسلامى ـ مأمون غريب ص ٦٩ ·

نحتاج الى الـمام كامل بهذه الشخصيات ونشأتها وظروف حياتها وتتبع نشاطها ، ثم جمع كل هذا فى خط واحد يتلاقى مع الأحداث الكبيرة التى شاهدتها (١) وشاركت فيها ، ولا شك أن هذه العملية تحتاج الى فهم واقتدار لا يتمتع به الا من كان يملك موهبة خاصة وعبقرية فذة وثقافة متنوعة يضاف الى ذلك اعتبار آخر يتمثل فى تصوير البيئة التاريخية وما كان يملأ ساحتها من ديانات وعقائد وعادات ، ومدى تفاعل الشخصيات مع هذه البيئة ايجابا أو سلبا ، بالقدر الذى تتشكل به الحركة البشرية فى صراعاتها المختلفة وفقا لطبيعة الدور الذى مارست من خلاله حياتها ٠

وهناك اعتبار ثالث تتبدى من خلاله مدى الصعوبة التى يواجهها الكاتب فى السيرة على نحو أدبى يلعب الخيال فيه دورا أساسيا باعتباره من أهم عناصر العمل الأدبى وسماته ٠ فان الاستعانة بالخيال فى هذا المجال لابد أن تكون محوطة بكثير من الحذر والخشية لاختلاف طبيعة العمل فى السيرة عن أن عمل فنى آخر ، من حيث اتصالها أولا وقبل كل شىء بشخصية مركزية ترتبط حركتها فى كل ما يصدر عنها من قول أو فعل أو تقرير بالشريعة والدين والوحى كمصدر أساسى تتشكل من خلاله حركتها ٠ ومن هنا فان الكاتب مقيد فى استعماله للخيال بطبيعة العمل فلا يجوز له أن يطلق العنان لتصورات خاطئة تتنافى مع الحقيقة ولا تلتقى معها فى طريق ٠

وقد فطن السحار الى ذلك كله ، فلم يبح لنفسه حق التجوال فى عالم الخيال الا بالقدر الذى يساعده على خلق الجو القصصى ، فاستعان به فقط فى ملء الفجوات التى تعترض التسلسل الزمنى والمنطقى للأحداث ملتزما بالحقيقة وحدها دون أن يترك المجال لنزعات النفس والهوى تفسد عليه ما هو معنى به ، ودون أن يضل به الطريق عن الغاية التى يهدف اليها ومن هنا جعل من (خياله القصصى وسيلة لاكمال صورة من الصور يريد أن يرسمها ، عند هذا الحد فقط يترك العنان للخيال ، ولكنه لا يترك الخيال يجسم حقيقة من حقائق التاريخ) (٢) ٠

ولما كانت غايتـه الوصــول الى جوهر الحقيقة فيما يعالج ٠ فقد ألزم نفسه بالموضوعية فى اعتماده على موثوق المرويات التاريخية فى كل ما يدون من أحداث تاركا لنفسه حرية الاختيار والترجيح ضاربا عرض الحائط بكل ما لا يتفق مع منطق العقل وروح الدعوة حتى ولو كان واردا فى التوراة أو بعض الأحاديث أو مع المتواتر بين المؤرخين ٠

وهنا تبرز الذاتية ممثلة فى عملية الاختيار والترجيح وما يصحبها من تفسير ورؤية خاصة للأحداث والمواقف وتحكيم العقل فى كل ما يعرض على ساحتها واعتباره ميزانا للصدق التاريخى للحدث أو للموقف وان تعارضت النتيجة مع المتواتر من روايات المؤرخين ٠

---

(١) السحار والفكر الاسلامى ــ مامون غريب ص ٤٤ ٠

وهذه النزعة الذاتية في كتابة السيرة اتجاه حديث في التأليف لم يرض عنه بعض المفكرين (لأن كاتب السيرة فيه يستبدل بميزان الرواية والسند وقواعد التحديث وشروطه · طريقة الاستنتاج الشخصي وميزان الرضا النفسي · ومنهج التوسم الذى لا يضبطه شيء الا دوافع الرغبة وكوامن الأغراض والمذاهب التى يضمرها المؤلف وان الكتاب فى اعتمادهم على هذه الطريقة أخذوا يستبعدون كل ما قد يخالف المألوف مما يدخل فى باب المعجزات والخوارق من سيرته صلى الله عليه وسلم وراحوا يروجون له صفة العبقرية والعظمة والبطولة وما شاكلها نقلا للقارىء بها عن صفات قد تجره الى غير المألوف من النبوة والوحي والرسالة مما يشكل المقومات الأساسية لشخصية النبى صلى الله عليه وسلم) (١) ·

ويضاف الى ذلك أن هذا المنهج فى التأليف يحتم على الكاتب (أن يقحم نزعته الذاتية أو اتجاهه الفكرى أو الديني والسياسى فى تفسير الأحداث وتعليلها والحكم على أبطالها ، وهذه الطريقة تجعل كتابة التاريخ وتدوينه عملا فنيا مجردا ولا تسمح بعده نهوضا · بعمل علمي دقيق ، وهذا المذهب كفيل بأن يمزق جميع الحقائق والأحداث التى يحتضنها الزمن في هيكله القدسى القديم بفضل ما يحمل من خصائص الخيال وعصبية النفس والهوى) (٢) وفى رأيي أن السحار قد أفاد من هذا الاتجاه وتأثر به وأتبع طريقته فى بعض جوانبها الا أنه كان معتدلا من الناحيتين الذاتية والموضوعية · فهو من الناحية الموضوعية قد ألزم نفسه بالحقيقة التاريخية لا يتجاوزها فى موقف من المواقف بل يعتمد عليها فى بنائه القصصي ويختار لها من الروايات ما يدعمها بصرف النظر عن صفة التواتر فيما يستند اليه من روايات · بشرط ألا تتناقض مع حقائق الدين ، وأن تكون فى الوقت نفسه مما يقبله العقل السليم ·

ومن الناحية الذاتية صدر عن وعى كامل بحقيقة الدين وجوهره فى أصوله الثابتة ، فلم ينحرف به القصد بدافع الميل أو الهوى ، ولم يخلق فى تصوراته ورؤيته الفكرية ما يرضى فى ميوله نزعة سياسية أو دوافع عصبية ، وانما صدر عن فلسفة خاصة ، وانطلق من اطار محدد يتمثل فى رؤيته للدين وأنه الأساس الذى تنهض عليه الحضارات ، وبه ترقى الأمم ، وان الانسان فى أمن وطمأنينة مادام مرتبطا بالدين فاذا انسلخ عنه أو انحرف عن طريقه ضل سواء السبيل ·

ومما يؤكد هذه الرؤية الخاصة ، ويدعم سمة الاعتدال فيها وفى الطريقة التى سار عليها فى تفسيره للتاريخ الدينى من خلال قصة السيرة · عرضه للدوافع التى صدر عنها فى كتابه ، والتي عبر عنها بقوله (ما أردت بكتابة هذه السيرة فى هذا العصر الذى طغت فيه المادية الا أن أعرض حقبة مشرقة من تاريخ البشرية ، ارتفع فيها الانسان حين أسلم وجهه لله ، ورفع عبادته من الطبيعة الى ما فوق الطبيعة ، حقبة تحرر فيها من العبودية ، ومن أن يتخذ بعضهم بعضا أربابا ، من أن يكون عبدا

---

(١) فقه السيرة · د· محمد سعيد رمضان البوطى ص ٢٠ بتصرف ·

(٢) المصدر السابق ص ٢٣ ·

للشهوات ورغبات الجسد ، من أن ترتعد فرائصه خوفا من بطش الأقوياء وظلم الظالمين) (١) ·

أردت بهذه السيرة أن أفسر التاريخ تفسيرا روحيا ، وأن أطهر ضمير الانسان من أدران المادية الطاغية ، وأن أعيد اليه رفاهته التى بلغت غايتها فى ظل الدين ، وأن أعيد الى الانسان كرامته التى تتألق وتزكو كلما سما فوق مطالب الأبدان وضرورات الغرائز ، وما تهفو اليه النفوس) (٢) ·

ولا شك أن هذه الدوافع في وضوحها وأصالة مقصدها لا تترك مجالا لريب مرتاب تبعث فى جوانبه الظنون · كما أنها رغم صدورها عن أصالة ذاتية لاتدع للميل مدخلا يلج منه الى ساحتها ليغلف الرؤية بضباب من الوهم أو الخيال الكاذب فيفسد منهج الكاتب فى الاصلاح وقد أخذ على عاتقه مهمة انجاز عمل يتفتح فى رحابه وعى الانسان المعاصر فينهض بحمل الأمانة كما أرادها الله له · على سنة الدين والمثل الأعلى ·

ولا شك أن وظيفة الأدب فى الاسلام تصدر عن وعى بهذا الفهم وكان السحار من أبرز الفاهمين لهذه الوظيفة في العصر الحديث ·· ولما كانت السيرة النبوية التي كتبها تتناول (التطور التاريخى منذ أقدم العصور الى انتصار الدعوة الاسلامية وانتشارها ، والقوانين الأساسية التي وصلت بها الى هذا الانتصار العظيم) (٣) فان عملية تتبع منهجه الفنى فيها واستطلاع رؤيته الفكرية فى عشرات القضايا والأفكار والمسائل المطروحة على ساحتها يحتاج وحده الى دراسة مستقلة ، فقد رأينا تناول بعض هذه الجوانب من زاوية الشكل الذى اعتمد عليه ، والمضمون الذى صدر عنه بالقدر الذى تسمح به الدراسة ·

أما من ناحية الشكل الفنى فقد عرفنا أنه (استعان بالسرد القصصى لما فيه من ترغيب للنفس على الاطلاع ، وما يقضى على السأم الذى ينتاب القارىء الذى يقرأ السرد المباشر دون أن يكون لهذا الأسلوب تأثير على الحقيقة التاريخية) (٤) ·

كما اتخذ القصة وسيلة يصف بها الشخصيات التاريخية ويحركها ، فى اطارها التاريخى ويقرب بخياله القصصى صور هؤلاء الأبطال وعلى رأسهم النبى العظيم محمد صلى الله عليه وسلم (٥) ·

ولهذا صنع ما يصنعه كتاب القصة الفنية · فجعل يرسم الأشخاص ويربط الأحداث بعضها ببعض فى سياق متكامل متتبعا تطورها ومراحل نموها حتى يصل

---

(١) أبو الأنبياء · عبد الحميد جوده السحار ص ٢٩٦ من التذييل ·

(٢) المصدر السابق ص ٢٩٧ ·

(٣) السحار مفكرا وأديبا وسينمائيا · عبد المنعم صبحى ص ٣٢ ·

(٤) السحار والفكر الاسلامى · مأمون غريب ص ٣١ ·

(٥) المصدر السابق والصفحة ·

الى النهاية • متوسلا في ذلك بالخيال الفنى الذى يعنى باختيار الحقائق من واقعها ، وترتيبها ترتيبا فنيا واقعيا بالقدر الذى يبرز الجانب المقصود ابرازه مبتعدا به عن تراكم الحقائق الذى يقع فيه المؤرخ ومتحاشيا الخيال الخداع الكاذب الذى يتوسل به الكثير من الأدباء ظنا منهم حتمية هذا النوع من الخيال • والسحار فى ذلك متأثر بالبيان القصصى للقرآن الكريم (١) •

ففى الجزء الخاص بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم قام بتجلية الخلاف الذى وقع بين بنى عبد مناف وبين عبد الدار بسبب الامتيازات الممنوحة من قصى بن كلاب لعبد الدار نظرا لخموله بين أخوته ، وانحياز بنى زهرة الى جانب المنافيين معتمدا على ذلك فى بلورة المواقف المستقبلية فى محورين أساسيين يقوم عليهما البناء ، محور الخصومة القائمة بين المتنازعين على الامتيازات ، ومحور الود القائم بين بنى هاشم واستمرار الصراع والمودة على المستويين بشكل معلما رئيسيا لحركة الأحداث وامتدادها فى هذا الجزء وفي غيره فقد امتد الود الى عبد المطلب بعد هاشم وازدادت علاقات التناصر بينه وبين وهب ووهيب أبرز زعماء بنى زهرة •

واتخذ السحار ذلك تكئة للوصول الى آمنة بنت وهب ولعبها في طفولتها مبرزا خلال تعرضه لها ملامح البيئة العربية وعناصر تكوينها الفكرى والاجتماعى وما يغلفه من ضباب الوهم وفساد العقائد كتلك الأصنام التى تملأ ساحة الحرم ، والتى كثيرا ما ازدرتها آمنة ولشىء ما محجوب فى علم الغيب (كانت آمنة تحس راحة كلما لاذت بالحرم وانشراحا يملأ وجدانها ونورا ينتشر فى جوانب نفسها ، وأن قلبها الصغير قد اتسع ليحتوى الكون كله ، هى تستشعر سعادة وتناسقا مع الوجود ، وتعاطفا مع كل ما تقع عيناها عليه) (٢) •

وبعد أن أبدع السحار فى تصوير حياة آمنة فى طفولتها وصباها أقام جسرا هامشيا من العواطف بينها وبين عبد الله ، فكثيرا ماكانت تشعر فى وجدانها بسعادة غامرة اذا ما نظرت اليه دون أن تدرى لذلك سببا ، وان كانت تحس فى الوقت نفسه أن غيرها من فتيات مكة معجبات به مشدودات اليه ، خصوصا رقيقة بنت نوفل التى تهيم به حبا ، فقد وقعت عيناها على نور فى وجهه بعد أن تفرست فى وجوه شباب مكة بحثا عن شاب يكون والدا للنبى المنتظر الذى حدثها عنه شقيقها ورقة ، وقد أهتدت بفراستها الى عبد الله (٣) •

وبعد أيام جاءت سودة كاهنة قريش صارخة تطلب بنات بنى زهرة فقد تناهى الى علمها أن فيهن من ستكون نذيرة أو من سوف تلد النذير ، فراحت كل امرأة

---

(١) أفاض فى تفصيل ذلك الدكتور ابراهيم عوضين فى كتابه البيان القصصى فى القرآن الكريم ـ طبع مطبعة السعادة بمصر ص

(٢) مولد الرسول •• عبد الحميد السحار ص ٣٤ •

(٣) المصدر نفسه ص ٣٥ •

تمنى نفسها أن تكون ابنتها صاحبة البشارة ، وتقدمت هالة بنت وهيب (وكأنما كانت الكاهنة تقرأ فى كتاب مفتوح ، انها تحدثها عن زواجها بسيد من سادات قريش قد شرف فى قومه حتى انقادت له الزعامة ، وعن ولدها الشهيد (١) .

وعند آمنة يتوقف السحار ليسجل بالكلمة الحية واللقطة المعبرة مقالة الكاهنة وقد راحت تنظر فى منخارها وتقلب النظر فيها وسيطر على المكان سكون رهيب ، ولاح فى وجه الكاهنة الاهتمام الشديد وكتمت أنفاسها برهة ، ثم راحت تشهق وتزفر فى صوت مسموع ، وقطبت جبينها ، وسرعان ما انبسطت أساريرها وظهر عليها طمأنينة عجيبة لكأنما ألقى الخبر فى روعها وأضاء ظلام نفسها ، وتحركت شفتاها واذا بالنسوة كلهن آذان صاغية قالت : هذه هى التى ستلد النذير (٢) .

ومن هذا الموقف راح السحار يستمطر البشارات من كل مكان وعلى كل لسان تهيئة لمولد النبى المنتظر دون أن يحس القارىء أن هناك فواصل بعيدة تفصل بين الأحداث فى تتابعها وانسجامها فى خطوط طولية نامية . فبعد أن بشرت الكاهنة آمنة بأنها سوف تلد النذير . وجدنا عبد المطلب فى رحلته التجارية الى اليمن يشعر بشىء يشدة الى المجهول مما جعله منزويا عن حشد السامرين مشغولا عنهم بهاجس غريب يتحرق مشوقا الى معرفته . وبين يدى الحبر يستريح خاطره فقد أخبره بأن فى احدى يديه ملكا وفى الأخرى نبوة . وأن ذلك فى بنى زهرة . ومن ساعتها ارتبطت فى ذهنه مقالة سودة بنبوءة الحبر وتفتحت أمام بصيرته واجهات المستقبل فما ينتهى من شروده وهو فى طريق عودنه حتى يكون قد عقد العزم على أن يزوج عبد الله من آمنة (وأن يتزوج هو نفسه فيهن فمن يدرى فقد تتحقق نبوءة حبر اليمن ويأتى الملك والنبوة) (٣) .

ولكنه بعد وصوله الى مكة وهمه بانجاز ما عقد العزم عليه تذكر حلم الليلة الماضية الذى يطالب فيه بالوفاء بنذره وذبح أحد أولاده .

وتصطرع الآمال فى ذهن الشيخ العجوز وهنا يجد السحار الفرصة مواتية للابداع فالأحداث مثيرة والموقف رهيب . ويحتشد قلمه وذهنه وخياله القصصى فى رسم اللحظة الرهيبة التى عاشتها مكة . جامعا بين المواقف فى اقتدار عجيب . مركزا بصفة خاصة على رقيقة فى ذلك الخطب الذى نزل بعبد الله حبيب الفؤاد .

وكانت فرائصها ترتعد فى كل مرة تدار فيها الأقداح حتى تأكد للجميع رضى الله عن عبد الله بخروج القدح على الابل . فجعلت تتراكض وسط الجموع الحاشدة نريد الوصول اليه . وعندما تصل تعرض نفسها ومائة من الابل ولكنه يدير لها ظهره . بينما سعدت آمنة بنجاة صديق الصبا فقد تم الاتفاق بين عبد المطلب ووهب

---

(١) المصدر السابق ص ٣٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٣ .

على تزويج آمنة من عبد الله · وذاع الخبر وشاع واهتزت دور بني زهرة فرحا وطربا وأطرقت آمنة حياء (وان أشرقت أساريرها ، وان خفق قلبها أعذب خفقات في الوجود، خفقات تحقق أعظم حلم راود فتاة · فقد كان عبد الله أملها مذ كان يلهو مع الغلمان في ربوع مكة وعلى روابيها وكانت ترقب في لهفة ذلك اليوم السعيد الذي يقبل فيه عبد الله الكوكب المنير بين اخوته ليطلبها لنفسه زوجة) (١) ·

وكانت الليلة الأولى التي أغلق عبد الله وآمنة الدار عليهما ليلة (لم ير عبد الله أروع منها طوال حياته كان القمر يرسل أشعته الى جبال منى ووديانها وقد انسكب ضوءه من النافذه فغمر الحجرة بنـور لطيف ، انه طالما سرى في الليل وطالما أحس سحر القمر ، ولكن القمر في تلك الليلة كان أكثر تألقا مما كان · وكانت أشعته كأنها عواطف حانية زاخرة بالمحبة تحتوى الوجود كله بين جوانحها وقد هب النسيم رخاء كأنما يحمل بشرى رحمة للناس كافة) (٢) ·

يعرض السحار ذلك في صورة خواطر تتوارد على صفحات ذهن عبد الله وهو في مجلس أبيه بجوار الكعبة بعد يومين من دخوله بآمنة وكأنه يجتر السعادة التي عاشها في ليلته الأولى معها ·· ويظل شاردا سابحا في أحلام يقظته يسترجع الزمن القريب محاولا فك طلاسمه بحثا عن سر للأحاسيس الفوارة التي تملأ جوانحه منذ ارتبط بآمنة ولا يفيق من تردده الا على صوت عبد المطلب وهو يعلن ايمانه بالبعث والجزاء الأخروى محاورا أحد اليهود · وينفض المجلس فيذهب كل الى بيته وينطلق عبد الله الى آمنة التي تلقاه في ترحاب غامر . وقد كانت البسمة التي توجت شفتيها في تلك الليلة أعذب بسمة رسمت على شفتين ، فقد كان حلمها رائعا غاية الروعة ، حيث انبعث من أعماقها نور وهاج أضاء أرجاء الدنيا ، انها ترى قصور بصرى من أرض الشام وأن هاتفا يهتف بها : انك قد حملت بسيد هذه الأمة (٣) ·

ويمضي السحار في متابعته للأحداث على امتداد هذا المحور وغيره وكأنه يعيش داخل مكة ويتعامل مع الأشخاص في واقعهم الحياتي فلا تغيب عنه لمحة ولا تند عن مخيلته شاردة ، فقد سجل صورة صادقة لحركة الأحداث المتصلة بالمولد النبـوى مستعينا على تجليتها بحشد هائل من الأحـلام والرؤى والنبوءات ، وبالأحاسيس المجهولة التي يشعر بها عبد الله وعبد المطلب والتي تحسها آمنة · ومبرزا كذلك حياة العرب وما ساد فيها من فساد قد استشرى حتى غلف حياتهم بسبب بعدهم عن تيار الروحية الصحيحة والدين القويم وأنهم لما طال عليهم الأمد ، تبدلت في حياتهم القيم والموازين حتى أصبحت حياتهم فوضى ينخر فيها السوس من كل جانب · فقد عمت الرذيلة وتربع الاثم وتطاول الأقوياء على الضعفاء · وما قصة حياتهم في ليل أو نهار الا عربدة فارغة وخواء مخيف · وما كانت مكة وحدها في ذلك بل ان الساحة العربية

---

(١) المصدر السابق ص ٦٩ ·

(٢) المصدر السابق ص ٨٠ ·

(٣) المصدر السابق ص ٨٢ وما بعدها بتصرف ·

على امتدادها كانت تعيش في جو من الجهالة والضلالة والحمق ٠ وقد أبرز السحار ذلك من خلال عرضه لبعض الشخصيات والمواقف والأحداث التي بلورها في سرده القصصي ٠ هادفا من ذلك كله الى ابراز سيئات الحياة ومنتهيا الى بيت واحد ينفذ منه شعاع النور ، ويوشك أن يعم الأرجاء ، وبه سوف تتبدل القيم وتستقيم الموازين٠

ولا ينسى الكاتب أن يأخذ القارىء معه الى مسرح الأحـداث في كل ما يعرض ليعيش في جوها ويتعرف على ملامحها ، مؤكدا في سرده على ذكر بعض هذه الأحداث التي تساعده على خلق جو من الصراع يكسب العمل خصوبة وثراء فنراه يجوس خلال البيت الهاشمي ليطلعنا على شخصية أبي لهب ، ذلك الذي كثيرا ما ينسل خفية الى دار فتاة من فتيات اللهو في مكة ليلتقي فيها برفقاء السوء من شاربي الخمر ولاعبي الميسر ومحترفي العبث بالنساء ٠ وكأن السحار يريد أن يطلعنا من أول الأمر على عمق المفارقة داخل بيت عبد المطلب نفسه وعلى مكونات شخصية أبي لهب وميوله ليضـع ذلك لبنة في صرح العقبات التي سـوف تقف في طريق الدعوة ٠ وللهدف نفسـه راح يجلي بشيء من الوضوح موقف البيت من أحداث الحياة في مكة مبرزا خصائص حياتهم وعوامل ضغنهم على البيت الهاشمي ومتتبعا مراحل نموها الى نهاية السيرة ٠

ولما كانت عملية السرد وحدها لا تكفي في العمل القصصي الجيد كأسلوب في التعبير عن الجو التاريخي وابراز ملامحه ، فقد لجأ السحار الى عنصر الوصف واعتمده أساسا للايحاء بالمطلوب ولاضفاء جو من الفنية الروائية على العمل الأدبي ، ولهذا فقد راح يرسم بالكلمة لوحات صادقة تبدو من خلالها الشخصية التاريخية كأنها ماثلة أمامنا بكل ملامحها العضوية والنفسية تصدر في كل حركة من حركاتها بما لا يتلاءم وطبيعة الصورة المرسومة٠وبهذا يتحقق الاقناع والصدق الفني٠نجد ذلك في تصوره مثلا لشخصيات البيت الأموي ٠ فقد حدد ملامح هذه الشخصيات بما يتلاءم وموقفها العدائي من البيت الهاشمي حيث أضفى عليها من الأوصاف والخصائص ما يجعلها تتحرك في اطار محدد لا يخرج عن دائرة العداوة أو الشعور بها ٠

فأمية ــ رأس البيت الأموي وعموده ومن بدأت معه بذرة العداوة ــ في أخص خصائصه الجسيمة قصير القامة نحيف الجسم (١) وكان يحس كأن عبد المطلب قذى في عينه (٢) ٠

أما حرب بن أمية ، فقد كان قميئا هزيلا ولكنه كان يسير مرفوع الرأس شامخ الأنف يختال كبرا ، يستشعر في أعماقه أنه الكون ، وأنه خير من ولدته امرأة ، الشفقة عنده ضعف وتقبيل الأبناء يفتح أبواب الوهن الى قلبه ، قد نبذ الحب ليتحرر من الشعور ، حتى استوى بذلك فظا غليظ القلب انفض الناس من حوله ، يهـابون

---

(١) المصدر السابق ص ٩ ٠

(٢) المصدر السابق ص ١١ ٠

سطوته ويتأخرون عنه اذا ما تقدم لا حبا له واحتراما لمقامه فيهم ، بل خوفا من شروره وأذاه (١) ٠

وشخص تحدده هذه الملامح لا شك أنه معزول عن تيار الجماعة لا يتعاطف معها ولا تتعاطف معه وانما تصدر فى حركتها تجاهه عن كل ما يغيظه ويعلى قدر النقائص فى نفسه ٠ وهكذا كان فاذا أشار الناس الى غيره بالفضل أو امتدحوا سواه بالحمد والزعامة أكلت الغيرة قلبه ، وما كانت غيرته من عبد المطلب الا لأن الناس قد أفردوه دونه بالمجد والسؤدد ٠

واذا كان السحار قد حدد ملامح حرب وأمية بما يتكافأ مع واقع الحركة التاريخية للخصومة بين الهاشميين والأمويين ٠ فانه قد أضاف أبعادا أخرى لشخصية أبى سفيان نظرا لما تتطلبه حركة الصراع بعد المبعث وهى أشد اتساعا وأعنف مواجهه من ذى قبل ٠ فنجده فى تصور السحار (يعيش فى الدنيا دون أن يجد لغزا أو سرا فهو لا يجهد نفسه فى البحث عن سر الحياة ولا يفكر فى أن يغير الدنيا ، فهو يسعد بأيامه، فقد كان كل ما يبتغيه أن يستمتع باللذات الحسية ٠ فهو مؤمن بالمادية الأرضية ونزعة اشباع اللذة ٠ وكان لا يأبه بالخلق ، ولا بمكارم الأخلاق ، فهو يريد مالا ممدودا يحسب أن ماله أخلده ، لا يقلقه من أين جاء ، ويريد أن يستمتع بالنساء وما جال بخاطره أبدا تنظيم الحياة الجنسية بل كان يشبعها أينما حل فى مكة أو ثقيف أو يثرب أو دومة الجندل أو الحيرة أو الشام ، وما طمع فى سيادة قومه الا ليشبع نهمه الى السلطان) (٢) ٠

وكان فى أعماقه يرتجف من الحرية الحقة ، فهو عبد لدين آبائه أسير لتقاليد أجداده ، أعمى لا يقوى على أن يرى ما فوق رأسه فبصره مشدود الى الأرض بسلاسل المادية التى تعلم أن تكون غايته التى ليس وراءها مرمى) (٣) ٠

انه تاجر يحب الغنم دائما وأن يكسب من صلاته بالناس ، لا يعنيه الدين بل كان ما يهمه من أمره الجاه والسلطان ٠ وقد ساءه أن يفلت محمد عليه السلام منهم يوم هاجر الى المدينة ، واشتد غيظه لا لأنه كان يخشى ألا تعبد اللات والعزى فى الأرض اذا ما ظهر دين محمد بل لأنه كان يعلم علم اليقين خطورة محمد عليه السلام على تجارة قريش اذا ما دانت له يثرب) (٤) ٠

وبهذا التوصيف الحى لشخصية أبى سفيان تتشكل أبعاد المواجهة الشرسة على نحو محدد لا يخطئه السحار فى تتبعه لمساره الشخصى على كل المستويات ٠

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٣ ٠

(٢) خديجة بنت خويلد ٠ عبد الحميد السحار ص ١٢٨ ٠

(٣) المصدر نفسه ص ١٣٠ ٠

(٤) الهجرة عبد الحميد السحار ص ٢٠٩ ٠

وفي المقابل وجدناه يصدر في رسمه لشخصيات البيت الهاشمي وما اتصل به وارتبط بحركته عن حب واجلال ، ووجـدنا الصورة تتلاءم أيضـا مع طبيعة الشخصية على نمط فريد من الانسـجام لا يخالف الواقع التاريخي ولا يناقضه ٠ فعبد المطلب (كان مديد القامة أبيض مشربا بحمرة حسن الوجه ، يتألق منه النور وعز الملك ، يطيف به من حضر من بنيه كأنهم أسد غاب ، ويسير خلفهم عبيدهم من فرس وروم وأحباش) (١) وهو في هذه الصورة المهيبة بين قومه قد ملك من عوامل القوة والبأس وأصالة النظرة ما خوله لرياسة مكة والقيام بالواجبات الدينية فيما يتصل بأمور الكعبة ورعاية الحجاج ٠

أما آمنة بنت وهب فقد كانت فتـاة رقيقة كنسيم الصـبا متفتحة كزهرة الربيع تجرى وتلعب في شوارع مكة مع أترابها من فتيات بني زهرة وبني هاشم وبعض غلمانهم حتى اذا رأت الأصنام تملأ جوف الكعبة راحت تنظر اليها في ريبة(٢) كما أنها كانت تحس راحة كلما لاذت بالحرم وانشراحا يملأ وجدانها ونورا ينتشر في جوانب نفسها وأن قلبها الصغير قد اتسع ليحتوى الكون كله (٣) وجاءت صورتها في كل ما أورد السحار عنها وحولها مفصحة عن طهارتها وعفتها وتنزهها عن نقائص الجاهلية ٠ ولا يؤخذ عليه الا تذبذب رؤيته لها في موقفها من الأصنام ٠ فقد ذكر أنها كانت تستشعر تناسقا مع الوجود وتعاطفا مع كل ما تقع عيناها عليه في الوقت الذى كانت فيه تزدري الأصنام وتسخر منها متأثرة بما سمعت عن جدها أبي كبشة الذى هجر الأصنام أيضا وسخر منها داعيا الى عبادة الشعرى العبور ٠ وأن ذلك منها كان في الجاهلية ٠ وقبل زواجها من عبد الله وولادة الرسول كيف تصدر عن منهج مخالف لتلك السخرية عندما سألها محمد (الطفل) وهما في الطريق الى يثرب عن السر في احتفاء الناس بالصنم (مناة) فقالت له كما حكى السحار (وراحت آمنة تحدث محمدا الحبيب عنآلهة قومه وأن للكون الها عظيما خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر وأنزل المطـر من السماء ، أحيا به الأرض بعد موتها وأن الأصنام التي يعبدونها بناته يشفعن للناس) (٤) ٠

فكيف نفهم هذا التباين في موقفها المرتاب من الأصنام وهي غضة صغيرة لم تعرف شيئا عن ذلك النور الذى عرفته يوم بنى بها عبد الله ، وشهودها خاتم النبوة من أول يوم لميلاد محمد وما صاحب ذلك من بشارات ونبوءات كانت حديث الناس في مكة وفي غيرها مما يؤكد دلالة اختصاص ولدها بالنبوة ولا شك أن الناس قد فطنوا الى عقيدة هذا النبي من بشارات أهل الكتاب ما دام الأمر كان بهذه الدرجة من الظهور كما صـوره السـحار ثم تأتي بعد ذلك كله لتعلق أمام ولدها عن آلهة

---

(١) مولد الرسول عبد الحميد السحار ص ٩ ٠

(٢) المصدر السابق ص ٣٣ ٠

(٣) المصدر السابق ص ٣٤ ٠

(٤) اليتيم ص ٤٣ ٠

هن بنات الله يشفعن عنده . وقد ترتب على هذا التذبذب فى تصور السحار لآمنة عدم وضوح الملامح بالقدر الذى يتكافأ مع شخصيتها فى الحركة كوالدة للرسول ، وقد كان ذكيا عندما تخلص من موقف مماثل لعبد المطلب فى الوقت المناسب فعبد المطلب كان فى أول الأمر منكرا لعقيدة البعث والجزاء متأثرا بالفكر اليهودى المحرف ولكنه بعد دخول عبد الله بآمنة بليلتين فقط يعلن فى حواره مع اليهودى ايمانه بالبعث وبالجزاء الأخروى (١) .

وقد تبدت ملامح عبد الله والد الرسول من خلال عرض السحار لاعجاب الفتيات والنساء به ولعل أبرز هذه الملامح يتمثل فى تلك الوسامة التى جعلته مطمع الآمال لكل فتاة فى مكة .. كما أن هالة النور التى أشرقت على وجهه كان لها أثر كبير فى هيام رقيقة بنت نوفل به . ولم تتجاوز الملامح هذا الحد وان كان السحار فى تعرضه له قد أبعد عن ساحته كل ما يشين ونزه شخصيته عن نقائص الجاهلية .

وتمضى أحداث السيرة فى تتابع وانسجام تحكى قصة النور الذى أينع على وجه عبد الله ثم فارقه الى آمنة حتى كانت ليلة من ليالى شهر ربيع الأول بعد حادث الفيل بخمسين يوما حيث (كان القمر ينسكب فى غرفة آمنة رائعا لكأنما كان يدا حانية تمس الكون مسا رقيقا ، فتحرك مشاعر الرقة والحنان ، وملأت روح آمنة روائح أطيب من المسك لم تدر أكانت من بخور حرقته لها جاريتها أم أنها آتية من فوق السموات وسرت فى الغرفة نسمات من الرحمة لها رفيف كأنه تسبيح الملائكة وبدا أن السماء توشك أن تتجلى على الأرض) (٢) .

وطاف بآمنة نعاس فسمعت هاتفا يهتف بها أن تسميه محمدا (٣) وعندما نزل (كان هادئا ساكنا ، لم يملأ الدنيا عويلا وقد تألق فى وجهه الصغير نور تهفو اليه الأفئدة ؛ وتتفتح له النفوس) (٤) .

ونلاحظ على السحار فى حكايته للحدث أنه قد استبعد خوارق الأمور مكتفيا بالهاتف الذى جاء آمنة دون أن يشير فى قليل او كثير الى ما ورد فى بعض الروايات عن خوارق ليلة المولد . وبأسلوبه السخى أقام عرسا بهيجا يتناسب مع قدوم هذا الوليد وشرفه فى عالم الوجود ، وتمثل ذلك فى البدر الذى اكتمل ، والنسيم الذى رف ، والنور الذى تألق ، والهدوء الذى لم يصحبه عويل الأطفال عندما يولدون . وكأن الدنيا كلها كانت معه على موعد ففى الليلة نفسها رأى (الموبذان) فى فارس ما أفزعه ، وصاح يهودى على أطمة فى يثرب : طلع الليلة نجم أحمد . بينما كان يوسف اليهودى فى مكة يجتر أحزان اليهود لميلاد مجد العرب (٥) . وتظل عين

---

(١) مولد الرسول ص ٨٠ وما بعدها .

(٢) مولد الرسول ص ٢١٦ .

(٣) المصدر السابق ص ٢١٧ .

(٤) المصدر السابق ص ٢١٨ .

(٥) المصدر السابق ص ٢٣١ وما بعدها بتصرف .

السحار الراصدة ترقب الوليد العظيم حتى تصحبه حليمة الى ديارها فى بنى سعد ثم بعد عودته الى مكة ودخوله فى كفالة جده بعد وفاة أمه ومن بعد جده فى كفالة عمه مصورا الجو الأسرى الذى عاش فيه محوطا بكل حب وعطف لما تميز به بين أهله من صفات العقل الراجح . والخلق الحسن ، ومبرزا البركة التى صاحبته واصابت كل من عاشره وكيف أنه رغم الحب العظيم الذى أحاط به من كل جانب كان يشعر بحاجة ملحة الى الانطلاق الى عالم نفســه بعيدا عن قيود البيئة ونزواتها ، فكان ميله الى الوحدة واطالة التفكير والتأمل فى الحياة والكون ، وكان شعوره بالوجود الحقيقى فى هذا العالم الذى بناه لنفسه فى سبحات فكره . ولا يتجاوز السحار تفاصيل حركة حياته المشهورة فى تلك الفترة التى تمتد من عودته الى مكة فى سن الخامســة الى ما يقرب من سن العشرين ، وكانت أبرز الأحداث التى استعان بها فى سرده القصصى لجزء اليتيم تتمثل فى زيارته لقبر أبيه وموت أمه فى الطريق ، ثم موت جده بعد ذلك ، وســفره فى رحلة الشــام ولقاء الرهبان به ، وما دار حول ذلك من أحداث جزئية تعاونت جميعها على تجلية الصورة وابراز شخصية النبى الشاب فى تفردها وبهائها . وقد اتخــذ السحار من موت الأم وموت الجد منطلقا الى تصور خاص أبرز من خلاله محمدا فى صورة متأمل يستجلى آفاق الكون بحثا عن السر الأعظم . عن حقيقة الوجود والقوة المسيطرة وقد أحكم الكاتب بناء هذا التصور مستعينا بكل ما يساعد على ابرازه وبلورته . فكانت رحلة الشام فرصة مهيأة أمامه للاحتشاد والانطلاق راح من خلالها يبلور شخصية الرسول ويحدد ملامحها على ضوء من فكرة التأمل والنظر فى ملكوت الله . حتى يصل بذلك الى الذروة فى الجزء الخاص بخديجة بنت خويلد الذى تمتد الأحداث فيه الى مقدمات الوحى .

وقد تناول السحار السيدة خديجة وحياتها بالعرض الجيد ، مبرزا كل العناصر التى تشدها الى مستقبل آمل تشرق فيه الأمجاد ، فهى جادة طاهرة ، لا تعرف السمر ولا تميل الى اللهو ، وكل أمنياتها فى الحياة أن تكون حاضنة لأحداث كبار ، ويستعين الكاتب على بلورة حياتها ، واضفاء جو من الفنية الروائية فيما يعالج بمجموعة من أدوات التشكيل الفنى التى تساعده على خلق تصور خاص تتحدد من خلاله الرؤية ، وقد تمثلت هذه الأدوات فى الرؤيا التى رأتهــا ذات ليلة ، رأت شــمسا تشرق فى دارها فتملأ الحياة نورا وبهجة ، فانطلقت فى الصباح الى روقة ــ الأداة الثانية فى التشكيل ــ الذى فسر لها الرؤيا بأنها ستكون ذات شأن عظيم مع خاتم النبيين ، ومن يومها وكلما تقدم لها خطيب تفرست فيه أولا علامات النبوة ، وداخلها احساس غامض يشدها بشوق الى شىء مجهول لا تدرى كنهه ، ولكنها تشعر بسعادة غامرة كلما تخايلت أمام عينيها الآمال . والسحار فى متابعته لهذا السياق يتحرك ببطء شديد يتمكن معه من النفاذ الى جزئيات الصورة وظلالها القريبة والبعيدة فيرسمها فى تتابع وتناسق . حتى تكتمل حية نامية تتحرك الشخصية فيها وهى على وعى

كامل بدوافع الحركة وما تتطلبه من ايجابية واشراق وما يتلاءم في الوقت نفسه مع طبيعة تكوينها النفسي والخلقي نجد ذلك واضحا في قوله (دلفت خديجة الى مخدعها ، انه بهو متسع طوله ستة أمتار وعرضه أربعة ، ثم ألقت نظرة كلها حب وعطف وحنان على أبنائها الذين كانوا يغطون في النوم ، وذهبت الى سريرها وما أسلمت جنبها للرقاد حتى راحت في سبات · ورأت فيما يرى النائم شمسا عظيمة تهبط من سماء مكة لتستقر في دارها وتملأ جوانب الدار نورا ، ويفيض ذلك النور من دارها ليغمر كل ما حولها بضياء يبهر النفوس قبل أن يبهر الأبصار ! ·

وهبت من نومها خائفة يخفق قلبها بين ضلوعها كجناح حمامة ، وراحت تدير عينها في المكان في دهش فاذا بالظلام يجثم على الوجود ، ولكن ذلك النور الذي يبهرها في المنام لا يزال مشرقا في وجدانها ، ومرت لحظات حتى اذا ما سكن روعها تمددت لتعاود رقادها ولكن الوسن لم يطف بعينيها ، بل صحا ذهنها وراح يستعيد الرؤيا وهي موزعة النفس بين الرهبة والأمل · وغادرت فراشها وراحت تغدو وتروح في مخدعها ، وتلك الشمس التي هبطت من السـماء لتسـتقر في دارها تتخايل لعين بصيرتها تكاد أن تحيل الليل الرمد الى نهار (١) ·

وفي الصباح كانت في بيت ورقة وراحت تقص عليه منامهـا وهو يصغي اليها في اهتمـام فلما انتهت من حديثها تهلل وجهه بالبشر وبشرها بنور النبـوة الذي سيفيض من دارها على العالمين ·

« وسرت في بدن خديجة قشعريرة ، وجاشت في صدرها عواطف مشبوبة زاخرة بالأمل والرحمة والرجاء ، ولم تشأ أن توصد ذلك الباب الذي انفتح عن أعظم نبأ فراحت تسأل عن خاتم النبيين وعن صفته وورقة يجيب ، وعاشت خديجة على أمل يتحقق ما رأت في حلمها » (٢) ·

ولم يتوقف السحار في رسمه لأبعاد الصورة وتتبعه للحركة عند هذا الحد بل راح يعلي من البناء · مسـتخدما أداته الثالثة في تشـكيل الموقف وهي نبؤة الحبر اليهودي الذي كان يصيح حول الكعبة في جمع نساء قريش معلنا اقتراب زمان نبي وأن من استطاعت منهن أن تكون فراشا له فلتفعل · (وثار النسوة فرماه بعضهن بالحصباء ، وألقى عليه أخريات سيلا من الشتائم وقبحنه وأغلظن له · بينما خفق قلب خديجة في شدة فذلك الحدث أهاج ذكرياتها ، انه أعاد الى ذهنها حلمها الذي رأته وذلك الحديث الشجي العذب الذي دار بينها وبين ابن عمها ورقة بن نوفل حول خاتم الأنبيـاء) (٣) ·

وبهذه الطريقة في العرض تمكن السحار من بلورة الموقف الذي سوف تنطلق

---

(١) خديجة بنت خويلد ص ٢٢ وما بعدها ·
(٢) المصدر السابق ص ٢٤ ·
(٣) المصدر السابق ص ٢٦ ·

منه السيدة خديجة فى كل تصرفاتها مشدودة الى ذلك الأمل الذى استقر فى وجدانها والذى سوف تعيش الحياة من أجله لحظة بلحظة حتى تلتقى معه على طريق مهما طال الانتظار . وكما رأينا الكاتب فى هذا الموقف قد استخدم الأحلام والرؤى والبشارة والنبوءة كأدوات يستعين بها على خلق جو من الصياغة الفنية للسياق القصصى دون أن تأتى فى صورة مفاجآت تحدث فجوات معيبة فى البناء القصصى .

فانه أيضا لم يغفل التعبير بالوصف كوسيلة لابراز الملامح حتى تكتمل الصورة وتتضح أبعاد الشخصية فقد كانت السيدة خديجة (ذات فطنة ورجاحة ، مفطورة على التدين ، متلهفة على ظهور الرسالة ، صباحة الوجه غنية اليد عنية النفس ، ذات حنكة وحنان ، تعرف أمانة الحق ، والفضيلة) (١) .

وكانت (تتطلع الى حياة زوجية رفيعة فيها سمو وبذل وتضحية وكفاح فى سبيل تحقيق غاية سامية) (٢) .

وبهذه التجلية الكاملة لملامحها الشخصية والنفسية ، وما أحاط بها من عوامل النشأة والتكوين ، وماهى مأخوذة به من آمال وتطلعات ، اتسمت حركتها الايجابية على مسرح الأحداث بالوعى والمرونة ، وبرزت متكافئة مع ما ينتظر حياتها من أمجاد فى كنف الدعوة وصاحبها ، الذى باتت تنتظره ، ولم تكن الى تلك المدة من حياتها تعلم أنه محمدا . انها فقط تنتظر النبى الذى حكى عنه ورقة ، وبشر به الحبر وفطنت بذكائها وصدق شعورها الى أن تلك الشمس التى أشرقت من دارها على العالمين . تشير اليه وتعبر عنه ، ومن يومها لم يعد يهمها شىء من أمر تجارتها ومالها ، وما كانت معنية به من أمور الدنيا بل أصبحت مستغرقة فى تأملاتها تنتظر تفسيرا لتلك الأحاسيس المجهولة التى تشدها بشوق الى شىء عظيم .

وظل السحار محافظا على تلك الصورة مستغرقا فى بلورتها على هذا المنهج من التفكير معتمدا كما قلنا على عناصر الأحلام والرؤى والبشارات والأحاسيس المجهولة دون أن يفقد قدرته على احكام السياق وبلورة معالم البيئة وكشف أبعاد الحياة العربية ودون أن ينسى فى غمرة تصوراته ـ تجلية حياة محمد الذى أصبح منقطعا الى نفسه وتأملاته حتى أيقن ـ من خلال سبره للحقائق ـ أن بالامكان النهوض بالمجتمع وبالانسانية الغارقة فى مهاوى الرذيلة والفساد . وما عليه الا أن ينزل الى ساحة الحياة ويتعامل معها . وجاءت الفرصة بعد أن طلب منه أبو طالب المعاونة فى تحمل الأعباء وكان فقيرا . واتخذ السحار من هذا الموقف منطلقا للربط بين شخصية محمد وشخصية خديجة فقد عرض عليه عمه أن يذهب اليها للاتجار فى مالها . ولكنه أبى عرض نفسه فقامت عمته عاتكة بدور الوسيط بينهما . ورحبت خديجة به فى دارها وكان اللقاء الذى غيرها وبدل حياتها . فقد رأت محمدا الى جوارها رأت فيه بفراستها

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٢١ .

معالم مجد مأمول فأقبلت عليه بقلبها وكيانها حتى شغلت به عن كل شيء في الوجود . فكانت تحدث نفسها عنه اذا غاب ، وتطل عليه من النافذة اذا مضى وكانت كلما تذكرته أحست بالنشوة تملأ وجدانها وحياتها ، وأحست كأنها تسمو الى السماء ، ولم تستطيع اخفاء اعجابها به ، فمنذ انصرف وهي مأخوذة به (يرن في أذنيها صوته عذبا حازما فيه سحر ، فحديثه ينسكب من الأذن الى القلب ويتغلغل في أغوار النفس) (١) كما أنها بعد لقائها الأول به أحست بسعادة غامرة تملأ كيانها ، (ولم تكن سعادة فتاة غريرة التقت لأول مرة بفتى الأحلام ، بل سعادة امرأة مجربة بذل لها سادات قومها الأموال لتقبل أن تكون لأحدهم زوجة ، ولكنها عزفت عنهم جميعا ، فلم تجد في كل من تقدموا لخطبتها من يستطيع أن يحقق آمالها الكبار ، ولكنها وجدت في ابن عبد الله شيئا مشرقا زاخرا بكنوز نفسية تفوق كل كنوز قريش وأموالها) (٢) ويحتشد قلم السحار في تصويره لانطباعات اللقاء الأول بين محمد وخديجة وما ترك في نفسها من أثر مستعينا بحشد من الألفاظ اللغوية ذات الدلالة الصوفية الخصبة ، حتى تأتي الصورة على نفس الدرجة من الخصوبة والسخاء . نجد ذلك في تعبيره عن احساسات خديجة بعد اللقاء الأول (ان مجرد رؤيته من بعيد تهز أوتار فؤادها ، وان صوته لا يزال يتردد في عين ذاتها وان اشعاعات من روحه القوية تتدسس الى روحها فتفيض جوانبها بسعادة ونشوة وفرح واحساسات صافية ناعمة قد انسكبت من عالم علوى غير عالمها الأرضي في وجدان وجدانها) (٣) .

ويتابع السحار تجميع الأحداث والمواقف التي تخدم تصوره للعلاقة الخاصة التي ربطت بين محمد وخديجة والتي تزداد كل يوم وتنمو بما يؤكد صدق تفسير الرؤية والنبوة وبما يكشف مجهول الأحاسيس التي انطمرت في كيانها ذات يوم ، وما كانت تعرف لها سرا . أما اليوم فقد أصبحت على يقين من أمر محمد وأنه محط امالها ومطمح رجائها . فملأتها الرغبة في أن تكون فراشا له . وتم لها ما أرادت وتحقق الأمل بالزواج ، وفي بيت الزوجية سعدت به وسعد بها وتركته لعبادته وتحنثه ومع كل يوم كانت تتكشف أمام عينيها ملامح النور فجعلت تهيم معه في حب الله وترقى في مدارج السلوك الايماني حتى وصلت الى الذروة وبلغت مقام الحب فناء في ذات الله ضاربة عرض الحائط بالمال والتجارة والجاه . حتى كان الوحي وكانت النبوءة .

ومع بداية المرحلة الجديدة في حياة الدعوة تخلى السحار عن كثير من أدواته في تشكيل الأحداث واتساقها . خصوصاً حكايات الكهان ونبوءات الأحبار والرهبان . معتمدا في سرده على كل ما يتلاءم ومنطق الدين .

وظل عنصر الرؤيا ادارة طيعة في يده يستعين به على بلورة الموقف والربط بين الأحداث الى جانب الوصف الخارجي للشخصية وللبيئة التي تتحرك في إطارها

---

(١) خديجة بنت خويلد ص ٣٩ .

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة .

(٣) المصدر السابق ص ٤٢ .

مبرزا في هذه المرحلة الجديدة حشدا من الشخصيات يمثل شباب الدعوة ورؤيتهم الرافضة للواقع الاجتماعي والعقائدى الذى عليه آباؤهم ·

قاطعا السرد فى معظم الأحيان لحكاية مواقفهم وقصص حياتهم والى جانب ذلك حاول ابراز المعادل الموضوعي للموقف الرافض من خلال حشد آخر من الشخصيات التى تمثل النظرة التقليدية للمعتقد الدينى وكفاحهم من أجل الحفاظ عليهـا فى مواجهة شباب الدعوة عارضا ذلك الصراع الرهيب الذى عاش المجتمع فيه حتى انتصر الحق وزهق الباطل ·

ولعل من أبرز وسـائله الفنية التى استعان بها فى بنائه القصصى فى مرحلة ما بعد الوحى والى نهاية السيرة · ما تمثل فى بلورته للأحداث والمواقف من خلال الشخصية نفسها عن طريق توارد الخواطر أو ما يسمى بحديث النفس فقد لجأ الى ذلك فى معظم الأحيان · هروبا من تكرار الحدث ، وتلوينا فنيا يضفى به على السياق جو من المرونة يبعد به عن الملل الذى قد ينتاب القارىء للقصة اذا ما جاءت على طريقة واحدة فى السرد المباشر · كمـــا أنه لجأ الى تلك الحيلة بهدف اطلاعنا على ملامح الشخصية وما يجيش فى داخلها من أفكار ، وما تحلم به فى مستقبل أيامها من آمال ·

وكثـيرا ما نراه يستعين بتلك الوسيلة فى المواقف الحاسمة أو فى مواقف الصراع النفسى الذى يدور داخل النفس بفعل المؤثرات الخارجيـة · نجد ذلك مثلا فى عرضـه لموقف عمرو بن العاص بعد هزيمة المشركين فى غزوة الخندق بما يعطى صورة واضحة الدلالة على الزلزلة التى حلت بأفئدة الكافرين وهم يرون نجم محمد يعلو كل يوم · وقد كان عمرو بن العاص أحد الذين بالغوا فى الحاق الأذى بالرسول والمسلمين ، وحارب بنفسه وماله من أجل تعويق الدعوة واطفاء نورها · ولكنه بعد هزيمة الأحزاب يقف فى مفترق الطرق والأفكارتعصره عصرا وهو يسترجع مشاهد حياته فى لحظة من لحظات الوعى · انه يقلب أفكاره ذات اليمين وذات الشمال فى تلك الريح التى هبت فاقتلعت خيامهم وكفـأت قدورهم وأطفأت نيرانهم (فاستشعر فى أعماقه قوة قادرة تساند ابن عبد الله وتمده بالعون وتؤيده وأن كل الدلائل لتدل على أنه سيظهر على قومه وسيكون صاحب الكلمة العليا على قريش وعلى الأحزاب) (١)·

وترتعد فرائصـه رعبا عندما يتذكر ما صنعه بمحمد فى مكة · لقد آذاه باليد واللسان · وعلم الصبيان هجاءه وألقى فى طريقه الأحجار والقاذورات ويتذكر لعن الرسول له فى دعائه عليه وطلبه من حسـان أن يهجوه ويأتى صوت حسان وكأنه يسمعه بأفحش الهجاء طاعنـا فى نسـبه فيتفصد عرقه خجلا ويغمه خزى وخوف ، وتظل الذكريات فى تواردها على صفحة ذهنه وهو غارق فى جو من الرعب والخشية لا يملك لها صدا ولا ردا ·

فقد شارك فى ترويع زينب ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم وهى فى هودجها

---

(١) غزوة الخندق ص ٧٥ ·

مهاجرة الى أبيها حتى أجهضت جنينا ميتا من أبى العاص بن الربيع ، وطافت بذهنه رحلة الحبشة وما حدث له فيها وما سمع من أقوال المسلمين أمام النجاشى ، ويعجب من أمر نفسه (فما أكثر أن رنت مقالة جعفر فى أعماقه فلم ينفعل بها انفعاله بها فى تلك الليلة) (١) ٠

وانبعث من أعماقه صوت يتلو مطلع سورة مريم فأحس رقة تكتنفه ومولد عبرات تزحف فتترقرق فى عينيه وبصيص من النور يجاهد ليتألق فى ظلام فؤده) (٢) ٠

كل هذه الخواطر تتوارد على صفحة ذهنه وهو فى الطريق الى الحبشة ليكون فى مأمن عند النجاشى اذا ظهر محمد ٠ وظلت تراوده ، وتتابع على مخيلته صـــور أصـــحاب محمد عليه الســـلام وهم (يقتلون آباءهم وأبناءهم واخوانهم وأعمامهم ما يزيدهم ذلك الا ايمانا وتسليما ومضوا على الجادة والصراط المستقيم وصبروا على مضض الأمم وجدوا فى جهاد العدو فلما رأى الله صدقهم أنزل بعدوهم الكبت وأنزل عليهم النصر) (٣) فمد يده للنجاشى مبايعا على الاسلام وأغرورقت عيناه بالدموع وانطلق عائدا الى مكة ليحمل رحله ثم يتوجه الى المدينة قاصدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠ ليبايعه على أن يغفر له ما تقدم من ذنبه (٤) ٠

وبهذه الطريقة تمكن السحار من اطلاعنا على نفسية عمرو وجســـد من خلاله صورا مما تعرض المسلمون له من أذى ، وبلور مرحلة من مراحل الدعوة تمثلت فى بداية اهتزاز الأرض تحت أقدام المشركين بعد هزيمة الأحزاب ٠

وعلى مستوى آخر من هذا الأداء الفنى راح السحار يبدع فى استعانته بهـــذه الطريقة فى التعبير فأقام جزءا كاملا من أجزاء السيرة على أساسها ٠ وذلك فى الجزء الخاص بحجة الوداع ٠ حيث جمع حشدا من الشخصيات التى صاحبت الرسول والتى عاشت جزءا من حياتها فى الجاهلية مستعينا بالآذان الذى انبعث من صوت بلال وقت الفجر ، فأيقظ أبا بكر وعمر وعثمان وعلى وسلمان وغيرهم وانسل كل واحد منهم من مكان هجوده الى ساحة المسجد لينعم بالصلاة خلف رسول الله وتبدأ خواطره فى التداعى على صفحة ذهنه منذ سماعه الآذان الى دخوله فى الصلاة ٠ ونجح السحار فى تجميع الخواطر وتنسيقها وترتيب تواردها على مخيلة كل منهم ٠٠٠٠٠ حيث استطاع أن يحكي من خلال ذلك تاريخ الدعوة وخطة جهادها بواسطة صفوة من جنودها المخلصين دون أن نشعر بتكرار أو ملل ٠

فى هذا المشهد الحى نجد بلالا ينسل من مكانه على حذر خشية أن يوقظ أحد رجال الصفة وقد راحوا يغطون فى نوم عميق ويلمح من بينهم أبا هريرة فترف على

---

(١) المصدر السابق ص ٨٣ ٠

(٢) المصدر السابق والصفحة بتصرف يسير ٠

(٣) المصدر السابق ص ٨٥ ٠

(٤) المصدر السابق ص ٨٥ وما بعدها بتصرف ٠

شفتيه ابتسامة ندية تعرف طريقها الى شفتيه كلما تذكر مرح أبي هريرة ودعاباته مع الأطفال • ويتابع بلال خطواته على الدرج حتى يصل الى سطح المسجد فيقف في خشوع وابتهال يرعى نجوم السماء الى أن يحين وقت الآذان ، ثم يجلس على السطح وقد تتابعت على ذهنه الصور والذكريات •

وأخذ السحار يحكي من خلال ذاكرة بلال ، مولده في بني جمح وأمه حمامة ، وأنه لم يكن يعرف في الدنيا سوى سيده أمية الذى لم يكن بلال أو من على شاكلته يزيد عنده عن السائمة ، ويذكر اشراقة الأمل في صوت أبي بكر وقد جاء يخبره عن محمد داعي السماء الذى يدعو الناس في مكة الى عبادة اله واحد له وحده الربوبية دون سواه من صنم أو بشر • وأحس نشوة خفيفة كهبة النسيم تملأ جوانحه ، وكأنه يسمعها وقت أن سمعها من أبي بكر لأول مرة ، ومع الاحساس بالنشوة يوم قيلت له ، تفتحت الآمال في حرية حقة لا أثر فيهـا لشيء من العبودية ، ومع الشعور بلذة السعادة بين أسواط الألم وتعذيب المشركين كان صوت أبي بكر بردا وسلاما ، فقد انتشله من عبودية أمية وعقيدته الى رحاب الايمان •

ويظل السحار في متابعته لاجترار الذكريات على ذهن بلال من بدايته وحتى الساعة التي يجلس فيها فوق سطح المسجد انتظارا لآذان الفجر • حتى انتصب واقفا يردد أعذب نداء سما بالبشرية الى السموات العلا •• (١) •

ثم يأخذ في عرض باقي الشخصيات على هذا المستوى الفني والأداء العالي الذى تنسجم فيه الكلمة مع الموقف وتتفاعل الصياغة في تناسق مع الحدث متلونة في كل جانب بما يلائم الحاجة النفسـية ويلتقي في تعاطف مع الطبيعة الاسـلامية • في صفائها وبهائها وقدرتها على الانسجام مع الكون والحياة ما دامت قد عبرت جسور الشك والظلام الى واحة ظليلة تنعم في أفيائها بحلاوة اليقين والايمان •

واذا كان السحار في رأيي قد نجح الى حد ما في تناوله لأحداث السيرة وعرضها بالأسلوب القصصي الذى عنى به والذى تبينت بعض ملامحه من خلال الدراسـة السابقة فان قضـية المضمون الفكرى الذى انطلق منه تحتاج الى عملية كشف دقيقة تبرز خصائصه ومعالمه ، خصوصـا وقد بلغ من الاتسـاع درجـة جعلته يكاد يكون مستوعبا لحركة الفكر الاسـلامي وقضـاياه وما دار حولها وجال في فلكها من آراء وتصورات • والبحث عن الحقيقة وراء ذلك كله يحتاج الى بحث مستقل وجهد خاص •

لهذا آثرت تناول بعض القضايا التي أثارها العرض القصصي للسيرة وراعينا أن تكون هذه القضايا معبرة عن رؤية الأديب الخاصة التي صدر عنها وبالقدر الذى تكتمل معه الرؤية الشاملة للعمل الأدبي ، وتتضح به الملامح العامة التي يتشكل منها فكر الأديب ورؤيته الاسلامية •

---

(١) حجة الوداع ص ٤ وما بعدها بتصرف •

وأول ما يصادفنا في هذا المجال تصور السحار ومعالجته لقضية البشارات والارهاصات وما يتصل بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم من الدلائل الحسية التى صاحبت مولده وحياته الى مبعثه ، فقد عرض موقفه من هذه المسائل وتمثل ذلك الموقف فى القائه اللائمة على الاخباريين الاسلاميين واتهامهم بالمبالغة والاسراف فى الاكثار من ذكر البشارات والارهاصات زعما أن الاخباريين الاسلاميين كتبوا تاريخ (مولد الرسول بعد أن انتشر الاسلام وآمنوا بالدين الذى جاءهم به صلى الله عليه وسلم ، فكتبوا تاريخ هذه الحقبة بأقلام مفتونة بعظمة ذلك الوليد الذى أخرجهم من الظلمات الى النور ، فأكثروا من ذكر البشارات والارهاصات بمولده وبالغوا فى بعضها حتى بدا كأن الغيب قد أصبح فى تلك الفترة من الزمن كتابا مفتوحا) (١) ٠

وكما أتهم الاخباريين الاسلاميين بالمبالغة اتهم المفكرين المتأثرين بالفكر الأوربى والعلم الحديث بالجنوح فى انكارهم للبشارات والأحلام لأنها لا تتوافق فى زعمهم مع تفسيرات (فرويد) النفسية لنظرية الأحلام مبينا أن الدافع وراء هذا الانكار كان الخوف من اتهامهم بالرجعية ان هم وافقوا على مقولات القدامى من كتاب السيرة (٢) ٠

وقد انطلق السحار معبرا عن رأيه فى موقف الفريقين بقوله :

(وعندى أن الفريقين قد جانبهما التوفيق ٠ الفريق الذى دفعه حبه لنبيه الى وضع أخبار وأحاديث تروى الخوارق والمعجزات التى وقعت عند مولد الرسول صلى الله عليه وسلم قد أساء الى سيرة النبى العظيم ، فليس من المعقول ولا من المقبول أن الأمر كان بمثل ذلك الوضوح ، فالاختراع ظاهر يدفع أغلب الروايات بالكذب والتلفيق ، وما كانت تلك الخوارق والمعجزات لتزيد الانسان الكامل شرفا على شرف ٠

والفريق الذى دفعه خوفه من دعاة العلم الحديث الى انكار البشارات والأحلام قد أساء الى نفسه ، فالقرآن الكريم يؤكد أن أهل الكتاب من يهود ونصارى كانوا على علم بمبعث النبى الأمى الذى سيبعثه الله فى الأميين لا فى بنى اسرائيل) (٣) ونفهم من تعليقه هذا على موقف الفريقين أنه لا يستريح لأغلب الروايات التى اعتمد عليها الاخباريون كما أنه لا يستريح لانكار الأحلام وبشارات الكتب المقدسة التى أكدها القرآن ٠ ولكنه فى معالجته لقصة السيرة لم يلتزم بهذا الموقف التزاما كاملا ، فقد وقع فيما عاب فيه على الاخباريين نجد ذلك فى حشده لكثير من علامات المولد أثناء عرضه للقصة جعلنا من خلاله نرى أمر النبوة فى ابن عبد الله واضحا وضوح الشمس فى كل موقع حتى أصبح حلم احدى فتيات مكة فى يوم من الأيام أن ترتبط بعبد الله حتى تكون أما للنبى المنتظر وتجهد نفسها فى سبيل الوصول الى ذلك مهما كلفها من مال ومتاع ٠ كما نجده قد ذكر نبوءات كثيرة لأحبار ورهبان ذاعت أقوالهم وانتشرت

---

(١) مولد الرسول عبد الحميد السحار ص ٣٠٣ وما بعدها من التذييل ٠

(٢) المصدر السابق ص ٣٠٩ ٠

(٣) المصدر السابق ص ٣٠٩ وما بعدها ٠

فى بدو العرب وحضرهم فضلا عما تردد فى قصور الملك وبين الشعوب المجاورة ، ووجدنا ذلك فى النور الذى رأته رقيقة بنت نوفل على وجه عبد الله ، وكانت قد علمت بنبى يبعث من أخيها ورقة فاهتدت اليه بفراستها فى وجهه ، وأعرضت عنه يوم أعرضت لأن ذلك النور قد فارقه الى آمنة كما تزعم الرواية وقد حكاها السحار ٠

وتعرفنا على ذلك فى وجه آمنة بنت وهب يوم اعلان خطبتها لعبد الله ، وقد جعلت سودة كاهنة قريش تنظر الى وجهها فى ذهول تريد أن تتعرف فيه على شىء ، ولكن كهانتها عجزت عن معرفة أى شىء ، وان كانت قد أخبرت يوما بأن آمنة ستكون أما للنذير ٠

وعشنا مع عبد المطلب لحظات قلقه وشروده ، وقد جلس مهموما بعيدا عن المسار يشعر بأنه مقبل على أمر ذى شأن ٠ وما يقر له قرار حتى يجلس الى الحبر فيطلعه على السر الأعظم والمجد المرتقب فى الملك والنبوة ٠ بل ويحدد له ذلك فى بنى زهرة ٠ الأمر الذى دفع عبد المطلب الى الارتباط بهم عن طريق الزواج فتزوج هالة وتزوج عبد الله آمنة ٠

ولم يكتف السحار بذلك بل راح يعرض علينا من خلال القصة صورة رائعة عن التحول الذى أحس به عبد الله ليلة دخوله على آمنة حتى انه ليشعر بأنه ولد من جديد ٠ وأن القمر على غير عهده أكثر تألقا وكأن أشعته عواطف حانية وقد هب النسيم رخاء يحمل بشرى ورحمة للناس كافة (١) ٠

ولم يكتف السحار بذلك بل راح يقص علينا من العلامات المنبئة عن مقدم النبى كل ما صادفه من مرويات المؤرخين ، فالنسوة حول آمنة يتعجبن من أمرها فى حملها الذى خالفت فيه المعهود من تعب الحوامل وجهدهن انها تشعر بسعادة غامرة وترى مناما وتسمع هانفا يهتف بها أن تسميه محمدا ٠ وفى ليلة المولد انطلق صراخ الأحبار والرهبان والكهان معلنا اسم النذير الذى ولد وقد سمع ذلك الصراخ عبد المطلب فى مكة وغيره من ندمائه وجلسائه كما استمع اليه حسان بن ثابت فى يثرب وحكاه بعد ذلك ٠

وتأكد الأمر لدى عبد المطلب بعد تفسير الكاهنة لرؤياه من أنه سوف يخرج من صلبه من تدين له المشارق والمغارب ٠

وفى خارج بلاد العرب كانت رؤيا الموبذان صاحب قداس النار والفرس الذى سيصرع الجمل ٠ وتكون رؤية هرقل فى بلاد الروم وتفسير القارئين للطالع عن الشعب المختون الذى سيدمر الامبراطورية ٠ الى غير ذلك مما عرض أثناء سرده لقصة السيرة ٠ وهو كما نرى يعتمد على كثير من المرويات التى رفضها مما تحدث الاخباريون عنه ، مضيفا اليها من خياله القصصى ورؤيته الفنية ما جعل أمر النبوة فى غاية الوضوح والبيان ٠

---

(١) مولد الرسول ص ٨٠ ٠

ولسنا ندرى لماذا ألزم نفسه بهذا المنهج الذى يعيبه على غيره والذى يرى فى اضافته اساءة الى شخص الرسول وافتراء على التاريخ بالكذب والتلفيق وعلى الرغم من ذلك يوردها متشككا فى بعضها معلنا عدم قدرته على التصديق أو التكذيب ٠ نجد ذلك فى قوله : (قد أوردت فى هذا الجزء من السيرة بعض نبوءات الكهان والرهبان والأحبار وانى لا أستطيع أن أجزم بصحتها ولا أملك أن أكذبها ولكنى أوردتها توكيدا لايمانى بما أشار به القرآن الكريم من أن أهل الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) (١) ٠

وهذا الموقف غير المحدد ان دل على شىء فانما يدل على اضطراب الرؤية وعدم وضوح الخط الذى رسمه فى تصوره للسير عليه ٠٠ كما يدل على تورطه فيما عرض من أخبار النبوة وعلاماتها خلال سرده القصصى مما عاب فيه غيره من الاخباريين ٠ بل انه كما رأيناه أثناء تناولنا للشكل الفنى قد اعتمد عليها اعتمادا كاملا فى ايجاد جو من الخصوبة الروائية لحكاية الأحداث وبلورتها ٠ ومما يؤكد كل هذا استمراره فى الاستعانة بحكايات الرهبان والأحبار والكهان بعد مولد الرسول وحتى المبعث ٠ دون تفرقة بين ما يقوله كاهن أو يرويه عراف ، أو يقصه حبر من الأحبار ، أو راهب من الرهبان ، كما أنه استعان بحشد هائل من الأحلام والرؤى تتصل فى معظمها بشخصية النبى صلى الله عليه وسلم الذى أظل زمانه ٠ نجد ذلك فى العراف الذى لقيته حليمة وهى فى طريق عودتها بمحمد الى أهله وتخوفها عليه منه (٢) بعد صراخه فى الجمع الحاشد من حوله طالبا منهم قتل الصبى الذى سيكسر أصنامهم ٠ ورأينا ذلك فى مقالة « سيف اليزن » عن الغلام الذى ستكون له الامامة ، ويكون لهم به الزعامة (٣) فراح جده يوصى الجارية بركة تخوفا عليه من اليهود (٤) حتى أنها كانت « تجوس معه خلال السوق ــ فى يثرب ــ وتلحظ تفرسهم فيه فكانت توجس منهم خيفة فتضمه اليها كأنما تحميه من عدو يريد به شرا) (٥) ٠

والى جانب ذلك لم يغفل السحار لقاء النبى بالراهبين بحيرا ونسطورا فهيأ بذلك جو الحياة على مختلف المستويات لتلقى حدث النبوة عن وعى به لشيوع أمره فيهم واشتهاره بينهم ٠

وهذا يدل على قبوله كل ما ورد عن الاخباريين وامتلأت به الكتب وعدم رفضه لشىء منا على الاطلاق ٠

ومع حشده لكل ذلك نراه يتجاهل فى سرده عددا من الدلالات الحسية التى

---

(١) مولد الرسول ص ٣١٠ ٠

(٢) المصدر السابق ص ٢٩٧ ٠

(٣) المصدر السابق ص ٢٦٨ ٠

(٤) اليتيم ص ٧٨ ٠

(٥) المصدر السابق ص ٤٨ ٠

ظهرت مرتبطة بشخصية الرسول من طفولته الى مبعثه فلم يشر من قريب أو بعيد اليها وان كان قد حدد موقفه منها فى تذييلاته التى ألحقها بأجزاء السيرة ·

من ذلك مثلا عدم تعرضه للبركة التى صاحبت وجود محمد فى بنى سعد مكتفيا بعرض صورة مشرقة للحب الذى ألقى فى قلوبهم تجاهه وأن الناس جميعا كانوا يستمعون اليه ويحنون له مأخوذين بفصاحته الظاهرة ونموه غير المعهود متأملين حياته التى كانت بعيدة عن الصخب والضجيج وأنه كان لا يلهو كما يلهو الأطفال ولا يشاركهم الا فى الرمي بالنبال ورعي الغنم وأن ما أحس به أهله انما كان مجرد احساس بالبركة وأنهم موفقون منذ حل بساحتهم ·

ويتمثل ذلك أيضا فى عدم تعرضه لقصة شق الصدر متأثرا فى رفضه لها ببعض وجهات النظر الحديثة (١) التى احتكمت الى العقل فى رفضها للخوارق وكل ما يتصل بالرسول وحياته من هذا الشأن · ولعل ذلك يرجع الى ما أخذوا أنفسهم به من التأكيد على عنصر البشرية فى شخص الرسول وأنه فى دعوته بجهده وعرقه دون لجوء الى خوارق العادة فى اثبات الدعوة ومحاجة الناس فيها ·

وقد تأثر السحار بهذه النظرية الى حد بعيد فرأيناه يغفل أو يتجاهل الاشارة الى الخوارق والمعجزات الحسية فى قصة السيرة كلها محددا موقفه من ذلك فى دراساته الملحقة بأجزاء السيرة · فعندما أبعد عن ساحة الرسول وشخصه أحداث البركة الخارقة فى بنى سعد كان يرى أن (الأحداث والقصص المتصلة بهذا الموضوع لا تفيد كثيرا وأنها ليست بذات أثر فى حياة الرسول) (٢) ·

ولو كان قد حدث فى بنى سعد ما أنبأنا عنه الرواة من خوارق وبركة لوجدنا الأمر يختلف فى قبيلة هوزان عما كان عليه من حربهم للرسول يوم حنين ، ولكانوا بتأثير تلك البركة الخارقة قد استجابوا له وأسلموا ، ولكنهم قاتلوا قتالا مستميتا وكاد المسلمون ينهزمون لولا ثبات الرسول وصدق بلائه) (٣) ولا تستقيم هذه الحجة دليلا على رفض السحار للبركة الخارقة فى بنى سعد لأن أمر الايمان والتأثير لو كان موقوفا على رؤية البركة ومعايشتها لنهض الناس مسلمين من أول الأمر فى مكة ، وقد شاهدوا من خوارق العادة ودلائل الصدق ما يفوق الحصر والوصف ، فضلا عن حياة اكتملت لها كل مؤهلات الطهارة والنقاء ·· ومع ذلك لج الناس فى عتوهم ونفورهم وحاربوه من أول لحظة دعا فيها الناس الى توحيد الله · فلم تكن اذن حياة الرسول فى مكة قبل البعثة وما حفلت به من جلائل الأعمال والأحداث وما امتلأت به الساحة العربية على سعتها بأخبار المبعوث المنتظر ، حاملة الناس على متابعة دينه الايمان بما جاء به ·

---

(١) أنظر فى هذه المسألة : حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل ص ١٢٨ والحقبة المثالية فى الاسلام د· ابراهيم شعوط ومحمود زيادة ص ١٨ ·

(٢) مولد الرسول ص ٣١٣ ·

(٣) المصدر السابق والصفحة نفسها ·

والسحار في رفضه كان مدفوعا ببريق الزيف الذى يدعونه علما حديثا وان كان لم يلتزم بمنهجه فى كل ما قال • فنراه يبعد عن الرسول كل ما توهم أنه لا يتلاءم مع شخصيته ويعلن أنه لم ينتصر بالمعجزات والخوارق • وأن الله كتب (على نبيه الكفاح والجهاد والعمل والصبر ليبلغ رسالات ربه وليمكن لدينه فى الأرض فلم يعد لتلك الروايات مكان فى سيرة رجل نشر دين الله بالعرق والجهد ، والعمل والقدوة الحسنة) (١) وفي الوقت نفسه نراه يذكر عددا من الدلالات الحسية أثناء سرده كتأكيده على خاتم النبوة والغمامة التى ظللته ورآها الرهبان كما رآها ميسرة بل ان خديجة رأتها من النافذة وهى ترقبه بشغف واعجاب الى غير ذلك مما عرض له فى القصة •

ويأتى تصور السحار لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم قبل المبعث من أهم المسائل وأكثرها اثارة وحيوية حيث نراه قد صدر فى تصوره لهذه الشخصية العظيمة من منظور خاص يستمد أصوله ومنهجه من منطلق صوفى بحت •

وكانت فكرة الألم التى أفاض فى تشخيصها هى نقطة البدء التى أقام عليها تصوره الخاص • حيث رأى أن الألم الذى عاشه الرسول منذ بداية حياته كان دافعا الى البحث والتأمل وقد توفر له من عوامل الألم ما جعله يشحذ ذهنه من أول لحظة الى البحث عن الموجود الأسمى الذى خلق الكون والحياة (فمنذ ولد وضع فى الطريق الذى ينتهى به الى الله) (٢) •

فاليتم قد ترتب عليه الألم والألم أتاح له المعاناة والوحدة وقد أعانته الوحدة على اكتشاف جوهر نفسه وأعانته كثرة ترحاله على التعرف على الطبيعة والقاء نفسه فى أحضان الوجود ، وكان فقيرا ليشب وجدانه متعاطفا مع شعور الفقراء • وان مجموع هذه العوامل فى نظر السحار قد أتاحت للرسول صلى الله عليه وسلم حياة روحية حافلة بالتأمل الذى أخذ يتطور ويزداد يوما بعد يوم وتزداد معه بالتالى درجة اقترابه من الحقيقة الكبرى التى هام بحبها ، ولا نستطيع اغفال أثر العوامل السابقة فى ارهاف ذاته وفى عمق تأمله ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم منذ ولادته وقبل أن يعرف اليتم وتنفطر ذاته به خر ساجدا واعتدل شاخصا ببصره الى السماء وكأنه بعد أن سجد لله وسبح بالحمد نظر متفكرا فالتأمل فطرة فطر عليها ، وولدت معه عوامل الصفاء والنقاء وحب الله ، بل انه كما صور السحار نفسه منذ أن كان نورا فى وجه أبيه تغيرت بسببه نظرة عبد الله الى الوجود وكان يحس تعاطفا أليفا كلما جلس الى نفسه أو ساح فى ملك الله ينظر ويتأمل ، وكان كذلك فيض النور فى أعماق أمه آمنة التى تبدل احساسها بالحياة منذ حملت به وأحست نفس التعاطف مع الكون ، بل ان السحار نفسه أيضا قد أحاط محمدا بهذا الجو الروحى المتأمل فى بيئة بنى سعد • وفى سنوات نشأته الأولى حتى عرف عنه مخالطوه ميله الى الوحدة •

---

(١) مولد الرسول ص ٣١٤ •

(٢) اليتيم ص ١٣٣ •

وعندما صعدت حليمة وزوجها الجبل اليه وكان في الذروة العليا منه ، فلما انتهيا اليه وجداه باسما هانئا متأملا آمنا في رحاب الله يتطلع الى السماء في حب وشوق ٠٠ ومن ذلك يفهم أنه صلى الله عليه وسلم ولد بفطرة التامل يحمل في خصائص تكوينه عوامل الاتصال بالملأ الاعلى ولكن السحار رغم تعرضه لشيء من ذلك أثناء سرده الا أنه لم يلتفت اليه مركزا كل التركيز على العوامل الدافعة الى الألم بادئا باليتم الذى كان له أبعد الاثر في توجهه نحو الكون والحياة ٠ بل ان اشتغاله بحرفة الرعى كان بسبب الشعور بالملل والاحساس بالراحة النفسية في رحاب الطبيعة ٠ ولم يكن بسبب الفقر ٠ وراح السحار يكثف الرؤية حول هذه المعاني (فقد كانت سعادته منذ أن تفتحت براعمه في المعرفة ونشدان الخير الأسمى ، كانت بذور الحكمه تلقى في أغوار ضميره بالاستغراق في الفكر والنظر الى الكون واستشفاف الحقائق ومحاوله الاتحاد مع الطاقة الروحية التي تخفق في الوجود ، وأن ينبثق في ذاته نور من النور) (١) ٠

وانطلاقا من فكرة الألم الدافعة الى التفكير والتأمل رأينا السحار يتوقف كثيرا عند أحداث الحزن التى واجهت محمدا في حياته مبرزا أثرها في تفكيره التـأملى ودورها في اذكاء شعوره وميله الى الوحدة ٠ فنراه عند موت أمه في الطريق كان شديد الحزن شديد الانتحاب يحس احساسا أليما بالنهاية التى انتهت اليها فأخذ يفكر فيما حدث ويحدث في الحياة وفى الموت وفى الوجود بعد أن واجه قوة الفناء لأول مرة تفكيرا يتلاءم مع سنه أقرب الى الاحساس منه الى استجلاء كنه الحياة والموت وما بعد الموت وقد كان ذا عقل راجح وبصر نافذ واحساس مرهف وتناسق مع الكون سوف يقوده فى أيام نضجه الى جوهر الحقيقة) (٢) وما دام الأمر خاضعا لعوامل النمو والنضج فلابد من المجاهدة ٠٠ مما ترتب عليه ضرورة العمل على الارتقاء الروحى عن طريق المجاهدة والاندماج الكامل فى عالم الطبيعة وراح السحار يبرز فكرة التطور الروحى مؤكدا عليها ٠ فالرسول (ما كان يقنع بما يحقق كل يوم من كسب روحى ولا يستنيم الى ما يحرز من نصر على ما فى طبيعته البشرية من نقص بل كان يحاول أن يزيد فى الروابط التى تربط بينه وبين الطبيعة بل ويرتفع الى ما فوق الطبيعة لكى يمضى نحو تطور روحى يجعله أهلا لأن يندمج ذات يوم فى ذات الذوات) (٣) وكان (يروض نفســـه على أن يزداد فى يوم قربا من القوة الالهية وأن يعلو على وجوده البشرى) (٤) ٠

وظلت الحقيقة الالهية فى خيال محمد احساسا مجردا عبر عنه السحار بالشيء الغامض الذى لم يتسع ادراك محمد فى شبابه الأول للوقوف على حقيقته ، وان كان يحس بشيء يشده اليه حتى تحقق له ما يصبو اليه من سعادة الوصول فى الوصال

---

(١) اليتيم ص ٤٩ ٠

(٢) المصدر السابق ص ١٥٩ ٠

(٣) المصدر السابق ص ١٢١ ٠

(٤) المصدر السابق ص ١٢٦ ٠

فعبرت روحه كل حواجز المادة وعاشت آمنة مطمئنة في رحاب الكمال (وصارت هناك صلة باطنية بينه وبين ربه ولم يبق الا أن يندمج فى دنيا الناس) (١) ·

وفي الغار (عرف كمال الحب فصار الله محبوب قلبه ومعبود فؤاده ومقصود روحه ، فاذا طرب لطيب أصوات الطيور ، واذا سعد بروح نسيم الأسحار فهو متفرح بجلال خلق الله ، فقد صار الله قبلته ، وصارت لذته ادامة النظر فى وجهه) (٢) ·

والسحار بهذا المنهج في تصوره لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم · انما يصدر عن اتجاه صوفي تؤكده كل كلمة عبر بها فى معالجته ويتضح ذلك بجلاء في حشد الألفاظ والتعبيرات التى يستمدها من قاموسهم الخاص وهو كما رأينا زاخر بالمعانى حافل بألوان عديدة من التصورات ·

وقد كان هذا الموقف الصوفي من السحار فى تفهمه لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، نابعا من رؤية ذاتية ترتكز على بعض الظروف التى أحاطت بالرسول فى صغره كاليتم وفقدان الأم والجد وما ترتب عليها من الاحساس بالوحدة · ثم تنطلق الرؤية بعد ذلك عن طريق تكثيف المواقف والمبالغة فى ابراز دلالات الأحداث بما يتواءم مع الفكرة النامية التى آمن السحار بها وعمل على بلورتها فى كثير من أعماله والتى تتمثل فى أن ازدهار الروح وغماء الحيـاة الباطنية بالمجاهدة وسيلة الى غاية سامية ، حيث يرتفع الانسان عن طريقها الى مدارج السمو والكمال بعيدا عن حاجات الغرائز البشرية ومتطلبات الهوى النفسى ، والانسان عموما اذا فعل ذلك وسار في هذا الطريق سوف يرتفع ويسمو وتزدهر حياته ، وهذه هى خطة الكاتب التى اعتمدها أساسا لبلورة نظريته فى تفسير التاريخ على أساس دينى · ومن هنا لا نعجب اذا وجدناه فى تصوره للشخصيات الاسلامية التى عاصرت الرسول وآمنت بدعوته ينطلق من الموقف نفسه فيتابع حياة الشخصية فى بيئـة الجاهلية مبرزا أنماطها السلوكية ونظرتها للحياة بما يتلاءم مع الفكر الجاهلى فى حماقته وسفاهة منطلقه حتى اذا باشرت حياة النور فى ظل الدعوة تغيرت النظرة وتبدلت الحياة سموا فى رحاب الايمان وسلامة اليقين · ومن مجموع الشخصيات التى اختط لها هذا المنهج وتابعها على أساسه تغيرت المفاهيم وارتقت الحياة ·

فأبو هريرة عندما اعتزل الناس وجلس الى نفسه (استجماعا لشـتات ذاته وامتلاكا لزمام أمره ، لكى يزيد فى خصب الحياة الباطنية ويضاعف من تراثه الداخلى حتى اذا ما بلغت أذنيـه الدعـوة الى الله كان معدا اعـدادا نفسيا للتصـديق والهجرة) (٣) ·

وعلى المنهج نفسه وجدناه يتناول شخصية ثمامة بن آثال الحنفى سيد أهـل

---

(١) خديجة بنت خويلد ص ٣٥ ·
(٢) المصدر السابق ص ٩٤ وما بعدها ·
(٣) دعوة ابراهيم ، عبد الحميد السحار ص ٣٢ ·

اليمامية الذى ربط فى سارية مسجد الرسول أسيرا فأخذ يتابع محمدا وسيرته مع أهل الصفة ، ويرى عدم تميزه عليهم فيتحول وهو السيد العظيم الذى أنف الطعام الجاف الذى قدم اليه ، من غطرسة الجاهلية الى ذل الايمان والخضوع لله بعد أن ذاق حلاوة اليقين . ولم يكن ذلك عند السحار الا لأن قلب ثمامة قد تحرر (فلم يعد مأخوذا بسحر الملموس والمرئى والمسموع ، بل تعلم مراقبة الضمير فاكتسبت ذاته عمقا وخصبا وثراء ، فاذا بأنوار المعارف تشرق من باطن قلبه ، واذا به يستشعر أنه قد اقترب من الله تعالى قربا بالمعنى والحقيقة والصفة وأن الله قد افتتح عليه من مزايا لطفه ورحمته المبذولة بحكم الجود والكرم ، وقد تيقن بعد أن ذاق حلاوة الايمان أن القلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها المعرفة بجلال الله (١) .

وسلمان الفارسى بعد أن أشرق نور الايمان فى قلبه (ارتفعت الحجب عن عين بصيرته بلطف خفى من مولاه ، فلمح فى قلبه من وراء الغيب شيئا من غرائب العلم كالبرق الخاطف بالزهد فى الدنيا والتبرى من علائقها ، وتفريغ القلب من شواغلها ، والاقبال بكنه الهمة على الله) (٢) .

وأهل المدينة بعد اسلامهم (أصبحوا يعيشون مع الله وبالله وفى الله ويستشعرون هدوءا نفسيا وان كانت أفئدتهم ترتجف فرقا من خشية الله ، فقد عرفوا لذة النظر الى الله والأنس به ، وتصفية قلوبهم وتزكيتها وجلاءها بذكره ففاضت عليهم الرحمة وانكشفت الأسرار (٣) .

وقبلهم فى مكة ذاق شباب المؤمنين حلاوة الايمان فكانت نفوسهم حرة ، وارادتهم مطلقة . لما فضلوه على دين الآباء فكانوا يشعرون بحرية حقة وان كانوا مكبلين بالأغلال ، وان كانت أجسادهم تمزق بالسياط أو تكوى بالنار ، فقد أشرق وجودهم بالاندماج فى الوجود بمحض حريتهم والاتصال بمن فوق الوجود بانجذاب أنوار أرواحهم ، الى نور السموات والأرض فغمرهم وهم فى محنتهم نور على نور (٤) .

ولعل هذا المنهج فى المعالجة كان أكثر وضوحا فى تناوله لحياة السيدة خديجة من غيرها ، فقد حدثها محمد عن ربها قبل البعثة فأحبته وكانت تصدر فى حبها له عن وعى خاص وطريقة فى الوجد عرفناها عند الصوفية . متمثلة فى حب الذات فقد (أحبت خديجة ربها لذاته ، وتعظيما لجلاله ، فغرست فى قلبها غريزة النور الالهى وأصبحت تدرك المعانى التى ليست متخيلة ولا محسوسة وصارت لذتها وبغيتها فى اشراق نور اليقين فى فؤادها ، وصارت ألذ المعارف عندها وأطيبها وأشهاها العلم بالله (٥) .

---

(١) غزوة الخندق للسحار ص ١١٠ .

(٢) حجة الوداع للسحار ص ١٤ .

(٣) غزوة الخندق للسحار ص ١٢١ .

(٤) عام الحزن للسحار ص ١٢ وما بعدها .

(٥) دعوة ابراهيم للسحار ص ٥٢ .

وأمام هذا الحب تلاشت نزعات المادية وتبدلت الحياة ، فبعد (أن كانت تتهلل بالفرح كلما عادت قوافلها بالأرباح زهدت فى هذه المادية الطاغية بعد أن ذاقت حلاوة سبحات الروح فى الملكوت والفرح الفياض فى الجهاد الخالص الصافى للاتصال بذات الذوات والاستبشار بصفاء القلب وتزكيته وجلائه ، واشراق أنوار المعرفة فيه (١) .

غير أن هذا المنهج المتمثل فى التصور الصوفى الذى تصدر الشخصيات فيه عن حياة تأملية مستغرقة قد يؤدى بالبعض الى اضافة صفة الانعزالية واعتمادها كسمة للمنزع التأملى الذى حدده الكاتب اطارا للحركة السلوكية للأشخاص .

وهذا ما لم يتورط السحار فيه . بل انه ركز على بلورة الحركة الايجابية للسلوك ، فما كانت تلك العزلة التأملية معوقا ولا حاجزا فاصلا بين المؤمن ومجتمعه . وما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المثل الأعلى كاهنا . ولهذا عاشر قومه ورصد بعين الفطنة أفعالهم وقوم حركاتهم ومعتقداتهم (وكان على علاقة مباشرة مع العالم يحاول ببصيرته النفاذة أن يغوص ليكشف عن جوهر الأشياء وما كان بمعزل عن الآخرين) (٢) .

ولكنه على الرغم من ذلك لم يرضخ لشىء من عاداتهم وتقاليدهم وكانت رؤيته للأشياء متفتحة تتصل فى أعماقها بالنور الذى بدأ يغمر قلبه كلما ازداد تأمله فى الوجود ، وكان يعرض كل ما يرى وما يسمع على مقياس ذاته (فطفق يتأمل حال قومه ، حرية مطلقة وعبودية مذلة للبشر ، حرية تنخر قلب الوجود وتفرز سموما خبيثة تشيع فى الكون الفساد وعبودية قاسية تهوى بالانسان الى مهاوى الانحطاط الى مستنقعات الوحل والأقذار . انه يحس بضرورة تنظيم هذه الحرية ، بل تقييدها بنواه لتنطلق فى طريق النجاة) (٣) .

واذا كان السحار لم يتورط فى الحاق صفة العزلة بالنبى وأبرز معايشته الكاملة الواعية لحياة قومه عن طريق الاحتكاك بهم والتعامل معهم . الا أنه تورط فى ابرازه لشخصيته بعد تلك المعايشة وتعرفه على مناحى الفساد فى حياتهم . فى صورة المخلص الذى تجمعت لديه عوامل الرغبة الأكيدة فى التغيير الفعلى للواقع والثورة عليه . بل والمؤمل فى النبوة لهذا السبب .

وقد بالغ السحار فى ابراز ذلك حتى جعل محمدا ينتظر النبوة ويجاهد من أجل الوصول اليها آملا فى قيادة العالم الى رحاب الآمان نجد ذلك كثيرا فى تعبيرات السحار الكثيرة التى صورت هذه الرغبة وجسدتها . فالنبى كان قبل مبعثه (يطمع أن يكون كاتم أسرار القدرة الالهية بل الوسيط الذى يحمل أوامر السماء الى الناس لاسعاد البشرية جمعاء) (٤) .

---

(١) دعوة ابراهيم للسحار ص ٥٢ .

(٢) اليتيم ص ١١٦ .

(٣) *المصدر ص ١١٨ وما بعدها بتصرف .*

(٤) اليتيم ص ١٥٢ .

ولأنه (يريد أن يسير في مواجهة قومه المتدفقين في سيل الخطيئة ليصل الى الآفاق العليا ، فهو يتسلح بأسلحة المقاومة والصمود والشجاعة التي تؤهله لأن يقاوم التيار) (١) ولأنه (يفكر فيما هو كائن وفيما ينبغي أن يكون · فيما عليه قومه وفيما يرجو أن يكونوا عليه وأنه يعاني من مثل هذا التفكير معاناة شديدة ، وهذا الألم يحقق تطوره الروحي ، وينمي حياته الباطنية ويقوده الى الغاية التي صارت هدفه · أن يسمو بمشاعر البشرية وأن يجعل الانسان يستشعر سرورا أعمق من كل سرور مبعثه الجسد وأظهر من كل مباهج الدنيا) (٢) ·

وقد دارت أفكاره قبل البعثة حول امكان الاصلاح ووسائله بعد معايشته لتيار الفساد المستشري في قومه ، وقد ملك من وسائل الادراك ما يؤهله للقيام بدوره حتى أصبح (يعتقد اعتقادا راسخا بامكان النهوض بقومه · بل بالبشرية كلها ، (٣) بل ان الأمر تطور الى ثورة مكبوتة ينتظر لها انفجارا (انه يثور على دين قومه ، ويثور على عادات قومه ، ويثور على الفساد الذي استشرى في قومه ، وان كانت ثورته لا تزال مكبوتة في نفسه فانها يوم أن تبلغ ذروتها ستنفجر لتدمر حصون الشرك وأوكار الفساد ، وأنصار الرذيلة الذين ينشرون بين الناس الضياع والخسران المبين) (٤) ·

وفي رأيي أن السحار في تصوره هذا قد حاد عن الصواب ، وخالف نصوص القرآن القاطعة بأن الرسول صلى الله عليه وسلم (لم يكن قد فكر قبل الوحي والتنزيل بالدعوة أو أمل أن يكون هو الذي اصطفاه الله ورآه أهلا لوحيه وتنزيله) (٥) والآيات التي ترشد الى ذلك نجدها في قول الله جل جلاله (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون) (٦) وقوله جل جلاله (وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك) (٧) وفي قوله سبحانه (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا) (٨) ·

ولا شك أن الكاتب قد صدر في فهمه هذا عن تأثر ببعض الأعمال الفنية التي سبقت كتابته للسيرة والتي صور فيها الرسول على أنه ثائر وبطل مخلص ازدحمت في ذهنه صور الفساد ، واستوعب حركة المجتمع المتناقضة فأمل في دحر الفساد

---

(١) خديجة بنت خويلد ص ١٦ ·

(٢) المصدر السابق ص ١٨ ·

(٣) المصدر السابق ص ٣٤ ·

(٤) المصدر نفسه ص ٩٤ ·

(٥) سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم للأستاذ محمد عزة دروزه ج ١ ص ٤٣ ·

(٦) سورة يونس : ١٦ ·

(٧) سورة القصص : ٨٦ ·

(٨) سورة الشورى : ٥٢ ·

وتعلق بالرجال منتظرا حتى تهيأت له فرصة الانطلاق الى تغيير الواقع بما بذر من تعاليم وما اختط من قيم ، وقد كانت أكثر الأعمال صلة بهذا الاتجاه « محمد الثائر الأعظم » لفتحي رضوان ١٩٥٤ و « محمد رسول الحرية » لعبد الرحمن الشرقاوى ١٩٦٤ . وان كان السحار قد تفوق عليهما في استيعابه للحركة التاريخية وكان أكثر منهما دقة وتفصيلا لأبعادها ومتابعة ملامح شخصيتها على كثرتهم وتباين أفكارهم وميولهم ، ولم يلتق فكره بالكاتبين السابقين الا فى الموقف الأخير .

وفى قصة (عمر بن عبد العزيز ١٩٧٢) يقدم السحار شخصية تاريخية تمثل أنموذجا للفكرة الاسلامية فى حركتها البناءة عندما تنطلق من دائرة القاعدة النظرية الى عالم التطبيق فتحتضن الواقع فى حنان وتتربع على أرضه فكرا وسلوكا ومنهج وعمل ، ويستعين الكاتب فى بلورته لملامح الشخصية بعرض صورة واضحة المعالم للحياة فى العصر الذى عاشته الشخصية والظروف المحيطة بها ، وهى ظروف كانت الحياة الاسلامية فيها قد بدأت فى الانحراف عن طريق المثل الأعلى والصراط المستقيم على أيدى مجموعة من الخلفاء ... أقبلوا على الدنيا وعاشوا حياة الترف ، ومكنوا لأنفسهم فى الأرض عن طريق الظلم وسفك الدم ونشر الفرقة بين المسلمين ، وكبت حرياتهم الى غير ذلك مما سنه الأمويون فى الحكم وسياسة الرعية .

وقد أقام السحار بناءه القصصى عن طريق الحكاية مستعينا ببعض المواقف الجزئية التى وردت فيما حكاه المؤرخون من سيرة خامس الراشدين مما يمثل فى مجموعة صورة محددة الملامح له فى ورعه وزهده وتقواه وعدله وسياسة الناس على أساس من تعاليم الدين وأصول الشريعة . والى جانب ذلك يقوم بعرض الصور المقابلة التى كان عليها الخلفاء السابقون مما يخالف منهجه وأثرها فى حياة الناس وموقف الخليفة الزاهد منها . مضيفا الى ذلك ظلالا فنية للصورة عن طريق استخدامه للأسلوب الوصفى فى التعبير عن ملامح البيئة وعن الشخصيات وما يدور فى داخلها من خواطر وأحاسيس . منطلقا فى ذلك كله من فكرة أساسية يؤمن بها ويعتقد فيها . وتتمثل فى أن الشريعة الاسلامية والنظام الاسلامى هو الأساس الذى به ترقى الأمم وتزدهر حياة الانسان وينتشر الأمن فى ربوع الأرض ومن أجل التأكيد على هذه الفكرة أقام بناء الفصل الأول من القصة بالصورة التى تحقق له صدق المبدأ وسلامة الاتجـاه .

فقد جعل الفصل الأول كمقدمة تمهيدية اعتمد فى تشكيلها على شخصية بلال مؤذن الرسول ليقدم من خلاله صورة واضحة الملامح للتطور الذى أحدثه الاسلام فى الحياة ، والتغيير الذى طرأ على الفكر والسلوك والاعتقاد وأثره فى تحقيق السعادة والازدهار وجاءت تلك الصورة على هيئة خواطر جعلت تتتابع فى اطراد على صفحة ذهن بلال وهو فى طريقه الى سطح المسجد للآذان . فى ليلة (كان الظلام يخيم على المدينة ، ولم يكن فى السماء نجم يتلألأ ، ولكن الدور كانت كخلايا النحل . الرجال والنســاء والولدان يرتلون القرآن في هجعة الليل وقد أضـاءت قلوبهم بأنوار

اليقين) (١) وشرد بلال بخواطره يجتر أحزان الماضي الذى (عاش فيه بلا أمل يخرج فى قوافل التجارة كما تخرج السائمة ليس له من أمره الا شبع بطنه والعرق الذى يتصبب منه اذا ما حمل الأثقال ليرفعها الى ظهور الابل أو ليحطها عنها (٢) وتظل الخواطر فى تتابعها فيتذكر كلمات أبى بكر له عن محمد الذى بعث بدين يمجد الانسان ويحقق له الحرية • فرفعت (عن عين بصيرته الغشاوة فشعرت ذاته بوجودها وحريتها وامتلأ قلبه بنور أضاء ذاته العميقة فاذا به يكاد يقرع أبواب ملكوت السماء) (٣) وكانت بداية التطور والتغيير الذى أصاب حياة الانسان • فقد بدأ يصارع شهواته ونزواته وكانت (النزوات تتحطم عند حدود الله والاحساسات الدينية تزداد ارهافا ، وذلت عبودية المادة بعد أن أغلقت الأفئدة المؤمنة الأبواب دونها ، ورفعت الأقنعة عن الحرية الراشدة ووجدت على ظهر الأرض الحياة الروحية الحقة القادرة على طرق أبواب السماء وكان الانسان فى أروع صورة وأحسن تكوين) (٤) •

وراح السحار يبدع فى تجميع اللوحة ولم شعثها وابراز معالم الأمن والسعادة التى عاش المؤمنون فى ظلهـا • والتى تزداد خصـوبة كلما ازدادوا قربا من الله وعبادة له •

وقد استعان الكاتب أيضا بهذه الخلفية التمهيدية فى الوصول الى المنطلق الذى ستندفع أحداث القصـة منه فتنمو وتتابع فى سـياق منسـجم وعرض جيد • فنجد عمر بن الخطاب ضمن المصلين فى المسجد وقد أحاط كغيره برسول الله يستمع اليه مأخوذا بقوله :

– ان الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها شبابها (٥) •

ولم يدر بخلد عمر بن الخطـاب فى ذلك الوقت أن تاج بنى أميـة ذلك الذى سيبعثه الله لهذه الأمة على رأس المائة سنة القادمة من نسله (٦) •

يتخذ السحار هذا القول الصادر من رسول الله على مسمع من عمر بن الخطاب تكئة يعتمد عليها فى بلورة القصة واحداثها فى اطراد ونموه كما يستعين بالحلم الذى رآه عمر بعد ذلك فى تصعيد الحركة البنائية وجذب انتباه القارىء وحثه على متابعة ما يدور بحيوية واثارة تبعد عن الملل • فبعد مدة راشدة من عمر الزمن جاء الفاروق فحكم وعدل وأمن الناس ، ونام تحت شجرة فى المدينة فاذا به يرى رؤيا أثلجت صدره ! انه رأى أن من نسله رجلا بوجهه شجان يلى فيملأ الأرض عدلا (٧) •

---

(١) عمر بن العزيز ص ٤ •

(٢) المصدر السابق ص ٤ •

(٣) المصدر السابق ص ٥ •

(٤) المصدر السابق ص ٦ •

(٥) رواه الحاكم فى المستدرك والبيهقى فى السنن عن أبى هريرة • أنظر جمع الجوامع ط ١ مجمع البحوث الاسلامية ص ١٦٧١ •

(٦) عمر بن عبد العزيز للسحار ص ٩ •

(٧) المصدر نفسه ص ١٠ •

وتشيع الرؤيا في أوســـاط الناس وبات الجميع ينتظر حتى كانت ليلة خرج الخليفة فيها يتفقد أحوال الرعية فاذا به يتوقف فجأة أمام بيت يشتد الحوار فيه بين أم تحرض ابنتها على خلط اللبن بالماء لأن عمر لا يراهم وبين ابنة صالحة ترفض عرض الأم لأن رب أمير المؤمنين يراهم · فيسير عمر مسرعا الى المسجد لحضور صلاة الفجر ، وبعدها يطلب من ولده عاصم أن يأتي له بخبر أهل ذلك البيت · ويأتي عاصم بالخبر اليقين · وفيه أن الفتاة الصالحة لم تتزوج فيشرد عمر بذهنه وتتوارد خواطره بالرؤيا التي كان قد رآها عن رجل من نسله يلي أمر المسلمين فيملأ الأرض عدلا · ويربط بين الرؤيا والفتاة وببصيرته الايمانية · اختارها زوجة لعاصم فقد تتحقق الرؤيا · ومن هذه البداية تمضي الأحداث سريعة متلاحقة في تسلسل واحكام عبر المسيرة التاريخية فنرى من خلالها أحداث الفتنة ومقتل الامام وانتهـــاز معاوية بن أبي سفيان الفرصة لتحقيق مآربه وأطماعه الشخصية والعصبية · وما كان بعده من أمر يزيد ومصرع الحســين ومجيء مروان بن الحكم وأخذه العهـد من بعـده لولديه عبد الملك وعبد العزيز · هذا الذى شب بين الأمويين ولكنه كان على غير نهجهم صلاحا وتقوى حيث تركز اعجابه بالصحابي عبد الله بن عمر وكم كان يتمنى أن يكون له نصيب في تحقيق نبوءة الفاروق ·

وعنـدما بلغ سن الزواج أراد أن يتزوج من ليلى بنت عاصـم بن عمر ولكن الأمويين عارضوا هذا الزواج لعلمهم أن العرق دساس ومخافة أن تأتي حفيدة الفاروق برجل منهم يسير على خصال جده ، وأمام اصرار عبد العزيز بن مروان على انفاذ رغبته تم الزواج ، وفي بيئة الترف التي عاشها الأمويون ، ولد عمر بن عبد العزيز ، ولكنه كان عازفا عنها عاكفا على قراءة القرآن (١) وشـــب من صـغره شغوفا بأخبار جده معجبا به وببسيرته باحثـا عن الوسيلة التي مكنته من قيادة الناس بالعدل · آملا أن يكون في يوم من الأيام خير خلف لخير سلف · وهنا يجد السحار فرصـــته لابراز منهجه وبلورة فكرته عن الطريقة التي يستطيع الانسان من خلالها ان يسمو ويرتفع فوق النزوات والأهواء ليعيش في جو الحياة الروحية الرحبة وما تزخر به من سعادة وتحققه من ازدهار ، وبدأ في ابراز ملامح عمر بن عبد العزيز في اطارها وعلى هدى منها ، فقد راح كما صوره (يفكر فيما رفع الفاروق الى هذه المنزلة التي لا يتسامى اليها حاكم · ففطن الى أن ابن الخطاب حاسب نفسه قبل أن يحاسب عماله وقواده ورعيته، وأنه استغل دنياه لآخرته وفطم نفسه عن الشهوات . فعقد عمر بن عبد العزيز النية على أن يعيش بالحلم ، ويأخذ نفسه بالشدة وأن يكون الناس عنده سواء · انها رياضة روحية أمرها عسير ، فالتحرر من عبودية الأهواء والنزوات والجهل ليس شيئا هينا لشاب مثله نشأ في بحبوحة من العيش ، وان اغلاق فؤاده دون الماديات التي يزخر بها القصر يحتاج الى عزم · انه يريد أن يكون كاملا كجده العظيم ، فعليه أن يتحمل في صبر وقسوة الحرمان الذى سيفرضه على نفسه ، بل عليه أن يجد لذة

---

(١) المصدر السابق ص ١٩ ·

روحية فى ذلك الحرمان تفوق كل لذات الحياة الدنيا) (١) ومن أجل الوصول الى ما أراد رفض الذهاب مع والده الى مصر حيث حياة النعمة فى ظل القصور · مفضلا الذهاب الى المدينة ليكون فى رحابها طالبا للعلم وثراء الروح ·

وظل فى تطوره النفسى يرقى ويسمو على نزوات نفسه حتى استقام له ما أراد ·· فبعد أن كان فى أول الطريق (لا يزال يسيغ ما هو فيه من نعمة ، ولا يزال يختال فى شيته ، فلم يقتلع بعد من أعماقه فكرة أنه ابن ولى عهد الدولة الاسلامية ووالى مصر درة التاج الأموى) (٢) أصبح كما أخبر عنه صالح بن كيسان عندما قال لوالده فى صدق :

ـ ماخبرت أحد الله أعظم فى صدره من هذا الغلام (٣) ·

واستوت حياته واستقامت على هذا النهج لا فرق فى ذلك بين أن يكون فى المدينة حيث العلم والايمان أو أن يكون فى قصور الشام حيث بهجة الدنيا وزخرفها · فعندما مات والده (عاد الى الشام ليعيش بجسمه فى القصور ، وليهيم بروحه فى ملكوت الله يحاول أن يقرع أبواب السماوات) (٤) ·

ولبيان الأثر الذى تخلفه البيئة فى تكوين الشخصية واتجاهها أبرز السحار حياة عمر بن عبد العزيز فى المدينة واليا عليها حوله العلماء والزهاد من كل جانب مما كان له أعظم الأثر فى توجيه حياته فكانت أيامه فى المدينة من (أهم أيام حياته التى أثرت فى تكوين شخصيته ، فقد جلس الى الفقهاء والزهاد والى من كانت تقشعر جلودهم من خشية الله) (٥) ·

وعلى ضوء هذه الملامح بدأت حركته تتشكل وتتميز ؛تتخذ فى مسارها منهج الدين طريقا فى مواجهة ظلم الأمويين وأشياعهم من الولاة ، ولكنها لم تكن مواجهة دامية تفرق بين المسلمين · بل مواجهة حليمة تتخذ من النصح وسيلة ارشاد وتحذير. بما يتناسب وواجب الطاعة للخلفاء ، أو تعبر بالفعل والقول عن المسلك الذى تنحاز اليه ، ومع تبلور المواقف وبروز الشخصية بدأت المصادمة بين اتجاهين أحدهما يؤثر ما عند الله والآخر يدير ظهره لذلك متجها بكل قوته الى الدنيا · وعزل عمر عن ولاية الحجاز بفضل وشاية الحجاج ، وكراهية المسلك الذى اتخذه عمر فى سياسته للرعية وحتى لا يتوقف ذهن القارىء عن المتابعة بعد الوصول بالأحداث الى ما يمكن ان نسميه (أزمة الشخصية) استعاد السحار بالبشارة النبوية التى جاءت فى قمة الانفعال بالأزمة لتوجه مسار الحياة من جديد فقد خشى أن يكون ممن نفته المدينة

---

(١) المصدر السابق ص ٢٢ ·

(٢) المصدر السابق ص ٢٦ ·

(٣) المصدر السابق ص ٢٩ ·

(٤) المصدر السابق ص ٣٦ ·

(٥) المصدر السابق ص ٥٤ ·

مصداقا لحديث وارد عن الرسول · وبكى حتى كاد الحزن يعتصر فؤاده ، وجعل يقرأ القرآن (وهو يسح بالدموع حتى اذا ما انتهى من قراءته دخل ونام فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في روضة خضراء فقال له :

ـ انك ستلى أمر أمتى فزع ـ فكف عن الدم ·

وقام من نومه ينتفض وسرعان ما سكن روعه وامتلأ غبطة بالرؤيا والبشارة (١) وراح يفكر في الخلافة فعزم على أن يسير سيرة عمر بن الخطاب اذا ما ابتلاه الله يوما بخلافة المسلمين ·

وكان الابتلاء فقد بويع خليفة بعد سليمان بن عبد الملك ، ومن أول لحظة رفض كل مظاهر الأبهة التى كانت تأخذ بألباب سابقيه ـ فقد (رأى خيلا وبراذين وبغالا مطهمة لكل دابة سائس فقال :

ـ ماهذا ·

ـ مواكب الخلافة يركبها الخليفة أول ما يلى ·

ـ دابتى أوفق

والتف الى غلامه وقال :

ـ يا مزاحم ، ضم هذه الى بيت مال المسلمين) (٢) ·

وجعل يضم الى بيت المال كل ما فيه شبهة حتى جهاز زوجته وحليها ، وأبعد عن ساحته كل مالا خير فيه ، وجعل عطاءه لنفسه مائة دينار بعد أن كان أربعين ألفا قبل أن تصير اليه الخلافة ·

و (قطع الجوائز والمرتبات الباهظة التى كانت تصرف لبنى أمية فى عهود الخلفاء السابقين وأجرى عليهم مرتبات تتناسب مع مايحصل عليه سائر المسلمين ولم يكتف بذلك بل أمر بأموال جماعة من بنى أمية فردها الى بيت المال وسماها أموال المظالم) (٣)وفرح الناس بعمر الذى كان (يجتهد فى تنفيذ الحق وأن يكون كتاب الله دستور حياتهم) (٤) ·

وبالطبع لم ترض جماعة بنى أمية عن أفعاله فحقدوا عليه وباتوا يتحينون الفرصة للعودة بأيامهم الى ما كانت عليه من بهجة ونعيم · ولكن الرجل عزم على المضي في طريقه ورأى (أن تقوم خلافته على ما قامت عليه خلافة الشيخين (٥) فما

---

(١) المصدر ص ٥٧ بتصرف ·

(٢) المصدر السابق ص ٨١ ·

(٣) المصدر السابق ص ٩٢ ·

(٤) المصدر السابق ص ٩٣ ·

(٥) الشيخان هما : أبو بكر وعمر بن الخطاب ·

كان فى زمانهم شيعة ولا خوارج ، ولا انفاق مال على أبهة الحكم والسلطان ، ولا كبت لحريات الناس ، ولا فصل السياسة عن الدين ، ولا فصل المال عن الدين فالحكم لله لا للأمة ولا للسلطان . فليس للحاكم أن يعتبر نفسه مصدرا للتشريع ، والمال مال الله وما الخليفة الا حارس على هذا المال ، ينفقه فيما أمر الله أن ينفق ويجبى من حيث أمر الله أن يجبى) (١) .

وانطلق السحار فى ابرازه لملامح عمر وخطته فى اصلاح حال البلاد ورؤيته العادلة والحكيمة لكل ما يحقق الأمن للناس ويكفل سعادتهم . وكلها تمثل النظرة الاسلامية فى صفائها واستقامتها . فهو (يدرك معنى الحرية السياسية ، بل انه ليرى أن الحاكم لا يركب موجة الطغيان الا اذا أخرس الألسنة . وحال بينه وبين الناصحين الراشدين . ان الخلافة ليست جلب مغانم ولا التسلط على رقاب الناس ولا علوا فى الحياة ، بل هى مسئولية جسيمة لا ينهض بها الا أولو العزم من الرجال) (٢) وقد كان منهم فقد (ذاق حلاوة الرحمة لما رحم الناس ، وعرف لذة السكينة لما سكنت نفوس رعاياه . فقد كانت سعادة البشر تنعكس عليه وان حرم على نفسه الطيبات . فسعادته الحقه كانت فى اسعاد الآخرين . وحريته المطلقة فى اطلاق الحريات ، انه تسامى بذاته حتى أصبح فوق كل الماديات (٣) وقد انعكس صلاح حاله على الناس فأمنوا وسعدوا ويأتى التبرير من السحار فى الحاح شديد يعلن عن منهجه وفهمه لطبيعة الدين ودوره فى اصلاح الحال . انه يؤكد (أن جذوة الايمان فى الصدور لا تخبو ، فان سكنت تحت رماد فساد العصر والحكام فما أسرع أن تتوهج اذا ما نفخ فيها حاكم صالح،ولقد كانت نفخات عمر بن عبد العزيز قوية ظاهرة فاستجاب لها الناس فأضاءت أنوار اليقين القلوب فسعد الحاكم وسعد رعاياه ، وكانت المدينة الفاضلة التى داعبت عقول الفلاسفة حقيقة واقعة فى دنيا الناس (٤) .

واذا كان السحار قد اتخذ من عرضه لقصة عمر بن عبد العزيز وسيلة الى ابراز القيم الاسلامية الأصيلة وقدرتها على النهوض بالمجتمع وتحقيق الازدهار له كما هى خطته فى منهجه ونظريته التى ينتصر دائما لها . فانه قد قدم ولا شك حصيلة لا بأس بها من مجموع تلك القيم ، وكشف لنا جوانب مضيئة من تاريخ الأمة الاسلامية وحياتها لنستلهم منها عن وعى مناحى العظمة فيها فنسير على هديها فى حياتنا المعاصرة . ونبنى أسس حياة جديدة تنهض فى ظل مبادىء الدين ودستور الشريعة .. الا أنه قدم ذلك كله فى معظم الأحوال فى صور تقريرية حادة النبرة مستخدما تجميعات من نوادر وطرائف شتى عن زهد الحاكم وتقواه . وخوفه من لقاء الله يوم الحساب . الى جانب توجيهاته الرشيدة التى تمثلت فى كتاباته الى عماله وقواده ، فضلا عن

---

(١) المصدر السابق ص ١٤١ .

(٢) المصدر السابق ص ١٤٢ .

(٣) المصدر السابق ص ١٧٣ .

(٤) المصدر السابق ص ١٨٠ وما بعدها .

نصائحه وعظاته · وجاءت هذه كلها على هيئتها وطبيعتها الخطابية الزاجرة ·· ولو كان قد تخفف بعض الشيء من ذكر ذلك الكم الكثير والمكرر مكتفيا بما يخدم السياق ويقدم الشخصية من أقرب طريق لكان أجدى وأنفع · وأكثر مدخلية في باب الفن الذي هدف الى التعبير من خلاله عن أفكاره ورؤاه ·

ولو كان قد أبرز جانب المواجهة الأموية لعمر بن عبد العزيز بصورةأكثر فعالية في السياق لأوجد نوعا من الصراع تنهض على أجنحته قصة درامية عالية الجودة · لكنه اكتفى في عرضه لذلك باشارة فقط دون تعمق للفعل ودوافعه وللموقف وآثاره ولا يعني هذا أن القصة لم تؤد وظيفتها المنوطة بها في خلق وعي بالتاريخ والمام بمثل الخير فيه ، فقد قدمت الكثير من ذلك ، ومثلت اتجاهه الاسلامي في كثير من الجودة وحسن الصياغة وسلامة التعبير ·

وعلى امتداد آخر يتوجه السحار بالقصة التاريخية في (السهول البيض) الى مصر الحديثة · فيعرض للفترة التي عاشتها في مواجهة المستعمر الدخيل بعد ثورة ١٩٥٢ وما حدث عليها من عدوان سنة ١٩٥٦ ، وكيف واجهت مصر أحداثه بقوة عزم وصمود ارادة ، حتى تم دحره والانتصار عليه ·· يعرض الكاتب ذلك من خلال منطقة « القابوطي » في بور سعيد وعبر الملاحات وبين البيوت ، معتمدا على مجموعة من الأشخاص العاديين من طبقة العمال الذين عاشوا أحداث تلك المرحلة عن قرب · في بلورة الصراع والتعبير عن الأماني القومية ·

وهو لا يتناول عرض ذلك في اطار رؤية جزئية تتصل بالبعد السياسي والصراع الحربي بين العرب وأعدائهم ، وانما تتسع أبعاد رؤيته للموقف في اطار شمولي يستند على قضية المواجهة الشرسة القديمة بين الفكر الاسلامي والفكر الغربي ، وما ترتب عليها من تحديات ، ومن منطلق هذه الرؤية الشمولية راح يفسر الأحداث ويرسم ملامح الشخصيات بما يتلاءم وعنف المواجهة ، وبما يكشف عن وعي عربي أصيل بقيم الاسلام وحضارته وقدرته على الصمود والتحدي ومن أجل الحفاظ عليه وعلى مقدساته راح يعلي بناء القصة ويقيم أسس الصراع فيها كاشفا عن رؤية اسلامية واعية أفصحت عنها معالجته الفنية لحركة الأحداث والشخصيات ·· فمن أول الأمر رأينا الشخصية المحورية في القصة تصدر في كل حركة من حركاتها عن وعي بالواقع وتفهم عميق لكل ما يحيط به ويتفاعل معه · وتكشف ملامح تكوينها النفسي والخلقي والعقدي عن تأثر تام بالفكر الاسلامي واعتماده أساسا للصحة الراشدة في مواجهة الدخلاء ومقاومة الغزو ·

فقد رسم السحار شخصية (الشيخ حسن) في اطار محدد بما يتلاءم وطبيعة الرؤية الاسلامية الخاصة ، وجعله يتحرك في كل موقف من المواقف بما يتناسب معها ويجليها ، فأطلعنا من أول الأمر على مؤهلاته النفسية وآماله الشخصية وعالمه الذي يحدد مساره وأبعاد الرؤية لديه · فالشيخ حسن (كان مغرما بقراءة الكتب الدينية يحفظ كثيرا من السور القرآنية والأحاديث النبوية وكان يقتطع من أجره

المحدود كل شهر مبلغا يشترى به الكتب الاسلامية وكان يسارع الى الندوات والمحاضرات اذا ما كانت تدور حول الدين أو حول شخصية من الشخصيات الاسلامية. التى كان لها أثرها فى نشر الاسلام وتوطيد دعائمه ، فكان مثقفا ثقافة دينية ، وان كان حظه من التعليم الدراسى ضئيلا ، كانت أحلام يقظته تدور حول الدعوة ، وكثيرا ما كان يرى نفسه بعين خياله يدعو الناس الى الهدى ويعيد الضالين الى الصراط المستقيم وقد أراد أن يحقق أحلامه فراح يراسل بعض الشبان فى العراق وسورية عقب حرب فلسطين ، وكانوا يتحدثون عن البعث والقومية والدعوة الاسلامية وضرورة العودة الى الدين ، كان لا يعرف الفرق بين البعثيين ولا القوميين ولا يدرى علام يختلفون ؟ بيد أن حماسته كانت تثار كلما جاء فى رسالة من الرسائل التى يتلقاها ذكر الماضى وبطولات الماضى المجيد وأمانى العودة الى العز التى كان فيها المسلمون أيام اتحاد الشعوب) (١) وبهذا الكشف المبين لملامح الشخصية واهتمامها تحددت حركتها فهى شخصية تهيم فى الدين وتجد نفسها مأخوذة به وبكل ما يشدها الى الماضى المجيد الذى تحققت فيه الوحدة على أساسه بل انها شخصية تحلم فى حقيقة نفسها بالعودة الى مثل الاسلام وقيمه وترفض كل ما يدعو الى الفرقة والاختلاف مهما كانت البواعث الدافعة اليه .

ونريد أن نواجه الحاضر بمنطق الاسلام .. فاذا كان المسلمون فى حاضرهم يواجهون عنف العدوان وشراسته . فليس أمامهم الا القوة وسيلة يستعينون بها على صده ودفعه ، وقد نصب (حسن) من نفسه داعيا اليها فى الحاح شديد ، فعندما يحاوره « عبود » ذلك الشاب الطيب القلب النقى السريرة الذى لا يطيق أن يرى أحدا يضرب أو يساء اليه (٢) ويعجب من حكومات الدول التى تنفق جل مواردها لتكديس أدوات الدمار والتفنن فى كل ما يبيد البشر (٣) تجد « حسن » يعارضه فى مسلكه بقوله :

ــ لو كنا دولة قوية لأرغمنا هؤلاء الأجانب على احترامنا فالناس لا يحترمون الا الأقوياء ولا يقلدون الا الأقوياء ولا يتملقون الا الأقوياء (٤) .

ويزداد هذا الايمان بالقوة وضوحا حتى يكون فلسفة خاصة ينطلق منها فهمه الخاص ويتبلور من خلالها وعيه بطبيعة الظروف وما تحتمه عملية المواجهة . ومن هنا رأيناه يعلن على مسامع عبود أنه (ما من دعوة كبيرة انتشرت فى الأرض الا وقد سقيت جذورها بالدماء ، وما من حق من الحقوق انتزع من مغتصبيه الا وقد أريقت فى سبيله الدماء . فالدماء المسفوكة ان هى الا قرابين لمجتمعات ناعمة بالطمأنينة سعيدة بالاستقرار (٥) .

---

(١) السهول البيض ص ١٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٧ .

(٣) المصدر السابق ص ١٠ .

(٤) المصدر السابق ص ١٦ .

(٥) المصدر السابق ص ١٧ .

وتتحول هذه الفكرة الى دعوة يوجهها الى عبود وكأنه صاحب رسالة معنى بها وبدفع الناس اليها نجد ذلك عند زيارته له بعد ما جرحت أصبعه من البندقية يوم مصاحبته لمأمون وتوفيق في رحلة الصيد فقد دخل عليه قائلا :

– علموا أولادكم الرماية والسباحة · لو أنك طبقت تعاليم سيد المرسلين لما أصابك ما أصابك (١) ·

على أنه رغم الحاحه فى دعوته الى القوة والتدريب على أسلحة الحرب الا أن ذلك ليس غاية فى حد ذاته وانما وسيلة فقط للدفاع عن النفس وتمكين الحق فى الأرض دون سفه أو طيش · وتتحدد هذه النظرة فى قوله لعبود :

– السلاح كالنار خادم مطيع وسيد طاغ مستبد لا يرحم فاتخذه خادما ولا تجعله سيدا (٢) ·

وهذه النظرة الى السلاح تتواءم مع النظرة الاسلامية وتنطلق منها ، فالحرب فى الاسلام ليست الا دفاعا عن الحق وحماية له من بطش المعتدين ومن هذا المنطلق رأيناه يعتبر حرب العرب للانجليز وحلفائهم جهادا فى سبيل الله وأن الاستشهاد فيها غاية أمانيه ويتضح هذا الموقف فى حواره مع سليمان · وقد قال له ذات مرة :

– أتحب ياحسن أن تقتل فى حرب بيننا وبين الانجليز ؟ ·

فشمخ بأنفه وقال :

– يا ليت · هذا هو الاستشهاد · والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا (٣)
ولعل فكرة الشيخ حسن عن الجهاد ورؤيته للحرب بين العرب وأعدائهم على أنها حرب مقدسة تعتبر من أهم المحاور التى أقام السحار عليها معالجته القصصية · ومنها تتضح أبعاد رؤيته لقضية الصراع بين العرب وأعدائهم · وهى رؤية تتصل فى صميم أبعادها بحماية الاسلام وأرضه من هجمات الصليبية الشرسة التى لم تتوقف طوال حياتها عن مواجهة الاسلام ومحاولة النيل منه والقضاء عليه باعتباره حركة معوقة لتياراتها العدوانية وأطماعها فى السيطرة على مقدرات العالم وابتزاز شعوبه · وكان لابد للكاتب من تجميع الخطوط العريضة التى تفصح عن هذا المعنى وتبرز منعطفاته ولهذا استعان على ذلك ببلورة فكرة الأوربيين عن الاسلام والمسلمين ، وايضاح موقف الصهيونية تجاهه والدور الذى تلعبه فى تزييف الحقائق وتضليل التاريخ بما يتيح لها حرية الحركة ، وفى الوقت نفسه أكد السحار قضية عروبة مصر وعرض جانبا من

---

(١) المصدر السابق ص ٧٤ · وقد ورد عن الرسول (ص) فى الحث على تعليم السباحة والرمى ما رواه البيهقى فى شعب الايمان عن أبى هريرة « علموا أولادكم السباحة والرمى والمرأة المغزل » · أنظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوى تحقيق مصطفى عمارة ج٢ ص ١٠٢ ط اولى ·

(٢) السهول البيض ص ٧٤ ·

(٣) المصدر السابق ص ١٨ وما بعدها ·

حضارة الاسلام وقيمه الانسانية·وقد أدى ابراز ذلك كله الى ضرورة تواجد انماط مختلفة من الشخصيات يتبلور من خلالها هذا الفكر على اختلافه وتباينه·ومن هنا عرفنا « جانيت » زوجة توفيق وهى انجليزية وعن طريقها تم عرض الرؤية المشوهة عن الاسلام كما فهمه الغرب ، كما تعرفنا على « فانوس » اليهودى صاحب « الدكان » كطرف فى الحوار ممثلا لليهود · وتجميع هاتين الشخصيتين له دلالته الخاصة فى تمثيل الموقف فهو يشير أولا الى سماحة الاسلام وارتفاع مثله عن العنصرية والجنسية· فجانيت الانجليزية زوجة لتوفيق المسلم وفانوس اليهودى يعيش فى مصر آمنا رغم اشتراك اسرائيل فى الحرب ، وله صداقة متينة تجمعه بأبطال الرواية وهم مصريون مسلمون كما أن اختيارهما صدر عن عمد من المؤلف للتعبير عن وجهات النظر المقابلة للفكر العربى ضمانا للحيدة الموضوعية فى عرض المواقف والآراء وهذا أدعى الى الاقناع وأكثر صدقا فى التعبير ·

فجانيت كانت تتصور توفيق ـ قبل أن تتعرف عليه ـ يعيش فى خيمة بالقرب من الاهرام وأبى الهول وكثيرا مارأته على صهوة جواد أشهب يحاول خطفها ليغدو بها الى خيمته ويغتصبها (١) وعندما تعرفت عليه وعرض عليها فكرة الزواج طفت كل الرواسب التى كانت فى نفسها على سطح ذهنها · وعبرت عن ذلك بقولها (انتابنى خوف شديد من فكرة الزواج منه ، ورأيت نفسى أساق لأضم الى حريم توفيق ، ورأيت رمالا وخياما ورجالا لا هم لهم الا أن يؤذنوا طوال الليل والنهار وأن يسجدوا ويركعوا) (٢) ولا شك أن هذه التصورات تنبع من رؤية مزيفة طرحها فى الساحة الأوربية مفكرون متعصبون ضد الاسلام ، حتى أصبح أمر المسلمين مخيفا والارتباط بحياتهم استعبادا وولوجا الى الهمجية ·

وتفصح جانيت عن الأساس الذى قامت بسببه العداوة بين العرب والشرق بقولها : (أس العداوة بينكم وبين الغرب ، هى الفكرة التى بثها الغرب عن الاسلام فى نفوس الأطفال ·· المسلم مخادع مكار ورجل شهوة ومحب لسفك الدماء ، يقتل من يرفض الدخول فى دينه ، فاذا ما قوى المسلم واشتد ساعده فسيقضى على كل المسيحيين الأبرار . المسيحية والاسلام فى نظر الغرب كفتا ميزان اذا شالت احداهما فلابد أن تنخفض الأخرى (٣) ·

وتفصح أيضا عن العداوة القديمة بينهم وبين القرآن · فقد أهداها توفيق نسخة مترجمة منه فتحتها لتقرأ (قرآن هؤلاء الذين نشبت العداوة بيننا وبينهم منذ أن وقفوا على أبواب فرنسا يهددوننا بالغزو والقضاء على ديننا) (٤) ·

---

(١) المصدر السابق ص ٣٦ ·

(٢) المصدر السابق ص ٣٨ ·

(٣) المصدر السابق ص ٣٧ ·

(٤) المصدر السابق ص ٣٦ ·

وقالت لمأمون :

ـ حماستكم لهذا الكتاب وتمسككم به هو ما يخيف الغرب منكم (١) ٠

وعلى مستوى الحوار الذى أداره وكان فانوس طرفا فيه أبرز السحار تعاطف الغرب مع اليهود وأنهم لو كانوا متدينين حقا لكانوا معنا على اسرائيل ٠ لأن اليهود هم (الذين وشوا بالسيد المسيح وهم الذين أنهوا حياته) (٢) ٠ كما أبرز شيئا عن المزيف والمحرف من اصحاحات الكتاب المقدس وأن المزيف جاء من وضع حكماء بنى اسرائيل الذين نجحوا فى أن يضفوا ثوب القداسة على آرائهم وقد وقع فى مكرهم كثير من المؤمنين ٠ وأن اليهود لا حق لهم فى فلسطين وهم لا يستحقون عطفا من المسلمين لأن الله لعنهم فى القرآن مرتين (٣) ٠

وهكذا يحـاول السحار أن يعطى للمواجهة الحربية أبعادا دينيـة عن طريق الكشف عن جذور العداوة وأساسها وأنها هى المنطلق الذى تصدر عنه هجمات الغزو ومحاولات التسلط الاستعمارى ويتعرف أبطال القصة على ذلك فيزداد الموقف حدة وتخرج القضية عن كونها صراعا حربيا الى قضية أخرى تتمثل فى ضرورة الذود عن المقدسات الاسلامية وعن أوطان المسلمين وتكون الحرب اذن حربا مقدسة تستحق أن يضحى من أجلها بالغالى والنفيس من الأرواح والدماء ٠٠

ومما يؤكد هذا الاتجاه الاسلامى فى هذا العمل الفنى ويقويه ما رأينا السحار يقدمه الينا من خلال بعض شخصيات القصة خصوصا شخصية (حسن) المحورية ٠ من تمثل صادق للماضى ومحاولة ربط الحاضر به استلهاما له وأملا فى محاكاته ٠ نجد ذلك مثلا عند حسن الذى يربط دائما بين ما هو فيه وبين ما كان فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم أو بعض صحابته ٠ فعندما يحكى الشاويش بهنسى قصة الضابط الشاب الذى أراد أن يستدعى الى قسم البوليس أحد مديرى القناة للتحقيق معه ، ينبهه مأمور القسم على أن ذلك لا يليق ٠ نجد حسن يقول فى استنكار :

ـ ولو ٠٠ ان أمير المؤمنين على بن أبى طالب مثل بين يدى القاضى لما شكاه أحد اليهـود (٤) ٠

وعندما قام بعمل عقيقة ذبح فيها خروفا وسألته صغرى بنات صديق الفرارجى٠

ـ لماذا ذبحت خروفا اليوم ؟

فقال حسن :

ـ لأن النبى صلى الله عليه وسلم نحر فى اليوم السابع من مولد سدنا الحسين

---

(١) المصدر السابق ص ٣٧ ٠

(٢) المصدر السابق والصفحة نفسها ٠

(٣) المصدر السابق ص ٤٥ ٠

(٤) المصدر السابق ص ٢١ ٠

خروفا وأعطى القابلة فخذه وأمر ابنته السيدة فاطمة أن تحلق شعر ابنها وأن تتصدق بوزنه فضة (١) ٠

كما يتساءل صديق الفرارجي ذات مرة وقد ثقل عليه حمل أبنائه وهو فقير لا يستطيع تلبية حوائجهم ٠

ـ لماذا لا تعطى الحكومة راتبا لكل أبنائها ٠ ألسنا جميعا أبناؤها ٠٠ ؟

فقد قال حسن ذات ليلة ٠ ان الدولة الاسلامية كانت تجعل لكل مولود نصيبا في بيت المال (٢) ٠

وعندما استعد حسن للتدريب العسكرى وطلب من عبود أن يفعل ما يفعل ولكن عبودا يرفض مبدأ القوة من أول الأمر ويستكين للسلام ٠ نجد حسن يقول له :

ـ لو سلحت أنا وأنت وكل الشعب لأصبحنا قوة تستطيع أن نقهر عدوانهم ولحاربهم الله معنا ٠ فالله الى جانب الحق ٠ والحق فى جانبنا ، ألم ينصر الله الفئة القليلة فى غزوة بدر على الفئة الكثيرة ٠ لماذا ؟ لأن الله أراد أن يظهر الحق (٣) ٠

وبعد أن لجأت دول العدوان الى تجميد الأموال المصرية فى الخارج فطن حسن الى أسلوب الحصار الذى بدأ الأعداء يستخدمونه ٠

فأعلن مطمئنا عبود أن ذلك الحصار سلاح مغلول (لا يفت عزائم من يؤمنون بحقوقهم ٠ أتعرف يا عبود أن كفار قريش ضربوا الحصار على النبى صلى الله عليه وسلم فى شعب أبى طالب وقرروا ألا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعون منهم ، وأن الجهد بلغ بالمسلمين مبلغا كبيرا ولكنهم لم يستسلموا وأرغموا قريشا على أن ترفع الحصار ، وقد خرج المسلمون منه أشد قوة وأمضى عزيمة (٤) ٠

ولم يسرح حسن لفقرة قرأها فى اتفاقية الجلاء تترك للانجليز حق الرجوع الى مصر للدفاع عنها اذا ما تعرضت لهجوم أجنبى وراح يلتمس سبيلا من ماضى أمته يعيد اليه هدوءه ، ووجد ذلك فى معاهدة صلح الحديبية وكان المؤمنون المتحمسون يكرهون هذه الاتفاقية ، لأنها أعطت للقرشيين حقوقا ما كانوا يحصلون عليها أبدا لو ظلت الحرب ناشبة بينهم وبين المسلمين ولكن النبى صلى الله عليه وسلم بارك هذا الصلح ورضى عنه وجاءت الأيام محققة لرأى النبى فقد نقض القرشيون بعدوانهم ذلك الصلح وكان الفتح المبين (٥) وقر حسن واستقر وتمنى على الله أن ينقض الانجليز اتفاقهم ليكون النصر ٠

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٤ ٠

(٢) المصدر السابق ص ١٧٥ ٠

(٣) المصدر السابق ص ٢٢٧ ٠

(٤) المصدر السابق ص ٢٢٩ ٠

(٥) المصدر السابق ص ٢٦٣ ٠

وهذا التمثل الواضح للماضي ومواقفه لا يصدر عنه حسن جزافا أو لاظهار العلم به فقط وانما يصدر فيه عن وعي به وايمان بايجابيته ويرى (أننا أغنياء به فيا ليتنا نعرف كيف نستغل نفوذه) (١) ومن هنا رأيناه على امتداد مسار الرواية قد التزم بهذا التمثل التزاما كاملا دون أن ينحرف عنه بل حاول التأثير في غيره به ، وتجلى ذلك في مواقفه الكثيرة والمثيرة من بدء القصة وحتى نهايتها ٠

ومن أبرز المواقف دلالة على ما نعنيه من تأثر غيره به ٠ ما رأيناه من مسلك « مأمون » عندما انسحب من صفوف المعركة تنفيذا للأوامر الصادرة اليه باعادة التنظيم . فقد راح يلوم نفسه على الانسحاب كان يجب أن يبقى مع « راسم » ذلك الفلسطيني الذى ظل راسخا كالطود لا يتزحزح ٠٠ وظلت خواطره تترى فى فؤاده حتى براجع عن لوم نفسه شيئا فشيئا مستلهما موقف الرسول من المشركين فى مكة وهجرته الى المدينة ٠ (رسول الله لما رأى أن بقاءه في مكة يهدد حياته فر من الاضطهاد وهاجر الى المدينة وكان ذلك الفرار بداية نصر للمسلمين ٠٠ أين نحن من رسول الله ٠٠ ان لنا فى حياة الرسول أسوة حسنة ٠٠ انها منارات تنير سبيل البشرية ٠٠ هذا ليس قولى ٠٠ هذا ما تعلمته من الشيخ حسن) (٢) ٠

ولما كانت رؤية السحار للمواجهة تنبع من تصور اسلامى وتتشكل مواقف أبطال القصة على أساسه ٠٠ فانه لكى تستقيم اللوحة وتكتمل صورة الاسلام فيها لابد وأن تكون حركة الشخصية فى حياتها وسلوكها متوائمة مع المنهج الاسلامى لا تخطئه فى لحظة من اللحظات ولا تنحرف عنه ، وهذا ما حاول الكاتب صنعه فقد أبرز معظم الشخصيات فى القصة على نمط من السلوك ينسجم مع قيم الاسلام وتعاليمه ٠ نجد ذلك أوضح ما يكون فى شخصية (حسن) الرجل المسلم الذى لا يعين أحدا على معصية حتى لو كان صديقه « سليمان » ذلك المريض الذى أرغم على ترك العمل بحجة أنه مريض بالقلب ، وقد وقف عبود الى جواره فى محنته ، وفرض له حصة من المال يدفعها مع زملائه للمشاركة فى هذا الموضوع ولكن حسن يأبى ذلك لأن سليمان المريض ينفق ما يقدم اليه من أموال فى شرب الخمر ٠ وعبر حسن عن رفضه بقوله :

– حرام على أن أحرم نفسى وبيتى من ثمرة عرقى لأعطى عاطلاليسكر بما أتصدق به عليه ٠

وضايق عبود أن حسن أعلن رفضه على الملأ فقال له :

– أنت تعلم أنه أرغم على ترك عمله ، لم يسع أبدا ليكون عاطلا ٠

فقال حسن فى سخرية :

– وما الذى أرغمه على أن يسكر ٠ أنا لا أعطى مالى أبدا لمن ينفقه فى المعاصى (٣) ٠

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨٩ ٠

(٢) المصدر السابق ص ٣٢١ ٠

(٣) المصدر السابق ص ١٦٧ وما بعدها ٠

ويستمر الحوار بينهما · وحسن مصر على موقفه من سليمان لأنه باع نفسه للشيطان وأن عدم التصدق عليه ليس بخلا ، ولا حجة له فى أنه هرب الى الخمر من مصيره ، فلو كان مؤمنا لرضى وتقبل ذلك صابرا ، وأن الرحمة هنا غير مطلوبة لأن الله قد أمرنا باقامة الحدود · برجم الزاني وقطع يد السارق وجلد السكير · مع مغفرته ورضوانه ·

ونلمح أيضا شيئا من المسلك الاسلامي فى حركة « عبود » ذلك الذى كانت فكرته عن الحرب ورؤيته لها تختلف اختلافا بينا عن فكرة حسن الا أن خلقه الاسلامى والتزامه بالسلوك الرشيد ينتشر فى كثير من مواقفه ، فأنصاف الممرضة كان اذا رآها غضب ونمنى أن تغيب عن عينيه الى الأبد ، فهو يكره سلوكها ويرى أن عملها فى التمريض ليس الا لتغطية انحرافها · ويتضح موقفه النافر منها عندما جرحت اصبعه فى رحلة الصيد فقد أبى أن تقوم بعمل بعض الاسعافات الأولية له مفضلا أن (تقطع أصبعي على أن تمسني هذه العاهرة) (١) وهو أيضا يكرهها لجرأتها ولا يحترم أية فتاة جريئة (٢) وقد كانت هذه الكراهية لها بسبب تبذلها وسفور مظهرها ·

وعندما عادته (بهية) وهو مريض وكانت أمها قد وافقت على خطبتها له راودته فكرة أن يذهب الى خطيبته وهى تغسل الثياب فيقطف من ثمار الحب ما يريد ويطبع على جبينها قبلة أو على شفتيها ولكن ايمانه وخلقه يحولان دون ذلك · فيقطع خواطره مستمعا الى صوت آت من داخله (لا لا يا عبود لن تفعل شيئا من ذلك قبل ليلة الزفاف حتى لو عقد المأذون عليها) (٣) ·

وكان فى طبعه الايثار لا يحب أن يفرح وغيره حزين ، فقد وقف مع سليمان فى محنته وحاول جمع المال له من زملائه،وأبت نفسه الفرح لأن حسن لم يوفق فى خطبته لفتحية ابنة صديق الفرارجي وظل يمد حسن بالمعونة وصديق بالمال حتى تم الزواج ، وبعد الموافقة عليه فرح وضمه الى صدره قائلا :

ـ أنت رجل طيب وحسن رجل صالح ، الطيبون للطيبات يا سيد صديق ·

ولا يقتصر مجال الحركة فى الالتزام بالسلوك الاسلامي على حسن وعبود بل نجد امتداد المنهج يتسع ليشمل توفيق المهندس الشاب زوج جانيت الانجليزية التى تعامل (مرجان) خادمها النوبى ذا الأنف الفطساء بقسوة وكأنه سائمة · فقد رآه توفيق مرهقا وصدره يعلو ويهبط من أثر الجهد المبذول فى ترتيب الشقة وتنظيف الفرش · فنظر اليه نظرة اشفاق ثم التفت الى زوجته وقال :

ـ انه روح مثلنا ·

---

(١) المصدر السابق ص ٥٦ ·
(٢) المصدر السابق ص ٦٥ ·
(٣) المصدر السابق ص ٦٧ ·

فقالت جانيت :

ـ أعــرف ٠

وأمرت مرجان أن يحمل مقعدا ضخما ليخرجه الى الردهة ، وأحس توفيق رغبة فى أن يؤلمها فراح يلقى على مسامعها فقرة من كتاب روح القوانين لمونتسكيو ٠ قال بالفرنسية :

وهذه الشعوب ان هى الا شعوب ســـوداء من العدم الى الرأس وأنوفها فطساء بشعة حتى أنه من المستحيل أن نرثى لها ومن العسير أن يتصور المرء أن الله جل شأنه قد نفخ روحا وعلى الأخص روحا طيبة فى جسم حالك السواد ٠

واحمر وجه جانيت وقالت فى غضب :

ـ توفيق ٠

فرنا اليها توفيق رنوة طويلة وابتســم ابتســامة انتظار فقالت وهى لاتزال منفعلة :

ـ قلت لك مرات لا تحزنى بمثل هذه الأقوال ٠

فقال بالانجليزية وهو يبتعد عن جانيت :

ـ متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا (١) ٠

هذا وغيره من الملامح الاسلامية التى تشيع فى القصة من أولها الى آخرها قد أجاد المؤلف فى بلورته لها من خلال بعض الشخصيات التى ينسم موقفهابالمرونة فى مواجهة الأحداث والحرب ، وحتى لا يتسم العمل الفنى بالجفاف الفكرى رأينا بعض الشـــخصيات التى شاركت فى الحوار أو برزت فى القصـــة بحكم ارتباطها ببعض الشخصيات الرئيسية عن طريق العمل أو المصاهرة أو الصداقة نمثل جانبا فكها يعبر عن الروح المصرية وسخريتها المحببة فى أعنف مواقف الحياة والجهاد مما طبعت عليه ٠ فقد قدم السحار من خلالها أنماطا من شرائح المجتمع وما تعيش عليه فى حياتها من فلسفات خاصة ٠ تجنح الى السلبية فى معظم الأحيان وتولى فى تفسيرها للمواقف والأحداث الى مايتلاءم وطبيعة تفكيرها ودرجة استعدادها ٠ حتى اذا جد الجد ودعا داعى الحرب هب الجميع معا على قلب رجل واحد مجاهدين فى سبيل الحق والذود عن المقدسات ٠ وقد نجح السحار فى تهيئة الجو للتحول والتغير فى سلوكهم مستعينا بالشخصية المحورية (شخصية الشيخ حسن) فى احداث ذلك ، فقد قام بدور فعال فى التوجيه والترشيد وبذر الروح الاسلامية فى قلوب كل من حوله حتى استقاء الأمر لهم وتكشفت أمام بصيرتهم معالم الواقع الذى يعيشون فيه فصدروا جميعا عن

---

(١) المصدر السابق ص ٣٢ وما بعدها ٠

وعى بالموقف ومتطلباته ٠ وجاء ذلك فى حينه دون أن تنحرف بنائية القصة أو يختل نمو الأحداث والشخصيات فيها ٠ فقد وجدنا فى أول الأمر شخصية الشاويش بهنسى ذلك الرجل الذى كان كما وصفه السحار (ربعة لا هو بالطويل ولا بالقصير ، أسمر يملأ وجهه شارب أسود غزير ، تدل ملامحه على الصرامة) (١) ولكن أفعاله وأقواله لا تنبىء عن شىء من مظهره الخارجى ٠ فهو رجل مزواج شغوف بتتبع النساء كثير الفكاهة يرى أنه لاخير فى اللحم كله اذا لم نأكله من أجل امرأة (٢) ٠

وسليمان ذلك السكير الآبق الذى تفرغ بعد طرده من الشركة الى شرب الخمر وارتياد الحانات ٠ وانصاف ذات الأنوثة الطاغية واللون الخمرى والشفاه الغليظة التى تمنى عبود يوما أن تذبل أنوثتها وتزول وكان يربط بين جسدها المتفتح ونزوات الشياطين (٣) ٠

كل هؤلاء تحولوا الى شىء آخر ٠ لقد تحولوا الى صناديد وأبطال فى ساحة المعركة ، سليمان يلتحم بالصفوف مدافعا عن شرف أمته وهو يصيح الله أكبر ٠ وأنصاف لا تبرح الجنود ، وبهنسى تحول الى كتلة من الحماس والوطنية ، حتى مرجان صاحب الأنف الفطساء والبشرة السوداء الكل يجاهد ليحمى ذمار أمته وقد وصل قلبه بالسماء (وانتشرت ألسنة النيران تكاد تحصد بور سعيد وتحيلها الى قطعة من اللهب وسليمان يبتهل الى الله أن يحمى المؤمنين واذا بالمطر يتساقط من السماء واذا بالكل يؤمن بأن الله معهم) (٤) ٠

وازاء هذا التحول العظيم لم يملك حسن الا أن يضفى على سليمان صفة البطولة والبلاء الحسن ، فيشبهه بأبى محجن فى معركة القادسية قائلا لعبود :

ـ أبلى سكير العرب فى القادسية بلاء حسنا كما أبلى سكيرنا بلاء حسنا فى هذه المعركة (٥) ويأس لموته على فراش المرض متمثلا بمقالة خالد بن الوليد : ما فى جسمى موضع الا وفيه اصابة وهأنذا أموت على فراشى كالبعير فلا نامت أعين الجبناء (٦) ٠

وبهذه الرؤية المتميزة فى تناول السحار لقضية المواجهة الشرسة بين الفكر الاسلامى والغربى كما تمثلها وصورها من خلال منظور اسلامى خاص ٠ استطاع أن يطلعنا على كثير من الأبعاد التى تحكم الصراع وتحدد مساره ٠ مؤكدا فى هذا العمل وغيره على حقيقة واحدة ٠ ٠ تتمثل دائما فى أن الاسلام بقيمه ومثله وشريعته يستطيع

---

(١) المصدر السابق ص ٣٠ ٠

(٢) المصدر السابق ص ٤٤ ٠

(٣) المصدر السابق ص ١١ ٠

(٤) المصدر السابق ص ٣٨٠ ٠

(٥) المصدر السابق ص ٤٤٠ ٠

(٦) المصدر السابق ص ٤٩٣ ٠

أن يواجه حياة الناس في السلم والحرب على السواء · كما أن الانسان يستطيع من خلاله أن يقاوم الزيف ويدحض الشر ويرتفع فوق النزوات والأهواء ·· فيضيف الى مجد الحضارة أمجاد الروح في سموها وتعاليها ، رأينا ذلك من خلال عرضه لقصة السيرة وشاهدناه في معالجته لقصة عمر بن عبد العزيز وتعرفنا على استمراريته في السهول البيض مع صحوة النهضة العربية وتطلعاتها الحديثة · مما يؤكد صدق الالتزام بالمنهج الديني في معالجته التاريخية ، وايمانه بالدين كأساس لتطور الأمم ورقيتها ·

الفصل الثانى

القصة الاجتماعية

تعرفنا فى الفصل الخاص بأدب السحار على عدد من الأعمال القصصية قدم من خلالها رؤية واعية للحياة الاجتماعية على مستويات عدة اتسعت لتشمل عددا من البيئات المختلفة التى تنقل بين أفيائها كاشفا عن حركة الحياة فيها وما يتحكم فى مسار هذه الحركة من قيم وسلوك وعادات وتقاليد ومتتبعا تطور النظرة الى تلك القيم والمفاهيم عبر الامتداد الزمنى فى عمر الحياة المعاصرة ، مبرزا عناصر الصراع فيها وحركة الجدل حولها ٠

فقد قدم قصته الأولى فى هذا المجال (فى قافلة الزمان ١٩٤٧) صورة حية لحركة الحياة المصرية على مدى ثلاثة أجيال عاشت فى تواصل زمنى بدءا من أواخر القرن الماضى وحتى ما يقرب من الحرب العالمية الثانية ، وأعطانا من خلال تلك الصورة تصورا كاملا للحياة الاجتماعية فى تلك المدة فى تفصيل دقيق يحمل فى ثناياه عقائد العصر وطريقته فى التفكير وأنماطه السلوكية المتعددة ، كما قدم لنا صورة صادقة للحيرة والتفكك والصراع الذى عاشه التفكير المصرى موزعا بين موروثاته القديمة والأفكار الدخيلة الطارئة عليه فى جميع مجالات الحياة ٠

وعلى هذا المستوى الاجتماعى كانت قصة (الشارع الجديد ـ ١٩٥٢) امتدادا لرؤية فنية تناول من خلالها رصد حركة الحياة فى البيئة المصرية ، على مدى النصف الأول من القرن العشرين وحتى قيام الثورة ١٩٥٢ ٠ ولم يتوقف تيار المعالجة الفنية للحياة الاجتماعية عند هذا الحد وانما ظلت عينه الراصدة تنفذ الى عمق الأعماق فى محاولة للغوص والبحث عن دوافع الحركة الاجتماعية بكل مقوماتها وأبعادها حتى استوى له منها ما هيأه لاصدار « النقاب الأزرق » و « المستنقع » و « الحصاد » و « أم العروسة » و « النصف الآخر » و « الحفيد » على مستوى الواقع الاجتماعى المصرى وما ازدحم به من أفكار ، وما عاناه من مشاكل وآلام ، وتطلع اليه من آمال وأحلام ٠

وفي جانب اخر من الأداء الفني قدم لنا رؤيته الذاتية لعدد من البيئات الأخرى وما تمتلىء به من قيم وسلوكيات وأماني وتطلعات تعرفنا عليها من خلال قراءتنا لقصص « وكان مساء » و « أذرع وسيقان » و « جسر الشيطان » .

وفي جانب آخر من الأداء الفني قدم لنا رؤيته الذاتية لعدد من البيئات الاخرى ووعيه بالعصر الذى يعيشه ، وقدرته على استيعاب حركة الانسان فيه وتفسيرها على ضوء من رؤيته الخاصة وثقافته الأصيلة ، وانتمائه القومي ، وميراثه الحضارى دون زيف أو تصنع أو استجلاب لأدوات خارجية في الكشف عن دوافع الحركة الاجتماعية وتفسيرها بما يتفق والنزعات الوافدة والأفكار الدخيلة ، مما لا يمت للواقع الاجتماعي الذى يعالجه الأديب بصلة من الصلات أو بسبب من الأسباب . وقد فهم السحار ذلك ووعاه ، وصدر في تصويره للحياة الاجتماعية عن صدق احساس بالشخصية التي يعالجها والعصر الذى تعيش فيه فما القصة الاجتماعية عنده « الا مرآة تعكس الحياة ، وليعمل القاص الذى يصور شخصيات عصره على أن يصورها تصويرا صادقا حتى تكون روايته مرآة اجتماعية ، ينعكس فيها التاريخ الاجتماعي ، وشخصيات العصر الذى كتبت فيه) (١) .

وفي ظل التزامه الواعي بهذا المنهج في معالجته للقصة الاجتماعية قدم لنا رؤية اسلامية واضحة المعالم لبعض مسارات الانسان المعاصر في سلوكه وأخلاقياته ومعتقده الديني وموقفه من قضايا التطور كاشفا عن جوانب الخير فيه ومبرزا عناصر الشر التي تحوم حوله أو تتصارع في داخله . كما قدم من التفسيرات والاشارات والآراء ما يؤكد صدق نزوعه الديني وولاءه الاسلامي ، وقد رأينا خلال تتبعنا للقصة الاجتماعية عنده حشدا من الملامح الاسلامية ، تتحدد من خلالها رؤيته الخاصة ، ونظرته المتميزة لحركة التطور الاجتماعي ، وتتمثل هذه الملامح فيما يلي :

اولا : نظرته الى المرأة :

شغل السحار بالمرأة وتتبع حركتها في الحياة الاجتماعية فكانت محورا رئيسيا في تشكيل كثير من القصص ، وأبرز موقف الأجيال المختلفة منها ومن سفورها ، ومن خلال عرضه للمواقف فلمح نظرته الذاتية اليها ورؤيته لها ، وهي رؤية تستمد أصولها ومقوماتها في أغلب الأحيان من قيم الاسلام وتعاليمه ففي قصته الأولى (في قافلة الزمان) رأينا نظرة الحاج أسعد ـ ممثل الجيل الأول ـ لسفور المرأة وخروجها عارية أو شبه عارية يرتبط في ذهنه بالتغييرات المادية المستحدثة التي تنبىء عنها كتبه الصفراء ، فهو يبكي حسرة ويحترق لوعة كلما قرأ شيئا عن ذلك الذى سوف يقع مما لم يشهده في عمره ، حتى أن « زكية » حفيدته قد أنكرته يوما عندما رأته

---

(١) همزات الشياطين ـ من دراسة أدبية حول فن القصة ـ ألحقها السحار بالمجموعة القصصية ص ٢٠٩ .

مطأطئا بصره مسبلا جفنيه والدمع يسح من عينيه ، فينحدر على خديه ويبلل لحيته فاقتربت منه فى خفة وهمست :

ـ أتبكى يا جدى ٠٠ ؟

فرفع الحاج أسعد رأسه ونظر اليها من خلال دموعه ولم ينبس بكلمة ، فعادت تسـألـه :

ـ وما يبكيك ٠٠ ؟

فقال فى صوت خفيض أسيف :

ـ سيأتى أوان تخرج فيه النساء عرايا ، سافرات الوجوه كاشفات الصدور ٠

فأنكرت زكية مقالة جـدها وعدتها ضربا من الأوهام والخيالات ، وعبرت عن انكارها بقولها لجدها :

ـ هذا لا يصـدق ٠

فقال الحاج أسعد فى يقين :

ـ وسيتكلم الحديد ٠

فاشتد انكارها ٠ فمحال أن يتكلم الحديد ٠

فهمس جدها فى حسرة ، ان ذلك من علامات الساعة وسيقع كل ذلك (١) ٠ ويحرص السـحار على تتبع النظرة للمرأة فى الأجيـال التالية لجيل الحاج أسعد خصوصا وقد بدأت تخرج الى الحياة متأثرة بالدعوة الى التحرير ٠ فهذا أحمد يحزن ويغضب عندما يرى أخته ابنة الثامنة على ناصية الشارع يوم مولد البيومى (٢) ومحمد يشير الى زوجته أن تخلى الحجرة وتذهب بعيدا فلا يليق بها أن تظهر هكذا أمام الرجال (٣) وظلت المرأة فى نظر الجيل الثانى ظلا للرجل وتابعا له لا تتحرج من أن تطلق عليه لفظ السيد (٤) حتى اذا كان الجيل الثالث وتحقق ما كان يخشاه الحاج أسعد ٠ فقد خرجت المرأة سافرة عاهرة ترتاد الشواطىء عارية أو شبه عارية ، وتختلط بالرجال فى الشوارع وبالشباب فى دور العلم والعمل وقد خلعت حياءها وتمادت فى غيها ٠ ورأى ذلك مصطفى المثقف العصرى المتفتح ابن الجيل الثالث الذى شهدها وعاشرها وأحبها ، ولكنه غير راض عنه تمام الرضى ، فقد انتابته الحيرة ومزقه صراع نفسى حاد بين رغبته فى الزواج من (كوثر) الفتاة العصرية التى تمارس حظها من السفور كما تشاء وبين رغبة أهله فى تزويجه من (فتحية) تلك الفتاة التقليدية المحافظة التى ليست على الدرجة نفسها من كوثر علما وثقافة ، وان كانت تتفوق

---

(١) فى قافلة الزمان ص ٨ ٠

(٢) المصدر السابق ص ٦٧ ٠

(٣) المصدر السابق ص ١٣٣ ٠

(٤) المصدر السابق ص ١٦٣ ٠

عليها من ناحية الجمال . وتظل الحيرة ضاربة فى أعماقه حتى يرى (كوثر) على الشاطىء عارية ويستمع منها الى الأغانى الخليعة ويلمحها تتأبط ذراع شاب أجنبى وعندما يشتد عليها فى ذلك تفسره على أنه روح العصر والمدنية . تنتهى حيرته مأخوذا بتقاليد أهله التى ترى أن صوت المرأة عورة (١) .

وينتهى صراع نفسه مقررا الزواج من (فتحية) (فخير له أن يتزوج ممن تعرف لها وظيفة على أن يتزوج ممن لا تعرف لها وظيفة الا الزينة والخروج وارتياد الملاهى ومخاصرة الرجال ، ومن الأفضل أن يتزوج فتحية فانه سيضمن سيادته ، فهو على الرغم من هدوئه يعتز برأيه ولا يحب أن يخضع لرأى سواه) (٢) .

ويتضح من هذا الموقف رفض السحار للصورة التى خرجت عليها المرأة الى الحياة متشحة بالثقافة والمدنية وانتصاره لوظيفة المرأة فى واحة البيت وقيامها بواجبات الزوجية مأخوذا بسلطان القوامة التى عليها تقوم النظرة الاسلامية للمرأة فى الأساس الأول .

وفى « النقاب الأزرق » تزداد هذه النظرة وضوحا واتساعا وان كانت تقوم فى هيكلها البنائى على الأسس نفسها التى تنطلق منها النظرة (فى قافلة الزمان) الا أنها تعطى بعدا أعمق للموقف ورؤية شاملة للحركة من جميع مناحيها . فبطل القصة (حسين) يرفض الزواج من ابنة عمه (علية) مقيما رفضه على مبررات شكلية يقدمها فقط لاقناع أمه بموقفه الرافض حتى لا تغضب عليه ولكن الأسباب الخفية للرفض تنطلق من نظرة رافضة للمرأة العصرية بالمفهوم الحديث .

فاذا كان قد أبان لأمه أنه اذا تزوج من « علية » فسيجذبها الى القاع وينقلها من القصر الى الكوخ (٣) لأنه فقير وهى غنية . ولن برضيه أن يكون فى الكفة الخفيفة (٤) كما أنه لا يرضيه أن يكون تابعا لها كالظل لا يبدى رأيا أو اعتراضا اذا كان فى حضرتها (٥) فان الأسباب الرئيسية للرفض تنبع من اعجابه بهدى ، تلك التى استراح لها وأعجب بها ، فمنذ اللحظة الأولى لرؤيته لها (مس قلبه ذلك الحياء وتلك الأنوثة المستكينة (٦) كما أن قلبه قد اهتز لذلك الضعف الأنثوى الذى استشفه من تحت نقابها (٧) وانه ليرجو دائما أن يراها فى نقابها الذى أحبه ، وفى خفرها الذى انجذب اليه فؤاده ، وانه ليحس عندما يناجيها أنه يناجى أنثى وديعة ترنو اليه

---

(١) المصدر السابق ص ٣٨٦ بتصرف .
(٢) المصدر السابق ص ٣٩٨ وما بعدها .
(٣) النقاب الأزرق ص ٣٤ .
(٤) المصدر السابق ص ٥١ .
(٥) المصدر السابق ص ٥٦ .
(٦) المصدر السابق ص ٤٠ .
(٧) المصدر السابق ص ٤١ .

فى اعجاب ، ويشعر فى قرارته النفسية بسيادته فيناجيها غير هياب (١) وقد سره منها (جفولها منه كغزال شارد مفزوع) (٢) وتظل خواطر البهجة تنساب عبر ذاته كلما تذكر هدى ، فاذا توقفت بعض الشيء واستكانت نفسه لشيء من الراحة طفت على صفحة ذهنه صورة « عليه » فيزداد ضيقه كما تزداد أحاسيس كراهيته لها خصوصا عندما تذكر مشهدا حدث له معها ، وفيه (عليه تجذبه من يده وهو يسير خلفها دون أن يكون له على نفسه سلطان ، وراحت تقوده الى الخميلة وهو مسلوب الارادة ، وقعدت على مقعد من جذوع الأشجار ، وقد تهدل شعرها الذهبى على كتفيها ، ورنت اليه بعينيها الزرقاوين ، وأومأت اليه برأسها فقعد الى جوارها ، أدنت وجهها منه فأحس أنفاسها الحارة تتردد على وجهه ، ولفت ذراعيها حوله ، فأحس كأنما كبل بطوق من حديد وقربت شفتيها من شفتيه فاضطرب فى ثورة وهب من نومه مذعورا) (٣) وكان كلما استعاد هذا المشهد المنامى ترتعد فرائصه وتثور نفسه ، وما ذلك الا لأن كراهيته لها ليست الا كراهية للانقياد الى امرأة ترد فى خواطره على هذه الصورة من التبذل حتى ولو كانت هذه الخواطر ترجمة لمشهد منامى ، كما أنه مأخوذ أيضا بفكرة القوامة على المرأة مهما كانت ثقافتها ودرجة وعيها بل ان هذه الفكرة أيضا تطارده فى منامه وساعات يقظته على السواء .

ومن هنا لا نعجب اذا رأيناه فى لحظة من لحظات البهجة يتصور نفسه مع هدى فى جلسة حالمة بمذخور العطاء فى مستقبل سعيد ، ومن خلال تصوره لها يحدد معالم الزوجة التى يريدها ، وهى فى أخص خصائصها ربة البيت التى (ستكون الى جواره تمسح بيدها الرقيقة المتاعب من صدره فهى تقدر ما قد يعترضها من صعاب(٤) واذا غادرها فى جوف الليل يتخيلها تقول له :

ـ سأكون لك خير عون على تأدية عملك ، سأودعك فى سكون الليل مشرقة الوجه ، وسأنتظر أوبتك فى تشوق ورجاء ، سأقاسمك الحياة كما ينبغى أن تقاسم المرأة زوجها راضية بما تأتى به الأقدار (٥) .

وبلغت به تصوراته حدا وصل به الى أن تخيل أنه يقبلها ، فلم يسترح الى ذلك الخاطر لأن هدى (لن تسمح له أن يقبلها قبل اتمام الزواج) (٦) .

ومما زاد فى اعجابه بهدى أنه واعدها على اللقاء خارج المنزل فى جزيرة الشاى ولكنها لم تأت (لأنها ليست من فتيات اليوم اللاتى أطلق لهن الحبل على الغارب ،

---

(١) المصدر السابق ص ٤٥ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٨ .
(٣) المصدر السابق ص ٤٨ .
(٤) المصدر السابق ص ٥٨ .
(٥) المصدر السابق ص ٦٠ .
(٦) المصدر السابق والصفحة نفسها .

يذهبن حيث شئن ، ويفعلن ما يحلو لهن ، انها فتاة من أسرة ترعاها ، فليس لها أن تخرج على هواها) (١) ٠

وعندما دعاها الى السينما ذات مرة وذهب الى بيتهم رأى ليلى الصغيرة (قد ارتدت ثوبا نظيفا وصففت شعرها بعناية ، فطن الى أنها ستذهب معهما ، فلن يسمحوا له أن ينفرد بهدى قبل أن يبنى بها ، فأحس رضا يحتل جوفه وطمأنينة تسكن صدره (٢) ومن كل ذلك رأيناه يعلن على مسمع من أمه القول الفاصل فى أمر زواجه من هدى ورفضه لعلية ٠٠

ـ أريد امرأة تخدمنى لا امرأة أخدمها (٣) ٠

وبهذا القول الفصل يتحدد الموقف وتتضح النظرة الى المرأة وهى كما رأينا تستمد أصولها الرافضة من الوضع الطارىء على حياة المرأة العصرية وما اكتنفها من سفور وتبذل ٠ كما أنها تعتمد فى الجانب المقابل على أصول النظرة الاسلامية فى فهمها لطبيعة دور المرأة كزوجة وما تكفله لها من صيانة ورعاية فى حضانة الرجل وتحت قوامته ٠

على أن هذا التصور الأمثل لوضع المرأة كما يريدها « حسين » ما هو الا تعبير عن فكر الكاتب وفلسفته التى لا ترى أمن الحياة الا به وفى رحابه فاذا ضاعت هذه المعالم أو تبدلت أو كشفت الأيام عن زيف وتضليل من المرأة ، كان الضياع والتمزق، وهذا هو ما صنعه السحار فى بناء القصة ٠ فحسين يكتشف فى النهاية أن النقاب ما هو الا ستار يخفى زيف هدى وقد لجأت اليه لجذب الشباب نحوها ، لأن الرجل يحب فى المرأة تمنعها وغموضها ٠ فتتحطم حياته وتنتهى الى ضياع ، وما كان ذلك الا تعبيرا عن فقدان المثل ، وايحاء بالضياع الذى أحدثته الحياة الحديثة وسيطرت قيمها الفاسدة على مقاليد الحياة ٠

وفى « الشارع الجديد » نجد السحار مفتونا بشخصية (صفية) زوجة على فيعرضها من خلال لوحات متتابعة على نمط واحد من الايجابية الرشيدة التى تحياها فى ظل بيت كريم ٠ فهى تقف الى جوار رجلها فى الملمات وتنهض بتدبير شئون المنزل صابرة راضية ، على أن سعادتها ورضاها وعز حياتها يكمن فى استشعارها لسلطان الرجل وقوامته ، وأن سعادتها فى ظل تلك القوامة تنبع من فطرة المرأة وتكوينها فاذا ما حاولت التمرد على ما فطر فى طبعها من الاستكانة المحببة فى ظل الرجل، فقدت ذاتها ووجودها وراحت تلحف فى طلب ما تمردت عليه ، وتطلب ما نفرت منه فصفية هذه كانت تشعر بشىء من القلق يجتاح صدرها اذا غاب (على) كثيرا

---

(١) المصدر السابق ص ٧٦ ٠

(٢) المصدر السابق ص ١٥٩ ٠

(٣) المصدر السابق ص ١٠٣ ٠

في الليل· وعندما عاد ذات مرة عند الفجر ، ثارت وعزمت على الرحيل ، ورحلت بالفعل الى بيت والدها ، ولكن عمها أعادها الى بيت زوجها غاضبا وهو يقول :

ــ البنت عندنا لا تغادر بيت زوجها الا ميتة ·

وفي ليلة العودة غاب (علي) أكثر من ذي قبل ، وظلت في نافذتها قلقة ترقب عودته ، ولكن قلقها هذه المرة ليس لأنه غاب ، ولكنها كانت (قلقة خوفا من أن يعود مبكرا مدحورا أمام غضبتها ، ولو عاد قبل أوانه لضاعت هيبته ، وذابت رجولته ، وانقضت ساعات الليل دون أن يثوب ، فتبخر قلقها ، واستمرت تنتظره هادئة ، دون أن تدري لذلك سببا) (١) ·

والسحار هنا كما هو واضح يحاول أن يقيم أسس المفاضلة بين المرأة التي انطلقت في الحياة بغير حدود ، وبين المرأة التي تلزم بيت زوجها ، وتعيش السعادة في رحابه ، على ركيزة فطرية خلقت المرأة بها ، ولا تستطيع مجافاة ما فطرت عليه ، وان حاولت فقدت أخص خصائص تكوينها ·

وفي قصة (الحصاد) نجد (الهام) الشخصية الخيرية تقف على امتداد الأحداث في الخط المقابل لشخصية أختها (بثينة) · فاذا كانت بثينة قد تفرغت لكل ما هو فاسد من مظاهر الانحراف وانطلقت تعب النشوة عبا في كأس خمر ، أو على صدر عربيد في مرقص ، حريصة على اجتلاب المال واتلافه في شئون لهوها تحت ظل عربيد مقامر · فان الهام لا أثر في حياتها لشيء من ذلك · بل انها ترفض الارتباط بالجو الذي يهيىء لها بعضا من حماقة أختها · عندما تعرض عليها الزواج من حلمي نجل الباشا صاحب الأموال وتفضل عليه « بدر الدين » الفقير المكافح · وبشيء من السخرية راحت بثينة تهزأ منها مطلقة عليها لفظ خادمة · وصفا لوضعها في ظل بدر الدين فأجابت الهام :

ــ وهل يعيبني أن أخدم زوجي ؟ انه لمن دواعي سروري أن أكون له خادمة(٢) ·

وكثيرا ما كانت بثينة تردد ساخرة من أمينة هانم ومن الهام :

ــ البنت لبيتها ·

فكانت أمينه هانم ترد في حماس :

ــ هــذا حق ·· على الرجل أن يسعى وعلى الزوجة أن ترعاه وترعى بيتـــه وأولاده (٣) ·

وهكذا يربط السحار بين التحلل الخلقي وبين السفور ، كما يربط العناصر الخيرة في قصصه بالحصانة الزوجية التي تعيشها المرأة في رحاب البيت ·

---

(١) الشارع الجديد ص ٢٧ وما بعدها بتصرف ·

(٢) الحصاد ص ٩٢ ·

(٣) المصدر السابق ص ١٦ ·

واذا كان قد عرض ذلك من خلال الشخصيات العديدة التى تناولها فانه قد أفصح عن خلاصة النظرة التى يراها فى (وكان مساء) التى يصدر فيها عن تجربة ذاتية عاشها خلال رحلته الى بعض الدول العربية • وقام فيها بدور الراوى للأحداث • نجده يقول :

(يا طالما رأيت أذرعا بضة عارية وظهورا مكشوفة وأجسادا عارية لا يسترها الا قطعة من القماش فى مساحة المنديل ، ومع ذلك لم تهزنى كما هزتنى الأنامل المطلية بالمانيكور التى كانت تطل فى استحياء محبب من تحت العباءة ، ان كل مستور مرغوب) (١) •

وعن طريق توارد الخواطر التى يجيد التعبير عنها راح يحكى حوارا دار بينه وبين « فاطمة » تلك الفتاة التى كان يحبها ذات يوم فقد قالت له انها ستكون نجمة حفل المرشدات فى الأهلى وسوف تغنى لكل الناس • فأبدى استياءه ونفوره مما تريد لأنه يريدها لنفسه فقط ولا يقر شيوع الاستمتاع بمفاتن من يحب • فقالت له :

ـ روحك ليست روح فنان • فالفنان الأصيل يهب كل ما يملك من مواهب للناس • يضفى جمال روحه على الكون ، انه شعلة تحترق لتنير للبشر سبيلهم •

ـ مرحبا بالفن لو كانت رسالته أن أحترق أنا فى سبيل المجموع أما اذا كانت رسالته أن أعرض زوجتى عارية على الناس لأنها صاحبة أجمل جسم فى الوجود • فأنا أول الكافرين (٢) •

وبمثل هذا التعبير أفصح السحار عن موقفه من قضية المرأة ورؤيته للاطار الذى ينبغى أن تكون عليه ، وهى رؤية كما قلنا تستند الى أصول قوية ترجع الى القيم الاسلامية ، وان اتسمت عنده بالتقاليد ، فقد عبر عنها بما يتلاءم وطبيعة العمل الفنى الذى بلور من خلال أفكاره ورؤاه •

ثانيا : اهتمامه بالشخصية ذات المنحى الدينى :

ليس من المصادفة فى شىء أن يقيم الكاتب بناءه الفنى فى كثير من قصصه على عنصر الشخصية وأن يعتمد عليها فى بلورة الأفكار والأحداث • بل وأن يتفرغ فى البحث عن أنماط معينة من الشخصيات ويجهد نفســـه فى رسم ملامحها ومتابعة حركتها • فلابد أن يكون وراء ذلك اختيار واع ونيــة مسبقة ، تكشف عن دلالات خاصة ، وتبين معالم اتجاه محدد يصدر عنه الأديب وينفعل به ، ويوظف فنه للكشف عنه وبلورة حركته على كافة المستويات مستعينا على ذلك بما أتيح له من مواهب الابداع ووسائل التعبير وقد اختار السحار الأسلوب الفنى الذى يستريح اليه فى

---

(١) وكان مساء ص ١٣ •

(٢) المصدر السابق ص ٤٣ وما بعدها •

بناء القصة على عنصر الشخصية ، فنراه يعتمد على الأشخاص وما يصدر عنهم من أقوال وأفعال وما يدور فى خواطرهم من أفكار وتطلعات ، وما يواجه حياتهم من قضايا ومشكلات • مستغلا عرض ذلك كله فى بنائه الفنى •

وفى هذا النوع من القصص (تكون الحادثة ثانوية ولا تأتى لذاتها بل لتفسير موقف الشخصيات منها) (١) •

ولعل من أهم الظواهر التى تفسر اتجاه الكاتب فى عرضه للشخصيات القصصية اهتمامه بنوعية خاصة منها تتميز عن غيرها بالمسلك الدينى ، وتتحرك فى كل مواقفها من منطلق أخلاقى ، بل ان المحاور الرئيسية التى تنهض عليها معظم أعماله الفنية تتصل فى الأساس الأول بالحركة الخيرية للأشخاص وما يعترض هذه الحركة من مصادمات الواقع وانحرافاته • ولهذا كانت تجلية الجانب الخيرى والكشف عن ملامحه فى الشخصية محط اهتمام السحار واحدى وسائله فى التعبير عن اتجاهه •

ففى قصته الأولى (فى قافلة الزمان) وجدنا « حسن » على جانب كبير من الورع والتقوى يحفظ القرآن ويحرص على أداء الصلاة فى أوقاتها ، ويلتمس البركة فى ذكر اسم الله • فعندما بنى الطابق الأول فى بيته الجديد ، وذهب مع جمع من الرفاق يجوس خلال الغرف (يتمتم ببعض آى الذكر الحكيم فى خشوع ، ثم حان وقت صلاة المغرب فأذن أحدهم بصوت مجلجل ، واصطفوا جميعا يصلون ، فقد كان حسن يحب أن يذكر اسم الله أول ما يذكر فى البيت الجديد) (٢) و « نفيسة » كانت تعامل الخادم المعاملة نفسها التى تعامل بها غيرها من سيدات البيت وبناته ، فما كانت تأكل وحدها أبدا بل كانت تأكل وخادمها فى جفان واحدة ، كما أنها كانت لا تطيق أن يتعرض لها أحد بسوء) (٣) •

حتى فى ليالى الفرح لم ينس المتدينون دينهم ، فعندما حضرت ليلة فرح عصمت سعد الجميع ولم يؤرقهم الا البحث عن مطرب صالح يقيم أفراح الليلة • لكن الصالحين أصبحوا عملة نادرة فما من مطرب الا ويتعاطى الخمر ، وان كان عازفا عن ذلك فأفراد فرقته لابد وأن تقدم اليهم الخمور ، وهم لن يقوموا بتقديم الخمور حتى لو لم يتم الزفاف • وظلوا فى أخذ ورد بعضهم يشير بعبد اللطيف البنا فهو مطرب صالح يغنى وفى يده المسبحة فابتهجوا ولكن حسن قال فى هدوء :

ــ ولكن رجاله لن يعزفوا ما لم نقدم لهم خمرا •

وقال مختــار :

ــ ما رأيكم فى منيرة المهدية ؟

فقال حسن فى سخرية :

---

(١) همزات الشياطين • التذييل الملحق ص ٢١٢ •

(٢) فى قافلة الزمان ص ٢٢٢ •

(٣) المصدر السابق ص ٢٢٧ •

ـ أتغنى للرجال ؟ ومن يغنى للسيدات ؟ سيد شطا ٠

وظلوا فى حيرتهم حتى اقترح أحدهم احضار الشيخ على محمود لاحياء الليلة ٠ فبان الرضا فى وجه حسن وقال :

ـ أى والله انه رجل صالح ما أحلى صوته وهو يقرأ المولد (١) ٠ وهم الى جانب حرصهم على التزام السلوك الاسلامى فيما يفعلون لا يرضون عن المنكر بل ويثورون عليه وقد تتعدى ثورتهم عدم الرضا عنه الى محاولة ازالته بالفعل مهما كانت نتائجه ٠ كما فعل « راتب » الذى جاء وقد ظهر فى وجهه ضيق وغضب فسأله محمود :

ـ ما بك ؟

ـ هل رأيت الصـــورة الخليعة التى ألصقتها دار السينما فى ميدان باب الشعرية ؟

ـ لا ٠٠

ـ وما بها ؟

ـ ما بها ٠٠ امرأة عارية يندى جبين الفضيلة خجلا من رؤيتها ٠

ـ وما الذى يغضبك ؟

ـ يغضبنى هذه الدعارة السافرة ، لو كان فى البلد حكومة لما جرؤت دار سينما على لصق مثل هذه الصورة الفاجرة ٠

ـ وما تستطيع أن تفعل ؟

ـ سأمزق هذه الصورة ٠

ـ هون عليك ولا تحرق دمك ٠

ـ لا ٠٠ الفضيلة تدعونى ٠ وسألبى النداء وليكن ما يكون (٢) ٠

وقد كان مصطفى أقل منه ثورة ٠ فقد رأى صورة (راشيل) شبه عارية فى معرض للصور وقد تبدى من جسمها ما يثير الفتنة ويلهب الغرائز ٠ فابتعد عنهـا منكرا هذا التبذل ٠

وفى « الشارع الجديد » رأينا محور الحركة الخيرية ينطلق فى مساراته المختلفة على لسان بعض الشخصيات وأفعالهم بما يتواءم مع الروح الاسلامية ولا يجافيها فى الأخلاق والسلوك والعقيدة ولا يأتى ذلك عفو الخاطر وانما يؤسس له تصور المؤلف للشخصية ورسمه لملامحها فيونس رجل كريم سخى ، لا يبخل بماله على أحد حتى لو كان مقامرا فاسدا ينفق ما يصل اليه من بر فى ملذاته وسهراته ٠

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣٧ بتصرف ٠

(٢) المصدر السابق ص ٢٦٨ ٠

ولكن يونس يواصل بره اجتهادا منه ٠ انه ربما يكون في الانفاق عملية صلاح حاله واعتدال معوجه ٠

وهو في ذلك متأثر بما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن ٠ فقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

قال رجل لأتصدقن الليلة بصدقة ٠ فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية ـ قال اللهم لك الحمد على زانية لأ تصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد غني فأصبحوا يتحدثون ، تصدق الليلة على غني ٠ قال اللهم لك الحمد على غني لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق فأصبحوا يتحدثون تصدق على سارق ٠ فقال اللهم لك الحمد على زانية وعلى غني وعلى سارق فأتى فقيل له أما صدقتك فقد قبلت أما الزانية فلعلها تستعف بها عن زناها ، ولعل الغني يعتبر فينفق مما أعطاه الله ولعل السارق يستعف بها عن سرقته (١) ٠

ولا شك أن يونس قد تأثر بهذا المعنى في مسلكه مع العصاة ٠ كما أنه لا يحب اساءة الظن بالناس فذلك حرام قال ذلك عندما عاد يوما الى بيته ومعه بعض البرتقال، ولأن الجود في طبعه ناول منه اثنتين للفقيرة (حليمة) فغارت زوجته وقالت :

ـ انها امرأة ناعمة تتظاهر ببيع الحلوى ولا هم لها الا اصطياد الرجال ٠

ـ حرام عليك ٠٠ حليمة امرأة مستكينة تسعى على قوتها ولو لم تكن شريفة ما قبلت عيشة الضنك التي تحياها ٠

ـ لابد أن تدافع عنها ٠٠ انهـــا سحرتك وما أيسر أن تسلب الفاجرة عقول الرجال ٠

ـ عندنا أولاد ٠٠ حرام أن نتهم الناس بالظن (٢) ٠

أما « علي » فقد أبرز السحار ملامحه واهتماماته الشخصية بما يتواءم مع حركته وفكره فنجده أكثر شخصيات القصة ايجابية ووعيا بالقيم الدينية ٠ فقد كان (مغرما بقراءة أسفار التاريخ ، فكان يقتني كتب السيرة وتراجم أبطال المسلمين يقرؤها في شغف ، وينفعل بها ويحاول أن يتمثل بالسلف الصالح ، فكان يثور على الظلم وينتصر للحق ويدافع عنه وان ركب في ذلك المصاعب والأهوال) (٣) وهو متعلق أشد التعلق بالمثل الأعلى في رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان اذا جلس ليكتب قفزت الى ذهنه

---

(١) رواه الشيخان ٠

انظر صحيح مسلم شرح النووي ج ٧ ص ١١٠ ، منشورات المكتبة المصرية ومطبعتها ـ القاهرة ٠ وشرح صحيح البخاري للشيخ زروق الفاسي تحقيق موسى محمد علي وغرة علي عطيه ٠٠ ج ٣ ص ٣٧٣ منشورات المكتبة العصرية ببيروت ٠ صيدا ٠

(٢) الشارع الجديد ص ٣٠ وما بعدها بتصرف يسير ٠

(٣) المصدر السابق ص ٢١ ٠

رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى المقوقس ، فكان يكتب رسائله على نمطها موجزة قوية) (١) وكما كان على هذه الدرجة من الوعي بالدين والتأسي بالنبي فقد أخذ على عاتقه الوقوف في وجه الظلم الذى يصبه الانجليز صبا على المصريين ، انه يضيق ذرعا بأفعالهم ، ولا يتوانى عن مواجهتهم مهما كلفه ذلك من تضحيات • وتجلى ذلك في ثورته على الشركة الانجليزية التى كانت تستغل التجار وتفرض عليهم السلع فرضا ، فكتب الى اللورد كرومر ولما أبطأ عليه راسل وزير الخارجية البريطانيه ، وكتب رسالة مليئة بالأحاديث النبوية والآيات القرآنية (وعاد الى القهوة يحس أن الروح السارية فى جسمه روح صحابى من صحابة رسول الله الذين ثاروا فى وجه الطغيان دون أن يهابوا السلطان وقد عاشوا كراما لا يخشون فى الحق لومة لائم) (٢) •

ولأنه أيضا على هذه الدرجة من الايمان • ليس أنانيا لا يرضى رفع الظلم عنه دون سواه •

فعندما أراد الانجليز تطييب خاطره بعدم فرض السلع عليه • رفض فى اصرار سائلا عن مصير باقى التجار • فقال الضابط الانجليزى :

ـ مالك ولغيرك • وقد نلت مبتغاك •

فقال على فى اصرار :

ـ لا أرتضى هذا الحال وسأعاود الكتابة الى وزير الخارجية ، وطلب من الضابط أن يسرى القرار على سائر التجار (٣) •

ان عليا هنا تسرى فى دمه روح الخير والدين ، فيرى نفسه مسئولا عن كل من حوله ، يقوم اعوجاجهم بالحسنى فاذا لم يجد منهم قابلية واستجابة لجأ الى الشدة • فقد دفعته نخوته الاسلامية ذات مرة الى مطالبة زوج فوقية احدى جاراته ـ بالرجوع الى البيت وعاتبه لأنه خان الأمانة التى حمله الله اياها • ممثلة فى رعاية الزوجة والأبناء • ولما لم يستجب للنصح والعتاب قاضاه أمام المحكمة من ماله الخاص (٤) •

ويتضح مسلك على بصورة أكثر وضوحا وتأكيدا على نزوعه الدينى فى رفضه التعامل بالربا • مع شدة احتياجه للمال وقسوة الحياة ومطالب الأولاد ، فلا حاجة له فيه ما دام مشروطا بالربا حتى لو أدى الأمر الى حرمان ابنه من دخول الكلية الحربية التى يحلم بها فقد جلس « على » مهموما فى القهوة يجتر ذكريات نخوته حتى فاجأه (استاورو) الثرى اليونانى وكان صديقا له فراح يلح عليه فى معرفة سبب

---

(١) المصدر السابق ص ٣٢ •
(٢) المصدر السابق ص ٣٤ •
(٣) المصدر السابق ص ٣٧ وما بعدها •
(٤) المصدر السابق ص ٦٦ •

حزنه · وما زال يسأل فى الحاف حتى أخبره على وقص عليه حاجته · فقال «استاورو» وهو يمط شفته السفلى :

ـ هـذا أمر يسـير ·

فرنا اليه على فى بلاهة ثم قال :

ـ ليس باليسير بالنسبة لى ·

ـ بل أيسر مما تظن · اننى أقرضه (يعنى خالد بن على) ما يريد ·

فقال على فى فزع :

ـ لا · لا · يا استاورو ·

ـ لمـاذا ·· ؟

ـ لأننى لا أحب أن أربى أولادى بالربا (١) ·

وظل الرجلان يتحاوران حتى أقرضه اليونانى ما طلب دون أن يكون ذلك القرض مشروطا بالربا ·

وحتى تكتمل ملامح الصورة الايمانية فى رسمه لملامح الشخصية ذات المنزع الدينى لابد أن يلتقى المسلك الخيرى بالعقيدة الصحيحة وقد تبدى ذلك واضحا فى الاذعان والتسليم لقضاء الله والايمان بالمقدر والمكتوب اذا ماواجهتهم الشـدائد فى حياتهم ·

فقد ضاقت الدنيا فى وجه « على » عندما أفلس فى تجارته ولم يكن يملك من المال ما يستطيع به سداد الديون الكثيرة المتراكمة عليه وفى الوقت نفسه لا يحب أن يأكل أموال الناس بالباطل أو يقال عنه مثل ذلك ، فقرر أن يبيع كل ما بقى فى المحل ولو بخسارة حتى يسدد ديونه ، فوافقت « صفية » وقالت فى ثبات :

ـ افعل ·

فنظر اليها فى تردد وقال :

ـ والأولاد · لو كان الأمر يتعلق بى لهان الخطب ·

فقالت فى ايمان :

ـ ربنا موجود · خلق رزقهم قبل أن يخلقهم (٢) ·

والمنطلق الذى يحدد مسار هذا المسلك ينبع أساسا من عقيدة الايمان بالقدر ومظهرها الرضا بما قسم الله وقدر دون يأس أو قنوط ، وقد كان على كما كانت صفية على درجة عالية من الايمان بهذه العقيدة · فكلما واجه حياتهما شىء من الشدائد أذعنا

---

(١) المصدر السابق ص ٢١٤ ·

(٢) المصدر السابق ص ٧٢ ·

للمكتوب ، ورضيا بما قسم الله عن قناعة بأن ذلك الضيق وشيك الزوال وأن الغاية لا تبرر الوسيلة مهما كانت تلك الوسيلة ·

ويحتشد قلم السحار بكل ما يملك من وسائل التعبير في مواقف الابتلاء لابراز حقيقة الحياة وأنها ليست الا ملهاة خالدة ، ما قدر فيها سوف يكون ، مهما دفعنا اليأس الى المقاومة فى أشد لحظات الجزع ، وأن هذا اليأس القاتل الذى يغلف حياة الانسان بالضباب فى لحظة ما · ما هو الا ابتلاء يطهر الله به عباده من أدران المادية لتصفو نفوسهم ·

فهذه صفية تحس ألما ينتشر فى حياتها نظرا لما تكابده من أحزان فالرزق ضيق ومطالب الأولاد كثيرة ، وما يعود به زوجها لا يكفي شيئا لولا أنها تأخذ حياتها بالحكمة والنظام ، فما بال هذا الوافد الجديد الذي يوشك أن ينزل الى الساحة يطل علينا بعبء جديد ؟ أما كفى ما يحملون من أعباء ؟ وخطر لها أن تتخلص منه حتى لا يمثل عبئا جديدا يضاف الى رصيد الأعباء الجسام · وحاولت دون جدوى ·

ويستغل السحار خصوبة الموقف فتنتقل كلماته عبر جسور المأساة ، مصورة أبعادها ، ومعبرة فى الوقت ذاته عن لحظة الصحو التى تنتهى اليها مواقف المؤمنين· فنجد صفية بعد أن استيقظ ضمير الايمان فى نفسها ينتابها شعور بالألم لأنها عندما دحرها اليأس كانت مستسلمة لقوة شيطانية حجبت عنها صوت الله · وعندما أفاقت من غفلتها أيقنت بشاعة ما كانت مقبلة عليه وهو غضب الله (وهى التى تخشى غضبه فارتجفت وزاد فى خوفها ذلك السكون المسيطر فى الليل البهيم ، وذلك النجم البادى فى رقعة السماء من شباك غرفتها ، كانت تحس أنه يرنو اليها فى عتاب ، واستولى الندم على مشاعرها ، ورأت أنها لا تملك الا أن تستغفر الله مما أقدمت عليه ، فرفعت رأسها وتطلعت من خلال النافذة الى السماء فى رجاء ، ثم غمغمت فى حرارة وصدق :

ـ سامحنى يا رب (١) ·

ولم يكن هـذا الموقف عارضا فى حياتها بل استمرت صورتها بكل ملامحها السلوكية والعقدية تسير على هذا المنهج دون انحراف أو تذبذب ، كما أن استسلامها للقدر وما يأتى به لم يكن دافعا الى التواكل وترك العمل اعتمادا على أن الرزق مقسوم، بل راحت (تكافح بكل ما فيها من عزم لتسعد من فى البيت ، وان كفاحها الصادق واستسلامها المؤمن ، وصبرها الرزين يحرك كوامن شجن غنى (٢) ·

واذا كانت حياتها على هذه الدرجة من الايمان والوعى به والسير على مقتضاه ، فانها لا ترضى لغيرها أن يبتعد عن ساحته أو ارتكاب ما يخالف نهجه ، ولهذا عنفت ولدها (زكريا) عندما فاجأها بريالات من فضة عثر عليها بجوار الجامع :

---

(١) المصدر السابق ص ٧٧ وما بعدها ·

(٢) المصدر السابق ص ٨٢ ·

فرغم أنها فقيرة محرومة وفي أشد الحاجة الى ما يرد الرمق لكنها لا تقبل الحرام ولا ترضى السرقة مسلكا لولدها ·· فقد خطر لها أن المال الذى جاء به اليها سرقة ، واسودت الدنيا في وجهها ، وصاحت في حدة وغضب :

ــ قل من أين جئت به ؟

فقال زكريا وقد تعلقت عيناه بوجهها العابس :

ــ بجوار الجامع ·

فلطمته في حنق ، وخيل اليها أن أملا من آمالها ينهار أمام عينيها وصاحت صيحة زلزلت زكريا :

ــ قل الصدق خير لك ·

وظلت تحاوره وتقسو عليه حتى تدخل « على » شفقة على ابنه وهدأ واستقر بعد أن أيقن صدق ولده ·

ورغم الاحساس بالصدق البرىء ، الذى أحساه تجاه الابن فقد أبت صفية أن تنتفع بشىء منه ، وأصرت على تسليمه للقسم (١) وهذه مبالغة منها فى اتخاذ الحيطة لنفسها من الانتفاع بشىء فيه شبهة ·

ومما يرشح لهذه المبالغة ويؤكدها أن زكريا هذا كما صوره السحار غلام منطو على نفسه ، لا يستريح لجلبة الأولاد ولا اللعب معهم ، وانما يستريح للصلاة والمحافظة عليها وسماع الدرس الذى يلقيه الشيخ فى المسجد (٢) · فلا ينتظر منه وهو على هذه السمة أن يكون سارقا ، وهذا المسلك من صفية تجاه ولدها ان دل على شىء فانما يدل على وعيها الكامل بالأخلاق الاسلامية والتزامها بها على الرغم من قسوة الحياة وقلة الرزق ، ولم يكن « على زوجها » أقل منها فى هذا الشأن · فكلما هبت رياح اليأس تحاول أن تعصف به ردته طبيعته الهادئة الى الايمان (لأنه كان عميق الايمان بالقدر يترك زمام أموره دون أن يجهد نفسه في التفكير في توجيهها ، وكان متفائلا دائما يعيش على أمل أن الغد أفضل من اليوم) (٣) ·

ويبدو أن قضية الايمان بالقدر قد استقطبت جهد الكاتب فى هذه القصة ، فاستغرق فى ابراز المواقف منه وتجلية المسالك تجاهه صادرا فى تشكيله الفنى عن ايمان به وانحياز الى جانب الشخصيات التى تصدر فى حركتها وعقيدتها عما يلائم مقتضيات الايمان به والاستسلام له · ومبرزا فى الوقت نفسه الموقف المقابل وما يمثله من تمرد الحادى مشيرا بذلك الى ما طرأ على التفكير الحديث من نزعات مغرقة فى غرورها وخيلائها الى حد السفه والطيش ·

---

(١) المصدر السابق ص ٨٤ ·

(٢) المصدر السابق ص ٨٨ ·

(٣) المصدر السابق ص ١٢٣ ·

فاذا كان علي وصفية يمثلان جيل الآباء وما يحمل من موروثات الأصالة فى الفكر والاعتقاد • فان « سعيد » و « يحيى » و « خالد » و « زكريا » و « جلال » يمثلون جيل الأبناء وما امتلأت به حيـاتهم من فلسفات ونزعات الحادية واباحية • تأثر بعضهم بها فى جانب المعتقد الدينى كسعيد وبعضهم أثرت فيه النزعة الاباحية كيحيى، وظل زكريا امتدادا لقيم الأصالة التي عاشها جيل الآباء ، وكان جلال في هذه المجموعة يمثل موقفا فذا لفاقدى الهوية الذى لا يعرفون أين الطريق وسط الضباب الذى غلف الحياة الحديثة •

وهم جميعا ـ فيما عدا (سعيد) ـ على الرغم من اختلاف نزعاتهم ومشاربهم مؤمنون بالقدر ومستسلمون لما يأتي من عند الله أما سعيد فقد غالى فى اثبات الثقة بالنفس وامتلأ زهوا بارادتها التي تعلو فوق كل ارادة •

فعندما مرض زكريا وحبس صوته حزنت الأسرة لمرضه لأنه كان معقد آمالهم خصوصا وأن المرض الذى أصيب به يقف حائلا دون أداء وظيفته كمحام ، ومع فداحة الخسارة رأينا موقف الأسرة يتبلور فى تيارين متقابلين :

تيار ايماني : استسلم في ايمان لما أراد الله وقدر ، قد مثلته صفية بقولها :

ربنا موجود • وقالت أيضا فى ايمان :

ـ الله هو الفعال (١) •

وتيار آخر : يمثله سعيد الذى (خطر له أن يقول لأخيه ان أمر شفائه بيده اذا جمع عزيمته وآزرها فى قتال المرض) (٢) •

وقد تبلور موقفه بصورة واضحة من خلال الحوار الذي دار بينه وبين اخوته • قال لجلال :

ـ اذا أردت أن تكون شيئا فما من قوة على الأرض تمنعك من أن تكون ذلك الشيء اذا عزمت •

فقال جلال فى استخفاف :

ـ أنت باشا •

ولم يقبل سعيد هذه السخرية فقال فى ثقة :

ـ سأصنع نفسى بنفسى • كل انسان من صنع يديه •

وعندما تناهى الحوار الى الأم قالت :

ـ ستكون باشا لو ساعدك الحظ كما ساعد بهاء باشا •

---

(١) المصدر السابق ص ٢١٧ •

(٢) المصدر السابق ص ٢١٦ •

فقال سعيد فى اعتداد :

- لا دخل للحظ فى هذا . عمل زوج خالتى على أن يكون باشا فاصبح باشا . وسأعمل وأحقق ما أريد (١) .

وفى لوحة حوارية كاملة عرض السحار موقف التيارين بصورة أكثر وضوحا من ذى قبل . ومنها :

قال سعيد فى حماسة :

- نجحت هذا العام وسأنجح العام القادم والعام الذى يليه وسأعمل حتى أصبح طبيبا مشهورا .

قال خالد :

- عليك أن تعمل وأن تترك المستقبل ، فالمستقبل بيد الله .

فقال سعيد :

- ايمانى بالله لا يحد . ولكنى أقرر أن الانسان يستطيع أن يصنع مستقبله بيده ، وسأصنع مستقبلى كما أشتهى .

فقال خالد معترضا :

- على المرء أن يسعى وليس عليه ادراك النجاح .

فقال سعيد ساخرا :

- عدنا الى الأمثال العتيقة ، بل على المرء أن يسعى وعليه ادراك النجاح ، سأنجح وانى أتحدى أية قوة تقف فى سبيلى .

ويمضى الحوار بينهما ساخنا على أشده . وكل يدلى برأيه ويتحمس له . حتى قال خالد فى ثقة :

- أومن بأن لكل انسان طريقا مرسوما فى الحياة لا يحيد عنه .

فقال سعيد فى استخفاف :

- فلماذا نتعب أنفسنا اذن . لماذا نكافح . لماذا نجاهد ؟

فقال خالد : لنكون أهلا للسير فى ذلك الطريق .. ولكن (سعيد) لم يلق بالا لقوله فقطع عليه خالد جسور استخفافه بقوله الفاصل :

- ليس لك يد فى مجيئك الى الحياة ، وليس لك يد فيما ينتظرك فيها (٢) .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠١ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٩٦ وما بعدها بتصرف يسير .

وأمام هذا الالحاح من سعيد وتماديه في غروره بنفسه وثقته التي لا تحد فيها ، وتعطيل كل ارادة غير ارادتها واصل السحار عرضه للموقف جاعلا نهاية حياته مأساة . حاكما عليه بالفشل ايحاء منه بالجزاء الأليم الذى سيصير اليه كل من حاد عن طريق الايمان . فقد رسب سعيد في دراسته وماتت طفلته ومرضت زوجته وتعرض لامتحانات رهيبة ولكنه لم يكفر بمذهبه (وشاءت ارادة الله أن يكون يوم نصره يوم هزيمته ، فقد ماتت زوجته (روحية) ونقوضت أمام عينيه قصور الأماني التي شيدها بغروره على الأوهام ، ذهبت روحية وتركته يسير وحده في الطريق التي أقفرت من الحب وذوت على جانبيها الآمال ، سيسير منخوب النفس مزعزع الايمان ، حزين الروح كسير الفؤاد ، كالأفاق يضرب في الأرض لا يستمر على حال) (١) .

وهكذا نجد السحار يكشف من خلال تشكيله الفني في القصة عن فلسفة خاصة تحدد انتماءه للنزعة الايمانية وانتصاره للشخصيات التي تمثلها ، وان كانت رؤيته هنا قد تكشفت على لسان أبطاله . فانه قد أعلن عنها اعلانا على لسان الراوى في قصة (وكان مساء) ولم يكن الراوى سوى نفسه وان استخدم شخصية (جمال عبد السلام) في بعض الأحيان للتعبير عن أفكاره وآرائه فنجده يقول (علمتني تجاربي السابقة أنني لا أرسم خط حياتي ، فأنا مسوق في طريق مرسوم لى ، كلما حاولت أن أعرج منه الى طريق آخر أرغمتني المقادير على العودة اليه) (٢) وهو لا يتوقف عن العمل لأن كل شيء مقدر (انني أعمل ما وسعني الجهد ، ولكنني لا أحاول أن ألوى عنق القدر أو أكون (دون كيشوت) آخر يحارب طواحين الهواء) (٣) .

وعندما قبل السفر كما طلب منه على غير رغبة فيه كان يؤمن (أن هناك قوة عليا تسيطر على أقدارنا ، وهي التي فتحت لى هذا الباب ، ولو أنفقت العمر جميعا في تدبير أمر فتحه ما انفتح وان ايماني بهذه القوة وثقتي في حكمة تدبيرها ، وتسليمي كل أمرى اليها ، هو سبب ما أنعم به من راحة نفس وعلو أنف وخلو بال) (٤) .

ومن هذا الايمان العظيم وبسببه راح يعلى قدر الشخصيات التي سارت على هديه ويرتب الجزاء في حياتها عليه ويرسم ملامحها النفسية والخلقية بما يحقق لها الايجابية والمرونة ويجعلها أبرز المحاور وأكثرها عطاء في أدبه .

ثالثا : عرضه النقدى لصور التحلل الخلقي والانحراف عن الدين .

فقد تمكن ببصيرته النافذة من رصد حركة الانحراف والتحلل داخل البناء الاجتماعي للبيئة التي يتناولها في أى عمل من أعماله على اختلاف البيئات ومستويات

---

(١) المصدر السابق ص ٥٤٣ .

(٢) وكان مساء ص ٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٩ .

(٤) المصدر السابق ص ١٠ .

الطبقة الاجتماعية ، وخرج من معاناته للواقع بحشد من الشخصيات تمثل أنماطا من السلوك ، تفصح رغم تعددها عن الأمراض والعلل التى تنخر كالسوس فى جسم المجتمع ، فالشخصية التى يستقيم لها المسلك الانحرافى · شخصية نمطية تمثل شريحة من شرائح المجتمع أكثر من تمثيلها لذاتها ، والكاتب بتناوله لذلك انما يضع أيدينا على موطن الداء ، كما أنه يحدد فى اطار الرؤية الاسلامية النابعة من أعماقه طريق الخلاص مستعينا على احداث الأثر المطلوب فى نفس المتلقى بوسائله الفنية فى العرض والصياغة والتصوير وغيرها مما تستأثر به القصة دون سائر الفنون ·

ومن صور الانحراف التى رصدها السحار تلك االمعتقدات الخاصة التى رسخت فى اذهان بعض الناس مما يتصل بالأولياء والتماس البركة فى ساحاتهم ، وهى معتقدات تغلغلت فى صميم الوجدان المصرى متأثرة بمواريث التخلف ، وتبدت واضحة فى عصور الضعف نتيجة للبعد عن الدين الصحيح كحركة دافعة وقوة ايجابية راشدة ، والكاتب وان كان يسجل حالة ويستعرض موقفا الا انه فى الوقت ذاته يستخدم من التعبيرات ما يوحى بعدم ارتياحه ويشى بنفوره من تلك الحالة أو ذلك الموقف وقد نلمس عدم الارتياح أو النفور من تعقيب ساخر أو كلمة موحية ·

ومن صور العرض والتسجيل التى أبرزها فى هذا المجال · ما حكاه عن « أمينة » وهى تضع حملها الأول فى شىء من العسر شديد ، حتى خشى على حياتها جميع من فى الدار وبدا فى وجه أمها الأسى ، وفجاة خطر لها أن تذهب الى المسجد (وما انقضت دقائق حتى عادت أكثر هدوءا وأمنا ، ودخلت على أمينة وقد انبسطت أساريرها ، وأخرجت مفتاحا كبيرا من طيات ثيابها ووضعته تحت رأس ابنتها ورنت اليها فى حنان ، وقالت لها فى ثقة واطمئنان ·

ـ اهدئى واطمئنى فقد جئتك بمفتاح الفرج ·

لقد جاءتها بمفتاح المسجد القريب من الدار (١) ·

وبعد فترة قصيرة وضعت آمنة طفلها ، فانقشع الخوف وحل السرور فى الدار ·

واذا كانت هذه الأم قد أحضرت مفتاح البركة من المسجد فوضعت الأبنة طفلها وجاء الفرج · فان سكينة مريضة ، ولا شفاء لها عند زكية الا فى الماء المبارك · من بئر المسجد القريب ولهذا فقد انطلقت وبصحبتها الخادم الى مكان الماء وملأت الأبريق وقفلت عائدة الى الدار ، وحملت أختها ، ودخلت بها الحمام لتغسل لها جسمها بماء البئر المبارك ، ومرت أيام ، وانقشعت الحمى وبرئت سكينة (٢) ·

واذا كانت النتيجة فى الحالتين تحقق الفعل بما يؤكد المعتقد فقد وضعت أمينة بعد احضار المفتاح ، وشفيت سكينة بعد غسل جسدها بالماء المبارك · فلا يعنى ذلك

---

(١) فى قافلة الزمان ص ٢٣ ·

(٢) المصدر السابق ص ٣٦ ·

ارتياح السحار للمعتقد ومباركته لما فعلت الأم وزكية ، وقد يتضح موقفه بصورة أكثر دلالة وأعمق أثرا فى سخريته اللاذعة وتهكمه المرير من ذهاب النساء بأطفالهن الى ساحات الأولياء التماسا للشفاء والبراءة من ، الأمراض ، نجد ذلك فى قوله حاكيا (فتح باب الدار فى عماية الصبح وخرج ثلاث خادمات يحملن ثلاثة أطفال وما بلغن الشارع الرئيسى حتى افترقن فما كن ذاهبات الى ضريح واحد ، فان الأطفال لا يشكون من مرض واحد ، فلكل طفل مرضه ، وان المشايخ لا يشفون أى مرض كان . فلكل شيخ مرض يشفيه ، لقد عرفوا التخصص قبل أن يعرفه العلم الحديث .

فسيدى البيدق يشفى الصداع،ويزوره المرضى بعد صلاة العصر،فسره الباتع يتجلى بين العصر والمغرب ، وأولاد عنان يشفون المرضى المهازيل ، وسيدى الشعراوى مرضى النفس والجسد ، ولابد من زيارة ضريحه مرتين فى اليوم ، فى الفجر وعند الغروب . أما السـيدة نفسـية فيزورها مرضى العيـون ، وليس لها وقت محـدد للزيارة ، وسيدى الجلشانى تعلم أمينه أنه متخصص فى مرض الغيرة ، ولهذا فقد أرسلت ابنها مع الخادم لتصل اليه فى وقت آذان العصر ، فهذا موعد عمله وأنه كأولئك الأطباء الذين يحترمون المواعيد) (١) .

وبهذا العرض الساخر للصورة التسجيلية التى عليهـا الواقع الاجتماعى فى بعض سلبياته ، وما تمثله من خلل فى المعتقد الدينى ، أبرز السحار موقفه من ذلك الوهم الذى عشش فى أفئدة الناس حتى تحول الى عقيدة جعلتهم يلتمسون الأشياء عند من لا يملكون لانفسهم شيئا فضلا عن غيرهم .

وقد تتبع السحار هذا المسلك وعرضه بأسلوبه الساخر على امتداد القصة فرأبناه يكشف بسخريته المريرة مظاهر السخف والخرافة التى تحولت الى عقيدة فى أذهان الناس فاستسلموا لها مأخوذين بأم أحمد زنوبة التى كان لها عفريتتان (٢) احدهما شابة والأخرى فى سن الكهول ، وكيف تستعين بهما فى شفاء أدواء النفوس ، وزكية المريضة استراحت أمها بعض الشىء عندما تناهى الى مسمعها همس سرى بين النسوة (أن جسدها لم يعد خالصـا لها ، فقد نامت حزينة فشاركها فى جسـمها العفاريت) (٣) وهؤلاء العفاريت يمكن ترضيهم باقامة الزار كما أشارت الشيخة الى غير ذلك مما عرض الكاتب وصور مستغرقا فى التفصيلات الدقيقة التى صاحبت عمل الزار وما شاع فى الجو من رضـا وسكينة فقد تشفى زكية ويرضى أولاد الحلال « العفاريت » وكيف أن الشيخة عندما رأت أن الصيد سهل عملت على ابتزازه وراحت تطلب منهم احضار ما رغب الأسـياد فيه وكان شـيئا كثيرا ، فهذا خروف أسـود « غطيس » فى جبهته هلال أبيض ، وهذا ديك رومى أبيض به نقط حمراء ، وهذا

---

(١) فى قافلة الزمان ص ٥٨ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ص ١٥٧ .

(٣) المصدر السابق ص ١٣١ وما بعدها .

عجل أحمر قرب ذيله شامة بيضاء وأخذت زكية تقص رؤياها ، والشيخة متهللة الأسارير فان ما رأته زكية كفيل باقامة زار عظيم يستمر ثلاثة أيام بلياليها •) (١) •

واذا كان المنهج التسجيلى الذى اختاره السحار أسلوبا للكتابة فى هذه القصة هادفا من ورائه الى عرض الحركة الاجتماعية ورصد التطورات الفكرية والسلوكية التى طرأت على حياة المجتمع ، لا يعبر صراحة عن موقفه من بعض مظاهر الفساد فيه الا أننا نلمس دلائل هذا الموقف فى اهتمامه بابراز جوانب الفساد والضحالة فى التفكير الاجتماعى الذى كانت عليه الطبقة الوسطى وما يسير فى فلكها من الفئات الشعبية ، كما نلمس دلائل موقفه من طريقة العرض بالأسلوب الساخر الذى اعتمد عليه كثيرا فى بلورة الصورة الاجتماعية وقد اتضح ذلك من خلال عرضه لحالات الاعتقاد فى الأولياء والتماس البركة والشفاء عندهم وعند غيرهم من أسيادنا العفاريت ووسطائهم من المشايخ ، ومما يؤكد موقفه الرافض لهذا المسلك أو ذاك ما نجده مبثوثا فى قصة حياته عندما عرض لذكر زيارته للسيد البدوى فى طنطا ، فقد قال (رأيت أناسا يسجدون ليقبلوا العتبات والرخام ، وأناسا يتمسحون بالحديد الذى حول المقام ، ولا يكتفون بالتمسح بل يقبلونه فى ايمان عميق ، ويطوفون بالمقام طوافهم بالكعبة ، ويقفون عند حفرية من الحفريات فى خشوع شديد ، انهم أمام قدم النبى وقد تناقل هذا الزعم من أيام الفاطميين ، كانت وثنيات تمارس على مرأى ومسمع من وزارة الأوقاف ورجال الدين ، ولو طاوعت نفسى لأخذت أضرب ذات اليمين وذات الشمال فقد بلغ بى الضيق غايته ، فما كنت أراه كان بعيدا عن الدين النقى البسيط الذى جاء به ابن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ••

وارتفعت أصوات تسأل السيد البدوى الشفاء وقضاء الحاجات فاذا بالدين الذى جاء ليقضى على الوسائط بين الله والناس جاء معتنقوه بشفعاء بينهم وبين ربهم) (٢) •

ومن مظاهر معالجة السحار لجوانب التحلل والانحراف فى البنيان الاجتماعى ما تناوله من رصد للحركة السلبية التى تصدر عنها الشخصيات المنحرفة من الناحية السلوكية ، وهذه الشخصيات النمطية تمثل محورا رئيسيا فى التشكيل الفنى للقصة يضعها فى مقابل الشخصيات ذات الطبيعة الخيرة • وعن طريق المقابلة بين المحورين فى الفعل والسلوك والمعتقد والخاتمة يطلعنا على الملامح الخاصة والأبعاد السلوكية التى تتلاءم مع طبيعة الشخصية وانتمائها • مستعينا على ذلك بابراز الملامح النفسية والجسمية •

فعلى مستوى الجانب الانحرافى الذى تناوله من خلال بعض شخصيات قصة « الحصاد » نجده يقدم لنا الشخصية فى تصرفاتها وسلوكها من خلال نظرة انتقادية لملامح المجتمع المادى الذى فقد القدرة على الحركة الحيوية لأنه أدار ظهره لقوة الدعم

(١) المصدر السابق ص ١٣٥ •

(٢) هذه حياتي ص ٢٨٢ •

الروحية النابعة من قيم الدين وتعاليمه ، فصدرت الشخصية فيه عن رغبتها الخاصة ونزوتها الطارئة ومطلبها في اللهو والعبث ، وعلى هذا الطريق عرفنا « بثينة » ذات الجمال الأنثوى الصارخ الذى وظفته فى خدمة نزواتها وتحقيق رغبتها فى الغنى والثراء • فقد كانت أناقتها مجلوبة من باريس • الثوب الأزرق الجميل الذى كان يكشف عن الأخدود الغائر بين ثدييها ، والقرط الماسى الطويل المتدلى من أذنيها والعقد المتلألىء حول عنقها يجذب البصر الى الصدر العارى والأسورة العريضة الملفوفة حول المعصم تبدو كأنما صيغت من لجة تترقرق ، أما العطر الفواح فكأنما كان بخورا ساحرا ينشر غيبوبة منتشية) (١) •

وكانت ترى أن الحصول على المال هو غاية النجاح (٢) وعندما اعترضت عليها الهام فى ذلك معلنة أن السعادة فى الكفاح والسعى • قالت فى استخفاف :

ـ هذه فلسفة المحرومين ، ماذا تفعلين بالمال الذى تحصلين عليه بالعرق والجهد والصبر والحرمان بعد أن تنقضى أيام الشباب ؟

لماذا الجرى والتعب والشقاء اذا كان ما نجرى ونتعب ونشقى من أجله يمكن الحصول عليه دون جهد ومرارة انتظار (٣) ومن هذا المنطلق تعيش حياتها بالطول والعرض ليس لها من حظ الحياة الا السهر ومخاطرة أصدقاء زوجها واحتساء الخمر ، واستمرت على الطريق حتى سقطت الى الهاوية فى أحضان « رفعت » صديق زوجها « عبد الخالق » الوسيم الوجيه الذى لم يكن من الوسط الذى يعيش فيه ، ولكنه كان تواقا الى حياة البذخ والسهر والعربدة) (٤) •

وكان عبد الخالق على نفس الدرجة من التحلل (الخمر تجرى أنهارا فى لياليه الحمراء) (٥) وفوق ذلك فهو مضارب مقامر (٦) ولهذا لا يثق أبوه فيه ولا يمنحه شيئا من بره وعطفه لأنه كأخواله مبذر متلاف ، لا يعتمد عليه • وهز أبوه رأسه فى أسى وقال :

ـ صدق رسول الله • قال : تخيروا لنطفكم فان العرق دساس (٧) •

---

(١) الحصاد ص ١٤ •

(٢) المصدر السابق ص ٢٢ •

(٣) المصدر السابق ص ٢٣ •

(٤) المصدر السابق ص ١٧ •

(٥) المصدر السابق ص ٤٢ •

(٦) المصدر السابق ص ١٧ •

(٧) المصدر السابق ص ٤٢ رواه ابن ماجه من حديث عائشة مختصرا دون قوله فان العرق دساس هكذا قال العراقى • أنظر هامش ص ٩٧٧ من كتاب جمع الجوامع للسيوطى ط مجمع البحوث الاسلامية وأورد الزرقانى صدر الحديث فقط وعلق عليه بقوله ضعيف • أنظر ص ١١٥ من كتاب مختصر المقاصد الحسنة للزرقانى •

ولما كانت بثينة وعبد الخالق على هذه الدرجة من الانحدار والسفه فقد اجتذبا اليهما من الرقعاء وأصحاب الرغبة الجامحة كل من كان على شاكلتهما فى الانحراف والتحلل ٠ كما وجدنا ذلك عند رفعت خبيرتقديم الخمور ونجده أيضا عند شعبان غنى الحرب الذى دفع مرسى به فى طريق عبد الخالق وبثينة موهما اياهما أنه سوف يعينهما على الخروج من أزمتهما المالية بالقرض الحسن ولكن « شعبان » كان فى نفسه شىء تجاه بثينة التى أصبحت مطمع الجميع ٠ انه يأكلها بعينيه ورفعت لا يتمالك نفسه عندما يرى صدرها المكشوف ومرسى يريد أن يسدل الستار على قصة مثيرة فى شقته التى يديرها للدعارة ، فقد كان قوادا للنساء العاهرات لا يرى فى ارتكاب المنكر اثما ولا جريمة فقد (ضبطت زوجته اليهودية ذات ليلة مع شاب فى سيارة وقد اقتادها البوليس الى القسم، ولما ظهر أنها متزوجة أرسل لزوجها ليتسلمها ، فلما جىء بها أمامه لطمها لطمة قوية وقال لها :

ـ ألم أقل لك حاذرى البوليس يتبعك (١) ٠

فهو لم يغضب لأنه وقف على حقيقة أمرها ، بل لأنها لم تستجب لنصحه فى اتخاذ الحذر من رجال الآداب وليس هذا غريبا منه ، بل انه يتلاءم مع طبيعته وسلوكه الشخصى ٠

ويظل السحار فى متابعة الحركة الانحرافية لهؤلاء جميعا بمهارة دون أن ينسى عرض الجانب الدينى فى حياتهم ٠ اكمالا للصورة ووصولا الى الغاية التى يريد ابرازها والتى تكمن فى فلسفة الجزاء المتكافىء مع العمل ٠

ولم يكن ذلك الجانب الذى حاول الكاتب رسم أبعاده عبادة أو تدينا منهم فذلك مالا يتطابق أبدا مع الموقف السلوكى السابق وانما كان استهتارا بالدين وقيمة الفاضلة وتناوله تناولا ساخرا يعبر عن فقدانهم لكل ما هو قيم فى الحياة ٠ ومجافاة سلوكهم للطبيعة السوية ٠

نجد ذلك فى تصرفات عبد الخالق وبثينة ومن لف لفهما ، ونلمسه فيما دار بينهم من حوار ٠

ففى أيام الحرب عاد رفعت اليهم بالخبز الأبيض الذى أصبح وجوده أندر من الشرف كما قالوا فدهش الجميع وراح كل يسأل عن مكان وجوده فقال وهو يبتسم : ٠

اشتريته ممن سرقه من هناك ٠
فقال مرسى فى أنفة :
ـ أتأكل حراما ٠٠ ؟

ونظرت اليه الممثلة الكبيرة نظرة تصيح به قائلة ٠٠ يا منافق يا ابن الكلب ٠
وقال رفعت وهو يوزع الخبز على الصحاب :

---

(١) المصدر السابق ص ١٩٤ ٠

ـ أفتى بعض رجال الدين أن سرقة الانجليز حلال وأموالهم غنيمة للمسلمين ٠

فقال عبد الخالق :

ـ أموالهم فقط ؟

قالت الممثلة الكبيرة :

ـ الباقى لا يحتاج الى فتوى (١) ٠

وقد يصل الانحدار بهم الى حد السفه ٠ فشعبان الغنى لا يعطى أحدا مالا دون مقابل فاذا كان عبد الخالق يحتاج الى مال فهو فى أشد الحاجة الى بثينة ٠ فكل شيء له ثمن ٠ هكذا قال ٠

فقال رفعت :

ـ أهذا مذهبك ؟

فقال شعبان وهو يضحك :

ـ هذا دينى ٠

فقال رفعت فى حدة

يحـــرق ٠٠٠٠٠٠٠٠

فقال شعبان فى هدوء :

ـ اننى كل يوم أزداد ايمانا به ٠٠

وعلق الجميع عليه حتى مرسى الذى قال وهو يضحك :

ـ أنا واثق أنه سيدخل الجنة غمزا (٢) ٠

وعندما تتساءل بثينه عن الممثله الكبيرة ونعلم أنها فى شهر عسل جديد ٠

يقول رفعت :

ـ تزوجت زواجا لا يعلم به الا الصفوة ٠

فقال مرسى فى ضيق :

ـ يا شيخ حرام عليك ٠

وقال شعبان :

ـ أكل لحوم الناس حرام ياكسلانس ٠

وقال رفعت معرضا به ليسكت ٠

والرشوة حلال ياشرين (٣) ٠

---

(١) المصدر السابق ص ٨٩ ٠

(٢) المصدر السابق ص ٨٩ ٠

(٣) المصدر السابق ص ١٦١ ٠

وكان رفعت يدور حديثه كله حول الجنس ومغامرات الرجال والنساء مستهدفا من وراء ذلك اثارة بثينة والوصـول اليها · فعندما جلس يحكي على مسـمع منها مغامرات الملك فاروق وتناقض مسلكه في الجمع بين آية من القرآن الكريم وصورة المرأة العارية على حائط واحد في غرفة نومه · قالت بثينة :

ـ أهذا كلام يقال في رمضان ؟

فقال رفعت في اشتهاء :

ـ نسلي صيامنا ·

وصمت قليلا ثم قال لعبد الخالق :

ـ أتعرف كيف تسلي امرأة يهودية صيامها ؟

فقال عبد الخالق :

ـ لا ··

ونظر رفعت الى بثينة نظرة خاطفة ، وقال وهو يبتسم :

ـ الصيام عند اليهود قاس ، انهم يمسكون عن الطعام والشراب من غروب الشمس حتى غروب شمس اليوم التالي ، ورحمة زوجة مرسي يهودية متدينة لا يفوتها شيء من شعائر الدين انها تصوم وتسلي صيامها بأن تغلق الباب عليها وعلى صديق من أصدقائها حتى تغيب الشمس ·

فقال عبد الخالق وهو ينهض :

ـ قم لقد أفطرت قبل أن ينطلق المدفع ·

فقال رفعت ، وهو ينهض :

ـ لمـــاذا ·· ؟

فقالت بثينة وهي ترفع صدرها لتنهض :

ـ لأنك خضت في عرض رحمة ·

فقال رفعت وهو ينظر الى بثينة في اشتهاء :

ـ أصوم ـ أصوم وأفطر على رحمة (١) ·

من هذا النموذج وغيره يكمل السحار ملامح الصورة التي يريد الافصاح عنها والتي تتمثل في أن طبيعة الانحراف في نفوس هؤلاء وأمثالهم قد تحولت الى ضرب من الانتكاس والسلبية بحيث لم يعد يستقيم معها شيء من عوامل الخير حتى عندما يأتي حديث عن الدين عارضا في حياتهم تكون السخرية والاستهتار هما المظهر الطبيعي لسيطرة نزعة الغواية في نفوسهم ، والشخصيات التي تصدر في حياتها عن هـذه

---

(١) المصدر السابق ص ٢١٦ وما بعدها ·

النزعة يحرص السحار على تتبع حركتها السلبية التى تظل فى نمائها وامتدادها حتى يصل بها الى الذروة ، وعندها نسقط الى القاع وقد تمزقت أوصالها ، وتبددت حياتها وأصبحت لا تجد غير الندم تتجرع غصصه وتلوك مرارته بعد أن انتشر اليأس حولها من كل جانب واحتواها الضياع ٠ هذا اذا بقيت الشخصية على قيد الحياة تواجه مصيرها ٠ فعبد الخالق أنهكه الشراب ولم يستطع مقاومة المرض وظل فى شروده يتجرع غصص ماضيه ٠ وعلى الرغم من دنس هذاالماضى وتقيحه نجده يعلق أخطاءه على مشجب الظروف التى عانى منها بسبب قسوة أبيه وخيانة زوجته ولأنه سـوف يطلق الدنيا كلها دون أن يقتص من أحد فسيترك (كلا لنفسه نقتص منه ، فقصاص النفس من نفسها أقسى قصاص) (١) ٠

وبتينة الخائنة كانت كلما نظر ابنها الصغير اليها تتضاءل وتحس بألم فى ضميرها ولو أن صوتا من لهيب هوى على روحها ما خلف ذلك الألم الذى تحسه فى ضميرها وكانت تئن من نار العذاب التى استشرت بين ضلوعها ٠٠ ورن فى أعماقها صوت أجش يصيح بها ساقطة ٠٠ ساقطة ٠ ووضعت أصابعها فى أذنيها لتصمها عن صوت ضميرها الذى استيقظ بعد فوان الأوان (٢) ٠

انه الحصاد الذى عناه السحار بقوله فى آخر القصة على لسان أحد الأبطال : (من يزرع الزوابع يجنى الأعاصير) (٣) ٠

وقد يكون السحق والابادة للشخصية الانحرافية هو القصاص الأمثل والجزاء العادل لأن بقاءها فى الحياة يشد اليها من فقد القدرة على مجابهة نزواته الشريرة فيتمرغ فى الأوحال متأثرا بنبت الفساد الذى ازدهر بفضل بذر سيئاتها ٠

وهذا ما فعله السحار فى قصة « المستنقع » التى قدم من خلالها معالجة واعية لحركة الصراع بين نوازع الخير والشر فى الانسان فى محاولة للكشف عن الدوافع الفعالة التى تجعله ينحاز الى أحدهما عن طواعية واختيار ٠

ولا شك أن الكشف عن ذلك عن طريق المعالجة القصصية من أبرز وأهم وظائف الأدب الهادف الذى يحاول نقديم العبرة من خلال ما يقدم من صور السقوط والانحراف التى تنتاب الانسان فى لحظة من لحظات الضعف البشرى ، فعن طريق عرض نماذج السقوط والكشف عن الحركة الدافعة اليه ، يتعرف القارىء على الظاهرة السلوكية موضوع القصة ، ويرصد بوعيه النافذ أبعادها من خلال رؤية الأديب الخاصة وبتعرفه على فلسفة المنهج والنظرة الفكرية يصل الى موضع الاعتبار . وبتحقيق هذا الهدف يكون الأدب قد أدى وظيفته التوجيهية فى الحياة بأساليبه الجمالية ووسائله الخاصة فى التعبير والتصوير ، والسحار لم يبعد عن هذا الاطار كثيرا عندما تناول بالعرض

(١) المصدر ص ٣١٣ ٠

(٢) المصدر السابق ص ٣٣١ ٠

(٣) المصدر السابق ص ٣٤٤ ٠

والتصوير صور الانحراف في المجتمع وقدمها لنا من خلال شخصياته في معظم قصصه الاجتماعي .

ففي قصة « المستنقع » يحكي قصة فتاة خاطئة شاذة التكوين ، أنهكها السقوط حتى خرجت صريعة اثر طعنة نجلاء بيد أحد الذين جذبتهم معها الى الهاوية .

ومن أول خيط في القصة وجدنا « سوسن » تلك الفتاة الساقطة تعيش حياتها غارقة في الدنس ، وتجد نفسها في التنكيل بالآخرين وسلب ما يمتلكون من متاع ورجال . فقد سلبت فؤاد من شقيقتها « سهير » وسلبت عمر من زوجته « مديحة » وحاولت سلب الجار الثرى من زوجته المترفة . وهي بعد السلب أو محاولته تحطم النفوس وتزرع المرارة ، وتخرب البيوت وما زالت هذه خطتها في الحياة حتى انتهت صريعة في مستنقع من دمائها .

وتكمن فلسفة القصة في مبدأ « الجزاء » وتنطلق على هدى منه فنجد فؤاد يعترف في نهاية القصة بما يشير الى استحقاقه ما حل به من ضياع جزاء ما فعل . فيقول (عــذبت سهير عــذابا أليما بلا ذنب اقترفته ، ولا جناية جنتها ، وهجرتها ظلما وعدوانا) (١) وكنت بغيا فدارت على الدوائر ، كنت قاسيا فقست على الأيام ، كنت نذلا فجرعني الله من نفس الكأس التي أسقيتها منها (٢) .

لقد استجاب لغواية سوسن وشرورها وترك سهير الخيرة الطيبة بعد أن تهيأ للزواج منها .

وقد رسم السحار شخصيات القصة وحدد ملامحها مستعينا على ذلك بكل ما يساعد على الانحراف سواء أكان من طبيعة الشخصية أم جاء بفعل الظروف المحيطة بها .

ففؤاد وان كان مفتول العضلات قوى البنية ينم مظهره عن صرامة وحزم ، الا أنه ضعيف الشخصية سريع الانفعال ولم يكن جريئا فما أسرع أن ينكمش وكان يتشدق بالعفاف وكل أمله أن يعب اللذة عبا ، يود ويبتعد لا عن وعى بالعفاف وايمان به بل عن خوف وضعف ويتضح ذلك من تصوير الكاتب له في موقف عاطفي جمع بينه وبين خطيبته سهير في الظلام الدامس فقد (وسوست له نفسه أن يعب كأس اللذة كاملة ، أن يطفىء النار التي تتلظى في أحشائه ، أن يميت الرغبة الجامحة التي تعصف به ، أن يغيب عن وجوده في الغيبوبة المشتهاه التي أخذت تلفه وتدغدغ جوارحه ، ولكنه أصم أذنيه عن الوسوسة الحبيبة ، لا عن قدرة ، بل لأنه كان أضعف من أن يستجيب اليها) (٣) ولأنه على هذه السمة فقد سقط عندما وجد من تعرض نفسها عليه من أول نظرة . (وكانت سوسن ذات الصدر الشــامخ في كبرياء المتناســقة التقاطيع

---

(١) المستنقع ص ٢٠٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٢١٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٧ .

وصاحبة البشرة البيضاء) (١) هي تلك الفتاة العارضة فعندما تسللت اليه في بيته ، جعلت تستعرض أنوثتها في وشي صارخ وتفنن عجيب ، تحلب ريقه وانهارت حصون مقاومته وهب الوحش الصارخ في أعماقه يناديه فلبى النداء وقام يتجرع كأس الندم. وكان « عمر » على شاكلة فؤاد وطبيعته النفسية غير أنه يهوى حضور جلسات محكمة الجنايات ومشاهدة أفلام الجريمة والقتل . وعلى الرغم من حبه لزوجته مديحة الا أنه سقط فريسة لسلطان الغواية مع « سوسن » التي انتصرت عليه في ميدانين . حطمت ما يسمى بالصداقة النبيلة بينه وبين فؤاد ، واستولت في نفس الوقت عليه انتقاما من أحلام ، ولم يستطع مقاومة التيار الذى انحرف اليه بعد أن تمادى فيه نجد ذلك في قوله : (ما أكثر ما هب ضميرى يؤنبني وما أكثر ما قررت أن أفر منك ، أن أنتشل نفسي من المستنقع الآسن البغيض الذى ترديت فيه ، ولكني أصممت أذني عن صوت ضميرى ، عجزت عن أن أفر ، لم أعد أستطيع البعد عنك ، كل خلجة في تحن اليك وتشتهيك) (٢) .

هذه الفتاة الشاذة التي لم يعد هو ولا غيره من الساقطين حولها في وسعه البعد عنها نشأت في بيت لا يعرف شيئا من المثل العليا ، ولا يجد طريقا الى أسوة حسنة فقد كان أبوها « جلال » مشغولا عن البيت بسهراته ومغامراته ترك زوجته وحدها لهمومها فمنحت « سوسن » كل حبها وتمادت في العطف عليها وتدليلها ، وعندما تزوج امرأة أخرى وراح يمضى معها أغلب لياليه كانت سوسن المتنفس الوحيد لعواطف الأم الرقيقة والملتهبة معا (٣) .

هذا الرجل (أضاع بيتين على مزاجه ويتمنى لو عادا اليه ثانية ليضيعهما على مزاجه) (٤) فهو مدمن قهاوى (٥) والمرأة عنده متاع ما خلقت الا للتسوية وعبث الرجال وما هي الا طعام شهي وان تعددت ألوانه (٦) فعندما تقدم فؤاد لخطبة سهير وذهب اليه في القهوة وكان بصحبته عمر عرض الرجل عليه « سوسن » لأنها الكبرى وأجمل وأنضج فتلعثم فؤاد ، وتحدث عمر قائلا :

ـ يدخل الانسان يا عمي مطعما ويجد أصنافا كثيرة ولكنه لا يطلب الا الصنف الذى يشتهيه .

فقال جلال وهو يضحك :

ـ والله يابني انني أشتهي كل الأصناف وآكل أى صنف يقدم الى .

---

(١) المصدر السابق ص ٨ .
(٢) المصدر السابق ص ١٤٦ .
(٣) المصدر السابق ص ١٧ .
(٤) المصدر السابق ص ٢٢ .
(٥) المصدر السابق ص ٢١ .
(٦) المصدر السابق ص ٢٩ .

فقال عمر متملقا :

ــ هذه قوة استعداد ، ولكن فؤاد اذا أحب صنفا يستطيع أن يصبر على طعام واحــد (١) ٠

وتلح فكرة أن المرأة كالطعام عليه ٠

فعندما يقدم عمر زوجنه مديحة الى جلال يلتفت قائلا :

ــ المطعم الذى اخترت منه هذا الصنف ممتاز (٢) ٠

وهو على درجة عالية من الاستهتار بلغت به حدا جعله يضع اتصاله بالمرأة فى درجة فريضة الصلاة ٠ فقد سأله عمر قائلا :

ــ أظن يا عمى أنك لم تر خطيبتك الا ليلة الدخلة ٠

فقال جلال وهو يضحك :

ــ كنت أراها فى الأوقات الخمســة ، فى الصــبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء وكنت مواظبا على تأدية الفروض فى أوقاتها لا أؤخر نظرة الظهر الى العصر أبدا (٣) ٠

وهو مؤمن بمبدأ : ألذ الأخذ ما سلب (٤) ٠

وفى أحضان هذا العربيد عاشت الكبرى « سوسن » وهى متأثرة به فى لهوه وخمره فكانت مؤمنة بما يؤمن ٠ وصدرت فى حياتها العابثة اللاهية عن ايمان بأن ألذ الأخذ ما سلب ٠ ولهذا راحت تعربد فى حياة الآخرين وتستولى عليهم ٠

والسحار بكشفه للملامح بهذه الصــورة يكشف الأبعاد عن دوافع الانحراف ودواعيه ، وبتتبعه لمسار الشخصيات على أساسه يؤكد الهدف الذى يبغى الوصول اليه ، والذى يتمثل فى أن الشر وان طال مداه لابد أن ينتكس فى النهاية ، ويلقى جزاءه ، وأن الخير وان عوقته عوامل السوء لابد أن ينتصر ويسود ، ولا شك أن هذه الرؤية تلتقى بمبدأ الجزاء فى الاسلام ففى كثير من آيات القرآن الكريم نجد النص واضحا على هذا المبدأ بما لا يدع مجالا للشك والارتياب ٠ كما فى قوله جل جلاله : « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » (٥) وقوله جل شأنه : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » (٦) وقد

---

(١) المصدر السابق ص ٢٧ وما بعدها

(٢) المصدر السابق ص ٣٥ ٠

(٣) المصدر السابق ص ٣٦ ٠

(٤) المصدر السابق ص ٣٦ ٠

(٥) سورة فصلت آية رقم ٤٦ ٠

(٦) سورة الزلزلة الآيتان ٧ ، ٨ ٠

لقى السحار عنتا كثيرا من بعض نقاده خصوصا ذوى الثقافة المادية والماركسية ، بسبب رؤيته الاسلامية للمواقف ، وتفسيره للأحداث وحركة الشخصيات فى أعماله من منطلق النظرة السابقة للخير والشر ، أو الحلال والحرام فذلك فى رأيهم بعيد عن الفن وأن مرعيات التقدم والعصرية مثلا تتطلب النظرة الى العلاقة بين الرجل والمرأة على أساس النوازع الفطرية المستقلة عن الشرائع والقوانين والديانات .

والسحار في رأيهم يمثل فريقا من الأدباء (يستشعر خوفا كبيرا على جعبة القيم القديمة من المثاليات والأديان والسماويات ويحس خطورة عظمى على هذه كلها من قبل التطور الجارى فى النظام الاقتصادى والاجتماعى والأخلاقى أيضا .

انهم ينظرون الى تلك القيم باعتبار أنها مبادىء خالدة خارج الزمان والمكان ، ولا تخضع للتطورات المادية فى حياة البشر ، وهم يكرسون أنفسهم للحفاظ عليها دون أن يتبينوا تفاصيل هذا التطور وكيفية شموله الأخلاق والقيم الروحية بطريقة حتمية) (١) .

ولأنه يصدر فى فنه عن تأثر بالقيم الدينية ، فقد عالج مشكلة الجنس (فى أغلب قصصه علاجا ينطوى بصورة مباشرة أو غير مباشرة على الدلالة الفكرية للتطور كما يراها من خلال ما يؤمن به من قيم) (٢) .

وزغم بعضهم أن شخصيات قصص السحار تتسم بالسلبية ، لأنه يقدمها جامدة على طبيعة واحدة ، فهى عنده اما بيضاء أو سوداء (والشخصيات اذا استمرت خيرة أو شريرة طبقا لتصميم فكرى مفروض فانها ستتوقف فنيا عن الحياة فى الرواية . لأنها تستمد فكرها من الكاتب وليس من دوافع حركة الشخصيات التى تصورها) (٣).

الى غير ذلك مما لج نقاد النزعة المادية فيه ، وحاولوا النيل من قيمة السحار الفنية على أساسه . وهم فى مجموعهم انما يصدرون عن رؤية مادية ، ويتعصبون لبعض المفاهيم النقدية الغربية التى لا تمت الى واقعنا الحياتى بصلة ولا تعبر عن مزاج الانسان العربى وأصالته الحضارية النابعة من قيم الاسلام ومثله الفاضلة . وهؤلاء عندما يرفضون الأديان والسماويات وينظرون الى الانسان من خلال واقعه المادى فقط وما يموج فى داخله من غرائز ونزعات يصارع غيره من أجل تحقيقها دون وازع من دين أو مثل ، انما يخططون لمجتمع همجي يحيا الانسان فيه ولا هم له الا تحقيق ذاته والانتصار لمطامعه وأهوائه ، واستجلاب عوامل سعادته حسب ما يتراءى له هو وان خالف فى ذلك المألوف ، والمعروف من قيم المجتمع ومثله . ولا يعنيهم ذلك ، لأن المألوف والمعروف فى نظرهم رجعية وتخلف وأن الانسلاخ عنه والتمرد عليه تقدمية

---

(١) ازمة الجنس فى القصة العربية . غالى شكرى ص ٢١٦ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ص ٢١٧ .

(٣) صورة المرأة فى الرواية المعاصرة د. طه وادى ص ١٢٤ .

وتجديد وسوف نتعرض بالتفصيل لمناقشة ذلك فى الفصل الذى خصصته الدراسة للبناء الفنى والرؤية الاسلامية ٠

رابعا : اهتمام السحار بمعالجة ظاهرة الانفصام بين المعتقد والسلوك :

وهذه الظاهرة قد شغلت المؤلف فمنحها كثيرا من الجهد فى كثير من قصصه الاجتماعية ، ولعل مرد ذلك يرجع الى اهتزاز القيم واختلاطها فى النفوس بأنماط شاذة ومجلوبات وافدة من قيم الغرب وثقافاته المادية ٠ وساعد على شيوعها واختلاطها ظروف الحرب والقهر والاستبداد التي عانى منهـا المجتمع الاســلامى على اختلاف مستوياته وبيئاته ، كما أن هذه الازدواجيــة فى السلوك الفردى تشــير الى ضعف الوجدان الدينى وعدم تمثله الصادق للقيم الاسلامية التى لا ينفصل فيها الايمان عن العمل ، فالايمان فى أصل العقيدة الاسلامية ، ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، وقد تناول القرآن الكريم هذه الظاهرة وأكد على عدم صلاحية السلوك المخالف للعقيدة ولطبيعة الايمان ، فنعى على المؤمنين مخالفة أقوالهم لأفعالهم مما تشير اليه الآية : « يأيهـا الذين آمنـوا لم تقولون ما لاتفعلون كبــر مقتـا عنــد الله أن تقولوا ما لاتفعلون » (١) ٠

ويشير هذا المسلك الانفصالى الى أن القيم الدينية ـ على الرغم من عدم التمثل الصادق لها أو عدم مطابقة الفعل الشخصى لمقتضى الايمان بها ـ لها سلطان خطير فى حياة المجتمع ، وهيمنة ظاهرة على السلوك ، وبسبب هذا السلطان وتلك الهيمنة ، يلجأ الأفراد الى التظاهر أمام المجتمع بالطهر والصلاح والاستقامة استجلابا لاحترام الناس وطمعا فى نيل رضاهم ، ولكن خفايا حياتهم وتصرفاتهم الشخصية اذا ما بعدوا عن المواجهة العلنية تصدر عن منهج مخالف لما يظهروه من نبل وطهارة ٠

وقد قدم السحار عددا من الشخصيات على هـــذا المستوى فى كثير من أعماله الاجتماعية مبررا ملامحها ، ومتتبعا لمسارات حياتها فى جو من الفنية الروائية لم يتحول معها عمله الفنى الى وعظ مجرد وحكم منثورة بل ظل محافظا على طبيعة الشكل القصصى بكل مقوماته ووسائله ٠

ففي قصته « الحصاد » نجد شخصية الباشا « سليم » ذلك الذى صوره المؤلف فى بداية الأمر على هيئة خاصة وطبيعة سوية توحى بالجلال والعظمة وتنبىء عن ايمان عميق بالمثل والأخلاق وتشير الى نفس خيرة لا تتوانى عن تقديم الخير للناس وجاء بناؤه العضوى بما يضيف الى عظمته النفسية عظمة أخرى تستمد وجودها من فخامة المظهر وسلامة البنية فهو رجل (ممشوق القد ، عريض الكتفين ، فخما مهيبا ، فيه اعتداد وثقة فى نفسه لا تحد عودة زمنه النجاح فى كل ما يقبل عليه لذلك كانت فكرة الاخفاق قلما تراوده) (٢) ٠

---

(١) سورة الصف آية رقم ٢ ٠

(٢) الحصاد ص ٥ ٠

وهو رجل محافظ . فحلمي لا يتصور أن يدعو أصدقاءه للسهر فى بيت أبيه الذى حصـل على رتبة الباشوية . وكانت والدته قد أشارت عليه بذلك للاحتفال بالرتبة السامية . وقالت :

ـ ادعهم للعشاء هنا .

فانفجر ضاحكا وقال :

ـ ما أطيبك يا أمى .

ـ لمـــاذا ؟

ـ لأنك تقترحين على أن أدعو أصدقائى للسهر فى مسجد ، ان وجود الباشا فى البيت يجعلهم خاشعين خشوع المصلين ، اننا نريد أن نمرح (١) .

فهو رجل حاد لا يميل بطبعه الى المرح ولا قدرة لأحد على مواجهته بما يخالف طبعه واستقامته . حتى ان عبد الخالق ولده الأكبر كان لا يجرؤ على الظهور أمامه عارى الرأس (٢) مبالغة فى الاحتياط منه والتحفظ فى مواجهته .

وما دام الباشا على هذه الطبيعة ، فالمرأة فى بيته ليست الا ظلاله وهكذا كانت « أمنية » زوجته فقد ذابت شخصيتها فيه فأصـبحت ترى بعينه وتسـمع بأذنيه ، وتنطق بلسانه ، أما عقلها فقد قصر أن يتطاول الى عقله (٣) .

وهو رجل لا يحب السيدات لا فى البيت ولا فى المكتب ولهذا لم تشأ أمينـه زوجته أن تسمح لأحد من سيدات الأسرة بالتهنئة له على الباشوية ، لأنه رجل ليس له الا عمله الذى يعيش له (٤) .

وهو رجل صـلاح وتقوى ، فقد بنى للفلاحين بيوتا وأقام مسـجدا وكثيرا ما يتشدق بآيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ، فقد تعلم فى الأزهر ، ولأنه على هذا المستوى الدينى والخلقى لا يرضى عن المنكر ولا يقر أحدا عليه . حتى لو كان « عبد الخالق » ولده فقد كرهه لأنه مستهتر عابث يقضى سهراته فى الليالى الحمراء ولا يصلح أن يكون أهلا للثقة .. قال الباشا ذلك لعثمان وهو يحاوره عنه . وعن لياليه . معتمدا على حديث نبوى ـ صدق رسول الله قال : تخيروا لنطفكم فان العرق دساس .. انه لأخواله انه مثلهم مبذر متلاف لا يعتمد عليه ، لم يأخذ منى شيئا (٥) وظلت كراهية الباشا لابنه ممتدة طوال القصة تستند على أسباب أخلاقية لا يرضاها منه . ويظل السحار يعلى من هذه الصورة ومن تكشيف الرؤية حولها بما يحقق الرضا

---

(١) المصدر السابق ص ١٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١٤ .

(٣) المصدر السابق ص ١٠ .

(٤) المصدر السابق ص ٩ .

(٥) المصدر السابق ص ٤٢ .

والقناعة عند المتلقي ويجعله يتعاطف مع هذه الشخصية الفريدة التى تصدر في أعمالها عن خير وايمان فهو صاحب بر وعطاء لا ينقطع خصوصا حرصه على متابعة ارسال المال الى جمعية الفتيات الصالحات حتى انه نهر «عثمان » أمين أعماله لأنه لم يرسل لهذه الجمعية راتبها الشهرى قائلا :

ـ لا ينبغي أن تلهينا الدنيا عن فعل الخير ، ابعث لها بمائة جنيه · فقال عثمان ليرضى الباشا :

ـ سأبعث اليها بشيك الآن ·

ـ قلت لك ياغبى أكثر من مرة ، ان الخير لا يدفع بشيكات أفضل الصدقة ما كانت مستورة ·

وعندما طلب عثمان منه أن يقيد المبالغ باسمها في دفاتره ، قال :

ـ اننى لا أحب أن أشهر بمن نحسن اليهم (١) ·

وبقدر حرصه على متابعة ارسال المبالغ للفتيات الصالحات فهو أيضا حريص كل الحرص على اسعاد الفلاحين والانفاق عليهم · فعندما اقتربت ليلة النصف من شعبان يطلب من عثمان الاستعداد بتجهيز الأموال قائلا :

ـ غدا ليلة النصف من شعبان ، غدا الوسعة ، من وسع فيها على عباد الله وسع الله عليه في جنته · هل أعددت الحبوب ·· ؟

ـ أعددت كل شيء ياباشا سأرسل الى الفلاحين فى الظهر وأعطى كلا منهم رزقه (٢) ·

وهو يكره الربا فيودع أمواله فى البنوك بلا فوائد ، وعندما يطلب عبد الخالق منه أن يعطيه ما يعادل نسبة الفوائد على الأموال لو كانت مودعة في بنوك ربوية · يرفض بشدة ويتضح ذلك من هذا الحوار ·

قال عبد الخالق :

ـ لو أمرت البنوك أن تدفع لى فوائد أموالك التى تودعها فيها بلا فوائد لكان ذلك كفيلا بتغطية خسائرى ·

ـ ما شاء الله ·· اتحرضنى على قبول الربا الذى حرمه الله لتنفقه أنت على ملذاتك ·· ؟ أتريد أن تقحمنى فى النار لتنفق على الممثلين والممثلات بغير حساب ·· أنت مجنون (٣) ·

---

(١) المصدر السابق ص ٤٩ ·

(٢) المصدر السابق والصفحة ·

(٣) المصدر السابق ص ٥١ ·

فمع هذه الملامح تبدو شخصية الباشا واضحة القسمات على صورة فريدة من الجلال والكمال وقد استوى فيها الايمان مقترنا بالفعل الحسن والقول الحسن الذى تصدر الشخصية فيه عن وعى أصيل بالايمان ومثله وتسير فى حياتها على مقتضيات هذا الايمان وما توجبه من فعل الحلال والركون اليه والبعد عن الحرام وعدم الرضا عنه ٠ ولكننا نفاجأ بالخفى من مستور الحقيقة المؤسفة ٠ عندما نجد هذا الصرح العالى من الأخلاق والمثل قد اندحر كاشفا عن زيف وضلال فى بيت من بيوت الدعارة ٠ حيث الباشا يرشف اللذة فى اصرار وكأنه عربيد ، ونجد أن جمعية الفتيات الصالحات ليست الا هذا البيت المشبوه الذى يعاود زيارته كلما شده الحنين الى اللذة الآثمة ٠ ونجد الست أنهار المسئولة عن هذا البيت التى كانت تحرص على ارتداء ما يغطى ذراعيها وساقيها وسائر جسدها (تفتح أمامه نوافذ اللذة فيرتوى من الخمر ومن الشفاه ما شاء له الهوى مع أروع ألوان الوارد الجديد من صنف الرقيق الأبيض)(١) هذا التناقض فى المسلك انما يعبر عن الانفصام والتمزق داخل الشخصية وتأرجح حياتها بين عالمين : عالم الظاهر وما يتطلبه من ضرورة الحفاظ على الدين والقيم حرصا على كسب احترام الناس وعدم الاعلان عن فعل يثير سخط المجتمع الذى يرفض الرذيلة ويأباها بفضل مقوماته الايمانية المتغلغلة فى أعماقه وان كان يفعلها الأفراد غير مجاهرين فى عالمهم الباطنى ويتخذون من الحيل والأسباب ما يحول دون كشف هويتهم وميولهم ٠

والسحار بمعالجته لهذا الموقف انما يطلعنا على حقيقة النفس البشرية فى تناقضاتها وانحرافها عن طريق الجادة واخفاقها فى تحقيق المواءمة بين الفعل والمعتقد بما تكتمل معه معالم الايمان ٠

فالباشا رغم الحاحه على الظهور بالمظهر الاسلامى الرشيد الا أنه صدر فى الكتمان عن واقع سلوكى مخالف لمقتضى عقيدته وايمانه وما كانت أمواله التى أنفقها الا وسيلة لارضاء نزواته ورغائبه فى جانب كبير منها ، وكان ما ينفقه على الفقراء من هذا المال على قلته يعتقد واهما أنه يتخفف به من أوزاره وذنوبه ففى كل مرة كان يتصدق فيها على الفقراء يعود الى قصره وهو (يحس راحة وأمنا ، فقد ألقى على الفلاحين أوزاره ، واعتقد أنه بذلك القليل الذى تصدق به قد طهر أمواله) (٢) ٠

على الرغم من عدم خلوص نيته فى الانفاق والبذل لأنه كان مأخوذا بما يصدر عنه من انفاق بالتظاهر والرياء ارضاء للعاطفة الدينية عند الناس وكسب احترامهم له٠فقد شيد أبنية للفقراء (ليراها زواره من بعيد ويؤمنوا معه بأنه معلم كبير) (٣)٠

---

(١) المصدر السابق ص ١٥٤ ٠

(٢) المصدر السابق ص ٥٦ ٠

(٣) المصدر السابق ص ٥٤ ٠

وكان عندما يذهب الى القرية ليوزع الصدقات لا يؤمن بمبدأ أفضل الصدقات ما كان مستورا لأن الموكب كله يبدى ما يحسبه الباشا صدقة خفية (١) ·

وكانت مواكب الحزانى من البائسين فى نظره (فى تلك اللحظة أشياء تتلقى منه الصدقة (٢) ·

وهذا كله وان كان يغلب عليه التظاهر والرياء الا أنه يعبر فى رأى كاتبنا عن ايمان بما يفعل وعن نزعة دينية متغلغلة فى أعماقه ولكنه لضعفه لم يستطع الامتثال لها نجد ذلك فى قوله (كان يحفظ القرآن والأحاديث منذ أيام دراسته فى الأزهر ، ولكنه ما كان يعمل بما يحفظ ، وقد سره أن يجد على الرغم من فسقه فى ابن أخيه عثمان الرجل الصالح الذى يقيم شعائر الدين ، وينتهى عما نهى عنه الدين ، فقد كانت جذور الدين فى وجدانه ، يتشدد فى اخراج زكاة ماله ، وينتصر على شح نفسه ولكنه كان يضعف أمام الكأس ، ويتهافت لصدر ناهد وضحكة ناعمة ، ونظرة ساهية فيها نداء) (٣) ·

فظاهرة الانفصام فى شخصية الباشــا وغيره لا تعبر عن عدم الايمان بالدين وقيمه ولكنها تعد مظهرا من مظاهر ضعف المسلمين جاء نتيجة لعوامل مختلفة انتابت حياتهم · وكان من أهمها تلك النزعات المادية التى تسربت اليهم من الثقافات الوافدة عبر السنين كما أن من هذه العوامل فقدانهم للشخصية الذاتية التى كان هذا التمزق النفسى والسلوكى أحد معالمها ·

ومع ذلك فقد حاول السحار التأكيد على أن الدين الصحيح كان مطلبا للشخصية ذات السلوك الانفصالى تلح عليه فى عجزها عن التمثل به وتلتمس الأمن فيه لافتقادها الأمن من نفسها على نفسها ولافتقاد المثل الصالح فى حياتها · ولهذا أبعــد الباشا ابنه عبد الخالق العربيد المتهالك على اللذة عن ساحته وأعلن عن عدم ثقته فيه وحرمه من عطفه وبره · وفى الوقت ذاته قرب « عثمان » ابن أخيه واتخذه أمينا على ماله لظهوره أمامه بمظهر التقى الورع الحافظ لشعائر الدين حتى اذا تكشف أمر ابن أخيه هذا فى النهاية عن زيف المسلك وفساد الطوية · كانت أحاسيس الضياع هى النتيجة المحتومة لكل من ضل سواء السبيل ·

فقد عرفنا (عثمان) أمين أعمال الباشا من أول الرواية فوجدناه شخصيــــة نمطية مرسومة الملامح واضحة القسمات للانسان الوصولى الذى يسعى من أجل ذاته لتحقيق ما يريد ولو تعارض مسعاه مع كل القيم الفاضلة ·

والسحار لم يفاجئنا به كما فعل مع الباشا ولكنه أوضح شخصيته ومسلكه من البداية · وهو مسلك مطابق لطبعه الأنانى ولوظيفته الوصولية · وفيه تتمثل

---

(١) المصدر السابق والصفحة ·

(٢) المصدر السابق ص ٥٥ ·

(٣) المصدر السابق ص ١٦٥ ·

ظاهرة الانفصام واضحة وان كانت على مستوى آخر غير مستوى شخصية الباشا · وطبيعته فقد مكن عثمان لنفسه بابعاد عبد الخالق عن أبيه وحاول ابعاد ابنه الأصغر حلمي وأوغر صدره على بثينة زوجة عبد الخالق · مستعينا على ذلك كله بما يرضى نزعة الباشا الدينية الظاهرة · فاذا تحدث عن عبد الخالق لا ينسى أن يبالغ في ذكر الخمر التي تجرى أنهارا في لياليه الحمراء (١) ويشعر بلذة غامرة اذا انبرى للحديث عن الناس واساءة الظن بهم فقد أراد أن يلقى في روع الباشا أن ما أصاب عبد الخالق من فساد كان بسبب زوجته العاهرة · فقد (كانت تنقصه الزوجة الصالحة ثم يعرج على بثينة يأكل لحمها وهو يستغفر الله مرات (٢) وكان ذا مظهر مخادع يكثر من الصلاة والذكر والدعاء اذا كان في حشد من الرجال وعلى مرأى منهم فاذا تعرفنا على دخائله وجدنا شخصا آخر وطبيعة أخرى ، انه (يؤمن بأن أفضل السرقة أدومها وان قلت) (٣) حتى كون أرضا وأصبح له مال ، فاذا سئل عن أرضه وكيف اشتراها يضطرب ويقسم بأغلظ الأيمان أنه يعتمد (على الستر والبركة ، وأن ذلك كان بفضل دعاء الوالدين وتعففه عن الحرام ، فالحلال يربو ، والحرام يذهب الحلال) (٤) وكان يتظاهر (بالتعفف والتقوى وتعمد اقامة الصلاة في مكتبه في الأوقات التي يعلم أن الباشا سيمر به فيها ، وراح يحفظ عن ظهر قلب الأحاديث النبوية التي تحض على الزهد والقناعة والأمانة ليرددها على مسامع الباشا كلما خلا به) (٥) ·

فالسحار يرسم ملامحه ويحدد تصرفاته من أول الأمر على هذه الصورة من الخداع حتى تمكن من السيطرة على الباشا سيطرة كاملة جعلته يستجيب لهمساته المغرضة ، وكان عثمان يحس راحة كلما أسر الى الباشا بها ، وظل في ممارسة أسلوبه حتى أدرك سر الفتيات الصالحات ، وعلم عنهن وعن الباشا الشيء الكثير ، فكان (يحسد الباشا على لياليه الجميلة التي يمضيها في أحضان الغواني الكاعبات ، وتمنى لو أن الفرصة تتاح له ليسعد بما سعد به الباشا) (٦) ·

وبدأ السحار بعد هذا الموقف يكشف عن طويته ويزيح الستار عن مكنون نفسه وما يكتنفها من تناقض وان كان قد أطلعنا على ملامحه قبل ذلك · بما يساعد على تصور النهاية التي سوف ينتهي وضعه اليها عند المتلقى ، وهي بلا شك نهاية أليمة ، فقد أطلع حلمي والده على مستندات تدين عثمان وتثبت تلاعبه وخيانته ، ولم يجد الباشا غير الصراخ والعويل أمام هول المفاجأة ، فلم يكن يتوقع في يوم من الأيام أن يكون عثمان المتدين هو سارق الأرض ومفجر العداوة داخل الأسرة · فانفجر صائحا فيه : (يا لص · يا ضلالى ، وثقت فيك فخربت بيتي ، وورثتني وأنا حي ،

---

(١) المصدر السابق ص ٤٢ ·

(٢) المصدر السابق ص ٤٣ ·

(٣) المصدر السابق ص ١٦٤ ·

(٤) المصدر السابق ص ١٦٥ ·

(٥) المصدر السابق والصفحة ·

(٦) المصدر السابق ص ٢٣٩ ·

سخرت منى كل هذه السنين • ولن أترك من خدعنى يمشى على الأرض أبدا) (١)، وأطبق يده على عنقه فى محاولة لقتله ولكن حلمى منع والده • مكتفيا بطرده •

ولما كانت النهايات فى قصص السحار دائما تأتى كنتيجة للسلوك الشخصى فى القصة فقد جاءت نهاية الباشا ونهاية عثمان مطابقة لما توقعه المتلقى من جزاء • ولكنه ليس القتل أو الابادة على كل حال • فالموقف الذى يستريح السحار اليه غالبا فى تصميم النهاية لأبطال قصصه ، أن يتركها على قيد الحياة لتجنى ثمار شرورها فى كل لحظة ولتتجرع كئوس الندم كلما طاف بخيالها شىء من ماضى حياتهم الأثيم وهذا ما كان ، فقد انطلق عثمان هاربا يضرب فى الأرض على غير هدى ، ووقف الباشا وقد تجمعت فى ذهنه كل مآسى ماضيه ، ورأى نفسه وقد فقد أرضه ، وضاع شرفه ولم يجن من دنياه الا المرارة والأسى والهوان (٢) فمن يزرع الزوابع يجنى الأعاصير (٣)•

وقد اعتمد السحار فى تصميمه للنهاية على شخصية حلمى ، وألقى من خلاله أفكاره التى تستمد وجودها من مبدأ الحلال والحرام فى الاسلام ، وذلك فى لحظة من لحظات الافاقة راح يستجمع فيها حصاد الموقف باحثا عن تبرير لما يرى ، وطافت بذهنه خواطر وارتسمت على وجهه تساؤلات • حول الحلال والحرام (وهل حقا الحرام لا يدوم ، وطافت به موجة من الشك وسرح بخياله فألفى أن كل ما هو دائم فى البلاد حرام • ورن فى أغواره المثل القائل : الحرام يفور ويفور ثم يغور ، واستراح لذلك المثل وراح يقنع نفسه • ان أرض عثمان تزدهى الآن حتى اذا ضاعت منه ، كانت حسرته عليها شديدة (٤) فقد جمعها مجتهدا فى اظهار الصلاح والتقوى ، وفكر فى أرض أبيه وهل كلها حلال طيب •• ؟ وراح يقنع نفسه ان الباشا يطهر أمواله بالزكاة التى يدفعها للفقراء والمساكين كل سنة ، ولكن هل تكفى الزكاة لتطهير المال اذا كان أصله خبيثا•انه لايظن وهو يذكر الساعة ذلك الذىكون ثروة طائلة من الحرام ولم ينجب الا ولدا واحدا راح يرعاه حتى صار طبيبا ، وفى ذات يوم أنفق كل ثروته فى وجوه الخير ، ولما سئل عن ذلك قال : ليبارك الله فيك • كان هذا الرجل واثقا من أن الزكاة لا تطهر ما كان خبيثا) (٥) •

والسحار وان كان يخص المال هنا بالذكر وحده الا أنه يرمز به لكل ما هو خبيث فاذا كانت الزكاة لا تطهر المال الخبيث فالصلاة والصيام والحج وسائر السلوكيات الاسلامية الظاهرة لا تطهر الشخص الخبيث ، وفى الحديث النبوى : من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له (٦) •

(١) المصدر السابق ص ٣٢٣ •
(٢) المصدر السابق ص ٣٤٣ •
(٣) المصدر السابق ص ٣٤٤ •
(٤) المصدر السابق ص ٢٩٥ وما بعدها بتصرف •
(٥) المصدر السابق ص ٢٩٦ •
(٦) رواه الطبرانى عن ابن عباس ونصه « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعدا » أنظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوى تحقيق محمد عمارة ج ٢ ص ٣١٦ •

ويبدو أن قضية انفصام الشخصية الاسلامية في واقعها المعاصر قد شغلت الكاتب فراح يرصدها على مستوى آخر في بيئة غير مصرية ، فنراه في (وكان مساء) يتابع بوعي حركة الانسان العربي في البيئة التي كانت أول ما تلقي الوحي والنبوة فيجد من المتناقضات ما أثار دهشته وزاد في أساه ، فالناس هنـاك يبالغون في التشدد والالتزام الظاهري بالدين ، ولكن واقعهم العملي يخالف ذلك ويناقضه · وقد رأى (جمال عبد السلام) بطل القصة هذا التناقض ورفضه وصدر في رفضه له عن فهم واع للاسلام ·

رأى الآمر بالمعروف يلوك سواكا في فمه وينادي على الناس بالصلاة وهم ينسابون الى المسجد في خوف وقلق ، حتى ان بعضهم يصلي بدون وضوء وهذا لا يعجبه لأنه يكره أن يساق الناس الى العبادة على غير رغبة منهم كما يكره كل من يحاول صده عن الصلاة لأي سبب · نجد ذلك في قوله : (أنا أبغض أن أساق الى العبادة سوقا ، وأمقت أن يحاول انسان أن يحول بيني وبينها فهذا أمر يتعلق بي وبالخالق ولا محل لثالث بيننا) (١) ·

ولعدم اقتناعه بما يحدث راح يتابع حركة الآمر بالمعروف حتى يتحقق من صلاته· ولكن الرجل لم يصل ولما أحس بالمتابعة صرفه عن نفسه في مرارة ·

حتى خدام الحج رآهم يعاملون الناس وهم يؤدون الشعائر على أنهم مجـرد (زبائن) ورمق أحدهم وهو يشتد على غلام صغير لم تفسد ذمته بعد · كان يؤدي حق العمل في اخلاص فطلب منه أن (يكلفت) حتى يتمكن من صيد زبائن آخرين ·

وتلوح لعين (جمال عبد السلام) الكعبة فيشرد به خياله الى ما كانت عليه في عهد الرسول حيث كان (الحرم أصغر حجما ، لا بسط فاخرة ولا أضواء كهربية متألقة فالنور في القلوب ··) (٢) وكأنه يرمز بذلك الى المظهرية التي أخذ الناس أنفسهم بها وان كان في مستور حياتهم من مخالفات الدين ما يندى له الجبين ، فالبيوت مليئة بالصور العارية ومجلات الجنس ، وبالأشرطة الاباحية التي تعرض على مرأى أبصارهم أقبح حركات الجنس (٣) ·

ومن خلال مجموعة من الشخصيات قدم لنا « جمال عبد السـلام » الذي رمز السحار به الى نفسه شيئا من سلوكيات بعض أفراد ذلك المجتمع مبرزا بعض ملامحهم الشخصية وحياتهم النفسية ، فقد تعرفنا من سياق القصة على «مجدي » حليف الشراب وعلى « سامي » الذي كان يبحث دائما عن صيد بلا شراب كما تعرفنا على « عقيل » الذي كان يشاهد الشراب ولا يشرب ، ويجالس النساء وهو يضحك متشهيا ولكنه لا يفعل شيئا لأنه يأنف ممارسة الاثم علنا · وكان « ممدوح » لا يفوته الفجر أبدا ، ولا يجد

---

(١) وكان مساء ص ٣٤ ·

(٢) المصدر السابق ص ٤٩ ·

(٣) المصدر السابق ص ٦٣ بتصرف ·

حرجا فى الشراب ويجد متعة فى قضاء الليل فى أحضان غانية ، أما فهد فقد جاب أوربا ومارس كل ما تمارسه من اباحية وانطلاق) (١) مع هؤلاء جميعا تنقل السحار أو (جمال عبد السلام) ورصد عن قرب أفعالهم وهى فى كل مناحيها تمثل صورة صارخة لانفصام الشخصية فى تمثلها الظاهرى بالدين بينما واقعها الذى تحياه يجافى هذا التمثل ويناقضه ·

فهذا «ممدوح» كان يحس ألما فى معدته ذات يوم ، فنادى على الخادم وأسر اليه ببعض الكلمات ، بينما كان جمال عبد السلام قد اتجه الى غرفته يريد الصلاة فقال ممدوح :

– الى أين ؟ ·

– الى غرفتى لأصلى الظهر ·

– أنتظرنى حتى أصلى معك ·· لا زلت على وضوء ·

وانتظرته ودخلنا الغرفة معا ·· وأقسمت عليه أن يتقدم ليكون لى اماما ·· وصلينا وقضيت الصلاة ، وخرجنا الى غرفة الاستقبال وأقبل الخادم فى يده كأس بها ويسكى ، وقدمها الى ممدوح ، وغيب ممدوح الكأس فى جوفه وهو يقول :

– هذا دوائى ·· انه علاج مجرب ·

ورمقت من صليت خلفه برهه ثم انصرفت لأعيد صلاة الظهر وحدى (٢) ·

فالجمع بين الصلاة والخمر عند ممدوح لا شيء فيه ولا حرج منه ، وهو بقدر حرصه على عدم فوات الصلاة كان حرصه على مداومة شرب الخمر ومضاجعة النساء ، الأمر الذى دهش له جمال عبد السلام وهو يرى هذا التناقض الصارخ فى الجمع بين العبادة وارتكاب الفحشاء · وقد دفعته الدهشة يوما الى استكشاف سر ذلك من ممدوح فقد سأله :

– كيف تجمع بين العبادة والنساء ·· ؟

فقال دون أن تطرف عينه :

– هذا فرض وهذا فرض ·

– لا خير فى صلاة لا تنهى عن فاحشة أو منكر · أفهم أن يؤمن الانسان أو يكفر · أن يسير فى طريق واحد ، أن يكون صادقا مع نفسه أما أن يسير ثم ينحرف ثم يعود الى الجادة لينحرف فهذا ما لا أفهمه · اختر لنفسك طريقا واحدا واسلكه ·

– لى عذرى ·

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٣ وما بعدها بتصرف ·

(٢) المصدر السابق ص ١١٥ ·

وبالتعرف على العذر الذى يرتكن اليه فيما يفعل من فحشاء نجده يكمن فى زوجته التى تتعب من المعاشرة الجنسية وهو رجل مكتمل البنية ، يحتاج الى تخفيف نفسه واشباع حاجته من النساء ٠ قال له جمال عبد السلام :

ـ أظن أن لمثل هذه الحالة شرع تعدد الزوجات ٠ تزوج من أخرى ٠

ـ هذا كلام هين ٠ كيف أتزوج من أخرى ٠٠ ؟

ـ أنت رجل قادر تستطيع أن تنفق على بيتين ٠

ـ المسألة ليست مسألة انفاق ٠ اننى أحب زوجتى على الرغم مما بها ٠

ـ ما دمت تحبها فضح من أجلها تسام بعواطفك ٠

ـ هذا مجرد كلام ٠ لا أستطيع ٠

ـ ما دمت لا تستطيع فتزوج ٠

ـ زواجى يجرح شعورها ، وأنا لا أحب أن أجرحها ٠

ـ وهل ارتماؤك فى أحضان غانية كل ليلة لا يجرح شعورها ٠٠ ؟

ـ كيف أجرح شعورها وهى لا تدرى ٠٠ ؟

ـ سواء أعلمت أم لم تعلم فأنت تعرف أنك تهينها بخيانتها وما أحسب أن المحب الصادق يرضى أن يهان من يحب حتى فى غيابه ٠

ـ لن أتزوج ٠٠ لن أقوض هناءة بيتى بيدى ٠

ـ اننى لا أحرضـك على الزواج ٠٠ ولكننى أريد أن أكشف لك نفسك التى تخدعك وتزين لك المعاصى ٠

ـ نفسى لا تخدعنى ٠٠ ولكن الضرورة هى التى تدفعنى لهذا ٠

ـ هل الضرورة ترغمك على أن ترتمى فى أحضان غانية كل ليلة ٠ أنت باحث عن متعة ٠

فقال فى صوت خافت :

ـ اننى أتحفف حتى أستطيع أن أحتمل شهور الجدب الطويلة ٠

ـ خداع آخر ٠٠ أخطر ما فى النفس أنها قادرة على أن تخدع نفسها بنفسها(١)٠

ومن هذا الحوار يتضح لنا مدى التمادى فى الباطل والتماس التبريرات الواهية التى يتكىء عليها « ممدوح » فى مروقه عن الجادة وبعده عن ساحة الطهر فى رحاب الدين ٠ وقد عالج السحار الموقف بشىء من الهدوء دون افتعال ودون اضفاء جو من التأزم النفسى تتحول معه الرغبة الجنسية عند ممدوح الى مطلب حيوى ضرورى فى مقابل

---

(١) المصدر السابق ص ١٨٩ وما بعدها ٠

الحرمان الذى يعيشه معزوجته كما يفعل كثير من الأدباء عندما يكثفون مواقف التحلل البشرى ويصــورون الانحراف على انه حتمية واســتجابة طبيعية لنزعات الغرائز ٠ ويحتالون على القارىء بايهامه أن ما صدر المنحرف عنه من سلوك ٠ انما هو شىء طبيعى وضرورى وأنه الحل الوحيد للأزمة ٠ ولكن السحار قدم من خلال جمال عبد السلام الحل الاسلامى للضعف الجنسى عند الزوجة ، وقد تمثل ذلك الحل فى طلبه منه الزواج من أخرى يجد عندها ما افتقده فى زوجته وليس ذلك مما يشين الرجل أو يعيب تصرفه بل هو أولى من الارتماء فى أحضان الفعل المحرم وارتكاب المعاصى ٠

ومن خلال تتبع الحركة النفسية لأفعال أبطال هذه القصة نجدهم لا يحزنون لأنهم خالفوا ما نهى الله عنه بارتكابهم المنكر ولكنهم يحزنون لانكشاف أمرهم أمام من يقدسهم ويعتقد فى سلامة ايمانهم ٠ فقد حزن سامى حزنا شديدا واكتسى وجهه بسحابة من الخوف والخشية عندما أخبره الســفير بما يفعلونه فى بيروت مع الفتيات ، فلما رآه جمال عبد السلام على هذه الحالة تعجب منه وعجب للانسان أن يفعل المنكر دون أن يحزن فاذا انكشف أمر ذلك المنكر غضب وثار ، فقد صرنا جميعا اسبرطيين نشجع السرقة والويل لمن يضبط متلبسا بها) (١) ٠

وقد يتكىء هؤلاء الذين يجمعون فى حياتهم المتناقضة بين العبادة وارتكاب الاثم على صلتهم بالرسول ونسبهم العربى الذى ينتهى اليه ، معتقدين أنهم بتلك الصلة فوق المحاسبة والجزاء على ما يفعلون أو أن الرسول ربما يشفع لهم عند خالقهم ٠ وهذا فساد فى المعتقد واضطراب فى الفهم لا يقره الاسلام ولا يعترف به وقد كشف السحار عن زيف احتجاجهم بذلك ٠ مبينا رؤية الاسلام الصحيحة ومبدأ التفاضل فيه نجد ذلك فى رد جمال عبد السلام على عقيل الذى وقف مزهوا بنفسه لأنه ذكر على مسامعه حديثا من قول الرسول ٠ فقال فى خيلاء :

ـ هذا قول جدى ٠

ـ انه شرف عظيم أن تكون من نسل النبى ٠ ولكن هذا وحده لا يكفى ٠

ـ انك تصلى وتسلم علينا فى صلاتك ٠ نحن آل محمد ٠

ـ أعتقد أننا نصلى على آل محمد الصالحين الأبرار وأحب أن أذكرك أن الاسلام قد جاء ليقضى على العصبية والجاهلية الأولى وأن الرسول هو القائل : لافضل لعربى على عجمى الا بالتقوى (٢) ، وعلى ذلك فليس لك أى فضل على أدنى مسلم الا بالعمل الصالح ولو كنت من نسل الرسول ٠

فقال فى حماسة :

ـ اننى من نسل النبى ٠ فانا من الأسرة الهاشمية وعندى شجرة النسب ٠

---

(١) المصدر السابق ص ١٢١ ٠

(٢) جزء من حديث أخرجه الامام أحمد فى مسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم ٠ أنظر المنتخب من السنة النبوية الشريفة طبع المجلس الأعلى للشئون الاسلامية جزء ٣ ص ٣٢٠ ٠

فقلت فى بساطة :

ــ ان شجرة النسب تباع فى مصر بعشرين قرشا لكل من يريد ان يربط الأسباب بينه وبين النبى واظن أنك تذكر أن فاروقا وجد له مكانا فى الدوحة الشريفة) (١) ٠

ولا ينسى السحار فى زحمة عرضه للصور المتناقضة فى حياة أبطاله أن يطلعنا على تصوره للتدين ومفهومه لما يجب أن يكون الانسان عليه ٠ وقدبلور مواقفه من خلال الشخصية التى استعان بها لرواية الأحداث والمشاهدات وهى شخصية « جمال عبد السلام » الذى تبدو من أول الأمر على وعى كامل بالدين وطبيعته ٠ فهو مؤمن بالله مذعن لكل ما تاتى به المقادير ٠ لا يحاول أبدا أن يلوى عنق القدر (٢) ولا يضيق أو يتبرم اذا ما صادف حياته بعض الضيق وانما يسلم أمره للقوة العليا القادرة وقد كان تسليم أمره لله سببا فى كل ما ينعم به من راحة نفس وعلو أنف وخلو بال (٣) ٠

وهو أيضا مؤمن بالغيب ولا يحاول أن يشرئب بعنقه اليه (٤) ومع هذا الايمان٠ لا يشرب الخمر ولا يرتكب المنكر ولا يعرف العبث بالنساء ٠ ولكنه لا يمانع أبدا فى الذهاب الى السينما أو الى البار ولا يعتبر شيئا من ذلك تناقضا مادام بعيدا عن الرذيلة٠ بل انه يعتبر أن محك الايمان الصحيح أن تستطيع كبح جماح النفس فى الوقت الذى تتوافر لديك وسائل الانزلاق الى مهاوى الاثم ٠ وقد عبر عن فلسفته تلك بقوله : (اننى لا أعتبر العاكف فى صومعته عابدا ، لابد للانسان أن ينغمس فى الحياة وأن يصون نفسه ، العبادة الحقة فى نظرى هى قدرتك على أن تذكر الله وتسبحه ولو كنت فى ماخور ٠٠ فقال سامى ضاحكا ٠

ــ أين ذلك الذى يذكر الله فى ساعة لهوه ؟!

ــ أذكر أننى حمدت الله مرة وسبحت له وأنا فى كباريه فقال وهو يضع يده على كتفى (جمال عبد السلام)

ــ أنت عابد مودرن ٠

فقلت له وأنا أبتسم :

ــ بل عابد مطبوع (٥) ٠

وقد اتضح هذا التصور للتدين والعبادة فى موقف آخر بين جمال عبد السلام ومصطفى البديوى ٠ فقد دخل عليه مصطفى ذات مرة وهو يصلى المغرب فى خشوع وعندما انتهى من صلاته قال له :

---

(١) وكان مساء ص ١٥٥ ٠

(٢) المصدر السابق ص ٧ ، ٩ ٠

(٣) المصدر السابق ص ١٠ ٠

(٤) المصدر السابق ص ١١ ٠

(٥) المصدر السابق ص ١٤٢ ٠

ـ انت محير · من يرك وأنت تصول وتجول بين الحسان يقسم أنك زير نساء · ولا أحسب أن هناك من يصدق أنك عابد متبتل ·

ـ لماذا ·· ؟

ـ كيف يمكن أن تجمع بين المتناقضين · الصلاة ومغازلة النساء في جرأة ·

ـ لا أرى أي تناقض في ذلك · ان مغازلتي النساء نوع من العبادة ·

ـ بالله دع الهزرمة وكلمني كما أكلمك ·

ـ هذا ليس هذار · هذا نوع من التصوف انني لا أؤمن أن العبادة مقاطعة الناس والاعتكاف في صومعة ، ولا أعتقد أن قصر اليد أو عدم القدرة أو موات الحركة ضرب من التعفف ، ان التعفف الحق أن تكون قادرا وأن تتوفر لك السبل ثم تترفع لذلك تجدني أسير في الطريق حتى اذا ما كدت أشرف على نهايته كبحت جماح نفسي وعدت ادراجي ·

ـ هذه تجربة محفوفة بالمخاطر · هذا لعب بالنار ·

ـ اللعب بالنار يحتاج الى مران ·· الحاوي يضع النار في فمه دون أن تحرقه ·

ـ وما الذي يرغمك على هذا ؟ ·

ـ قد يكون غرورا · وقد تكون لذة الانتصار على النفس (١) ·

فالمحك الحقيقي للتدين لا يكون الا اذا واجهت النفس البشرية حياتها على أرض الواقع وما يمتلأ به من فتنة وابتلاء ، فاذا استقام لها شأنها رغم توفر عوامل السفه كانت على درجة من الايمان قوية ، لا تستطيع أن تزلزلها الأعاصير ·

أما الجلوس في صومعة والابتعاد عن مجال الافتتان والابتلاء فلا يعتبره السحار محكما أصيلا للتدين ، ويبدو أن هذا التصور كان نابعا من تجربة حقيقية ذاتية عاشها السحار في حياته·وخرج منها بهذا الفهم·فقد كان اذا تعرض لموقف من مواقف الابتلاء تزدحم نفسه بالصراع بين طبيعة الخير فيه وبين نوازع الشر وما تريد لنفسها من الحرية والانطلاق ويظل الصراع محتدما حتى ينتصر صوت الروح على صـوت المادة ويرتفع سلطان السماء في نفسه على سلطان الأرض ·

نجد ذلك واضحا في حياته عندما أحب فتاة يهودية داعرة من الرأس الى القدم · كان يحبها حب روح لروح أما هي فكانت تنظر اليه على أنه جسد وشـهوة ولكنه لم يستسلم لها بل راح يقاوم تيارها · نجد ذلك في قوله ـ (أحببت فتاة في « الظاهر » وان كانت داعرة من الرأس الى القدم كان سيري الى جوارها متعة وحديثي اليها يرفعني عن الأرض ، وكلماتها تنسكب شهية في روحي ، ولكن كرامتي ثارت على ثورة عارمة وراحت تؤنبني على ربط الأسباب بيني وبين بغي لا تعرف الا الاستجابة الرخيصـة

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٩ ·

لنزواتها ، وكانت معركة عبودية الروح وحريتها بين الاستسلام للقلب أو الانقياد للعقل ، انه صراع مرير بذرت فيه بذور نموى الروحي وبدأت حياتى الباطنية تتعمق وجعلت أهيب بارادتى أن تعبر هذا الجسر) (١) ٠

وفعلا تمكن من العبور ولم يجد لنفسه ملجأ الا الله فراح يصلى له (وما كانت صلاتى لضغط من أبى أو أمي بل كانت عن اقتناع ، لقد كنت أرى الله في كل ما أمد اليه عيني ، ولم يكن طريق الفضيلة مفروشا بالورد ، انه طريق شاق ليس فيه الا مجاهدة وعنت وارهاق) (٢) ٠

والمؤمن الحق هو الذى يستطيع اجتياز الطريق مهما كان مزدحما بالأوحال ٠ وهكذا فعل (جمال عبد السلام) في (وكان مساء)فقد ذكر لمحدثه مصطفى البديوى ـ أنه كان يصلى ويدعو الله ولكن صلاته ودعاءه أخذا طابعا روتينيا ولم يستشعر فيهما حرارة الايمان فعزم على أن يخوض الحياة ويعيش مع العصاة قال لمصطفى البديوى :

ـ لم ينشرح صدرى لما وصلت اليه لذلك عزمت على أن أخوض الحياة وأعيش مع العصاة ، وأسهر مع السكارى وأجالس البغايا وأن أصون نفسي فاذا قالت فتاة هيت لك ، تعففت تقربا الى الله (٣) ٠

وهكذا وجدنا السحار في عرضه لقضية الانفصام بين المعتقد الديني والسلوكى قد تناول قضية من أخطر القضايا التى تواجه المسلم المعاصر والتى تهدد المسلمين بفقدان ذاتيتهم وأصالتهم الحضارية التي تواءم الفكر فيها مع العمل والسلوك فصنعت الأمجاد وحققت الرفعة في عصر ازدهار القوة الاسلامية ٠ أما الآن فان ظاهرة الانفصام هذه ليست الا صورة من صور الضعف جدير بالمسلمين أن يتنزهوا عنها وأن يتخلصوا من كل مظاهرها ٠٠ وحتي لا يفهم المغرضون أن التدين انغلاق واعتزال للحياة في صومعة ٠ أبان السحار لنافى فهمه للتدين الحق ٠ أن النزول الى الساحة ومواجهة التحديات على أرض الواقع هو المقياس الوحيد للصحة الايمانية ٠ وبه تتبدى دلائل الايمان الرشيد ، وقد عرض ذلك كله في جو من الفنية الروائية بعيدا عن الوعظ المباشر والحكمة التقديرية فحقق المتعة الى جانب التماس العبرة ورسم بنظرته الثاقبة أبعاد الحركة على مستوى الأشخاص والأحداث بما يحقق الغاية التى ينشدها الأدب الهادف ٠

خامسا : معالجته لقضية الايمان في مواجهة الالحاد المادى :

وفى هذا المجال انطلق السحار باحثا عن بيئة اجتماعية تعيش حياة التحلل والانحراف في صباحها ومسائها ، وتأخذ نفسها بالقيم المادية وما يغلفها من ضباب وتمزق وحيرة ضارية جعلت الناس رغم توفر مقومات الوجود المادى وما يتيحه لهم من

---

(١) هذه حياتى ص ٢٨٤ ٠

(٢) المصدر السابق ص ٣٠٣

(٣) وكان مساء ٠ للسحار ص ١٨٠ ٠

أمن كاذب وسعادة مصطنعة ، لايشعرون أمنا ولا يعيشون سعادة ، لأنهم فقدوا مقومات الحياة الروحية وأغلقوا نوافذ قلوبهم عن الاستماع لصوت الايمان ، فلم يعرفوا ربا ولم يعتنقوا دينا ، وكانت البيئة التى رصد السحار مكونات حياتها على ضوء من تفسيره الدينى أخصب ما تكون تحللا وانحرافا فى مدينة « هامبورج » فى ألمانيا حيث الملاهى والخمور والأجساد العارية فأصدر قصته « جسر الشيطان » على شكل رحلة قام فيها برصد معالم الحياة فى تلك المدينة وتعرف على مناحى الفساد فيها وكشف أبعاد ذلك الفساد بنظرته الثاقبة وفكره الشرقى الذى ذهب محملا به الى هناك ليواجه صدام المادة ويعاين عن قرب ما أحدثته فى حياة الناس من فوضى واضطراب فى العقيدة والسلوك مستعينا بشخصية رئيسية فى ادارة الحوار واكتشاف مجاهل ذلك العالم وما يغلفه من وهم وضباب ·

وكان (على) المهندس المصرى الشاب المؤمن هو تلك الشخصية التى انطلقت الى هناك وتجولت فى سراديب المدينة الغربية ورأت معالم الفساد فيها · فراحت تكشف عن زيف الحضارة الغربية وتقاوم أفكار التحلل والانحراف وتخوض التجربة الايمانية بكل مقوماتها على أرض الواقع هناك ·

والقصة وان كانت من أدب الرحلات الا أنها فى رأيى تعد من القصص الاجتماعى الفكرى الذى ينهض على عرض معالم الحياة الاجتماعية للبيئة التى يعالجها الكاتب من خلال قصة ثم يطرح من خلالها تصوراته وأفكاره الخاصة على ضوء رؤيته للواقع الاجتماعى وما يمتلى به من قيم وعادات وتقاليد ، وقد نجح السحار فى اعطاء قارىء هذه القصة تصورا كاملا لعالم الحياة فى البيئة الأوربية التى اعتمد عليها فى تشكيله للقصة ، كما نجح فى عرض تصوراته وأفكاره الاسلامية من خلال الشخصية التى انتخبها لتأدية دور المواجهة مع الفكر الغربى حيث منحها من القوة الذاتية والمرونة الايمانية ما يجعلها تتحرك بسهولة ويسر فى المكان (بيئة القصة) ·

فعلى متدين غير منغلق لا بأس عنده فى التجوال بين ربوع المدينة ورؤية العرى فيها ، ولا ضير عليه من الجلوس فى الملاهى ومحادثة النساء والفتيات ورؤية الخمر لأنه على الرغم من كل ما يرى مسلم متدين يعرف حدود دينه ولا يسمح لنفسه أن تنزلق الى درك اللذة أو تنتهك حرمة الفضيلة · انه كان ينظر الى كل شىء مشدوه العينين ، فراح يراقب عن كثب زيف البهجة المغلفة بضباب اللذة · ويلقى ببصره الى كل ما حوله ومن حوله من البشر وقد أصبح الجميع سكارى منتشين فالخمر تملأ الأفواه ، والعقول تترنح، والنساء عاريات، واللذة العارمة تطل برأسها كالأفعى تبتلع كل شىء الا هو،فقد وقف مشدوها لايبالى بنظرات الازدراء التى تصوب نحوه لأنه لا يشرب سوى الكاستا أو الكوكاكولا ·

وتعرف فى الملهى الليلى على (آنى) تلك الفتاة الساقطة التى قذفت بها الحياة الى هذا الجو المشحون بالجنس واللذة · فغرقت فيه الى الاعماق ولم يعد فى حياتها لأى

شيء قيمة ٠ بل ان الحياة في رأيها عارية من كل قيمة الا قيمة المنفعة ، ومن أول لحظة في لقاء على بها وهو يعبر عن وجوده وأخلاقه الشرقية وقيمه الدينية التي يؤمن بها ٠ وقد أخذ على نفسه انتشال هذه المرأة من درك الرذيلة والارتفاع بها الى مدارج السمو ٠ وكأنه صاحب رسالة معنى بها ويريد أن يشد الناس اليها وقد كان ٠

على أن السحار في معالجته لذلك الواقع الانحرافي لم يفاجئنا بالقضية الأساسية التي أخذ نفسه بها من أول الأمر — وهي قضية الايمان — بل انه حاول من خلال بطل قصته (على) كشف بعض القيم الفرعية وصولا الى القيمة الايمانية الكبرى ٠٠ وفي الوقت ذاته راح يكشف التصور الغربي للحياة والقيم السائدة فيها ٠ ففي الحوار الذي دار بين « على » و « آني » أول مرة سألها عن الصداقة والأصدقاء وعن الأمومة والبيت ٠ فقالت :

الصداقة وهم الكل يتعارف لمنفعة خاصة ، والأمومة لا شيء انها لم تعرفها فكيف تشعر بها ٠ وطال الحوار بينهما فقال معبرا عن أسفه لتلك اللحظات التي أضاعها عليها بسبب حواره ٠ قال :

— آسف ان كنت قد أخذت منك وقتا طويلا دون مقابل ٠

فقالت وهي تمد له يدها مصافحة :

— هذه احدى مساوئ الصداقة ٠

— بل احدى حسناتها ٠ انها تعلمنا كيف نجود دون أن ننتظر جزاء ٠

— أو يطعمنا هذا ؟ ٠

— ليس بالخبز وحده يحيا الانسان (١) ٠

والسحار في هذا الحوار على قصره يريد أن يقول : ان الحياة ليست فقط في اجتلاب كل ما يمد البدن بالقوة الجسدية من طعام أو شراب ٠ فالانسان بقدر حاجته الى ما يحفظ حياته من مقومات البدن ٠٠٠ في أشد الحاجة الى ما يقيم حياة الروح أما هي فقد عبرت عن وجهة النظر المادية التي تحتكم الى المنفعة كقيمة أساسية محركة للدوافع البشرية ٠ ولا شيء غيرها في حياة الناس الا ما يندرج تحت سلطان الوهم ولا خير فيه ٠

وتمضي القصة ويتكرر اللقاء بين الشرق « على » وبين الغرب « آني » ومن خلال اللقاء تتضح أبعاد الرؤية الدينية للمواقف والأفكار فعلى كان لايستشعر راحة كلما رآها عارية الجسد (٢) واذا تذكرها في خياله (بجسمها الممتلئ عند الأرداف وصدرها الناهد النافر كان يهرع بتفكيره الى أشياء أخرى ليمحو تلك الصورة العارية التي تبعث في نفسها القلق (٣) ٠

---

(١) جسر الشيطان ٠ عبد الحميد جوده السحار ص ٣٥ وما بعدها ٠

(٢) المصدر السابق ص ٤٤ ٠

(٣) المصدر السابق ص ٣٩ ٠

وكان يطمئن اليها ويحس أنها قريبة الى نفسه وهي في ثيابها فلا تنتابه موجة الرهبة التى يثيرها برمه بأن تعرض امرأة مفاتنها على الملأ (١) ·

وقدم لها فى احدى لقاءاته صينية من صنع بلاده ، عليها بعض الكلمات والنقوش، وعندما تعرفت عليها وأن فيها ذكر الله قالت :

ـ لابد أن هذه الصينية مأخوذة عن أصل قديم ، مغرق في القدم ·

فقال وهو يضع فنجان الشاى :

ـ وما الذى جعلك تظنين ذلك ·· ؟

ـ ولأن هذا الكلام قديم لا مكان له اليوم في دنيانا ، لم نعد نؤمن الا بما نلمسه بأيدينا أو تراه أعيننا ، أو تسمعه آذاننا ، أو تشمه أنوفنا أو تذوقه ألسنتنا ·

فقال لها في هدوء :

ـ ولكننا لا نبدأ عملا الا ونذكر اسم الله عليه ·

ـ مجرد عادة ·

ـ بل عن ايمان عميق منا ، أن الله معنا أينما كنا ، نستشعره فى نفوسنا ونقدم اليه كل أعمالنا ، ونسأله العون والفرج اذا أقدمنا على عمل أو حل بنا الضيق ، وقد عودنا الاستجابة لدعائنا ·

فقالت في انفعال :

ـ لم أحس وجود الله فى أية لحظة من لحظات حياتى ، كنت أسير فى الظلمات وحدى أتجرع المر وأتمرغ فى الطين ، ولا أحد يرحم ضعفى أو يأخذ بيدى · لو كان الله موجودا ما تركنى دونما ذنب للهوان والتشريد ·

ـ ذلك لأنك أغلقت قلبك دونه ولم ترفعى بصرك اليه فلو أنك دعوته لاستجاب لك وأنار ظلمات نفسك وأمدك بروح من عنده · فهو رءوف رحيم ·

ـ أمن الرحمة أن أجد نفسى فى هذه الدنيا ضالة لا أعرف من أنا أو من أين جئت أو الى أين أسير (٢) ·

وراحت تحكى لعلى قصة بؤسها وتشريدها والهوان الذى لقيته دون ذنب ارتكبته ولا ترى سببا وراء ذلك العذاب ·

فقال لها فى هدوء :

ـ لعل فى هذا حكمة ·

---

(١) المصدر السابق ص ٤٤ ·

(٢) المصدر السابق ص ٤٥ وما بعدها ·

فقالت فى سخرية :

ـ أى حكمة ٠٠ ؟

فقالت فى اخلاص :

ـ لست الها لأعرف حكمته ، وليس لى أن أسأله عما يفعل ولا أن أحكم بعقلى المحدود على أفعاله (١) ٠

وظلت على موقفها المنكر لوجود الله لأنه لو كان موجودا لرفع عنها ما حل بها من ذل وتشريد ولما سكت على ما فى الأرض من شرور وآثار ٠ فقال لى :

ـ الله أرأف بالناس من أنفسهم ، فلو أنه آخذهم على ما اقترفوا من آثام لما أبقى على أحد منهم ولكنه يمهلهم لعلهم يستغفرونه ويتوبون اليه فيتوب عليهم ويدخلهم فى رحمته ، ان الطريق الى الله زاخر بالآلام والدموع ، بالشرور والآثام (٢) ٠

ومن خلال الحوار السابق يتضح لنا مدى التحلل العقائدى الذى وصل اليه الانسان الأوربى الذى ينكر وجود الله ويؤمن بالمادة على الرغم من عدم تمكنها من حل جميع مشاكله واحتياجاته ٠ فالقلق والتأزم والاحساس بالضياع وغير ذلك من عوامل الضعف والحيرة لا زالت تغلف جو الحياة الأوربية هناك ، كما يتضح من الحواربروز الجانب الايمانى فى فكر « على » الشخصية الشرقية حيث تراه يعتمد فى اثبات وجود الله على أصول الفكرة الاسلامية عن الله حتى أوشكت عباراته أن تتحول الى تفسير لبعض الآيات القرآنية التى وردت فى القرآن الكريم مؤكدة وجود الله وحكمته المستورة وراء أفعاله ٠ فالله موجود قريب من الناس ان هم سألوه أعطاهم ، وان حجبوا قلوبهم عن نوره جاحدين عمهم البلاء وضاقت بهم السبل ، وقد يكون من الحكمة انزال البلاء ببعض الناس لاختبار ايمانهم ولا يحق لنا أن نحكم بعقولنا المحدودة على أفعاله أو نسأله عما يفعل ٠

وعندما تتمادى فى اعلان كفرها بالله وجحودها آياته لأنه ـ فى زعمها ـ لو كان موجودا ما تركها تعانى الذل والتشريد ولما ترك الشر يفترش الانسان ٠ وهنا نجد عليا يعلن فى ايمان أن الله لو أخذ الناس بظلمهم ما ترك على الأرض أحدا ولكنه يدع لهم الفرصة للتوبة والانابة اليه ٠ فيتوب عليهم ويرحمهم ومن خلال اجابته تلك يتضح أثر التزامه بالمنهج القرآنى وتأثره بأسلوبه (٣) وعلى الرغم من وضوح الدلائل المؤكدة للايمان الا أنها تعلن على مسمعه فى سفور أن الله وهم ٠ ولم ييأس على منها بل راح يقول لها فى هدوء :

---

(١) المصدر السابق ص ٤٧ ٠

(٢) المصدر السابق والصفحة نفسها ٠

(٣) والاجابة كما هو واضح تفسير للآية القرآنية (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) ٦١ من سورة النحل ٠

ـ اذا أردنا أن نقضى على منابت الضعف فينا ، فعلينا أن نملأ أنفسنا بايمان عميق تفيض به جوانحنا ، وليس هناك أعظم من الايمان بالله ٠

فقالت :

ـ أتريد أن أؤمن بوهم ٠

ـ ان الله حق ولا قيمة لحياة الناس ان هم فقدوا الايمان به ، فالذين أنكروا وجود الله لم يستطيعوا أن يعيشوا بغير ايمان ٠ فخلقوا لأنفسهم آلهة جديدة (١) ٠

ولكن آلهتهم التى صنعوها لم تحقق لهم الأمن والسعادة فعاشوا فى الضياع لأن الايمان بالله هو الأساس فى بناء السعادة وتحقيق الأمن للانسانية ٠ ومهما أجهد العلماء والباحثون أنفسهم فى البحث عن الحقيقة ومعرفة سر الحياة الأعظم ، فلن يصلوا الى شيء منها ما دامت قلوبهم محجوبة عن نور الايمان لأن الله هو الحقيقة الوحيدة التى لم تتبدل منذ الأزل وستظل كما هى الى الأبد ، من أسلم لها نفسه عاش آمنا مطمئنا ، ومن جحدها قاسى من القلق والخوف (٢) ٠

ولم يتوقف على لحظة واحدة عن محاولة اقحامها بالحجة والبرهان معتمدا على الحوار الهادىء وملتزما بالمنهج القويم فى الدعوة الى الله بالتى هى أحسن دون نفور أو شطط ٠

ولم يشأ أن يثقل عليها أكثر من ذلك فتركها لنفسها تفكر فيما أعلن عليها من قيم الايمان وسطوته ٠ ولم يضع مجهوده سدى فقد أحست بشيء من التغيير فى حياتها وتفكيرها ٠ فعادت اليه وهى الغانية اللعوب بما تبقى لديها من زهو تعلن أن العالم لم يعد مستورا فقد تولى العلماء تعريف الناس بأسراره وأخباره فأصبح العلم الحديث يقوم بدور البديل عن الايمان فى تحقيق الأمن والرفاهية للانسانية ٠ فدارون قد اكتشف حقيقة الانسان و « فرويد » قد كشف مجاهل النفس البشرية و « اينشتين » قد أزاح المستور من ظواهر الكون الى غير ذلك من الجهود التى بذلها العلماء فى سبيل الوصول الى تفسيرات ملائمة للكون والحياة ولم يشأ على أن يصمت فى مواجهة هذا الزهو فأعلن أن العلم الحديث وان تطاول به الأوربيون على الانسانية الا أنه لا يعدل قطرة فى محيط علم الله (٣) ٠

وأن علم الأوربيين قد أخفق فى تحقيق الأمن والسعادة للبشر لأنه قد ضل الطريق من أول لحظة عندما ترك العلماء الله وجحدوا وجوده لأنهم توصلوا الى معرفة بعض أسرار خلقه نجد ذلك فى قوله : (عيبنا أننا مغرورون ، تطاولنا على الله فتزعناه من ضمائرنا لا لشيء الا لأننا توصلنا الى بعض أسرار خلقه ، واستطعنا فى المعمل

---

(١) جسر الشيطان للسحار ر ص ٤٨ ٠

(٢) المصدر السابق ص ٥٠ ٠

(٣) المصدر السابق ص ٥٣ ٠

أن نركب مواد لم تخلق عناصرها ان الذرة التى حطمناها لم نخلقها نحن ، ولكن خلقها الله والفضاء الذى ارتدناه كان موجودا قبل أن تدب على الأرض دابة أو يخلق أول انسان ـ ولا أقول أول قرد ـ ان معامل الأرض جميعا لم تستطع حتى هـذه اللحظة أن تقضى على الأنفلونزا وحاشاى أن أقول أن تخلق بعوضة ، فما كان الخلق من صفاتها (١) ٠

ومع تكثيف الحوار ووضوح الحجة بذرت في حياتها بذور الايمان وراح على يتعهدها بالتطهير حتى تغيرت ٠ فما كان عهدها بالرجال هذا العهد ان الرجال جميعا قد عرفتهم لا يريدون منها الا اللذة أما على فهو صنف آخر من الناس لا تشم منه غير بهجة النور وقد جذبها الى دائرة الايمان رغم محاولاتها المتكررة للتخلص منه ومن حواره الجاف ٠ وأحست بقلق لذيذ لأول مرة ٠ فعلى في بيتها ومع ذلك لم تستطع أن تعطيه ما تجود به على آلاف الرجال في كل مساء ٠ وجعلت تردد فى نفسها (ما أجمل أن يستطيع الانسان بكل ما فيه من نوازع وطيش ورغبات أن يملك ناصية نفسه ويسيطر على الوحش الكامن فيه) (٢) ٠

وكان مظهر التغيير فيما أصابها أن قامت بمسح أحمر الشفاه وتبديل ثيابها بما يتناسب وطبيعة العفاف مع الضيف الغريب ٠

ولم يشأ السـحار أن يترك الموقف نهبا للنوازع والرغبات بل راح يعلى قدر صاحب الرسالة وجهده في سبيل انتزاع « آني » من درك الرذيلة الى حياة السمو في رحاب الايمان ٠ فعلى الرغم من حالة الشعور باليأس التى تعيشها حاول « على أن يبذر فى نفسها الأمل فى حياة جديدة تعيشها فى رحاب قيم جديدة عليها ٠ فعندما اعترفت له بأن طريق الغواية الذى سارت فيه كانت مأخوذة بفكرة التماس الأمن فى المال وتأمين الحياة بالغنى ٠ سألها :

ــ هل أصبحت غنية ٠ ؟ ــ لا ليس بعد

ــ ولن تصبحي غنية مهما ادخرت من مال ٠

ــ لن أصبح غنية لماذا ٠٠ ؟

ــ لأن المال كالماء الملح كلما شربنا منه لم نرتو ٠ فطالب المال لا يكتفى أبدا ٠ ويعيش فى قلق لا يعرف الراحة ولا الاستقرار ، ان حاجاتنا فى هذه الأرض محدودة وكل ما زاد على ضرورات الحياة فهو هباء ٠ ان من يريد أن يكنز حقا فليكنز فى السماء، يعاون الناس ويكف عنهم أذاه ، يغيث الملهوف ويعطى السائل والمحروم ، بذلك يدخر حسنات تنفعه في حياته الأبدية ، ويجزيه الله عنها خير الجزاء (٣) ٠

(١) المصدر السابق ص ٥٦ ٠

(٢) المصدر السابق ص ٩٢ ٠

(٣) المصدر السابق ص ٧٩ ٠

ونلاحظ على السحار أنه بعد أن غرس بذرة الايمان في قلبها بواسطة « على » راح يطهرها من أدران المادة ويوجه مسار حياتها الى ما فيه النفع لها فى عاجل أمرها وآجله فى أسلوب أقرب الى الوعظ منه الى الصياغة الفنية ومما يعيب هذه القصة على عظم شأنها ٠ أن السحار أثقلها بالتيار الفكرى فيما يعالج من موضوعات وتحول أسلوبه فى معظم الأحيان الى لوحات وعظية تقريرية ٠ تطول أحيانا حتى تصل الى صفحات كاملة في الحوار ٠ الذى استعان به فى تجلية المواقف وبلورة الآراء ٠ ومما ساعد على تكثيف الجو وغلبة النزعة الفكرية عليه في هذه القصة قلة عدد الشخصيات فى البناء الروائى حيث اعتمدت فى تصميمها على شخصيتين رئيسيتين هما (على) و (آنى) وبرزت بعض الشخصيات الهامشية على سطح الأحداث والحوار وتعرفنا عليها عن طريق الحكاية ، أو جاءت عارضة على لسان على أو صاحبته الألمانية ٠ ولعل القيمة الحقيقية للقصة تكمن فى الأساس الأول ٠ فى محاولة السحار وبلوة فكره الايمانى فى مواجهة الزيف المادى والحياة الأوربية ٠٠ وهى محاولة نادرة الحدوث فى معالجات الأدباء المعاصرين ٠

ولو أن السحار توسل فى ذلك بحركة الحياة التى تكشف للمتأمل عن وجود الله وقدرته بدلا من هذا الحوار الفكرى الذى غلب على القصة لنجا بها من هذا المنزلق وخلصها من هذا الجمود الذى كاد يشل الحركة القصصية فيها ، وقد وجدنا أثرا لذلك من خلال عرضنا لملامح التيار الاسلامى فى قصصه الاجتماعية ٠

الفصـل الثالث

القصة القصيرة

لم يحفل نقاد السحار على قلتهم بما أصدر فى مجال القصة القصيرة على الرغم من توفر الكم الهائل الذى أصدره فى هذا النوع معالجا فيه عددا من القضـايا ذات الأهمية فى المجتمع المعاصر ، وهو الى جانب كثرته العددية قد توفر على عناصر الفن القصصى ومقوماته الفنية فى معظم الأحيان ٠

فقد أصدر مع بداية نموه الأدبى مجموعة من الصور القصصية تناول فيهـا عددا من معايب المجتمع فى دائرة العمل الوظيفى عن طريق رصده المتـأنى للحـركة السلبية التى تغلف أجواء تلك البيئة ٠ فكانت مجموعته الأولى (فى الوظيفة) ١٩٤٤ ، تمثل لونا من النقد الاجتماعى الهادف الذى يصدر فيه الكاتب عن وعى أصيل بمسار الحركة الاجتماعية والعوامل المحركة لسلوك الأفراد على ساحتها ٠ ثم تتابعت بعـد ذلك أعماله الفنية فى مجال القصة القصيرة ٠ فكانت (هزات الشياطين) ١٩٤٦ بما تضمنت من قصص ذات مستوى خاص تتصل فى صميم تكوينها الفنى وتيارها الفكرى بحركة الوعى النامية لدى الفنان ونظرته الثاقبة لعوامل الصراع النفسى بين طبيعـة الخير ونوازع الشر فى الانسان ٠ والسحار فى هذه المجموعة لا يقل درجة عن بعض الأدباء الذين لقوا من الحفاوة والتكريم ازاء ما قدموا من قصص تعتمد على التحليـل النفسى أساسا فى بلورة الشخصيات وتفسير النوازع التى يصدرون عنها فيما يباشرون من أفعال ٠ وكانت مجموعة أقاصيصه الدينية التى أصدرها سنة ١٩٥٢ تحت عنوان (قصص من الكتب المقدسة) تمثل نظرة منفردة واتجاها متميزا للانحياز نحو التاريخ واستمداد مثله واستلهام أمجاده فى صياغة آيات من الفن الجميل بهدف تقديم العظة والاعتبار وابراز المثل الأعلى فى حياة الأنبياء والصالحين للاحتـذاء بهم فيه والاقتداء بمسلكهم فيما واجهوا من ظلم الظالمين وعنت المتكبرين ، وهذه المجموعة بما تضمنت من قصص دينى هادف انما تمثل وعى السحار بالحاضر والماضى على السواء وصدوره عن نظرة سامية ورؤية شاملة فيما يقدم من موضوعات تنوعت فى مجموعاته السابقـة فوجدنا منها النقد الاجتماعى الهادف ، ورصد حركة الانسان وصراع النوازع فى داخله

وموقفه من قضايا الكون والحياة ، كما وجدنا العظة والعبرة تقدم من خلال حقائق التاريخ في أسلوب قصصي بديع يعتمد فيه على الحكاية باعتبارها الأساس الجوهري للفن القصصي والركيزة الأولية التي تنهض عليها عملية الصياغة الفنية ثم يستخدم من عناصر الفن المستحدثة ما تهيأ له بفضل ثقافته الأدبية وممارسته الفنية الواعية ٠ وفضلا عن ذلك فقد استمر على طريق القصة القصيرة يقدم منها أشكالا متطورة أخرى تمثلت في (صدى السنين ١٩٥٣) وبعد وفاته قامت دار مصر للطباعة بنشر بعض قصصه في مجموعات ثلاثة كانت (خفقات قلب) و (صور وذكريات) و (كشك الموسيقى) وصدرت جميعها سنة ١٩٨١ ٠ وقد كانت السمة الغالبة على نتاج السحار في هذه المجموعات تتمثل في رؤيته الواقعية للحركة الاجتماعية الحديثة وما طرأ على الحياة من تغيير في القيم والسلوك فرأيناه يقدم أنماطا عديدة لصور الاهتزاز الذى أصاب الحياة الاجتماعية نتيجة لاستجلاب بعض العادات والقيم الوافدة ، التي لا تتصل بحياة المجتمع العربي ولا تمثل وعيه الحضاري ، ولا تعبر عن أصالته الذاتية ٠ كما وجدناه يحرص على ابراز جانب المواجهة الحضارية لهذا التيار الوافد من خلال ما قدم من شخصيات وما صور من تناقضات ٠

ولما كانت حركة المرأة في الحياة الاجتماعية المعاصرة وما اكتنفها من مغالاة في التحرر والسفور من أبرز مظاهر فساد الحياة الاجتماعية وسببا في تعويق حركة الوعي الناهض عن القيام بدوره الفعال في بناء الحياة الحديثة على أسس من الأصالة الحضارية والوعي الذاتي ٠ فقد شغل السحار بها وراح يرصد حركتها من منظور فكري خاص يتصل في أبعاده بالفكر الاسلامي وأصالته باعتباره أحد المقومات الأساسية للشخصية العربية وقد رأينا هذا الاهتمام يتمثل واضحا في مجموعاته القصصية خصوصا في (صدى السنين) وما صدر بعدها من مجموعات ٠

بينما وجدناه في (ليلة عاصفة) خاصة يتناول بالمعالجة الفنية صورا عديدة لمظاهر النزوع المادي في البيئات التي ارتحل اليها ٠ فقد كشف القناع عن سيطرة النزعة المادية الالحادية على السلوك والتفكير في تلك البيئات من خلال رؤية اسلامية واعية وفهم أصيل لطبيعة الصراع العالمي ومعالمه على امتداد الساحة العالمية ٠ مؤكدا في كل ما يعالج على القوة الروحية المستمدة من تيار الدين وأنها الأساس في صنع التقدم وتحقيق الأمن للانسان ٠

والسحار في كل ما كتب في هذا المجال لم يلتزم بمنهج فني خاص يمكن تحديده اطارا عاما تفسر أعماله من خلاله تفسيرا جامعا مانعا وانما صدر عن اتجاهات أدبية عديدة لا يمكن الفصل بينها على المسار الزمني في تطور نتاجه الفني ٠

فقد كتب كما قلنا في الفصل الخاص بأدبه ـ قصصا قصيرة تتناول معايب الأفراد وصفاتهم المرضية ، وصور الجانب السلبي في حياتهم وسلوكهم هادفا من وراء ذلك ٠ النقد والاصلاح الاجتماعي مما يعد من أبرز اهتمامات الواقعية الاجتماعية.

كما كتب في هذا النوع القصصي متأثرا بالنزعة الوجدانية التحليلية في القصص التي تتناول الفرد من داخله بحثا عن دوافع الحركة والسلوك ٠

كما كتب عددا من القصص نلمح فيها آثارا واضحة لنزعات فلسفية واتجاهات رمزية عرفت عند غيره من الأدباء المعاصرين ·

الا أنه تفرد عن سواه في تقديمه للصور التاريخية ذات الطابع الديني في أسلوب قصصي مبسط بهدف تقديم العظة والاعتبار على أساس أن التجربة البشرية واحدة وأن الانسان هو محور الحركة في هذا الكون وعليه تقع تبعات عمارة الحياة ، وأنه رغـــم اختلاف البيئة في امتداد الزمان والمكان ، يبقى الانسان هو الانسان بآلامه وآماله ، بنوازع الخير فيه وطبيعة الشر عنده ، فما يقدم من تجارب الماضي ليس الا مرآة يرى الانسان فيها نفسه فيتأصل وعيه بالحاضر وصراعاته وينفذ من خلال بصيرته الى عالم الغد وما يجب أن يكون عليـــه ·

وعلى الرغم من هذه النظرة الشمولية التي يتسم بها فكر السحار في فنه الأدبي وتعدد ألوانه الا أنه لم يحظ باهتمام النقاد خصوصا في مجال القصة القصيرة فلم نر منهم تقديرا للرَجل ولا لفنه ولم نجد فيما طالعنا من كتب النقد وبحوثه من تنـــاول نتاج السحار في هذه الناحية بالنقد والتقويم أو الاشارة الا المرحوم الأستاذ سيد قطب في كتابه (كتب وشخصيات) ·

فقد تناول بعضا من قصص السحار بالنقد وأشاد به فعندما أصدر مجموعتـــه (في الوظيفة) قال عنه (ان صاحب هذه الصور الانتقادية موهوب في فن التصوير السريع ومهما أخذت عليه من عيوب في عمله الفني فانك لا تخطىء الملامح التي يريدها والسحنة التي يبغيها وهذا وحده يكفي) (١) ·

أما عن (وسوسة الشيطان) من مجموعة همزات الشياطين · فهي (مرتبـــة واسعة المدى لا بالقياس الى جميع أعماله بل بالقياس الى أقصى ما كان يتوقعه الناقد لهذه الأعمال) (٢) ·

ان هذه الأقصوصة تقف وحدها متفردة بين هذا الحشو من الأقاصيص ذلك حين تستثنى أقصوصة قنديل أم هاشم (٣) ·

وناقد آخر عرض لبعض قصص السحار بالنقد ·· وبمعوله التقدمي راح يهــدم كل ما قدم من فن في هذا المجال لأنه في رأيه رجعي ومتخلف لم يستوعب حركـــة التطور الاجتماعي في الفترة التي عاشها وقد وضعه ضمن مجموعة من الأدباء يتخذون (في زعمه) موقفا جموديا تجاه الحاضر بمـــا يحملون من قيم الدين ومثاليـــاته

---

(١) كتب وشخصات الأستاذ سيد قطب ص ١٩٠ ·

(٢) المصدر نفسه والصفحة

(٣) المصدر السابق ص ١٩١ والناقد يقارن بين قصة السحار (وسوسة الشيطان) وبين سائر ما صدر من قصص في هذا النوع على مستوى الحياة الأدبية العربية ·

السماوية (١) ويعيب عليه معالجته لقضايا المجتمع المعاصر من منظور الحلال والحرام ، أو ما أطلق عليه (الله والشيطان) (٢) ٠

ويهزأ من موقف السحار من سفور المرأة لأن هذا السفور في رأيه يمثل قمة التطور الاجتماعي والتقدم الحضاري أما السحار فيعتبره دعارة خلقية (٣) ويسجل الناقد حصاد موقفه من السحار ومن رؤيته الفكرية بقوله (ان هذه القيم الانسانية المغلقة لا وجود لها في عالمنا كما أن تجويف الشخصيات وملأها بهذه القيم لا يخلق فينا احساسا بمأساة الواقع (٤) والسحار يمثل رد الفعل العنيف الذي حدث لدى القيم السائدة في حفاظها المستميت على القيادة الروحية للمجتمع (٥) ٠

وهذه النظرة النقدية كما نرى تمثل وجهة نظر متطرفة لمفهوم التقدمية الحضارية ، وتستند في دعوى اثباتها على أسس غربية مادية لا ترى الدين الا معوقا لحركة الحياة ولا تعترف بقوامته عليها ٠ وايجابية حركته واستمرارية وجوده ٠ وهي وان كانت تعتمد على أقنعة وهمية من مقومات الفن وخصائصه ، وتتشكل بالمظاهر النقدية معلنة حرصها على سلامة الفن وصيانة قواعده المقررة ٠ الا أنها تعبر عن اتجاهات مذهبية هدامة ، وتهدف في الأساس الأول الى تشويه الوجه الاسلامي للعرب والقاء تبعة الضعف والتمزق الذي حل بالعالم عليه ٠ وأنه لكي تنطلق المسيرة المتطورة لابد وأن يتخلص الانسان العربي من مواريثه الحضارية وفي مقدمتها الاسلام ٠ الى غير ذلك مما سوف نعرض له في الفصل الخاص بالرؤية الاسلامية والبناء الفني من هذه الدراسة ٠

فالسحار لقي اهمالا شديدا من حركة النقد المواكبة لفترة نشاطه الفني خصوصا في مجال القصة القصيرة على الرغم من توفر نتاجه فيها وجودته من الناحية الفنية ٠ حتى أن معظم الدراسات التي صدرت حول القصة القصيرة لم تشر اليه كواحد من أبرز رواد الحركة القصصية المعاصرة ٠ في الوقت الذي لم تترك فيه واحدا ممن شارك بأدبه في هذا المجال ، وبعض من ذكرتهم لا يرقى أدبه الى مستوى الأدب الرفيع ، والفن الجيد (٦) ٠

---

(١) أزمة الجنس في القصة العربية ـ غالي شكري ص ١١٦ وما بعدها بتصرف ٠

(٢) المصدر السابق ص ٢١٨ ٠

(٣) المصدر السابق ص ٢١٩ ٠

(٤) المصدر السابق ص ٢٢٤ ٠

(٥) المصدر السابق ص ٢٢٧ ٠

(٦) من الدراسات التي تناولت القصة القصيرة كفن وأرخت له وتتبعت ملامح تطوره في الأدب المصري الحديث في الفترة التي عاصرت حياة السحار الأدبية : اتجاهات القصة المصرية القصيرة د٠ سيد حامد النساج وله أيضا : القصة القصيرة وفيهما تاريخ لتطور القصة القصيرة في مصر ولم يترك المؤلف واحدا ممن شارك في هذا المجال ولو بقصة واحدة الا ذكره اللهم الا السحار فلم يرد اسمه أو الاشارة اليه بكلمة واحدة ومن أشهر الدراسات أيضا التي تناولت بعض الأدباء من الفترة نفسها تجارب في الأدب والنقد د٠ شكري عياد والبحث عن طريق جديد للقصة القصيرة المصرية ٠ للاستاذ عبد الرحمن أبو عوف والقصة القصيرة نظريا وتطبيقيا للاستاذ يوسف الشاروني ٠٠ الخ ٠

ولعل السبب في ذلك يرجع الى أن معظم المشتغلين بالنقد والتابعين لحركة الأدب فيما بعد الحرب الثانية ١٩٣٩ كانوا من ذوى الاهتمامات اليسارية والميول الماركسية أو من انصار المذاهب المادية الغربيـــة أو من المخدوعين باتجاهات النقـــد الغـــربى الاستعمارى · وقد أخذوا على عاتقهم ضرورة الدعوة الى أدب جديد يعمل على احـداث التغيير المطلوب لاتاحة الفرصة أمام القيم « الثورية التى يباشرون مهمة الدعوة اليهـا لكي تنبت فى الواقع وتحقق لهم أحلامهم فى القيادة والتوجيه ، ومن هنا كان السحار باتجاهه الاسلامى يمثل فى رأيهم رجعية فكرية لا ينبغى لها أن تسود بل ولا أن توجد من الأســـاس ·

وعلى الرغم من ذلك فان السحار قد باشر مهمته في الدعوة لأدبه من خلال القصة بفنونها المختلفة واتجاهاتها المتعددة وكان له فى مجال القصـة القصيرة من الأعمـــال ما يعد بها وحدها رائدا فى مجاله فقد (أجاد فيه اجادته فى الرواية والقصة ، وقـد ساعدته على هذه الاجادة ثقافته الواسعة المتنوعة والنظرة اللماحة التى عرف بهـــا ، فلا تكاد عينه تقع على حادثة ما الا سارع الى كتابتها وصاغها فى أسلوب شائق يجذب القـــارىء) (١) ·

ولمـا كان المقصد من وراء هذه الدراسة هو البحث عن ملامح التيار الاسـلامى فى قصص السحار فاننا نتوقف عن الاستطراد فى الحديث عن دائرة الفن وما يتصل بها من مقومات وخصائص لنتعرف على معالم الطريق فى رؤيته الفكرية لمـا تناول من موضوعات خصوصا وقد اتضحت بعض هذه المعالم فى القصة التاريخية والقصة الاجتماعية خلال تناولنا لها فى الفصلين السابقين من هذه الدراسة الأمر الذى يجعل البحث عن ذلك فى القصة القصيرة ضرورة حتمية تفرضهـــا طبيعة البحث الأدبى للوقـوف على الامتداد الفكرى فيما أصدره الأديب من أعمال تختلف فى أشكالها الفنية من عمل الى آخر ، ولكنها رغم هذا الاختلاف ، يأتلف تيار الفكر فيها جميعا بما يؤكد فى النهاية صدور الكاتب عن رؤية خاصة تنتظم جميع أعماله · وقـــد رأيناها من خلال تتبعنا لمعالجات السحار الفنية موصولة الأبعاد بالنظرة الاسلامية التى آثرها الكاتب بحـكم نشأته الدينية وثقافته العربية ووعيه الناهض بحضارة الاسلام وقدرتها على السـمو بالانسان الى درجات الكمال ، وقد تبدت ملامح هذه النظرة الاسلامية فى مجال القصة القصيرة على أشكال مختلفة من أهمها ·

أولا : تعريته لمظـــاهر الانحراف السلوكي والأخلاقى :

وفى هذا المجال رأينا الكاتب يصدر فى رصده لحركة الواقع الاجتماعى وما طرأ عليه من قيم مريضة عن وعى أصيل بوظيفة الفن من حيث هو أولا وقبل كل شىء محاولة جمالية للارتفاع بالانسان من مستوى الواقع المهيض الى دائرة السمو الأخلاقى ، ولهذا نراه فى مجموعته القصصية الأولى (فى الوظيفة ١٩٤٤) ينطلق من محور ارتكازى

(١) القصة عند عبد الحميد جودة السحار ـ للباحثة : فاطمة الزهراء عبد الغفار الموافى ص ٢١٧ بتصرف يسير ·

يتمثل في النقد الاجتماعي الهادف للواقع العملي في بعض منعطفاته من خلال معاناة شخصية للأديب لمس فيها عن قرب جوانب الفساد في القيم والسلوك على مستوى بيئة الموظفين ، وقد تمكن من خلال عمله الوظيفي كمترجم في سلاح الطيران الملكي من سبر أغوار النفوس وتعرية سلوكها معتمدا على اللمحة السريعة والعبارة الساخرة فيما صور من لوحات ٠

وهذه النزعة النقدية تتواءم مع منهجه الاخلاقي ودعوته الاصلاحية وهي وأن كانت لا تعلن صراحة عن منهجيتها الاسلامية الا أنها تكمن في ظلال ما يمكن أن نطلق عليه (النهي عن المنكر) فقد رأينا فيما عرضه السحار من صور نقدية في هذه المجموعة رصدا للجوانب السلبية في سلوك كبار الموظفين ومن يدور في فلكهم من الوسطاء وأصحاب المصالح ، وهم جميعا يتصرفون في كل الأمور حسب مقتضيات المنفعة الذاتية دون أن يثنيهم عن الحصول عليها قيمة نبيلة أو ضمير حي ٠ فكل القيم الفاضلة لا معنى لها عندهم ، وان كانوا يتشدقون بها ، ويحرصون على الظهور أمام الناس بلباسها ، نجد شيئا من ذلك في القصة الأولى من هذه المجموعة (بعثه) حيث أبرز السحار جانبا من جوانب الفساد المغلف بأقنعة العدالة والضمير من خلال صورة كار يكاتورية عرضها لشخصية طاغية مستبدة تصرخ وتولول باسم العدالة والمساواة ، وواقع الأمر يخالف ذلك تمام المخالفة فصبحي بك في هذه القصة مثال للانفصالية في مظهره الخادع ونواياه الشريرة ٠ يبتلع كل ما صادفه في شراسة ويمتص غضب الغاضبين في قوة ، ويوزع درجات المصلحة على هواه ، وفي مواجهته مجموعة من الموظفين تصرخ في خفوت وتحتج في بلادة فاذا اشتد الجدل في غيبة المدير علت نبرة الغضب وازدادت حدة الرفض حتى اذا ما ظهر بوجهه العابس أقر الجميع في تخاذل بوجهة نظرة مع علمهم بعدم صلاحيتها فقد أصر على ارسال بدوى سرحان الى بعثة انجليزية على غير رضا من الجميع لأن في المصلحة من هو أكفأ منه ٠ ولكن صوت المعارضة لا يستطيع مواجهة الموقف فيرضخ مستسلما للقرار ، ويكشف السحار في تصميمه لنهاية القصة عن السبب الذى جعل المدير يصر على ارسال (بدوى سرحان) الى البعثة دون غيره ٠ فنعرف أنه اختاره ليخلو له الجو مع زوجته الخائنة التى ارتمت في أحضانه فور خروج بدوى من المنزل (١) ٠ على الرغم من ايهام صبحي بك لجميع الموظفين أن اختيار بدوى للسفر تحقيق للعدالة وللنزاهة ، فعندما رشحت اللجنة الفرعية (ممدوح فهمى) للسفر في البعثة المقررة ٠ ضرب صبحي بك النضد بجميع يده في قوة ثم زأر :

ــ لا لن أوافق على هذا أبدا لتقطع يدى ان وافقت على هــذا الرأى ٠ واتسعت العيون ، وتعلقت بالوجه الثائر وخشعت القلوب وصبحي بك يزمجر :

ــ من يقول ان ممدوح فهمى يسافر ٠٠ ويترك بدوى سرحان ؟

أين ممدوح من بدوى ؟ لا ٠٠ حرام أن تهدر الحقوق على مذابح الشهوات ٠٠ أريد أن أعرف من قال أن ممدوحا أجدر من بدوى ؟ فارتفع صوت الاعتراض واهنا ٠

---

(١) في الوظيفة عبد الحميد جودة السحار ص ٦ ٠

ـ تقارير الرؤساء ٠

فلوى صبى بك شفته ، وقال فى استخفاف :

ـ تقارير الرؤساء بالله دعونا من هذه التقارير ، فأنا أدرى الناس بها ٠ دعونا والا هتكت عنها حجابها ٠٠ الحقيقة لا تعرف طريق هذه التقارير ، انهـــا مسألة استلطاف ٠٠ صداقة ٠٠ منفعة متبادلة ٠٠ يجب أن نتجرد من أهوائنا ٠

اننا لا نبغى الا وجه الحقيقة والمصلحة العامة ٠٠(١) فخفايا السلوك الانحرافى تكمن وراء تصرف المدير فى مصلحته وان ظل فى جدله يردد على مسامع أعضـــاء اللجنة كلمات الحرام والحقيقة التى يتغياها والمصلحة العامة وضرورة التجـرد من الأهواء والنزعات ٠

وهمت بك فى (لو عرف السبب) رجل ظالم لا يعرف العدل قاس لا يعرف الرحمة حتى أن الجميع أطلق عليه (المدير القرقوش) وقد رسمه السحار بسخرية لاذعة تنبىء عن مسلكه الفذ بين الموظفين ٠ انه كان « ممتلىء الجسم كبير الرأس ـ فارغة ولا شك ـ وكان مؤخر رأسه منبطحا ، وصوته عاليا ضخما لا يتحدث الا نترا وعجرفة لا يخطىء أثنان فى أنه من أصل تركى ٠ ولم يكن بينه وبين أحد مرءوسيه تبادل احترام ، وكان احترام مرءوسيه له احترام الفأر للقط ، فاذا نادى أحدهم تفككت أوصاله ، وحوقل وأنطلق يسأل الله السلامة فاذا ما انقضت المقابلة بسلام تشهد وحمد الله على النجاة) (٢) ٠

ولكنه فى البيت يذوب رقة وهو يداعب وحيدته « سعاد » تلك التى تفرغ لتربيتها فلم يتزوج بعد وفاة والدتها ٠ انها أصبحت فى سن الزواج ، ولا بد لها من زوج يثق فيه ويطمئن اليه ولكن معاملته لمرءوسيه فى المصلحة ستجعل أمر حصوله على زوج منهمأمرا مستحيلا ٠ ففكر وتدبر ٠ وقرر فى نفسه أنه لا بد من تعديـل معاملته للموظفين ، فالحسنى هى الطريق الوحيد للحصول على عريس الغفلة ٠ وفى الصباح كان الموظفون فى دهش من أمر المدير الذى تبدل وتغير ٠ انه يعاملهم فى رفق ويلقى عليهم التحية فى هدوء ٠ بل ويدعو من لم يتزوج منهم الى حفل غذاء فى بيته ٠٠ وذات يوم تعرف على « فتحى » وأخذ به فهو شاب تبدو عليه آثار النعمة فوقر فى نفسه اتخاذه زوجا لسعاد وأمعن فى تكريمه والاقبال عليه حتى عينه سكرتيرا خاصا له وفكر فى ترقيته ٠٠ ولكنه عندما يكتشف أن ســـكرتيره الخاص متزوج يغضب ويثور وبدلا من انفاذ ترقيته قرر نقله من المصلحة (٣) ٠

فايثار المنفعة الذاتية كان سببا وراء تعديل السلوك والاتجاه الى الحسنى فى

---

(١) المصدر السابق ص ١١ ٠

(٢) المصدر السابق ص ٢٧ ٠

(٣) المصدر السابق ص ٢٨ وما بعدها بتصرف ٠

معاملة الناس • ولم يكن نابعا من طبيعة فيه • وحسين أفندى في (وفاء) انسان لا وفاء عنده ، فقد استغل (مصــطفى) أحد موظفيه من ذوى الكفاءة والاقتدار فى كتابة التقريرات والتنقيب عن المقترحات التى تعلى من شأن الشركة حتى أرهقه من أمره عسرا ، وكان يتقدم بعمل مصطفى الى الشركة على أنه من بنات أفكاره حتى تمكن بفضل (مصطفى) من الترقى والصعود فى السلم الوظيفى حتى وصل الى درجة (المدير) وكان سرور مصطفى عظيما فقــد آن له الأوان ليجنى بعض ثمار حسناته • ولكن حسين أفندى يتنكر لكل ما فعله لأنه أصبح فى غنى عنه وبدلا من ترقيته نقله من المصلحة لأن رؤيته سوف تعكر على المدير هناءته التى يعيشها فى ظل منصبه الجديد (١) •

ويمضى السحار فى تتبعه لدوافع الحركة السلوكية داخل البيئة التى يتعامل معها بعين راصدة تنقب عن أمراض النفوس وماهييء لها من فساد وانحراف فنجد « فهمى » فى نخوة مثال سيء للريفى الساذج الذى أفسدته حياة المدينة فانحطت أخلاقه وعرف عنه ارتباطه بعدد من الساقطات والخادمات ، كان موظفا ولكنه لا يحب العمل لأنه فطن الى أن العمل فى الحكومة لا يكفى للترقى فتكاسل وتباطأ فى انجاز ما يسند اليه من أعمال ، وفى مكتب من مكاتب المصلحة تعرف على رأفت أفندى ذلك الرجل العجوز المثقل بالأعباء الوظيفية . ودهش عندما رأى شابين يتنافسان فى معاونته على انجاز عمله كل ليلة حتى انه فكر كثيرا فى السر الذى يكمن تفسيرا لهذه النخوة النادرة ، ولم يجد بدا من عرض خدماته هو الآخر على رأفت أفندى فقد يتعرف على السر فى بيته • وفى المساء اكتشف كل شيء • فقد رأى فاطمة ابنة الرجل العجوز وعرف انها تجلس معهم كل ليلة لتساعدهم على انجاز العمل •• وتمنى فهمى أن يظل دائما فى خدمة الرجل العجوز (٢) • فقد كان كما يقول عن نفسه : (انه على استعداد للذهاب الى جهنم الحمراء اذا كانت المرأة هناك ، وما كان يفضل امرأة على أخرى ، فالكل عنده سواسية ، وما كان يعدم أن يجد ميزة فى كل منهن) (٣) •

وعلى مستوى آخر من المعالجة تناول السحار بعضا من الأمراض بالكشف والابانة فتعرفنا فى (قصة على كل لون) على « عباس » الشخصية النمطية للمنافق الذى يجيد الرقص على كل الألحان فقد كانت (له القدرة على أن يتلون بلون المحيط الذى يعيش فيه • سيعيش دواما ولن تزول دولته أبدا) (٤) فكلما ارتفع صياح باعــة الصحف معلنا تأليف الوزارة الجديدة كان عباس فى مقدمة المهنئين الشاكرين لله أن هيأ لهم وزيرا عادلا شهما كريما نزيها (٥) فاذا أقبلت الوزارة وتغير الوزير انطلق

---

(١) المصدر السابق ص ٣٦ وما بعدها بتصرف •
(٢) المصدر السابق ص ٤٤ وما بعدها •
(٣) المصدر السابق ص ٤٦ •
(٤) المصدر السابق ص ٦٧ •
(٥) المصدر السابق ص ٦١ •

أمام الوافد الجديد ينهش عرض الوزير السابق ويكيل المدح والثناء للوزير الجديد ٠ وهكذا حتى تمكن من العيش مع الجميع محتفظا بمنصبه ومركزه وقد رسم السحار صورته بما يحقق هذا المسلك ويقويه (فهو ما كر أمكر من ثعلب يتظاهر بالبراءة والطهر والصراحة ، ويتقن تمثيل ما يتظاهر به حتى ليخاله أعرف الناس بأخلاقه أنه صادق ٠ وكانت له قدرة عجيبة على ايهامك أنك صديقه الوحيد ، دون أن يثير ريبتك ، أو يحرك شكوكك ، وهو يكيد لك ، ويوهمك أن هذا الكيد فى مصلحتك ، وهو أنانى لأقصى حدود الأنانية ، فما كان يتورع أن يصعد على أكتاف الآخرين ، وما كان يستنكف أن يستعمل أقذر الوسائل فى اقصاء من يظن أنهم منافسوه)(١) ٠ الى غير ذلك من الصفات التى أكثر السحار من نعته بها بهدف ابراز ملامحه حتى لا ينخدع الناس فيه ، ولم يتجاوز الكاتب واقع الحياة حين نقل صورة المنافق فى احاطة شبه كاملة ٠٠ بالملامح والسمات ، وعندما أكد على استمرارية هذا المسلك فى حياة الناس لم يكن منحازا الى النفاق ولا داعيا اليه ٠ ولم يخالف منهجه المثالى الذى التزم به فى فنه والذى تمثل فى انتصاره للخير وكراهيته للشر كما زعمت احدى الدارسات عندما تعرضت لهذه القصة (على كل لون) بالنقد فقد توهمت أن السحار بما رسم من نهاية للقصة مؤكدا على استمرار نجاح أمثال هذه الشخصية فى خداع الناس قد خالف المنهج المثالى الذى يدعو اليه ٠ نجد ذلك فى قولها تعقيبا على النهاية التى ختمت بها القصة (ان السحار خالف الخط المثالى الذى عرفناه عنه منذ البداية الأولى لأعماله ، فهو دائما يذكر الحسن والسيىء مع بيان النتائج المترتبة على كل منهما بحيث يبرز أن السير فى الطريق الخاطىء يؤدى بصاحبه الى الفشل ، فكيف يختم الأقصوصة بدعوة الى الاستمرار فى هذا النفاق لأن له الدوام ٠ كان يجب أن تكون نهاية عباس اكتشاف ألاعيبه وطرقه الملتوية ثم طرده من العمل (٢) ٠

ويبدو أن الباحثة لم تفطن الى المغزى الذى أراد السحار الاشارة اليه فى نهاية القصة ٠ وهو أن النفاق ظاهرة اجتماعية خطيرة وهو أكثر شيوعا فى حالات التمزق السياسى فى مجتمع تصارعت فيه القيم وتبدلت فيه الموازين ـ وأن المنافق سيظل يلعب دوره فى خداع الناس ما دام يتمتع بمواهب الرياء فى وسط اختلط فيه الحق بالباطل ، وغلبت طبيعة الأثرة والأنانية على حياة الناس ، كما أن السحار فى قصص هذه المجموعة لا يقدم صورا لأحداث درامية تقوم حركة الشخصيات فيها على الصراع والجدل وانما يقدم صورا تسجيلية من عالم الواقع ممثلة لبعض أمراضه ، ومن خلال عرضه لتلك الصور وطريقة تناوله لها يتضح موقفه الأخلاقى ، وهو موقف خيرى النزعة ، ينحاز دائما الى الفضيلة ويقاوم الشر فى الحياة وفى نفوس الناس ، وعندما يصور المفاسد والرذائل فانما يصورها كما هى فى عالم الواقع دون رتوش أو افتعال ولا يفهم من تصويره لها أنه يدعو اليها ٠ وانما يكشف عن معالمها ليساهم فى خلق

---

(١) المصدر السابق ص ٦٢ ٠

(٢) القصة عند عبد الحميد جودة السحار ٠ للباحثة ـ فاطمة الزهراء عبد الغفار الموافى ص ٢٢١ ٠

وعي عند القارىء بها ويطلعه على حركتها المعوقة لعوامل النهوض والسمو ، وهـذا المسلك يعتبر من صميم وظائف الأدب الهادف ٠

وقد كان السحار على وعي كامل بهذه الوظائف عندما قدم صوره النقدية فى أسلوب ساخر وعبارة لاذعة وأضفى عليها من روح الفن وشفافية الأدب ما جعلهـا تنبض بالحركة والحياة وهو في صدوره عن تلك النزعة النقدية فى مطلع حياتـه الأدبية انما يصدر عن احساس صادق بالواقع الاجتماعي وتفهم كامل لما يعانيه من مفاسد وأمراض خلقية ٠

وقد ظل وعيه بهذه المفاسد مستمرا ففي مجموعته « صدى السنين » يتناول بالتحليل النفسي جانبا من أمراض النفوس كاشفا عن دوافع الانحياز اليها ومصورا ملامحها من خلال رؤية متعمقة لأبعاد الحركة النفسية والسلوك الانحرافي ٠ نجد ذلك في أقصوصة (صديقي جيمس) المتعالي بغطرسته الانجليزية والمحوط بهالة من التملق والرياء من جانب النفعيين وأصحاب المصالح الشخصية ، وهي صورة معاشة صدر فيها السحار عن تجربة ذاتية وعبر من خلالها عن أحاسيسه الوطنية الصادقة التي تنطلق من دوافع الكراهية للمستعمرين كما عبر فيها عن موقفه المناهض للنفاق والمنافقين ٠

وقدم السحار صورة حية لمن يعبدون المال من خلال أقصوصة « البخيل »(١) ذلك الذ ىيزن الدنيا بميزان المال ويتقبل عن طيب خاطر خروج روحه أما اذا كان الأمر يتعلق باخراج مليم واحد من جيبه ففي ذلك الخراب والدمار وفساد الذمم ٠ وقد علق فى مكتبه المتواضـع لوحة خطية كتب عليها « ان المبذرين كانوا أخـوان الشياطين » وقد علمته الأيام أن لكل شيء فائدة ٠ فما كان يفرط في شيء ولا يترك أحدا ممن يعملون عنده يفعل شيئا دون أن يحاسبه حسـابا عسيرا حتي أن العم محمود بواب داره قد لقي عنتا شديدا منه أكثر من مرة وتعرض لخصم الملاليم من راتبه جزاء تهاونه وتفريطه في كل ما يعتقد سيده أنه جزء من رصيد المال ، كما لقيت أسرته عنتا وارهاقا في ظل تقتيره ومبالغته في التضييق عليهم حتى أصبح غيابه عن البيت عيدا وموته نعمة ، انه يغضب ويثور لأتفه الأسباب والأشياء ٠ فكيف تكون ثورته اذا رأى ابنه قادما عليه وفي يده دجاجة رومية ٠ هذا ما فكر فيه الابن وقد ذهب ذات يوم الى السـوق ليشترى لحما غاب طعمه عنهم دهرا طويلا حتى أصبحوا لا يعرفون له لونا ولا طعما نجد السحار يصور ذلك فى أسلوب ساخر وعبارة واضحة بقوله (جلس أمام الدار يرقب الغادين والرائحين ، وكانت هـذه جلسته المفضلة ، فما كانت تكلفه شيئا ، وأقبل ابنه ٠٠ فلما لمح أباه اضطرب وانداحت الرغبة في جوفه ، كان يرجو أن يصل الى البيت دون أن يراه أبوه ، فقـد اشترى دجاجة رومية تمنى أن يتعاون هو وأهله على اخفائها ليأكلـوا بعيدا عن أنظـار أبيه

(١) صدى السنين عبد الحميد السحار ص ٧٤ ٠

حتى لا يقرعهم على تبذيرهم الذى سيجلب الخراب ٠٠ ووقف ابنه حائرا ، وفكر فى أن يتركها فى محل من المحال التجارية القريبة من البيت ٠ ولكنه خجل من أن يفطن صاحب المحل الى السبب الذى دعاه الى تركها عنده ، فعاود التفكير ، فاهتدى الى فكرة قاسية ولكنها أرحم مما ينتظره من عذاب ٠٠ أمسك بساق الدجاجة وكسرها ٠٠ ثم تقدم من أبيه وهو خائف ٠ فلما رأى الرجل الدجاجة قال فى استنكار :

ـ ما هذا الذى بيدك ؟

فقال ابنه فى صوت مضطرب ٠

ـ دجاجة رومية ٠

ـ دجاجة ؟! ومن أين جئت بها ؟

ـ لما رآها البائع مكسورة الساق باعها لى بخمسة عشر قرشا ٠

ـ خمسة عشر قرشا ؟ هذا تبذير ٠٠

ـ والله يا أبى لو لم أعتقد أنها صفقة طيبة ما جئت بها ٠

ـ هذا خراب ٠

وانسل الولد فى خفة ـ وبقى الرجل يمصمص شفتيه أسفا على أنه أنجب ولدا لا يعرف قيمة المال(١) ٠

وظل السحار فى رسمه للصورة يعلى من صرح الشح الذى أخذ الرجل نفسه به حتى كانت نهايته الفاجعة بسبب ما رأى من اسراف وتبذير فى البيت ٠ فقد انتهزت الأسرة فرصة غيابه ودعت الى الطعام والشراب من الأصدقاء والأحباب جمعا كثيرا على غير عادة ٠ ولكنه عاد فجأة (وما ان رأى المائدة عامرة بالطعام حتى أحس كأن مطارق هائلة تهوى على رأسه ، ونظر الى الأيدى التى تمتد الى الطيبات فخيل اليه أنها تمتد الى قلبه فتنهشه ، وأحس الأرض تميد به ، وظل ينظر الى السكاكين وهى تمزق لحوم الطير فيشعر بها تمزق أحشاءه)(٢) وما ان غادر الضيوف الدار حتى كان الرجل فى غيبوبة وكف لسانه عن الدوران فقد مات نصفه الأيمن ، وجاء الطبيب فشخص المرض وجيىء بالدواء ٠ (فلما فتح عينيه ووقعتا على العلب والزجاجات المصفوفة هاله ما أنفق فيها من مال ، فأريد وجهه وأشاح به عن المنظر البغيض ولو أرادوا له الشفاء حقا لكدسوا له على المنضد أكوام الذهب البراق)(٣) ٠

وبهذه الطريقة فى المعالجة راح السحار يعرض علينا صوره النقدية كاشفا عن عن سيئات النفوس ومعالم الانحراف ٠ وقد يأخذ نقده الاجتماعى محورا عن سيئات

---

(١) المصدر السابق ص ٧٨ ٠

(٢) المصدر السابق ص ٨٢ ٠

(٣) المصدر السابق ص ٨٣ ٠

آخر يتصل بعادات الناس وما جبلوا عليه من كثرة القيل والقال والافتراء على الآخرين بالحق وبالباطل على السواء . واطلاق الألسنة فى أعراض الناس وهتك المستور من حياتهم . الى غير ذلك مما يتصل بالغيبة النميمة كمرض خطير ينخر كالسوس فى كيان المجتمع ويرمز الى ضعف الوازع الدينى وانعدام قوامته على الحياة.

نجد ذلك فى أقصوصة (الناس) من مجموعة « خفقات قلب » وتحكى صورة حية لما تقول الناس به على الشيخة زنوبة تلك الفتاة البلهاء التى اعتقد الناس فى بركتها حتى أصبحت لها عندهم كرامة . ولكن صورتها الطيبة اهتزت فى نفوس الناس عندما ظن الجميع حملها لانتفاخ بطنها . وراحت الألسنة تنهش الشيخة وتكشف عن مساوئها وألاعيبها والبركة المزعومة . خصوصا بعد أن تأكد لهم أنها مريضة ورأوا الطبيب يخرج من دارها . فزعموا أنه انما جاء لانزال الجنين .

وتتكشف الحقيقة بعد موت الشيخة حيث انسلت امرأتان من أهل الحى لاكتشاف الحقيقة عندما تغسل . وكانت الأحجبة التى ملأت بها زنوبة جعبتها هى السبب فى انتفاخ البطن وتقول الناس ، فيسقط الجميع صرعى للندم ، ويحمل النعش وسط احساس أليم بالذنب ، ولا تملك الألسنة الا الاستغفار والخشوع وهى تودع الشيخة التى طارت وكانت كلها بركة(١) .

ومن أروع الصور القصصية التى قدمها فى نقده لأمراض النفوس ما تناوله فى « المغرور » من معالجة فنية لنقيصة الكبرياء والخيلاء . معتمدا على الوصف الخارجى لحركة الشخصية فى رسم الملامح وتحديد السمات .

فالأستاذ « البدرونى » كان اذا جلس مع زملائه يعيرهم سمعه لعله يسمع تسابيح الثناء تنسكب فى أذنيه وتدغدغ حواسه فقد اعتاد منهم أن يشيدوا بخصاله فيغرق فى النشوة وينعم بالغبطة . فاذا مدحوا غيره أحس ضيقا واستشعر مهانة لأنه كان (يعتقد أن مدح غيره انتقاص من شأنه فما ينبغى أن يكون فى الدنيا طيبان .. هو وآخر . فليس بها الا رجل واحد عظيم هو وحده .. ولا أحد سواه) (٢) .

انه كثيرا ما يشمخ بأنفه ويعبث فى شاربه الذى تسلل الشيب اليه فى صلف وكبرياء . فاذا سار على الطريق كان يدق الأرض بقدميه مزهوا بنفسه ، وقد وقر فى ذهنه أن هذه الدنيا ما خلقت الا له (٣) .

وكان اذا رأى بواب البيت (ينظر اليه كأنما يشرف عليه من جبل عال .. أو كأنما يرمق حشرة صغيرة تدب فى الأرض) (٤) ولكنه على الرغم من هذه الغطرسة

---

(١) خفقات قلب . عبد الحميد جودة السحار ص ٤٧ وما بعدها بتصرف .
(٢) المصدر السابق ص ١١٧ .
(٣) المصدر السابق ص ١١٨ .
(٤) المصدر السابق والصفحة .

وهذا الكبرياء حريص على الصلاة في خشوع حتى اذا قضيت عكف على التسبيح وهو هادىء النفس مطمئن الفؤاد ·

ولما كان مسلكه الشخصي يتناقض مع حرصه على الصلاة واسباغ الوضوء والتدين فقد لجأ السحار الى الحلم في تصوير فساد المسلك واستكمال أبعاد الصورة وصولا الى الهدف الذى يريد اطلاعنا عليه والذى يتمثل في أن الغرور والتدين لا يجتمعان وأن المتكبر مهما كثرت صلاته وعبادته فهو وعمله الى النار ·

فالبدرونى ((ما ان وضع رأسه على الوسادة حتى راح فى سبات واذا به يرى نفسه في منامه في مكان موحش حشر الناس فيه عرايا ، وعلى مدى البصر اضطرمت نار لا أول لها ولا آخر ، اندلعت السنتها حتى بلغت عنان السماء ، واذا بالناس قد غرقوا في عرقهم وبلغت القلوب الحناجر ، فأحس ضيقا ويدا قوية تكتم أنفاسه ورهبة تستبد به حتى لتكاد تزهق روحه ، وكأن وقدة من جمر رعت في أحشائه · فذهب عن كل ما حوله وجعل يئن في جهد وينظر في رعب · واذا برجل مفرط في الطول مفرط في الضخامة مفتول الساعد في وجهه صرامة تنخلع منها القلوب وفي يده سلاسل طويلة وسوط هائل يتقدم نحوه · ففكر في الفرار مرعوبا ولكن رجليه تسمرت في الأرض وأراد أن يصيح ولكنه لم يجد صوته ، وزاغ بصره وانهار على الأرض مبهور النفس))(١) ·

ويظل السحار في تصويره لهول الموقف وشدته مستخدما من الفاظ اللغة ما يعينه على اتقان الصورة واشاعة جو من الرهبة في ثناياها جذبا للقارىء على المتابعة والترقب · حتى وجدنا الرجل الهائل يحمل البدرونى في يسر وكأنه يحمل ريشة ويسير به صوب النار ورأينا البدرونى يصيح مفزوعا وقد طفرت الدموع من مقلتيه :

ـ دعنى ·· دعنى الى أين تذهب بى ؟

فسمع صوتا كأنه الرعد يزمجر :

ـ الى النار ··

فقال البدرونى متوسلا :

ـ دعنى ·· بالله دعنى ·· اصغ الى : لست من أهل النار · اننى أصلى لله ·· أعبده ·· اننى من أهل الجنة ولا ريب ·· دعنى دعنى ·

فقال الصوت الأجش :

ـ لن تدخل الجنة أبدا ·

ـ لماذا وقد أديت فرائض الله ·

---

(١) المصدر السابق ص ١١٩ ·

ـ لا يدخل الجنة من كان فى قلبه ذرة من كبر ٠

ـ أتوسل اليك أن تتركنى ٠

ـ هيهات ٠

ـ أتركنى أطهر نفسى ٠

فوضعه الرجل الهائل على الأرض وقال له :

ـ أتريد أن تتطهر حقا ؟

ـ أجل ٠٠

ـ أتعرف كيف تنزع الكبر من قلبك ؟

فقال المد رونى وفرائصه ترتعد :

ـ لا

فقال الرجل الهائل :

ـ لن يذهب عنك الكبر الا اذا قبلت يد أحقر مخلـوق على وجه الأرض (١) واستيقظ المغرور من نومه وانطلق باحثا عن المخلوق الحقير الذى لن يتطهر من كبره الا بتقبيل يده ٠ حتى يكشف فى النهاية أنه المخلوق الحقير على وجه الأرض ٠ وليس له الا أن يقبل يد نفسه ٠

والسحار بهذا الاحتشاد الرائع فى جمعه لأبعاد الصورة ورسمه لملامحها واضفائه بواسطة الحلم جوا من الرهبة والفزع نجح فى اخصاب الموقف وبلورة المرض وحقق الهدف المنشود من المعالجة الفنية ٠ وقد كانت وحدة الأثر الذى تركه سياق القصة فى نفس القارىء أصدق دليل على روعة العمل ونجاحه ٠

ثانيا : امتداد نظرته المحافظة الى المرأة ٠

رأينا من خلال تتبعنا لمعالم الرؤية الاسلامية فى القصة الاجتماعية أن معالجة السحار لقضية المرأة وما يتصل بحياتها المعاصرة من سفور وتبرج تتسـم فى كل محاورها بنظرة تقليدية محافظة ترى الخير كل الخير فى لزوم المرأة بيت زوجها ٠ وأنها فى حصانة البيت سوف تعيش فى مأمن من شرور الفتنة وغواية الشيطان ٠ فاذا ما انطلقت سافرة تجوب كل طريق وتقتحم كل ميدان كان انتكاس الطبيعة وانحلال الاخلاق هو النتيجة المترتبة على السفور والخروج ٠

وفى مجال القصة القصيرة لم يتخل السحار عن موقفه من المرأة وانما استمر على الطريق يرصد حركتها ويتابع التطورات التى طرأت على حياتها فى البيئة الاجتماعية وما أصابها من خلل واضطراب ٠٠ ثم يقدم الينا حصاد نظرته فى صور قصصية

---

(١) المصدر السابق ص ١١٩ وما بعدها ٠

موجزة · يعتمد فيها على اللمحة الخاطفة والحدث الفذ والشخصية الواحدة ــ في معظم الأحيان ــ بما يتناسب وطبيعة الشكل الفنى للقصة القصيرة باعتبارها (تقدم حدثا أو مجموعة أحداث يتسبب كل منهما في حدوث الآخر بأسلوب تصويرى ذى دلالة) (١) على أن الدلالة وحدها لا تكفى في اضفاء صفة الفنية على القصة القصيرة بل لابد من توافر المقومات الأساسية لها من بداية ونهاية وعقدة وشخصية ونسيج لغوى يساهم في تصوير الحدث وتطويره بحيث يصبح كالكائن الحى له شخصيته المستقلة التى يمكن التعرف عليها (٢) ·

وقد التزم السحار الى حد كبير بهذه الخصائص الفنية في صياغته للقصة القصيرة · فجاءت مكتملة البناء من حيث الشكل الفنى والمضمون الفكرى في معظم الأحيـــان ·

وربما كان ذلك أكثر وضوحا في الموضوعات التى استهدفت كشف موقف المرأة من حركة الحياة على ما سنبين فيما بعد ·

وقدانعكس الموقف المحافظ للسحار من قضايا المرأة على الأعمال الفنية وتبلور في صور كثيرة ·

فنراها في بعض الأحيان لا تمثل دورا رئيسيا في القصة بل يأتى ذكرها عرضا من خلال السياق وان كانت تكمن ســببا وراء انحراف السلوك ، فقد رأيناها في المجموعة القصصية الأولى (في الوظيفــة) تلك الخائنة التى ارتمى في أحضانها صبحى بك بعد أن احتال على زوجها وأرسله الى بعثة أجنبية لمدة سنة (٣) وتعرفنا عليها في بيت همت بك ممثلة في شخصية سعاد التى يبحث لها والدها عن عريس ويضطر لتعديل مسلكه الغليظ مع الموظفين ضمانا للحصول على عريس الغفلة في (لو عرف السبب) (٤) كما تعرفنا عليها في صورة فاطمة ابنة رأفت أفندى ذلك الرجل العجوز في (نخوة) وقد كانت سببا في تهافت الموظفين الشبان على مساعدة والدها وعلى رأسهم فهمى أفندى ·· الى غير ذلك من الأنماط التى ورد ذكر المرأة فيها · وهذا التصرف يعطينا تصورا خاصا عن نظرة الفنان الى المرأة · تلك النظرة التى تحفل كثيرا بالموروثات السلفية والتعاليم الدينية ومن مظاهر ذلك تلك المناقشة الحوارية التى دارت بين فتحى أفنــدى وبين همت بك في أقصــوصة (لو عرف السبب) ·

قال فتحى في هدوء :

ــ أعتقد أن المنزل هو خير مدرسة للفتاة ، ما ضرورة دخولها الجامعة لن تستفيد منها بقدر استفادتها من المنزل فهى للبيت أولا وأخيرا ·

---

(١) القصة القصيرة نظريا وتطبيقيا · للاستاذ يوسف الشارونى ص ٦٧ ·
(٢) المصدر السابق ص ٦٣ ·
(٣) في الوظيفة ص ١٤ ·
(٤) المصدر السابق ص ٢٨ وما بعدها ·

ـ أنت على حق يا فتحي أفندى ، أرادت سعاد ابنتى أن تلتحق بالجامعة فلم أوافق على ذلك وأبقيتها فى البيت انها سيدة من الطراز الأول (١) ٠

فالمنزل فى رأيهما خير للفتاة من الجامعة وسوف تتعلم من البيت أكثر مما تتعلمه فيها ، وانطلاقا من هذه النظرة رأيناهما يبديان امتعاضا لسفور المرأة وخروجها عاريه بلباس الشاطىء ، فقد تناول « فتحي » مجلة فيها صور للفتيات وهن عاريات بلباس البحر فقال لهمت بك :

ـ والله اني لأعجب لأولياء أمور الفتيات ، كيف يرضى الأب لابنته أو الزوج لزوجته أن تظهر أمام الناس فى مثل هذا اللباس ؟

ما الذى بقي للزوج ليراه مما لم يره الناس ؟

ـ هذا دليل ضعف الآباء أو الأزواج وانفلات زمام زوجاتهم وبناتهم من أيديهم (٢) ٠

ولعل هذا الموقف المحافظ يتضح بصورة أكثر روعة من خلال الحوار الذى دار بين صلاح وزوجته فى أقصوصة (وسوسة الشيطان) من مجموعة همزات الشيطان ٠ فقد علم أن جارته بديعة مدرسة نقلت الى القاهرة وهى تعيش وحدها ، ففزع وقال لزوجته :

ـ وحدها ٠٠ !! كيف تعيش فتاة فى مثل سنها وحدها ؟

ـ ان أمها تفخر بها وتقول ان بنتى رجل ٠

ـ ما شاء الله ٠ أهذا معقول ٠٠ ؟ ان النبي صلى الله عليه وسلم يقول :

لا تسافر المرأة مسيرة يوم وليلة الا ومعها ذو رحم محرم (٣) ٠

ـ تغيرت الأوضاع وانقضى ذلك الأوان ٠

ـ وانقضت فضائله ٠

ـ أصبحنا نرى فتيات فى كل ميدان وقد اطمأن الأهل لهن ٠

ـ هذه غفلة الأهل ٠٠ فكيف نترك لهن الحبل على الغارب ونحن مطمئنون يفرحنا التشدق بالألفاظ ان ابنتنا رجل لا خوف عليها ٠ ليس من المعقول أن تترك الشاة فى رعاية الذئب سيلتهمها لا محالة ٠ فان خالجنا شك في ذلك كنا من الغافلين ٠

ـ أعدت الفتاة لخوض معركة الحياة ٠

---

(١) المصدر السابق ص ٣١ ٠

(٢) المصدر السابق ص ٣٢ ٠

(٣) رواه أبو هريرة ونصه : لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة يوم وليلة الا مع ذى محرم عليها ٠ أنظر رياض الصالحين للنووى ص ٣٧٦ ٠

ـ وما هو هذا الاعداد • أغيروا من طبيعتها ؟ ان للطبيعة نداءات •

ـ ثقفوها وحصنوها بالعلم ثم ألقوها فى اليم مطمئنين •

ـ سيجرفها التيار قد ركبت فيها غرائز وشـهوات ورغبات فاذا يسرنا لها طريق اشباع تلك الرغبات قطعت تلك الطريق • انها ستحب وما أيسر الاتصال بمن تحب على من كانت حرة بلا رقيب (١) •

واستمر الحوار بين صلاح وزوجته وهو مصر على رأيه متحمس له حتى حكمت عليه بأنه جائر وقاس فى حكمه • فقال لها :

ـ لم نخش مواجهة الحقائق •• ؟ قد قيل وهو صواب : ما اختلى رجل وامرأة الا كان الشيطان ثالثهما • أكل الخلوات التى تقع اليوم بريئة •• ؟

كم من ضحايا لهذه الخلوات • لماذا لا تقر النساء فى بيوت ذويهن • حتى يقيض الله لهن من يحملهن الى بيوتهن ••• ولو كنت مؤمنا حقا لقمت من فورى وطرقت باب جارى وصحت فى وجهه : امسك ابنتك فى دارك واحفظها حتى يقيض الله لها من يتزوجها خير لك والا كنت ديوسا ملعونا الى يوم الدين •

ـ وان كنت أباها لصحت فى وجهك •• اغرب عن وجهى أيها الدخيل ، انى أعلم الناس بابنتى •

ـ لو قال ذلك لصحت فيه •• انك مغفل •• سلها كم من الرجال عرفت •• وكم ذاقت •

ـ استغفر الله يارجل فقد خضت فى حقها ودع هذا اللغو •

ـ لا غيبة فى فاسق •

ـ وما أدراك •• اتق الله ولا ترم المحصنات بغير علم •

ـ وهل تتبرج المحصنات تبرج الجاهلية الأولى (٢) •

ولا ريب فى أن الموقف الاسلامى من القضية بجميع جوانبها يتمثل فى الحوار السابق بصورة واضحة ، حيث يعتمد السحار فيه على نصوص دينية من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم يبثها أثناء الحوار على لسان صلاح فى مواجهة زوجته المؤيدة لخروج المرأة من البيت بعد أن تحصنت بالعلم ، أما صلاح فيتسم موقفه بشىء من الحدة فى رفضه الكامل لفكرة الخروج بدون رقيب لأنها جسد وشهوة ومهما فعلت وتحصنت بالعلم فلن يغير ذلك من طبيعة تكوينها ولن يحد من سلطان نزعاتها الغريزية ، التى سوف يتيح لها اختلاطها بالرجال فرصـة التنفيس عنها ، والنزول عن طواعية الى مستوى الشهوة واللذة فتباشر حظها من المتعة حتى تسقط فى درك الرذيلة •

---

(١) همزات الشياطين • عبد الحميد جودة السحار ص ١٣ وما بعدها •

(٢) المصدر السابق ص ١٥ وما بعدها •

ولهذا يجب على النساء أن يلزمن بيوت ذويهن وأن يبتعدن عن كل مظاهر التبرج والتحلل • الى غير ذلك مما تناوله الحوار من أفكار تنهض جميعها ممثلة للرؤية الاسلامية فى مواجهة التحرر والانفلات •

وقد أثرت هذه النظرية فى تشكيله لحركة المرأة داخل العمل الفنى فرأيناه في مجموعة (صدى السنين) يصور المرأة فى معظم الأحيان على أنها شر مطلق ، ووراء كل فساد وانحلال ، وأن سلطان القوامة عليها فقد فعاليته لأن الرجل تنازل عن مقومات رجولته ولم تعد له السيطرة المثلى على البيت • نرى ذلك فى (ترويض امرأة) حيث نجد (حسن) شخصية ضعيفة تعودت على الطاعة العمياء لكل مرؤوسيه فى المصلحة وقد نقلت هذه العدوى الى البيت فكان على الرغم من تعبه الشديد لا يستطيع الافلات من أمر توجهه اليه زوجته التى لا تعمل شيئا ، وتطلب منه عمل كل شيء ولا يقتصر ذلك على يوم واحد أوعدة أيام بل هو قصة كل يوم ، وأحس فى نفسه ثورة طاغية ، ونارا تتلظى فى أحشائه ، وعندما فاتح أحد أصدقائه فى أمر زوجته طلب منه معاملتها بقسوة ، وذهب الى البيت كاظما غيظه وراح ينادي على الخادم والزوجة بلهجة عنيفة متذكرا حكاية القراد مع الكلب (١) فلطم الخادم لطمة قوية فجرت دماءها ولم يطق رؤية المنظر فخر مغشيا عليه (٢) •

والسحار برسمه لهذه النهاية انما يصور قصور الرجل وعدم قدرته على سياسة المرأة الحديثة •• وأن تنازله عن حقوقه مرة بعد مرة كان السبب فى طغيان المرأة وانحرافها • نفهم ذلك من قول زميله حسن فى المكتب • بعد أن أفصح حسن عن مكنون نفسه تجاه أفعال زوجته • قال زميله :

ـ الذنب ذنبك •

ـ فقال حسن فى انكار :

ـ ذنبى أنا •• ؟

ـ أجل ، لم تكن رجلا •

فأحمر وجه حسن ، وأحس كبرياءه تجرح ، فقال فى تلعثم :

ـ لماذا •• ؟

---

(١) وقد استخدم السحار حكاية الكلب مع القرد لخدمة الهدف الذى يريد أن يقوله من خلال القصة • وهذه الحكاية تقوم على أن قرادا كان معه قرد وكلب وأراد تخويف القرد وتعليمه فشده الى وتد فى الارض شدا وثيقا وقعد القرفصاء والكلب أمامه ، وراح يقوم ببعض الحركات ، ويطلب من الكلب أن يفعل مثله ، ولكن الكلب ظل ساكنا فسجب خيزرانة وضربه بها فعوى • ورأى القرد ذلك فانكمش ، واستمر الرجل فى حركاته وفى الحاق الآذى بالكلب لأنه لا يحاكيه حتى ذبحه • ورأى القرد ذلك فراح يقفز مرعوبا ، ولكنه كان مقيدا • وراح الرجل يطلب منه بعض الحركات وهو يحاول أن يفعل فقد أيقن أن بعد الضرب الذبح وما كان يحب أن يهدر دمه رخيصا ـ ملخصة عن القصة ص ٢٩ من مجموعة صدى السنين •

(٢) صدي السنين ص ٦١ •

ـ نزلت لها عن حقوقك وأبديت الرضا والخضوع ٠

ـ من الحكمة أن نحني رءوسنا للزوابع حتى تمر بسلام ، لنحافظ على صفو حياتنا ٠

ـ بل لنبقي على التنغيص الدائم المستمر ، لو أنك ثبت في وجهها أول ما حاولت أن تسلبك حقوقك ، لما استرسلت في طغيانها ، المرأة كالفرس ؟ اذا كبحت جماحها انقادت لك ، واذا أطلقت لها العنان جمحت (١) ٠

فضعف الرجل في مواجهة النساء يعتبر أحد الأسباب الرئيسية فى تمادى المرأة وطغيانها وانحراف سلوكها ولكنها أمام قوة الرجل وتحت قوامته لا تستطيع الافلات من سلطان الطاعة بل انها تجد السعادة الحقة في ركونها الى ظلال رجل قوى يحميها ٠ وهذا التصور يلح السحار على ابرازه كثيرا ٠ فالمرأة تحب فى الرجل قوة شخصيته ، وترتاح الى القسوة التى تعامل بها منه وأن ذلك يرضيها ويسعدها ، فاذا لم تجد فى الرجل هذا السلطان ألقته تحت أقدامها واحتقرته ٠

ومن مظاهر تأثير النظرة المحافظة على فكر السحار فى تصوراته للمرأة عرضه فى جانب كبير من أقاصيصه لصورة المرأة الخاطئة ، فقد رأيناه يركز بصفة خاصة على ظاهرة الانحراف السلوكى التى تبدو المرأة من خلالها ملحة على ارضاء حاجتها الغريزية مع أول لحظة تعاشر فيها الرجل ما دامت قد توافرت لها الخلوة ٠ وأتيحت لها من عوامل الاختلاط ما يجعلها حريصة على التنفيس عن نزواتها الجنسية ٠

نجد ذلك فى (رجل وامرأة) حيث يلتقى المدرس الذى لم يغادر بيت أمه فى القاهرة الا هذه المرة بصاحبة البيت الذى سيقيم فيه (ماريا) تلك التى رأته رجلا مكتمل الرجولة جديرا بأن تهواه النساء ، وفى صدرها اشتهاء وفى جوفها رغبة ، فراحت تتفنن فى اغرائه بكل الوسائل التى تحوزها المرأة من أجل الايقاع به ولكنه لنزعة أصلية فيه ظل منصرفا عنها مكتفيا فى علاقته معها بالمودة والاحترام ، كشفت عن ساقيها ، ارتفعت تموجات صوتها بالغناء فى أنوثة حتى تثير فيه عوامل الرغبة ، ولكنه ظل على حاله بلا تبدل ولا تغيير ، ولما وجدت نفسها قد هزمت وهى التى تسقط الرجال فى حبائلها من أول نظرة ، طلبت منه مغادرة البيت ، فغادره معتقدا أنه أخطأ فى حقها ساعة أن حملها على يديه ، عندما أوهمته بأنها قد عثرت على السلم ، فلما لمس جسدها الطاهر غضبت منه ، هكذا صور له وهمه ٠ ولم يدر أن سر غضبتها عليه انما كان لأنه ظل جامدا كالصخرة فى مواجهة رغبة متمردة فى داخلها (٢) ٠

وعلى الاتجاه نفسه رأينا فتاة الزمالك فى (قصر فى الجنة) (٣) تتهالك على اللذة مدفوعة بالرغبة الجامحة التى تتلظى كالنار فى أحشائها ٠ تريد أن تنال ثمار

---

(١) المصدر السابق ص ٥٧ وما بعدها ٠
(٢) صدى السنين ص ١١٨ وما بعدها ٠
(٣) المصدر السابق ص ١٦٢ ٠

الحب ، ولكن خطيبها الشاب المتدين يأبى ذلك طمعا فى القصر الذى أعد له فى الجنة ، ولم تكن الفتاة وحدها هى التى تحرص على جنى هذه الثمار ، بل كانت الأم تدفعها الى ذلك دفعا ٠٠ انها كانت ترغب فى أن تسعد ابنتها معه بلحظة هنيئة ٠

يصور السحار ذلك في براعة واقتدار متتبعا تطور الحدث ونموه فى أسلوب محكم وصـياغة فنية رائعة ٠ ففى جلسـته الأولى فى بيت خطيبته ٠٠ لم يقدم يده ليصافح حماته كان يخشىأن تنقض وضوءه ، وعندما أقبلت فتاته عليه ابتسم لها فى انشراح وقعدت وقعد ، وجعل يرنو الى وجهها المليح وهو جزلان ، ويتحدث اليها وهو نشوان ٠

وأقبلت حماته فنهض وحياها فى أدب ، ولم يصافحها ، وجلسوا يتحدثون ، ومر بعض الوقت، ومر النهار، ووفدت طلائع الليل، ورأت الحماة أن تنهض متظاهرة بقضاء حاجة لتخلي الجو للخطيبين ، فقامت مستأذنة ، وغادرت المكان ، ورنت الفتاة اليه بعينيها الرائعتين ، وقد انبعث منهما بريق خاطف عبث بأوتار فؤاده ، وألقت رأسها الى الخلف فتهدل شعرها السبط الحالك السواد كليلة ظلماء ،وزمت شفتيها المتلئتين ، فكانت فتنة ، انها تهيأت للقبل ، وباتت تنتظر أن يهوى بشفتيه على شفتيها وصدرها في علو وانخفاض ، وغض من بصره ، وقال في صوت خافت :

ـ سجادة الصلاة من فضلك ٠

فنهضت وهي تحس خيبة ، وانطلقت متبرمة لتحضر ما طلب ، وما غابت عن عينيه حتي أخذ يلتقط أنفاسه المكروبة ، ويجفف العرق المنبعث من جبينه ، وعادت وفي يدها سجادة جديدة لم تستعمل من قبل ، زخرفت برسوم وتهاويل تشغل العابد عن صلاته ، فتناولها شاكرا وفرشها ، وخلع حذاءه ، ووقف يصلى فى خشوع ٠

وغاصت في مقعد وثير ، ووضعت ساقا على ساق ، فانحسر ثوبها عن الفتنة والاغراء ، وأخذت تنظر اليه وقد انتشرت في صدرها سحائب من الضيق ، وجاءت الأم ، فلما الفته قائما يصلى لوت شفتها السفلى ، وقعدت بعد أن فطنت الى أنه ليس هناك ما يدعوها الى انتحال الأعذار لمغادرة المكان والتفت الى اليمين وهو يسلم ، فوقعت عيناه على الساقين الجميلتين ، فأسبل جفنيه ، ثم التفت في سرعة ناحية الشمال ، ونهض وهو يتمتم بالاستغفار ، وقالت له الأم وهى تبتسم :

ـ حرما ٠٠

فقال فى حرارة

ـ جمعا ان شاء الله (١) ٠

ان السحار فى اللوحة السابقة يقدم لنا صورة واقعية تنبض بالحركة والحياة اذ جمع بين طرفين متقابلين أحدهما متدين حريص على تدينه لا يحس غضاضة فى

(١) المصدر السابق ص ١٦٣ وما بعدها ٠

التزامه بتعاليم الدين حتى لو كان في جو يبعث على الترف والبهجة ، ويحض على اللهو والمجون · وطرف آخر ينتظر ساعة اخلاء المكان بفارغ الصبر لينفس عن مشاعر الكبت والحرمان وقد تهيأ لاشباع رغبته بكل عوامل الاثارة والاغراء · ولكنه رغم الحاحه في طلب مايريد بوسائله لم يلق استجابة فشعر بخيبة أمل واخفاق جعل معها يجتر أحزانه متبرما ·· وللايحاء بالمطلوب من الصورة أدخل السحار الأم طرفا في الموقف وأبدى حرصها على اسعاد ابنتها باخلاء المكان · وأبرز سخريتها المريرة من ذلك العابد المتبتل الذى تهيأت له اللذة فغادرها الى سجادة الصلاة ·

وعلى هذا المستوى من الالحاح في طلب اللذة رأينا بطلة أقصوصة (رميو) تخطر في دلال في بهو الفندق ، والعيون تتطلع اليها في اشتهاء ، ومن بين أصحاب العيون النهمة رأت شابا وسيما مفتول العضلات فأعجبت به وجعلت صورته تتراءى لعينيها كما تمددت على سريرها في غرفتها الخاصة وتذكرت زوجها العجوز ففاضت نفسها حسرة · واشتدت رغبتها في الحصول على ما تريد من الشاب حتى خيل لها أنها معه في حديقة خاصة تجني من ثمار الحب ما تشاء ، ولكنها عندما تفيق من حلم يقظتها تصحو على واقعها الأليم والكبت يهصرها هصرا ·· فتخرج من الغرفة لتعرض نفسها عليه في غرفته متعللة بالبحث عن (روميو) كلبها الأثير ، ودقت الباب في عنف ، وراحت تسأل الشاب عن رميو واذا به يطل من باب حجرتها وكأنه يحذرها فعادت مسرعة تبكي (١) ·

وهكذا يرتبط الالحاح على الرغبة الجنسية والتمادي في الوصول الى اشباعها باختلاط المرأة بالرجال وخروجهما سافرة وقد تخلت عن قيم الأصالة الذاتية المستمدة من تعاليم الدين وفضائله فضلت الطريق وانحرفت عن الصواب ·

ومن مظاهر تأثر النظرة المحافظة الى المرأة في فكر السحار موقفه من خروج المرأة الى ميدان العمل واحتكاكها بالرجال في عالم اختلطت فيه القيم وتبدلت على ساحته الموازين · نجد ذلك في (رغبة زوجة) من قصص مجموعة « خفقات قلب » وفيها رأينا « سميرة » يعاودها الحنين الى العمل وكانت قبل الزواج تعمل مدرسة في احدى مدارس البنات · ولكنها تركت العمل استجابة لرغبة زوجها الذى يعبر عنه في القصة بضمير المتكلم · فقد كره أن يكون له شريك في زوجته · حتى لو كان هذا الشريك يتمثل في تليمذات المدرسة · ومع احساسها بالملل في بيت الزوجية نظرا لما تعانيه من فراغ راحت تفاتح زوجها في أمر عودتها الى العمل مؤكدة له أن في عملها تدعيم للبيت وتمكين لأسس السعادة فيه فالحياة تعاون وكفاح · وأخذت تعرض عليه من الأمثلة ما يؤكد ضرورة التعاون في الحياة · فالمنضدة ذات الأربعة أرجل أفضل من ذات الثلاث، واللوح الذى يحمله اثنان أخف من الذى يحمله واحد · ورغم اصرارها على اقناعه بضرورة الخروج للعمل ··· لم يقتنع فقد قال لها :

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠٧ وما بعدها بتصرف ·

ـ أيهما أفضل سفينة يقودها قائد واحد أم سفينة يقودها قائدان ٠٠ ؟

فقالت في انفعال :

ـ قل انك لاتريد أن تقتنع ٠

ـ كل ما أريده ألا يصف الطبيب لأبنائي ما وصفه لابن صديقي الذي تمضي أمه أغلب وقتها في عملها ٠

ـ وماذا وصف ٠٠ ؟

ـ بعد أن فحص عنه كتب ٠ نقص في الحنان يحتاج الى أن تمكث أمه معه شهرا أو شهرين (١) ٠

ويستمر الحوار بين الزوجين حول الدواء الجديد الذي يتمثل في الحنان ٠ فتعجب لهذا الدواء ، فربما بيع في الصيدليات في المستقبل ، ولهذا لا يرضى خروجها للعمل حتى يكتشف دواء الحنان ٠

ونستشف من الحوار السابق ايمان الزوج المطلق بضرورة التزام المرأة بيت زوجها حتى تتفرغ لتربية أبنائها ورعايتهم وأن هذا الالتزام ينبع من طبيعة تكوينها ووظيفتها الأساسية التي هيأها الله لها ٠ ولذلك فقد علق الزوج أمر عملها حتى يكتشف الدواء البديل الذي يحل محل الأم في البيت ٠ وهو أمر مستبعد لأن فيه مجافاة لسنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا ٠

واذا كانت قضية خروج المرأة للعمل أثارت جدلا بين سميرة وزوجها في القصة السابقة ولم نجد فيها اشارة واحدة الى السقوط لأن تصميم القصة لا يسمح به حيث جعلها الكاتب تعبيرا عن قضية جدلية بين زوجين متحابين ، وبلور من خلالها الفكرة التي يستند اليها في تبرير موقفه ، فقد رأينا ارتباط سفور المرأة وخروجها بالسقوط والانحلال الخلقي واضحا تمام الوضوح في قصة (تقابلا في روما) من مجموعة ليلة عاصفة (٢) ٠

فقد رأينا « ناهد » فتاة الجامعة التي لا تجد غضاضة في مصادقة الشباب والاختلاء معهم ، وكان من أصدقائها « طاهر » الذي أعجب بها فأحبها وقرر الارتباط بها كزوجة ٠ وعلى غير العادة المتبعة ذهب بها الى بيته ليقدمها الى أمه ٠

وعندما رأتها الأم ضاق صدرها وازداد غضبها ، فقد رأت فتاة من نوع خاص لا تعرف له مثيلا ٠ انها تجلس عارية الساقين وقد وضعت ساقا على أخرى حتى ظهر بطن فخذيها على غير استحياء ، وفي فمها سيجارة ولم توافق الأم على رغبة ابنها وبالغت

---

(١) خفقات قلب ٠ عبد الحميد جودة السحار ص ١١٤ ٠

(٢) ليلة عاصفة ٠ عبد الحميد السحار ص ٥ ٠

في تعنيفه محتدة عليه · على مسمع من « ناهد » التى لم تتملك نفسها فانصرفت على مضض ·

وسافرت الى روما لاستكمال دراستها ·· ومضت مدة تمكن « طاهر » فيها من جمع المال اللازم لاقامة حياة أسرية سعيدة ، فقرر اللحاق بها لأنه لا يزال يحبها · وفى روما استقبلته بعناق حار ، وعرضت عليه المبيت بحجرتها فى الفندق الذى تقيم فيه فلبى الدعوة وفى صوان الملابس وجد « بيجاما » لرجل وعندما سألها مستفسرا عن وجود ملابس الرجال فى صوانها الخاص · قصت عليه قصة سقوطها ، انها سلبت بعد كأس مترعة فى حفل بهيج ·· فهوت الى الحضيض ·· ووقفت تدافع عن نفسها وتزعم أنها ضحية لظروف قاسية ، بينما انسحب « طاهر » من حياتها باكيا مأتم حبه ·

والسحار يتابع فى هذا التصور موقفه الذى لم يتخل عنه ·· ويرسم من الصور ويضع من الدلالات ما ينهض بالرؤية الخاصة ويقويها . مبرزا مواقف الأصالة فى مواجهة التسيب والانحراف مستعينا بوسائل الفن القصصى فى التعبير عن أفكاره وقضاياه دون حاجة الى الوعظ المباشر ، والتقريرية الجافة · فكان أكثر التزاما بقضايا الدين والأخلاق نفعا من عشرات الواعظين · غير أن رؤيته المحافظة فىمعالجته لقضايا المرأة قد يصيبها شىء من التخلخل والاضطراب ، يصعب معه الوقوف على حقيقة ما ذهب اليه السحار فى نزوعه الفكرى ·

فقد تعرفنا فى كل ما سبق على المنطلق الذى يسير عليه فى تصوره للمرأة وفى موقفه من قضاياها ، فوجدناها ظلا فى لوحة فىأغلب الأحيان ، ورأيناها لا تمثل أساسا جوهريا فى بعض أعماله الفنية · وتعرفنا من خلال تتبعنا للقصة القصيرة عنده على بعض الملامح التى تستمد مقوماتها من النظرة الاسلامية وأخلاقيات الدين · الا أن الصورة القصصية التى يعتمد عليها فى بلورة أفكاره تأتى أحيانا فجة وغير مقنعة وفيها مجافاة بين النسيج القصصى والفكرة المطروحة · نجد ذلك فى (قصر فى الجنة) (١) التى رأينا فتاة الزمالك فيها تلح الحاحا على جنى ثمار الحب وارضاء الرغبة العارمة فى صدرها ولكن خطيبها المتدين ينصرف عنها وبدلا من أن يجلس الى جوارها ويسبح معها فى قبلة سخية تذيب الفؤاد وتطفىء النار المشتعلة فى أحشائها ، يطلب سجادة صلاة ليصلى ، ويعرض السحار لذكر الدافع وراء هذا المسلك من الشاب ، فنجده كان مأخوذا بقصة قرأها وأخرى سمعها عن صديق مات عن خطيبته بعد أن نال من شرفها ، فأحس كراهية شديدة للشهوة ·

وقرأ قصة فى حكايات الصالحين عن قصر فى الجنة أعد لأحد الأبطال فى حرب الروم ، وقد فرش القصر باللؤلؤ والياقوت ، وامتلأ بالحور العين ، رأى الجندى الباسل ذلك القصر فى منامه ، وحورية رائعة ود تقبيلها ولكنها منعته لأنه سوف يعود

---

(١) صدى السنين ص ١٦٢ ·

الى الأرض ليقاتل وبعد ثلاث سنوات سوف يرجع اليها فينعم ما شاء له النعيم ، وقد أثرت هذه القصـــة فى فتانا ، فكان كلما هم باللهو مع خطيبته تذكر ما قرأ فيمتنع حتى كرهته فتاته وانصرفت عنه ساخطة عليه ٠

وكان هذا كافيا فى اعطاء تصور خاص عن المرأة وحرصها على ارضاء رغبتها وسخريتها من التدين والمتدينين ، كما كان ذكر ذلك كافيا فى اثبات أن نزعة التدين التى جبل عليها الفتى حالت دون تورطه فى فعل محرم ٠ ولو فعل السحار ذلك لحقق الغرض وأصاب الهدف ٠

ولكنه عندما يعرض علينا ملامح الشاب واهتماماته نلمح شيئا من عدم التناسب بين أجزاء القصة وعناصرها باعتبار أنها وحدة واحدة متماسكة وان تعددت عناصر تكوينها ٠

لابد أن يتحالف فيها الوصف الخارجى مع الملامح النفسية والفعل السلوكى ، والا جاء المضمون الفكرى للقصة منفصلا عن شكلها الفنى ، كما حدث فى (قصر فى الجنة) فقد جاء التوصيف الخاص بالشاب مخالفا للمنهج الذى يريد السحار تقريره ٠ فقد قال فى الحديث عنه (كان متدينا ، وما كان يعرف دينه الصحيح ، فقد شب وهو يصغى الى البدع ، ويتلقى تعاليم دينه من أفواه العوام وأمه العجوز)(١)٠

كما أن قراءته الدينية كانت محصورة فى نوع خاص فما (كان يقرأ الكتب الحديثة أو الكتب العربية القيمة ، بل كان يهوى الكتب الصفراء التى تبحث فى الجنة ، والنـــار والبعث والحســـاب وقصص الأنبيـــاء ، وحكايات الصـــالحين والمتصوفين) (٢) فما علاقة هذا بالسلوك الذى انتظم علاقة الشاب بفتاة الزمالك ٠ ان هذه الأنواع من وسائل الثقافة دليل على نزوعه الدينى كان يكفى ايرادها دون تعليق عليها وعلى الشاب بأنه لم يكن يفهم دينه الصحيح وأنه لم يعرف الا البدع والخرافات ، وليس لذكر ذلك علاقة بالموضوع الا أن يكون السحار قد عاب عليه موقفه الجمودى فى مواجهة الرغبة ، وتوحى عبارات السحار بأن ذلك الشاب فعل ما فعل بتأثير بدع معلوماته وكتبه الصفراء ٠ وهذا التصرف قد أفسد الصورة بما حشر فى داخلها من مواصفات للشاب ليس لها صلة بالموضوع أو بالهدف الذى من أجله صاغ القصـــة ٠

ثالثا : احتفاؤه بالايمان واهتمامه بالشخصيات والقيم الدينية :

وفى هذا المجال يصدر الســـحار عن وعى كامل بالقوة التى يمكن أن يحققها الايمان بالله فى حياة البشر ، ويؤكد أن التدين يحول دون الشطط ويجعل الانسان ملتزما بالطريق المستقيم لا يحيد عنه بدافع الخوف من الله أولا وقبل كل شىء ، فاذا ما خفت صوت الايمان داخل الضمير الانسانى انطلق يعبث فى الأرض مفسدا ٠

---

(١) صدى السنين ص ١٦٢ ٠

(٢) المصدر السابق والصفحة ٠

ولا يكفي أن يكون الفرد وحده مؤمنا بل انه حتى يستقيم الطريق لابد من ايمان المجتمع حتى يسود الأمن وتتحقق السعادة ٠

وقد أكد السحار هذا المعنى فى قصة (عندما تخمد نار جهنم) فقد جاء على لسان « ماريا » (بطلة القصة تساؤلات حول ضرورة ايمان المجتمع وأكد السحار على لسانها ما أعلنه بقوله :

(هل ايماننا وحدنا يكفى ليدفع عنا الزلل ، اذا كان الآخرون لا يؤمنـــون بما نؤمن به ٠٠ ؟) ٠

أبدا فما استطاع ايمانى العميق أن يثبت لكيد الذين كفروا والذين فى قلوبهم مرض ، الذين انطلقوا فى الأرض مفسدين بعد أن ماتت ضمائرهم يوم زاغت أبصارهم عن الله . وانفلتت منهم شياطين شهوتهم ، واستبدت بهم رغباتهم يلبون نداءها دون رهبة ، فلم يعد فى قلوبهم مكان لاله يخشون بأسه ، وقد خمدت فى نفوسهم نار جهنم (١) ٠

والسحار فى هذا يعلى من قدر الايمان ويشترط للحصول على السعادة والأمن توفر الايمان للمجتمع ، وانطلاقا من هــذا الاطار نراه يكره الالحـاد والتطرف ، والانحراف عن الدين ، ويقاوم بشــدة النزعات المادية الوافدة على الشرق العربى ، وظهر أثر هذه المقاومة واضحا فى قصة (الغيب) من مجموعة « كشك الموسيقى » وفيها يعرض لوحة فكرية حوارية ضمنها آراءه فى مسألة الغيب وموقفه من الالحاد العلمى ، والنظريات المتطرفة فى التطور والنزعات المـادية التى تســتهوى بعض الشــباب ٠

والصورة التى يعرض السحار فيها هذه الأفكار تكاد تكون مبتورة من الناحية الفنية ، لأن الجانب الفكرى يغلب فيها على عناصر الفن القصصى فى تقريرية ملحوظة ، حيث يحكى السحار قصة صديقين مفتونين بالغرب وأفكاره الجديدة ٠ ويريان أنها قمـة الحضارة والمدنية فى شىء من الغرور ، وقد ترتب على هــذا الايمان بالغرب استخفاف الشابين بكل القيم الدينية والعادات الأخلاقية النبيلة ٠ وقد تمثل ذلك الاستخفاف فى سخريتها منه عندما طلب لنفسه (اسباتس) من صاحب المقهى بينما طلب كل منهما « البيرة » كما تمثل فى سخريتها منه لقيامه لأداء صلاة الجمعـــة وتركهما ، وفى رؤيتهما لكل من يتمسك بالخير والحقَ على أنه « متزمت » ٠

ويحاول السحار ابراز الشخصية الخيرة المؤمنة على درجة عالية من الحيوية والانطلاق والمرونة فهى لا تحجر على حريتهما حتى لو كانت فى الخطيئة ٠

وبمنطق رحب وأفق واسع اتسم به الشاب المؤمن الذى عبر السحار عنه بضمير المتكلم راح يجادلهما بالتى هى أحسن (لعلكما تجدان فى الشراب نشوة ٠٠ وأنا أجد

---

(١) ليلة عاصفة . عبد الحميد جودة السحار ص ٦١ ٠

فى صلاتى نشوة · فلماذا تحاولان أن تحجرا على حريتى وأن تحرمانى نشوة أسعد بها وينشرح لها صدرى ·· من منا المتزمت المتحجر ··· ؟ تركت لكما حرية الخطيئة ، فلماذا تحاولان أن توقعا بى بعيدا عن طريق الأمن والسلام) (١) ·

ومن الأفكار التى شـــاعت عن الغرب وانتشرت فى جميع الأوســاط فكرة « التطور » ·· وقد آمن بها بطلا قصة الغيب المقابلين للشخصية المؤمنة التى أورد السحار على لسانها موقفه من هذه القضية ، فهو يرى (أن الغيب أصل فى الاعتقاد وأن الله موجود ، والدين لا ينكر التطور (مالكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا) (٢) ·

ولكن الدين والمنطق السليم ينكران أن الأصل خلية حية تطورت حتى صارت بشرا سويا فلو سلمنا بذلك التطور فهل النتيجة النهائية لكل ذلك · ذكر أم أنثى ··؟ فلو كانت النتيجة ذكرا فلابد من تطور آخر تكون نتيجته أنثى حتى تبدأ الحيــاة ولو حدث مثل ذلك التطور الثنائى لكان أكبر دليل على تدبير عاقل وعلى وجود مدبر حكيم · وما دمنا قد وصلنا الى المدبر الحكيم فالخلق أقرب الى المنطق والعقل من التطور والى افتراض وجود حلقة مفقودة) (٣) ·

ومن خلال النص السابق يتضح لنا موقف السحار من فكرة التطور التى آمن بها الغرب وأنه ينكرها مؤمنا بأن الانسان خلق من أول الأمر انسانا ولم يترق عن خلية حيــة ·

وبمثل هذا الموقف الواضح من فكر الغرب رأيناه يعلن ايمانه بالغيب ويتهم كل من أنكره بالغرور نجد ذلك فى الحوار الذى أداره مع بطلى القصة من ذلك قوله :

ـ قولا لى · اذا قربنا سلكا سالبا من سلك كهربى موجب فماذا سيتولد ·· ؟

ـ كهرباء ·

ـ وما هى الكهرباء ؟

فصمت صاحباى فقلت لهما :

ـ غيب ·

وعدت أسأل :

ـ اذا قربنا مغناطيسا من مسمار فماذا يحدث ؟

ـ ينجذب المسمار الى المغناطيس ·

ـ فما هى المغناطيسية ·· ؟

ولم يحر صاحباى جوابا فقلت :

---

(١) كشك الموسيقى عبد الحميد جودة السحار ص ٧٩ ·

(٢) سورة نوح ١٣ ، ١٤ ·

(٣) كشك الموسيقى عبد الحميد السحار ص ٧٩ وما يليها ·

ـ غيب .

ثم قلت لهما اذا وضعنا حامضا على معدن فماذا يحدث ؟

ـ تفاعل .

ـ فما هو التفاعل .. ؟ غيب .. (١) .

ويستمر الحوار بين الطرفين حادا حول الغيب الذى ينكره من يؤمنون بالغرب ونظرياته . بينما يؤمن هو به ويقرر . (أن المعمل لم يثبت الا حقيقة واحدة هى الغيب ، وكل حكمة الحكماء وعلومهم ان هى الا آراء بشرية ناقصة وظنون لا تبلغ من عالم الغيب الا أنه موجود مجهول) (٢) .

ونلاحظ على السحار فى لوحته القصصية هذه غلبة الطابع الفكرى التسجيلى عليها واهتمامه بابراز الجوانب التفسيرية للقضايا التى يناقشها من خلال أبطاله . مع اهماله للجوانب الفنية التى كان وجودها سوف يضفى على العمل الفنى قيمة جمالية ويحقق التأثير المطلوب ، فقد رأيناه عندما ناقش مسألة الغيب أكثر من عرض الصور المتشابهة لاثبات حقيقة وجوده فى الرد على المنكرين ..

وعلى هذا المستوى من الأداء الفكرى تناول مسألة الايمان بالروح مبرزا ايمان أصحاب النزعة المادية بما يدركون فى حياتهم فقط بأحد الحواس . أما خارج اطار الحواس فلا يؤمنون بشىء ، ومن هنا جاء انكارهم للروح . وقد جاء ذلك عارضا فى حوار سريع قام بين (عماد) الشاب المصرى وبين مضيفة شركة الطيران اليوغسلافية التى لا تؤمن بالروح كلية .. فعندما قال لها عماد :

ـ روحى انجذبت الى روحك .. منذ أول لحظة وقعت فيها عيناى عليك ..

ـ أنا عاجزة عن أن أتصور هذا .

ـ لماذا ؟ . لأننى لا أؤمن بالروح .

ـ وبم تؤمنين ؟

ـ أؤمن بما ألمسه بيدى ، بما أراه بعينى ، بما أشمه بأنفى بما أذوقه بلسانى ، بكل ما ألمسه بحواسى (٣) .

وظل يحاورها عن سر انجذابه اليها ، وعن سر انجذابها الى شخصه واختياره للحديث دون سائر الركاب محاولا ايجاد تفسير يقنعها بوجود الروح . ولكنها ظلت متشككة فى كل ما يقول مؤمنة فقط بكل ما يمسه جسدها ..

وعلى الرغم من متابعة السحار للنزعات المادية والأفكار الهدامة بالنقد من خلال

---

(١) المصدر السابق ص ٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ٨٣ .

(٣) ليلة عاصفة ص ١٠٩ وما بعدها .

أبطال قصصه وتصويره لسيطرة هذه النزعات نتيجة للانهيار السريع الذى أحدثته المخترعات المادية الحديثة ، وأثرها فى تغيير الفكر الانسـاني وان التفكير النظرى الأوربى استرعي الانتباه وجذب الأنظار نتيجـة ارتباطه بالتقـدم المادى فى وسائل الحيـاة الحديثـة والذى جاء حصـادا للتقـدم العلمى الغـربى ، ومـع كل ذلك فالسـحار لا يفزع من هـذا التقدم العلمي بل يعتبره الطريق الموصـل الى رحاب الايمان الحق بالله • نجد ذلك في الحوار الذى أداره بين « أستر » اليهودية وبين بطل القصة الذى عبر عنه بضمير المتكلم فقد طمأنها فى أمل بأن (عصر الايمان المنتصر مرحلة أرقى من الالحاد يحتاج الى أفق أرحب ••

لقد بهرت التجارب العلمية التى أجراها البشر فى القرن الماضى ومطلع هذا القرن أبصار الناس ، صاروا لا يؤمنون الا بما تحلله المعامل ، وأن هذه المعامل نفسها هى التى ستقودهم الى الايمان •

فالعلماء عندما فتتوا الذرة ، وجدوا شموسا وأقمارا وعالما منظما دقيقا عجيبا لا يمكن أن يكون الا من خالق قادر عظيم ، فآمنوا بوجود قوة عليا هائلة آمنوا جميعا وقال بعضهم بعد نجاحه العظيم فى تفتيت الذرة ، وعجزه عن تعليل الظواهر الرائعة التى شاهدها تعليلا علميا : هنا الله) (١) •

وبالحماس نفسه الذى انطلق منه السحار فى مواجهة النزعات المادية المعوقة لحركة الايمان فى نفوس البشر •• راح يعلى من قدر المثل الايمانية ويبرز انحيازه اليها من خلال الشخصيات الخيرة وموقفها من صراعات الحياة وانتصارها على مطالب النفس والهوى ، نجد شيئا من ذلك فى معالجته لقضية المال باعتباره عصب الحياة ودافع حركتها ولكنه مع أهميته لا يمثل بالنسبة للمؤمن غاية فى ذاته وانما ينظر اليه على أنه وسيلة للحياة الشريفة ينأى به عن ذل النفس ومواطن الاستعباد • وأنه من عند الله فهو مانحه وليس للانسان فضل فيه ، فاذا أنعم الله على عباده به يجب عليهم أن يعرفوا حقوقه وأن يبذلوا الخير لمن يستحقون عن طواعية وحب دون من أو أذى •

وقد حدد القرآن الكريم هذا المعنى فى قول الله جل جلاله : « وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » (٢) •

ومن فهم السحار لهذه الآية قدم تجربة بشرية فى صورة قصصية حافلة بنوازع الخير عند أهل الايمـان وما يصـادفهم فى حيـاتهم من اختبارات يعبرون ضـبابها منتصرين على شح النفوس ناعمين بالأمن فى رحاب الله •

وعلى ضوء ذلك وجدنا « عبد الرحمن » فى أقصوصة (مال الله) (٣) يكتسب ماله من صوته وهو هانىء قرير العين بما يأتى له منه ، يتملكه الزهو أحيانا فرصيده

---

(١) ليلة عاصفة ص ١٤٩ وما بعدها •

(٢) سورة الحديد آية ٧ •

(٣) صور وذكريات ــ عبد الحميد السحار ص ٥٢ •

في البنوك يتضخم يوما بعد يوم ومعه من كل وسائل الحياة ما يبعث على الهدوء والطمأنينة وكان كلما شعر بذلك أحس أمنا لا يعكره خوف وسعادة لا يبددها هم • وصوت في داخله يهتف به : أن ما يعيشه من سعادة انما جاء من عبقريته الفذة وصوته الساحر الذى يأسر الألباب ويسبي العقول • وكاد ذلك الصوت يغلف حياته بشيء من الغرور •• ولكنه أنكر ما يجوس بداخله من وساوس الشيطان وازداد انكاره لها ذات يوم عندما وقع بصره على طفل رث الثياب يصطحب شيخا أعمى يتسول فى الطريق مستعينا بصوته وآلته الموسيقية البدائية (الربابة) •• ورثى عبد الرحمن للشيخ الفانى •• وتوافدت على رأسه أفكار قلقة •• ظلت تلح عليه حتى أيقن أن صوته هبة الهية وأنه مصدر رزقه فالمال الذى يجمعه من هذا الصوت لا فضل له فيه ، ان (له فيه شريك •• ومن شريكى •• ؟ •• الله شريك • بل انه مال الله استخلفك فيه •• للناس كلهم حق فيه ••) (١) •

وأخذ منذ تلك اللحظة بهذه الفكرة فراح يبحث عن مستحقى هذا المال ، وكانت سعادته وهو يعطى فضل ماله لمستحقيه لا تحد انها سعادة تفوق الوصف تربو على سعادته وهو يستمع فى نشوة الى تصفيق الجمهور واعجابهم به • وفى المواجهة وقفت زوجته غاضبة من تصرفاته وتضييعه للمال محتدة عليه بقولها • (ما يحتاج اليه البيت يحرم على الجامع) ولكنه لم يبال ولم يتوقف عن الانفاق • وجعل يردد بصوت مسموع (لا •• لا •• انه ليس مالى • انه مال الله وهو قادر على أن يحبسه الآن (٢) •

وأمام اصرارها على تأمين الأسرة والحد من الانفاق ببنـاء بيت ينفع الأولاد • أقبل على تنفيذ الفكرة فرحا لا لأنه سيبنى بيتا ويدخر مالا •• بل لأنه وجد منفذا يستطيع من خلاله الاغداق على الفقراء من العاملين فى البناء • (لأن لهم نصيبا فى المال وسوف يغدق عليهم حتى ترضى نفسه) (٣) •

وعندما يتقدم منه ابنه غاضبا لأن المهندس الذى يشرف على البنـاء يغافلهم ويسرق أموالهم • لا يستجيب لغضب ابنه قائلا :

ـ هذا أمـر يستوجب الشكر لله • لأنه أعطانا ما يسرقه الناس ولم يحرمنا ويضطرنا الى سرقة الناس (٤) •

ومع هذا الوعى الايمانى والحرص على الانفاق لأن المال مال الله • فان السحار فى عرضه لتطورات القصة أراد أن يطلعنا على بعد آخر •• يتمثل فى أن الانسان اذا شغل بأمر نفسه عن أمور الناس أهمل واجباته الدينية وأنه كلما كان مشدودا الى الأرض بعوامل المادة ، والافتتات على طلبها نسى أمر السماء • فعلى الرغم من نزعة

---

(١) المصدر السابق ص ٥٤ •

(٢) المصدر السابق ص ٦١ •

(٣) المصدر السابق والصفحة •

(٤) المصدر السابق ص ٦٣ •

الخير في مسلك « عبد الرحمن » الا آنه عندما شغل بأمر البيت الذى يبنيه تبدلت حاله بعض الشيء حتى انه عندما كان يلقى الضعفاء والمحتاجين لم يكن كعادته معهم سعيدا منتشيا بما يصنع ·· بل شدته الأرض بهمومها فتثاقل وتباطأ وبعد أن (كان يعطي الناس نصيبهم في ماله وهو راضي النفس خفيف الحركة ، صار يعطيهم والقلق يخفق في كيانه) (١) ·

وعندما أفاق من غفلته وعاد اليه وعيه (عاهد نفسه أن يحتقر المادة ليسعد وكان سعيدا حقا قبل أن يصغى الى زوجته التى نجحت فى أن تجذبه الى الأرض) (٢) ·

فلما انتهى البناء وانتصر على ذات نفسه (أحس بأن حملا ثقيلا انزاح عن صدره ، وأن الصدأ الذى ران على روحه قد ذاب ، وأن النور بدأ ينتشر فى كيانه ، فقد خرج من سجن نفسه وعاد طليقا ليعطي الناس نصيبهم فى ماله ·· بل فى مال الله) (٣) ·

والسحار وان كان يعلي من الايمان كقيمة حيوية وأساس متين في تحقيق الأمن والسعادة للانسان ·· الا أنه ينظر الى التجربة البشرية في صراعها الطبيعي بين الخير والشر نظرة معتدلة لاتتخذ المغالاة في رفض الشر طابعا لها كما أنها لا تغالى فى رفض العناصر الخيرية على الطبيعة الانسانية ، لأن الانسان فى فهم السحار جسد وروح وأن قصته على الأرض ما هى الا قصة الصراع الدائم بين نوازع الرغبة في تكوينه وبين مدارج السمو والكمال وأنه بمقدار ما توفر لديه من عوامل الخير يستطيع اجتياز الطريق الى شاطىء النجاة متساميا فوق الأهواء والغرائز واذا انحرف عن الجادة وضل الطريق فأبواب الأمل أمامه مفتوحة ، وليس عليه الا أن يتقدم الى ربه تائبا ·· فالله يقبل توبة التوابين · وقد عالج السحار هذه القضية وأجاد فى رسم طبيعة الصراع وملامحه من خلال أبطاله ، وعلى مستوى التجربة البشرية الواقعية التى لا افتعال فيها ولا مبالغة نجد ذلك فى (وسوسة الشيطان) (٤) التى نلتقى فيها بشاب متدين (صلاح) بلغ من ثقته فى تدينه أنه كان يعتقد اعتقاد اليقين أنه من أصحاب اليمين الذين سيدخلون الجنة بسلام ، فقد صلى كثيرا وصام كثيرا ، وما ارتكب معصية ، ولا تردى فى هاوية كما يتردى أقرانه كل يوم وليلة · وهو متمسك بالشريعة متحمس لتنفيذها ، ولا يحب الجالسين على المقاهى بل يمقتهم وخاصة لأنهم اذا سمعوا النداء من داعى الايمان ظلوا فى لهوهم ، فكان يغمغم (يا للمجرمين ، يسمعون نداء الله ولا يلبون ، تمتعوا قليلا فلن يقودكم شيطانكم الا الى جهنم وبئس المصير) (٥) ولأنه ذاق حلاوة الايمان ويريد لغيره أن ينعم بها · كان حريصا على هداية زوجته

---

(١) المصدر السابق ص ٦٤ ·
(٢) المصدر السابق ص ٦٥ ·
(٣) المصدر السابق والصحة ·
(٤) همزات الشياطين عبد الحميد السحار ص ٥ وما بعدها ·
(٥) المصدر السابق ص ٧ ·

(سميرة) ويريد أن يزحزحها عن النار فكان يوقظها لصلاة الفجر معه رغم حبهـا الشديد للنوم ، وقد فعل ذلك حتى لا يراها تتفاحم فى النـار اذا ما تكاسلت عن الصلاة · ولأن مقياس المحبة عنده · أن يعين غيره على طاعة الله وأن يخرج الناس من الظلمات الى النـور ·

وهذا الشاب العابد المتبتل بما يحمل من رصيد ايماني ووعي ديني وضع أمام امتحان رهيب ، وابتلى بتجربة قاسية ، بدأت خيوطها تتجمع عندما فطن الى وجود جارة لهم (بديعة) تعمل مدرسة وكانت ذات فتنة · وفى أول الأمر حاول غض البصر عنها ولكنه وجد نفسه مدفوعا الى اختلاس النظر اليها بين الفينة والأخرى ، وتحول الأمر الى تفكير فيها واهتمام برؤيتها ، فكان اذا وجدها راح يختلس النظر اليها ، واذا لم يجدها جعل يبحث عنها · على الرغم من حرصه على ابعاد شبحها عنه مستعينا بالمعوذتين وبعض آيات من القرآن الكريم ، فقد ظلت وسوسات الشيطان تلاحقه حتى أنه لم يعد يعرف الخشوع في الصلاة ، بل انه لم يعد يدرى ان كان صـلى ثلاثا أم أربعا وقد يدفعه الشك أحيانا الى اعادة الصلاة ·

ولم يستطع مقاومة شيطانه فاستجاب لنداء الغريزة ، وسقط فريسة لهوى نفسه . فتلامسا وتعانقا وقبلها قبلة عميقة ، بل انه تجاوز ذلك ووقع فى الاثم · وبعده بكى وتألم وكادت روحه أن تتمزق فقد اعتقد أنه طرد من الجنة وتناهى الى سمعه صوت آذان الفجر حاول وضع أصبعه على أذنه حتى لا يسمع وعاش فى دوامة من القلق والخوف ولم يفق من حيرته الا على صوت خاطرة ترن فى أذنيه :

ــ كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون (١) ، فتمتم والدموع تخضب وجهه ·· اللهم انى أستغفرك وأتوب اليك (٢) ·

قدم السحار هذه المعالجة باقتدار عجيب فقد أبرز ملامح الايمان فى (شخصية صلاح) حتى بدا وكأنه عابد متبتل لا سبيل للشيطان عليه · وشيئا فشيئا بدأت حدة العبادة تتضاءل أمام مواجهة الفتنة · وظلت مقاومته لوسواس الشيطان طابعا دراميا عنيفا حتى كونت عقدة القصة وبعدها تطور الحدث الى النهاية الأليمة ·· ووسط دوامة اليأس من رحمة الله لاحت بوادر الأمل متمثلة فى التوبة بعد لحظـة افاقة وبهذا التصوير الجيد تواءمت الجسور الفكرية بكل ملامحها مع المقومات الفنية للقصة القصيرة فلم يشأ السحار أن يجعل نهاية بطله الى الضياع بل فتح أمامه نوافذ الأمل فى رضوان الله · وفى هذا تمثل صحيح للرؤية الاسلامية الواعية ·

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه والترمذى والحاكم انظر مختصر شرح الجـامع الصـغير للمناوى ، جـ ٢ ص ١٥٤ ·

(٢) المصدر السابق ص ٥٢ بتصرف ·

رابعا : تناوله لبعض القضايا المصيرية للانسان في اطار رؤيته الدينية :

وقد تمثل احتفاله بذلك في تناوله لقضية الموت وبلورة موقف الانسان منه ، باعتبار أنه حقيقة مقررة لا سبيل الى انكارها ولكن الانسان مع علمه اليقيني بهذه الحقيقة الا أنه يصدر في حياته وسلوكه عن منهج مخالف لمقتضى هذا العلم لأن مطامعه في الحياة لا حد لها ، وكلما تحقق له شيء منها نظر فاذا أمامه طريق طويل من الأحلام والآمال ٠

وقد عالج السحار موقف الانسان من الموت في كثير من أعماله الفنية ، لعل من أبرزها في مجال القصة القصيرة لوحة معبرة تقطر سخرية ومرارة من البشر وهم يشاهدون النهاية ومع ذلك لا يعتبرون ٠ بل انهم في أشد اللحظات أسى ولوعة يكونون مشغولين بأمر دنياهم وحاجات نفوسهم ٠

نجد ذلك في (على القبر) (١) وهي لوحة قصصية معبرة يصور السحار فيها تكالب الانسان على الحياة وافتئاته عليها حتى في أشد لحظات الحزن وأعنفها ضراوة ـ وتحكي قصة مشهد جنائزي لفقيد شاب والنعش محمول على أكتاف متخصصين في هذه الوظيفة (الحانوتية) وقارئ القرآن لا يفهم شيئا مما يقرأ لكثرة ترويده له ، وكل ما يعنيه من أمر الموت هو حصوله على (المعلوم) غير عابئ بكل من حوله من حزاني ومفجوعين ، وحاملوا النعش لا هم لهم الا التفكير فيما سوف يعودون به الى ذويهم من الثياب الحريرية التي ستبقى من كفن الميت ٠ وبهذا العرض الساخر يقدم السحار للحدث الذي يريد أن يصوره من خلال ثلاثة أشخاص هم أعز أصدقاء الفقيد ٠

هؤلاء الثلاثة شاركوا في تشييع الجنازة حتى انتهوا جميعا الى القبر ٠٠ وعلى الرغم من شدة الموقف وفداحة المصاب الا أن كلا منهم شغل بأمر نفسه ، وعن طريق توارد الخواطر راحت أفكاره تنثال على صفحة ذهنه ٠

الأول: على موعد مع حسناء ٠ فهل يذهب اليها في الموعد المحدد أم يأتي لأداء الواجب ٠٠ ؟ وقرر بعد أخذ ورد الذهاب اليها ٠

والثاني : رجل مشغول بأمر الطعام الذى أعده للغذاء ٠ وكل همه أن ينتهي الدفن ليعود الى طعامه اللذيذ ٠

والثالث : حزين لا لأن الفقيد كان عزيزا عليه ٠٠ بل لأنه مات وعليه دين له ولا يدري كيف سيحصل عليه من أهله وظل الثلاثة في شرودهم ولم يفيقوا الا على صوت يقول :

وحدوه ٠٠ وما علموا أن مصيرهم غدا هو هذا المصير المحتوم (٢) والسحار في هذه اللوحة أراد أن يقول لنا: ان الموت حقيقة نشاهدها كل يوم بل كل ساعة ونعيش

---

(١) همزات الشياطين عبد الحميد جودة السحار ص ٥٥ ٠

(٢) المصدر السابق ص ٦٤ ٠

أحزانها بعض الوقت مشاركة منا لبعض من نعاشر في حياتنا · ولكن نفوسنا جبلت على حب الدنيا والتعلق بها ·· فكثيرا ما ننسى الموت أو نتناساه ·· وهو أقرب الينا من حبل الوريد ·

قدم الكاتب ذلك من خلال صورة ساخرة يغلب عليها الطابع الوعظي وتتسم بكثير من التقريرية ·

واذا كانت مشكلة الموت لم يحفل بها أبطال القصة السابقة ، فان بطل قصة (العجلة تدور) (١) قد حسب لها ألف حساب ، وأجهد تفكيره في البحث عن سر للحياة والموت والسعادة ، خصوصا بعد أن وجد نفسه كلما وصل الى ما يريد تفتحت أمام عينه واجهات الآمال لما هو أعلى وأرفع مما وصل اليه · وهكذا عجلة دائرة لا تتوقف الا بالموت ان (الانسان سيمضى نهارا لا يمضى نهارا على وجه الأرض بعده ، ويقضى ليلا لا يقضى ليلا بعده الا وهو فى باطن الأرض ، فتموت آماله وتنقضى أحلامه بانقضائه) (٢) ·

ان هذه الأفكار تنثال على هيئة خواطر تتوارد على صفحة ذهن بطل القصة ، فكلما عنت له وتراءت لخياله أرهقته من أمره عسرا ، فيعلن على نفسه :

ـ ان كل بشر سيهوى يوما ويسقط ، وسوف تستمر عجلة الزمن فى دورانها دون أن تحفل بسقوطه (٣) ·

وهذه الحقيقة على الرغم من علمنا بها ويقيننا فى حدوثها الا أننا لا نتعظ ولا نعتبر ، وهذا ما يأسى له بطل القصة ، انه حزين لأننا (نعلم النهاية ولكن ما أسرع ما ننساها ونغفل عنها فنتقاعس ، ونتطاحن ، ونتباغض ، ونتشاحن ، ونتضارب ، ونتقاتل ، ونمشى على أجداث ضحايانا مزهوين نكاد نبلغ الجبال طولا ، اننا عما قريب سنصرع ، وفي جوف القبر الموحش سنغيب) (٤) ·

ولا يعنى ذلك أن تتوقف الحياة ، وأن نتوقف عن العمل انتظارا لهذه النهاية المؤكدة ، فما الحياة الدنيا الا دار عمل ، انها ممر الى مقر ··

ومن أجل أن يطلعنا السحار على موقفه من الموت وأنه ليس الا بداية لحياة جديدة لا فناء فيها ولا خوف منها ، وأن عالمه رحب لا تقيده حدود المكان والزمان ، لجأ الى الاخبار عن كل ذلك بواسطة الأرواح · التى عاشت حياة ما بعد الموت · حتى يمكن لنفسه من حسن العرض القصصى فقد رأى بطل القصة فى منامه أطيافا تشع

---

(١) همزات الشياطين ص ٦٧ ·

(٢) المصدر السابق ص ٦٨ ·

(٣) المصدر السابق ص ٦٩ ·

(١) المصدر السابق ص ٧١ ·

نورا وبهجة كأنما كل منها بدر منير ، وكانت الوجوه راضية مطمئنة ، كلها وضاءة وكلها سعادة (١) .

فلما أحس وجود الطيف سأله :

ـ من هؤلاء الذين أسعدنى الحظ بمجالستهم ؟

ـ أرواح تلك الأجساد التى يتكون منها سقف حجرتك .

ـ أرواح حوائط حجرتى !؟

ـ أجـــل .

ـ وما جاء بك الى هنا ؟

ـ رأينا ما اعتراك من فزع لما فكرت فى الموت فأشفقنا عليك وأردنا أن نعيد اليك روعك .

ـ أتود ألا أفزع لذكر الموت .

ـ ليس الموت بتلك الصورة البشعة التى صورها لك خيالك .

ـ ليس الموت بتلك الصورة البشعة ؟

ـ أجـــل .

ـ وهل هناك أبشع من الفناء ، اننا سنتبخر كما يتبخر الماء ، ونصبح لا شيء ، ستندثر أجسامنا ونضيع فى ذلك العالم العريض .

ـ وما أجسامكم ، هبها اندثرت وضاعت كما تقول فما قيمة كل هذا ؟

ـ ما قيمة كل هذا .. ؟ سنصبح لا شيء ، سنصبح كأن لم تكن بالأمس .

ـ بل سنصبح كل شيء ، سنتحرر من سجن الجسد وسنهيم فى كل مكان بلا قيد ، وستنفذ الى الحقائق فى يسر ولن تعوقك عوائق المكان ولن يقيدك الزمان بقيوده) (٢) .

ويستمر الحوار بين البطل وبين الروح التى تحدثه عن ضآلة علمه الذى لا ينفذ الا الى ما يلمسه من الأشياء المحدودة دون أن يتمكن من النفاذ الى عالم المجهـول ، وعندما يتساءل فى حسرة عن سر التكالب على الحياة ما دام الموت على هذه الصورة من البهجة . فتكون الاجابة : سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا (٣) .

وهكذا يعالج السحار قضية الموت بفكر مستقيم ، ومنهج سديد بعيـدا عن تشنجات اليأس وانفعالات الخوف التى يحـاول بعض الكتاب أن يصـور الموت فيها

---

(١) المصدر السابق ص ٧٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٧٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٧٧

على أنه تبديد للطاقة الانسانية ومعوق كبير للحركة الدافعة الى الحياة ، وانه شبح مخيف تتوقف عنده الحياة وأن ما بعده لا علاقة لنا به ولا رجاء لنا عنده الى غير ذلك من عوامل التشكيك فيما بعد الموت التي تدفع الانسان الى الانطلاق في حياته يعب اللذات عبا ، ويغتنم اللهو اغتناما قبل أن تتوقف حياته عند النهاية ٠

أما معالجة السحار فيتضح منها التزامه بالموقف الاسلامى فى نظرته الى الحياة والموت اعتبار أن الدنيا دار ممر والآخرة دار مقر ٠

خامسا : معالجته الفنية لبعض أحداث
التاريخ الدينى في أسلوب قصصي جذاب:

وفى هذا المجال قدم مجموعته القصصية (قصص من الكتب المقدسة ١٩٥٢) مستخدما شكل القصة القصيرة فيما تناول من عرض لحياة بعض الأنبياء الصالحين ، مبرزا من خلالها أحداث حياتهم وكفاحهم فى سبيل رفع راية الدين واعلاء كلمة الحق ، وما صادف حياتهم من مواجهات أهل الشرك والطغيان ، ومن عنت المارقين عن جادة الصواب ، كما قدم من خلال هذه القصص صورة حية لعوامل الصراع التى أحاطت بالانسان على وجه الأرض ، وما غلف حياته من ضباب وشك كان نتيجة لمروقه عن ساحة الايمان وعبادته النفس والهوى ، وجحوده لنعم الله التى أنعم بها عليه ٠

وقد اعتمد السحار فى سرده القصصي للأحداث التاريخية المتصلة بحياة الأنبياء على ما ورد فى القرآن الكريم كمصدر أساسي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ٠

فجاءت صياغته الفنية فى معظم الأحوال متأثرة بأسلوب القرآن ومنهجه وطريقته فى عرض قصص الأنبياء ٠ خصوصا وأن القرآن قد حفل (بكثير من القصص الهادف الذى يعالج مشاكل المجتمع الانسانى ، ويوضح الطريق السوى ، ويضرب المثل بمن أصروا على التمسك بالقيم الفاسدة والأخلاق الوضيعة ، ماذا كانت نهايتهم والمصير الذى صاروا اليه ؟

ان القرآن وهو يقص علينا هذا اللون من القصص يهدف الى أخذ العبرة من النهاية لأبطال القصة التى ساقها ، مبينا الأحداث التى مرت بها أطوارها ، وقصص القرآن صدق كله ، وهادف لغاية نبيلة ، ومرشد الى قيم أخلاقية فاضلة) (١) ٠

ولهذا كان القرآن الكريم فى مقدمة المصادر التى اعتمد عليها الكاتب فى معالجته الفنية ٠ رأينا ذلك فى تناوله لخلق آدم ونشأته وقصة ابليس معه ، وما صاحب ذلك من أحداث امتدت فى تطورها حتى شملت ما حدث بين ابنى آدم (هابيل وقابيل) من صراع وأحقاد وقد صور السحار كل ذلك وعبر عنه فى (خطيئة ادم ٠ (٢) من هذه المجموعة ٠

---

(١) القصص الهادف ٠ منصور الرفاعى عبيد ص ٦ ومابعدها ٠
(٢) قصص من الكتب المقدسة عبد الحميد جودة السحار ص ٥ ومابعدها ٠

كما رأينا ذلك في معالجته لنشأة موسى عليه السلام في قصر فرعون وخروجه من مصر الى مدين ، ثم عودته الى مصر مرة ثانية لدعوة فرعون وقومه الى دين الله وما تبع ذلك من أحداث ترتب عليها خروج موسى ومن معه من بني اسرائيل من مصر ، وملاحقة فرعون وجنوده لهم ، حتى نجى الله نبيه من بطش الكافرين ، ثم ما أورده السحار من دخولهم الأرض المقدسة وما حدث بينهم وبين موسى من مجادلة وعنت ونزاعات ·· أبرزها السحار في دقة تفصيلية وبراعة تسجيلية في قصة (موسى) (١) من المجموعة نفسها وعلى المنهج نفسه في العرض والتصوير تناول قصة نبي الله (داود) (٢) وجانبا حيويا من حياة النبى سليمان فى (سليمان وبلقيس) (٣) ·

وقد كان القرآن الكريم مرجعه الأول في سرده لهذه القصص ، فلم يتجاوز فى معظم الأحيان الوقائع التى سجلها ، والمواقف التى صورها بل التزم بها وأقام سرده على أساسها ، مستعينا على تتبع جزئيات الأحداث وتفاصيل المواقف بما تيسر له من كتب التفسير ومدونات التاريخ والسير التى قامت بعبء ايضاح المبهم وبيان الغامض وتفصيل المجمل فيما ورد بشأن قصص الأنبياء فى القرآن الكريم ، وخصوصا ما سجلته قريحة الامام ابن كثير فى كتابه (قصص الأنبياء) فقد لاحظنا تتبع السحار له واعتماده كثيرا عليه فى بلورته للأحداث والمواقف وبعض الشخصيات التى لم يرد لها ذكر فى القرآن الكريم · وتمثل دور السحار فى تجميع الجزئيات وربط الأحداث بعضها ببعض فى تسلسل قصصى ، كما تمثل فى تجسيده لملامح الشخصيات عن طريق الوصف وفى رسمه للجو التاريخى للبيئة المكانية والزمانية التى عاش فيها أبطاله فأضفى على الحكاية التاريخية جوا من الفنية الأدبية ، وتمكن بواسطة وسائله الفنية من تقريب صورة ذلك الماضى بأحداثه وشخوصه الى أذهان قرائه المعاصرين ووضع أمام بصيرتهم تجارب البشر السابقين ، واختلاف مواقفهم من دعوة الايمان بالله وكيف كان جزاؤهم وعلى أية صورة كانت نهايتهم مبرزا جزاء الخير الذى أصاب المؤمنين بسبب ايمانهم وجزاء الشر الذى حل بالكافرين جزاء كفرهم وعنادهم ·

وفى جانب آخر من قصص المجموعة تناول بالعرض حياة اليهود وأفكارهم ، مبرزا زيف سلوكهم وانحرافهم عن طريق الحق ، ووقوفهم فى مواجهة النور ، وغلوهم فى الضلال والاضلال ، بما اقترفوا فى حق الأنبياء من جنايات ·

كما بين فساد طويتهم وطغيان نزعة الهوى فى نفوسهم ، وذلك من خلال عرضه لمواقفهم فى حياة الأنبياء ، وتناوله بالمعالجة قصة امرأتين يهوديتين كان لهما دور كبير فى حياة (بنى اسرائيل) وهما (أستر) و (سالومى) ·

---

(١) المصدر السابق ص ٤٩ ومابعدها ·

(٢) المصدر السابق ص ٩٣ ومابعدها ·

(٣) المصدر السابق ص ١٣٤ ومابعدها ·

وعلى مستوى آخر من المعالجة قدم السحار صورا رائعة لملامح الايمان ، وحلاوة اليقين فى حياة المؤمنين وذلك من خلال تناوله لبعض المواقف الايمانية فى حيـاة الصالحين ، وقد استطاع بما يملك من وسـائل الابداع الفنى وبلورتها فى صياغة قصصية مثيرة مستهدفا جذب القارىء الى ساحة الايمان بما يعرض عليه من صور الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة ، ولا شك أن ذلك من أقصى غايات الأدب الهادف · التى يسعى الى تحقيقها عند المتلقى · اذ غايته القصوى هى الارتفاع بالانسان الى مستوى المثل العليا والحياة الفاضلة ، التى ينعم فيها بالاستقرار والسعادة بعيدا عن صراعات المادة وضراوة أطمـاع النفس والهوى وقد هدف السحار من وراء تقـديمه لقصص هذه المجموعة على اختلاف تكوينها وطبيعة منهجها الى تقديم العبرة من حياة السابقين ورسم أمثلة للخير يمكن أن يحتذيها الانسان فى حاضره حتى يتخلص من شرور نفسه ، ويتجنب فى عقيدته وسلوكه كل ما من شأنه أن يبعده عن ساحة الهدى حتى لا يضل الطريق فيصيبه ما أصاب سابقيه من عذاب وشقاء · وفى حدود هذا الهدف تشكلت الصورة الفنية للقصة القصيرة التى قدم الكاتب من خلالها رؤيته الدينية لأحداث التاريخ ملتزما بالحقيقة لا يتجاوزها فى حالة من الحالات · لارتباطها بالعقيدة الدينية من حيث اتصالها ببعض الأنبياء ، ولورود مادة الحدث فى القرآن الكريم وهو حق لا مرية فيه ، وهذا لا يعيب الكاتب فى شىء ولا يحط من قدره ، ولا يجافى طبيعة الفن القصصى فى قليل ولا كثير ، لأن لكل موضوع خصائصه التى تطرح نفسها وطبيعتها على الفن والفنان معا ، وخروج المعالجة الفنية عن اطارها يفقد المضمون فعاليته ·

فاذا كانت القصة التاريخية تعتمد من حيث مادتها على الوقائع المدونة فى المصادر التاريخية الصحيحة ، والخروج عنها يعتبر تزييفا للواقع التاريخى ، ومجافاة لمعيار الصدق فى وجهتيه الفنية والموضوعية فان الموضوعات المتصلة بالدين وبالحياة الدينية أحوج ما تكون الى عامل الصدق من غيرها ·· نقول ذلك لأن بعض الدارسين عاب على السحار طريقته التسجيلية التى تتسم بها معظم قصص هذه المجموعة فقد (افتقرت الىعناصر الفن القصصى لأن المجال الدينى كان قيدا كبلت به أيدىالسحار فلم يستطع التحرك بحرية فى هذه الأقاصيص) (١) ·

وهذا الرأى على اطلاقه ليس صحيحا لأن معظم العناصر الفنية للقصة القصيرة تتوافر فى القصص التى قدمها السحار فى المجموعة المشار اليها · ففى معظمها نجد الحادثة تمثل أساسا جوهريا فى صياغة القصة ، كما نجد البداية والنهاية ، والعقدة التى تتمثل كثيرا فى مواقف المواجهة وحالات الصراع الحاد بين أبطال القصة الواحدة· كما نجد ذلك فى (خطيئة آدم) وفى (موسى) وفى (سليمان وبلقيس) على سبيل المثـــال ·

---

(١) القصة عند عبد الحميد جودة السحار ، فاطمة الزهراء عبد الغفار الموافى ص ٣٦١ ·

على أن بعض هذه العناصر كالبداية والنهاية مثلا لا يشترطها غالبية النقاد للقصة القصيرة باعتبار أنها (تلتقط موقفا واحدا مكثفا خصبا بالدلالات ، وتدور حول محور واحد ، وتنصب على فكرة واحدة) (١) ٠

بل ان السحار نفسه في بعض دراساته النقدية ينتصر للقائلين بعدم اشتراط البداية والنهاية للقصة القصيرة مؤكدا ضرورة توافر الشرط الوحيد لها وهو : وحدة الموضوع وانسجامه وأنها لا تخضع للحبكة كالرواية (٢) ٠

وعلى كل حال فان طبيعة الموضـوع قد فرضت على الكاتب الطريقة التى تصلح للمعالجة ، فجاءت أقاصيص المجموعة فى شكلها الأساسى معتمدة على الحكاية السردية باعتبارها العماد الأول فى تكوين القصة ثم لونها الكاتب بوسائله الفنية بما أضاف اليها من تجسيد للصور وتحديد لملامح الشخصيات واجادة ربط للأحداث بالقـدر الذى يكفل لها الجو الأدبى المطلوب ٠ مع الأخذ فى الاعتبار أن الكاتب قد استخدم الشكل القصصى فى جانب كبير من قصص المجموعة لتقديم بعض المعلومات التاريخية خالية من الجفاف العلمى والطريقة الأكاديمية وقد وفق الى حد كبير فى هذا الاتجاه نجد ذلك واضحا فى (خطيئة آدم) حيث قدم الكاتب الملامسات التى صاحبت خلق آدم وموقف الملائكة من خلقه وامتناع ابليس عن السجود له والدوافع التى كانت سببا فى هذا الامتناع فى أسلوب سهل ونزعة تعليمية ٠ فعندما يعرض لخلق آدم يقدم لذلك بقوله (قبض الله قبضة من جميع الأرض فكان فيها الأبيض والأسود والأحمر ، والخبيث والطيب والسهل والحزن ، ثم بلت القبضة حتى صارت طينا لازبا ، ثم صور الله الانسان فكان جسدا من طين ، ثم ترك حتى صار حمأ مسنونا وبقى حتى أصبح صلصالا) (٣) ٠

فالنزعة التعليمية واضحة تماما فى عرضه لقصة الخلق كما تبينها العبـارة السابقة حيث لجأ الكاتب الى تتبع الأطوار التى مر بها خلق آدم حتى صار صلصالا ٠

وعن طريق الحكاية أخبرنا عن موقف ابليس فقد طلب الله من الملائكة السجود لآدم ولكن ابليس أبى (وراح يقيس بين نفسه وبين ذلك الجسد الذى سوى من طين فرأى نفسه أشرف منه ، فهو من نار ، وأين الطين من النار ٠٠ ؟ وما درى أن فى الطين الرزانة والحلم والنمو ، وفى النــار الطيش والخفـة والسرعة والاحراق ، فاستكبر ٠٠) (٤) وطرد من الجنة لأنه لم يستجب لأمر الله ٠

ويمضى السحار فى حكاية القصة مبينا موقف الملائكة وما دار فى نفوسهم من تساؤل ٠ وكيف أن الله أراد أن يريهم أنهم ما كانوا صادقين عندما قالوا : لا يخلق

---

(١) القصة القصيرة د٠ سيد حامد النساج ص ١٤ ٠

(٢) همزات الشياطين عبد الحميد جودة السحار ص ٢٣٢ من التذييل الملحق ٠

(٣) قصص من الكتب المقدسة ص ٦ ٠

(٤) المصدر السابق ص ٧ ٠

ربنا خلقا الا كنا أعلم منه فجلب من الأرض حيـوانات البرية ، وطيـور السماء ثم عرضها على الملائكة طالبا منهم أن ينبئوه بأسمائها ان كانوا صادقين · ولكنهم توقفوا ·· فجاء آدم وجعل يذكر اسم كل طير وكل زاحفة وكل دابة ، فقال الله سبحانه :

« ألم أقل لكم انى أعلم غيب السـموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » (١) ·

وعند عرضه لخلق حواء رأينا الحوار الذى أداره السحار فى هذا الموقف يكاد يكون متقولا بتمامه من قصص الأنبياء لابن كثير (٢) ولكنه فى تناوله لمحاولة اغراء ابليس لحواء وطلبه منها أن تأكل من الشجرة المحرمة ، يضفى على الموقف أبعـادا انسانية ويتصرف فى تصوره لحركة حواء على أنها أنثى تملك من وسائل الاغراء والاحتيال ما تستطيع به اغواء الرجل وارغامه على فعل ما تريد · مهما كانت مخالفته فى ذلك الأمر لله ، نجد ذلك فى قوله عن آدم وقد رفض وسوسة ابليس وأبى الاستماع اليه والى نصحه « وضع آدم اصبعه فى أذنه وأشاح بوجهه عنه فارتد ابليس وهو حسير وأيقن أنه ليس على اغراء آدم بقدير » (٣) ·

أما حواء فقد راحت تتطلع الى الشجرة المحرمة فأسرع اليها وقال لها :

ـ انظرى الى هذه الشجرة ما أطيب ريحها وأطيب طعمها وأحسن لونها ·

فتطلعت حواء اليهـا فى اشتياق واشتهاء ثم مدت يدها اليهـا وتناولت منها وأكلت وأساغت ما أكلت فالتفتت الى آدم وقالت :

ـ يا آدم كل فانى قد أكلت ·

ـ لا ··

ـ كل · لقد أكلت ولم تضرنى ·

ـ لا ··

فتركته حواء وقد زوت ما بين حاجبيها وانتبذت مكانا قصيا وأحس آدم رغبة الى حواء فدعاها لحاجته فقالت :

ـ لا الا أن تأتى ها هنا · !

فقام آدم وسار الى حيث كانت حواء · وطوقها بذراعيه فأشاحت بوجهها عنه ، وأظهرت دلالا ، فلم يستطع آدم أن يصبر على دلالها ، فمد يده الى وجهها النافر وأداره لتتلاقى عيناه بعينيها لعلها ترى ما فى عينيه من حب فلما التقت العيون قالت فى اغـراء :

---

(١) سورة البقرة آية ٣٣ ·

(٢) سورة البقرة · وانظر قصص الأنبياء لابن كثير ص ١٤ وما بعدها ·

(٣) قصص من الكتب المقدسة ص ١١ ·

ـ لا ٠٠ الا أن تأكل من هذه الشجر ٠

فانهارت مقاومة آدم جميعها وقام الى الشجرة يتناول منها ويأكل ٠ فعرف كل شيء ٠ عرف أنه عريان ٠ كما عرفت حواء أنها عريانة ٠ فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) (١) ٠

وهذا مثال لتصرف السحار في الموقف الحوارى الذى أورده من خلال السياق٠ فقد أضاف اليه من الظلال الفنية ما يشيع فيه جوا من الخصوبة فى الصراع بين الرغبة البشرية الكامنة فى الفطرة الآدمية وبين الاستجابة لنهى الله فى البعد عن الشجرة المحرمة ٠

وهكذا نجد المنهج الذى يلتزمه السحار فى معالجته لهذا النوع من القصص لا يخرج عن دائرة الوارد في شأن الموضوع من الحقائق التى ذكرها القرآن وتتبع جزئياتها وتفصيلاتها فى المصادر التاريخية المعنية بها وبتفسيراتها ٠ وتتمثل اضافته الفنية في تنسيق المعلومات وترتيب الأحداث ورسم الملامح والأبعاد بما لا يخالف في كثير الحقيقة التاريخية وظل هذا المنهج مرعيا عنده في القصص المتصلة بحياة الأنبياء ٠

أما فيما عدا ذلك من قصص المجموعة فقد أباح لنفسه حرية الاختيار وخلق التصورات والشخصيات بالقدر الذى يتيح له التعبير بما يريد فى ضوء رؤية اسلامية واضحة تعلى من شأن الايمان فى نفوس البشر وتقاوم الشر وتبرز ملامحه على صورة تأباها النفوس المؤمنة التى تجد فى البحث عن اليقين لتحيا سعيدة فى رحاب الايمان نرى ذلك فى (نداء من السماء) (٢) وتحكى قصة شاب نشأ فى جو من الترف والنعيم حيث تحيط به أبهة الملك وجلال السلطان ، ولكنه رغم ما يحيط به من بهجة الحياة الدنيا وزخرفها يعيش فى قلق يرى معه فى كل شيء مما حوله قيدا يحد من حريته ويحول بينه وبين الانطلاق في أحضان الكون بحثا عن السعادة الحقة التى يفتقدها فى عالمه ، فآثر العزلة عن الناس فى صومعة بعيدة وعاش فيها هانىء النفس هادىء البال ٠٠ وعلم والده بالمسلك الذى استراح اليه ولده ، فدهش من أمره وعجب لحاله وحاول اقناعه بالعدول عن فكرة اعتزال الحياة في صومعة ولكن (شطا) أصر على موقفه ومن خلال الحوار بينه وبين والده نتعرف على سر نزوعه ٠ فقد قال فى رده على أبيه :

ـ ان روحى تهفو الى شيء ، ونفسى تتشوق له ولكنى لا أدرى ما هو ، وكل ما أدريه أنه ليس هنا فى القصر فدعنى أحيا حياتى ٠

ـ لا ٠٠ يا شطا لن أدعك أبدا أبدا ٠٠ انى لا أطيق فراقك ٠

---

(١) المصدر السابق والصفحة ٠

(٢) المصدر السابق ص ١٩٥ وما بعدها ٠

ـ اني أحس أن روحي هنـا حبيسـة ، ولن تهدأ حتى تهيم طليقة لتتصـل بالكون (١) ٠

فالبحث عن اليقين هو ما يشغل البطل (شطا) انه على الرغم من توفر كل أسباب السعادة المادية له ٠ الا أنه لم يجد فيها الا قيودا تكبله من كل جانب وتشده الى الأرض وعالمها الممتلىء بالشرور والآثام ولهذا فنفسه تواقة الى شيء يمور فى داخله ولكنه لا يدرى له سببا ٠

وتلح هنا على السحار فكرة أن الطاقات الروحية الكامنة فى النفس البشرية وكنوز الخير المطمورة تحت ركام من حواجز المادة ورغبات النفس لا تنطلق من سجنها الأليم الا اذا قطع الانسان علائقه بالحياة المادية ، وتفرغ الى حياة الروح وتأملاتها ٠٠ انه ان فعل ذلك تفتحت أمام بصيرته مغاليق الأسرار وانطلق فى رهافة حس وأصالة نفس يعب رحيق النشوة عبا حتى يرقى الى مدارج السمو حيث الطهر والسعادة فى رحاب الايمان ٠ وهو تصور صوفي عالج السحار كثيرا من مواقف أبطاله على أساسه خصوصا فيما تناوله من قصص تتصل بالمجاهدين الأوائل فى تاريخ الاسلام ، وهذا ما فعله هنا مع (شطا) فى هذه الأقصوصة ٠ فبعد أن رسم جو القصة ووصل بها الى هذا الموقف الحائر فى حياة البطل الذى يعد بمثابة العقدة فى القصة ٠ بدأت حدة الحـدث تسير فى طريقها النـامن المتطور ٠ فقد تناهى الى سمع شطا خبر العرب الفاتحين لمصر ، وما هم عليه من عدل وتواضع ، وأنهم يجاهدون من أجل مثل عليا اشتدت لهفته عليهم وازدادت هذه اللهفة حدة عندما سمع أحد المصريين الفارين الى دمياط بعد سقوط حصن بابليون ٠٠ يقول عنهم :

ـ انهم فى الليل رهبان وفي النهار فرسان ، اذا رأيتهم فى سكون الليل يدعون ربهم ويصلون صلاتهم حسبتهم ملائكة أبرارا ، واذا رأيتهم فى النهار فى حلبة القتال يطلبون الموت فيفر منهم حسبتهم شياطين مردة (٢) ٠

ولم ينتظر (شطا) كثيرا فقد أخذ بهم وحن الى لقائهم ٠ فلما جاء الليل انسل الى معسكر المسلمين وجعل ينظر اليهم ٠٠ فغشيته طمأنينة وشخص الى السماء فرأى كأنما نور عظيم يسقط على عسكر المسلمين فخر مغشيا عليه ، وعندما أفاق ارتفع صياحه فلقد تعرف على اليقين الذى شغل بالبحث عنه ٠ وراح يقول :

ـ ظهر والله الحق ٠٠

وبعدها شهد شهادة الحق وانضم الى جيش المسلمين مشاركا فى الفتح العظيم يصور السحار ذلك فى أسلوب سخي وخصوبة فنية نادرة تتسم بالبهجة والاشراق وترتفع بالانسان الى مستوى الحيـاة الروحية الرحبـة ٠ حيث العاطفة الصـادقة

---

(١) المصدر السابق ص ١٩٧ ٠

(٢) المصدر السابق ص ١٩٩ ٠

والاحساس الدينى الأصيل يسرى بين الكلمات وكأنه شعاع من النور يضىء للحائرين طريق الهدى فيسرعون اليه ويكشف أمام الغافلين ضباب الشك وأقنعة الزيف حتى يلتحقوا بركب الايمان ان أرادوا ملوحا للجميع فى النهاية بحكمة الموقف وعبرة الحادثة وحتمية الجزاء .

الفصـــل الرابع

قصص الأطفال

لا شك أن الكتابة للأطفال تحتاج الى موهبة خاصة وثقافة متنوعة وفهم عميق لطبيعة الفترة التى يتوجه الكاتب اليها بفنه وابداعه ، فليست الكتابة للأطفال نوعا من التسلية ولا ضربا ميسورا لكل من وجد لديه القدرة على حمل القلم فيسطر ما عن له من خواطر وخيالات بطريقة ما . ثم يؤلف من شوارد الهاماته قصة يقدمها للناشئة ظنا منه أن الهدف من وراء ذلك انما هو شـــغل فراغهم بنوع من التســـلية الفكهة يستعيضون بها عن اللهو واللعب ومناوشـــة الكبار وهذا فهم خاطىء وطريقة فنية مبتورة لأن الكتابة الروائية للأطفـــال (نوع من التربية على جانب كبير من الفعالية والتأثير وان كاتب الأطفال هو بالدرجة الأولى مرب قبل أن يكون مؤلف قصة أو رجل مسرح .. وان الاعتبارات التربوية يجب أن تحتل مكان الصدارة فى أى عملية موازنة بين الاعتبارات بحيث لا يمكن التضحية بها ولو بصورة جزئية أو مؤقتة ..) (١) .

فالهدف التربوى والمقصد التهذيبى يجب أن يتوافر أولا وقبل كل شىء فى القصة التى تقدم للأطفال . لأن للقصة فى هذا المجال أهمية قصوى لما تقوم به من تهذيب وتقويم عن طريق ما تقدم من مثل وأخلاقيات ، وما يبثه الكاتب فى ثنايها من زجر وتخويف وارشاد وتوجيه وهى بما تحمل من هذه الخصائص تكون أجدى تربويا من وسائل الزجر والضرب التى تغرس فى نفوس الأطفال الحنق والبغض والنفور ، فاذا كانت قصة الأطفال ملتزمة بالمنهج التربوى فيما تعالج من أفكار وأحداث ، كان لها أبعد الأثر فى التهذيب وتوجيه السلوك لأنها (تلقى الى الاذهان الفضـــة التى تتقبل كل شىء وتتشبع به ، فتبقى الصور والدلائل التى تحملها راسخة فى تلك الأذهان على مدى الحياة ، حتى اذا ما تخلى عنها العقل الظاهر فى فترة من فترات الحياة

(١) محمد فريد أبو حديد .. دراسة تحليلية فى الرواية والأقصوصة وأدب الأطفال والشعر المرسل . د. محمد عبد لنعم خاطر ص ٢٣٥ .

فانها تظل مرتبطة بما يسميه علماء النفس بالعقل الباطن فتؤثر فى سلوك الانسان على غير وعى منه لأنه تأثير ترسب فيما وراء الشعور) (١) ٠

وهى الى جانب وظيفتها التهذيبية فى حياة الطفل (تكـون متنفسـا لطاقاته المنتجة ، وتدريبا لخياله ، كما يكون اللعب تدريبا لعضلاته وذهنه ، وعن طريقها تتفتح عواطفه البكر وانفعالاته المبكرة) (٢) ٠

وقد أفاض الباحثون في بيان مزاياها وايضاح تأثيرها فرأينا منهم من أضاف الى ما سبق من مزايا تهذيبية وعقلية مزايا أخرى تتصل بالناحية اللغوية وتنميتها عند الأطفال حيث انها تقدم للطفل (قاموسا لغويا قد لا يتاح له فى حياته العملية حتى انه يستفسر من حين لآخر عن معنى كلمة أو يطلب شرحا لموقف عرض له) (٣) كما أنها بما تحمل من فكر تقدم المعلومات العامة والحقائق المختلفة عن الناس والحياة والمجتمع ، وتبصر الطفل بالقيم الخلقية الفاضلة وتنمى اعجابه وتقديره للخصائص الطيبة ، ونفوره من الصفات المذمومة وجوانب الانحراف الخلقى (٤) ٠

وفضلا عن ذلك كله فانها تساعد ـ بما تقدم من صور أدبية وقيم تعبيرية ـ على تنمية الذوق الأدبى والحاسة الفنية ٠

ويبدو أن السحار فطن الى كل هذه المزايا عندما هم باخراج حلقات خاصة من قصص الأطفال الديني مشتملة على خصائص الصـياغة الفنية من ناحية الشـكل والمضمون معا بما يحقق الهدف ويوصل الى الغاية التى يريدها والتى تتمثل فى خلق وعى أصيل عند الأطفال بتاريخهم وأمجاد حضارتهم الزاهرة التى كان لها اليد الطولى فى تقدم الفكر الأوربى والحياة العلمية ، الى جانب بث الأخلاق الفاضلة والقيم الرفيعة فى نفوس الصغار من خلال العرض القصصى للتاريخ الدينى في صورة مبسطة تتناسب مع مداركهم وفترة نموهم ٠ ٠

وقد كان دافعه للكتابة فى هذا المجال ما رأى من اهتمام الأدباء بتقديم القصص المترجمة والمعربة للأطفال ، وعدم تمثيل ما يقدم من هذا النوع للبيئة العربية وماتزخر به من قيم وعادات ، اذ أن معظمه تغلب عليه النزعة الخرافية ويفتقد القيم التهذيبية والتربوية المطلوبة ٠

ووجد فى القرآن الكريم من القصص الرائع الجميل ما ينهض بهذا العبء ، وهو صادق كله ، ففكر في اصدار حلقاته القصصية محددا منهجه بقوله (فكرنا فى هذا فأخرجنا هذه السلسلة ، ولقد راعينا فيها اعتبارين :

---

(١) الحدوتة والحكاية في التراث القصصى الشعبي ٠ للاستاذ / محمد فهمى عبداللطيف ص١٥ ٠
(٢) القصة القصيرة نظريا وتطبيقيا ٠ للاستاذ يوسف الشارونى ص ٢٠ ٠
(٣) المصدر السابق ص ٢١ ٠
(٤) المضمون فى كتب الأطفال للاستاذ احمد نجيب ص ٤٥ بتصرف ٠

الأول : أن تكون النصوص القرآنية هي المصدر الأول لما نكتب ، اذ كنا نعتقد أن للقرآن في هذه الناحية فكرة تهذيبية معينة .

والثاني : أن نحقق السرد الفني للقصص بما يربي في الطفل الشعور الديني ويقوى الحاسة الفنية وينمي الذوق الأدبي (١) .

ومن هذا المنطلق أصدر أربع حلقات . الأولى منها تتضمن معالجته الفنية لقصص الأنبياء ، والثانية : تضمنت بالعرض قصص السيرة النبوية ، والثالثة جاءت حافلة بقصص الخلفاء الراشدين ، أما الحلقة الرابعة فقد تناول الكاتب فيها بالمعالجة حياة العرب في أوربا وما واجههم من مشكلات ، وما قاموا به من فتوحات حتى آخر أيامهم بالاندلس .

وقد كان للثقافة الدينية التي تعرف السحار عليها في مصادرها الأصيلة أثر كبير في اثراء هذا اللون من القصص بالمعلومات التاريخية المتصلة بحياة الأنبياء والشخصيات التي لعبت دورا كبيرا في اعلاء كلمة الدين . فجاءت معظم قصصه حافلة بألوان شهية من المعارف حتى أن بعض الدراسات النقدية التي تناولت نتاج السحار في هذه الناحية بالنقد والتقويم قد جعلت الهدف التعليمي باعثا أساسيا وراء اختياره للشكل القصصي كوسيلة يقدم من خلالها ما يريد من معلومات . فقد لجأ الى هذا الشكل (ليبث من خلاله المعلومات التي تجلي أبعاد الدين الاسلامي ، وتوضح معالمه حتى يربي عند الأطفال الشعور الديني الذي يولد معهم منذ اللحظات الأولى ، فالطفل عندما تبدأ مداركه تتفتح ويعي ما حوله من أشياء تبدأ التساؤلات عن الله ، والكون وسر الوجود) (٢) .

ولا شك في أن الهدف التعليمي كان واحدا من الأسباب التي حفزت السحار الى ما أصدر من قصص ولكنه ليس الهدف الوحيد كما زعمت الدراسة المشار اليها . فقد رأينا من خلال تتبعنا لهذا الحشد الهائل من قصص الأطفال الديني أهدافا أخرى كثيرة ، بعضها تهذيبي تربوي وبعضها الآخر يتوزع بين التوجيه الأخلاقي ، وتنمية الاحساس القومي ، وخلق شيء من التوازن بين حياة المادية وحياة الروح . الى غير ذلك مما سوف نعرض له في هذه الدراسة .

على أن النظرة الأولى لجملة ما أصدره السحار في هذا المجال تؤكد مدى استيعابه لحركة التاريخ الديني وسيطرة نظرية التفسير الديني للتاريخ على فكره وفنه ، حيث يرى أن الانسان يسمو في رحاب الدين وتزدهر الحضارة فاذا بعد عن ساحته تخبط في ليل بهيم وانتكست معالم حياته (٣) وقد عالج في قصصه التاريخي والاجتماعي

---

(١) آدم وحواء . الجزء الاول من سلسلة قصص الأنبياء . عبد الحميد جودة السحار ص ٣ . (شاركه في اخراج هذه السلسلة المرحوم الأستاذ / سيد قطب) .

(٢) القصة عند عبد الحميد جودة السحار . فاطمة الزهراء عبد الغفار الموافي ص ٣٧٤ .

(٣) صور وذكريات . عبد الحميد جودة السحار ص ٢٣٧ .

هذه النظرية بشيء من البسط والتفصيل حسب ظروف العمل الأدبي وطبيعته . وخصوصا في قصة السيرة النبوية (محمد رسول الله والذين معه) وهانحن نراه على الدرب نفسه يعالج أحداث التاريخ الديني فيما يقدم للأطفال من قصص ، فاذا كان قد بدأ أجزاء السيرة بابراهيم أبي الأنبياء ثم تتبع بعد ذلك تطور الحركة الدينية ومواقف الناس منها حتى وفاة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وما تبعها من خلافة أبي بكر . وحاول استكمال الصورة العامة للمنهج الذي أخذ به عن طريق تقديمه لقصص بعض الأعلام من كبار الصحابة .

فانه هنا في قصص الأطفال قد أفسح المجال لنفسه فراح يحكي قصة البشرية منذ أول عهدها بالحياة على الأرض وموقفها من الدين الذي أرسل الله به أنبياءه .. فقد ابتدأ الحديث للأطفال بقصة آدم وبداية الخلق ثم استمر في حكاياته الفنية حتى وصل الى آخر عهد المسلمين بالأندلس حيث تقلصت أمجاد الفتح الاسلامي ، وانتكس المسلمون فيما بينهم بسبب انشغالهم بالدنيا وضعف الوازع الديني في نفوسهم ، واستغرق ذلك منه ستا وثمانين قصة . جاءت كل واحدة منها في شكل حكاية قصيرة ذات أطوال محددة ، ولكل قصة موضوعها الخاص الذي تعالجه ، وباستعراض جميع الموضوعات التي أثارها بالتناول في هذا الامتداد الزمني الواسع يتأكد اتجاه الكاتب وتتضح رؤيته الخاصة التي استند اليها في تفسيره الديني لأحداث التاريخ .

فقد تضمنت الحلقة الأولى (قصص الأنبياء) ثماني عشرة قصة كانت على الترتيب التالي :

م	القصـــة	م	القصـــة
١	آدم وحواء	١٠	مدين وشعيب
٢	قابيل وهابيل	١١	موسى والعصا
٣	سفينة نوح	١٢	موسى والألواح
٤	ارم ذات العماد	١٣	موسى والرجل الصالح
٥	ناقة صـالح	١٤	داود
٦	ابراهيم يبحث عن الله	١٧	اهل الكهف
٧	فداء اسماعيل	١٦	عيسى بن مريم
٨	يوسف الصديق	١٥	سليما وبلقيس
٩	تحقيق الرؤيا	١٨	قدرة الله

وتضمنت الحلقة الثانية (قصص السيرة) أربعا وعشرين قصة جاءت على هذا الترتيب :

م	القصة	م	القصة	م	القصة
١	هاشم بن عبد مناف	٩	المسلمون الأوائل	١٧	صلح الحديبية
٢	عبد المطلب جد النبى	١٠	الاضطهاد	١٨	الدعوة الى الاسلام
٣	عبد الله وآمنة	١١	الهجرة الى الحبشة	١٩	فتح مكة
٤	مولد الرسول	١٢	أيام الشدة	٢٠	غزوة حنين
٥	حليمة السعدية	١٣	الهجرة	٢١	غزوة تبوك
٦	اليتيم	١٤	غزوة بدر	٢٢	حجة الوداع
٧	خديجة بنت خويلد	١٥	غزوة احد	٢٣	النبى الصالح
٨	الوحى	١٦	الخندق	٢٤	وفاة الرسول

واشتملت الحلقة الثالثة (قصص الخلفاء الراشدين) على عشرين قصة وردت على هذا النحو :

م	القصة	م	القصة	م	القصة
١	أبو بكر خليفة الرسول	٨	عمر فى بيت المقدس	١٦	الامام على بن ابى طالب
٢	أبو بكر يقاتل مانعى الزكاة	٩	فتح مصر	١٧	وقعة الجمل
٣	أبو بكر وخالد بن الوليد	١٠	عمر والرعية	١٨	وقعة صفين
٤	وفاة أبى بكر الصديق	١١	وفاة عمر	١٩	التحكيم
٥	عمر امير المؤمنين	١٢	عثمان بن عفان	٢٠	مقتل الامام
٦	فتح دمشق	١٣	فتح افريقية		
٧	عمر وسعد بن أبى وقاص	١٤	عثمان وثورة الأمصار		
		١٥	مقتل عثمان		

بينما كانت الحلقة الرابعة (العرب فى أوربا) حافلة بأربع وعشرين قصة وردت على هذا النحو :

م	القصة	م	القصة	م	القصة
١	الوحى والطلسم	٩	صقر قريش	١٧	الحكم بن الناصر
٢	رؤيا الرسول	١٠	عودة الى غزو فرنسا	١٨	الأمير صبح
٣	ملك الأندلس	١١	الحكم بن هشام	١٩	المنصور بن ابى عامر
٤	طارق بن زياد	١٢	العرب فى كريت	٢٠	ولادة وابن زيدون
٥	موسى بن نصير	١٣	العرب فى صقلية	٢١	الجاهلية الثانية
٦	نهاية موسى بن نصير	١٤	عبد الرحمن وطروب	٢٢	شقاق
٧	العرب فى فرنسا	١٥	العرب فى ايطاليا	٢٣	انتصار الاسبان
٨	شارل مارتل	١٦	عبد الرحمن الناصر	٢٤	آخر أيام العرب فى الاندلس

فهذه الأعداد الهائلة من القصص فى تسلسلها وطريقة عرضها واختيار الأحداث فيها ، انما تؤكد صدق الاحساس الدينى عند الكاتب وصــدوره عن وعى بالمغزى الذى يهدف اليه فى الأساس الأول · والذى يكمن فيما أشرنا اليه سابقا فى نظرته الخاصة وتفسيره الواعى للتاريخ على أساس دينى ·

ولا يعنى ذلك بالطبع خلو القصص من الأغراض الأخرى التى لابد وأن تشتمل عليها قصص الأطفال ، بل ان طبيعة الموضوع الذى يعالجه الكاتب ، والجو الروحى الذى يتنفس فيه ، والنظرة الخاصة التى يعتمدها أســاسا لبلورة فكرة تجعل من الأهداف التهذيبية والتربوية والخلقية ··· الخ ·

روافد عذبة تمد الجو الأدبى بماء الحياة ·

نجد شيئا من ذلك واضحا فى قصة (آدم وحواء) من الحلقة الأولى وفيها ينتخب السحار بعض المواقف التى صاحبت خلق آدم وترتبت على وجوده ، ثم يرتبها فى صياغة محكمة بحيث تأتى نامية متطورة يفضي بعضها الى بعض حتى تنتهى القصة بالعبرة المطلوبة ، وقد تضمنت فى ثناياها كثيرا من التوجيهات الأخلاقية ، فقد بدأ القصة بذكر أن الأرض كانت خالية فى زمان قديم ·· قديم جدا ·· فأراد الله سبحانه وتعالى « أن يخلق الانسان ليعبده وليعمر الأرض ، فيزرعها ، ويبنى فيها البيوت ويخط الطرقات » (١) ·

ثم يتناول الكاتب بالعرض ما حدث من اخبار الله للملائكة وموقفهم من خلق آدم · بطريقة لا تثير أية ريبة عند الأطفال ولا توحى بشبهة اعتراض أو احتجاج · واستخدم الآية القرآنية بنصها فى الحوار · فبعد أن شاءت ارادة الله خلق الانسان، قال للملائكة :

ــ انى جاعل فى الأرض خليفة ·

قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟

قال : انى أعلم مالا تعلمون ·

فسكت الملائكة ، وقال بعضهم لبعض :

ــ ان ربنا يعلم كل شيء ، ولا يخلق خلقا الا اذا كانت له فائدة (٢) ·

ثم تحكى القصة موقف امتناع ابليس عن السجود لآدم وما ترتب على ذلك من طرده من الجنة · وكيف أن ابليس حزن حزنا شديدا وصمم على ايذاء آدم وأولاده بكل ما يتمكن من وسائل ·

---

(١) آدم وحواء · عبد الحميد جودة السحار ص ٥ ·

(٢) المصدر السابق ص ٥ وما بعدها ·

(قال ابليس :

ـ يارب مادمت قد طردتني من الجنة بسبب آدم ، فانني سأوذيه هو وأولاده ، وأعلمهم الشر والخبث ٠

قال الله تعالى :

ـ « انني أعطيت آدم وأولاده العقل ، الذي يعرفون به الخير من الشر فالذي يطيعك منهم بعد ذلك هو المسئول عن نفسه ، أما العاقلون الصالحون فلن تستطيع أن تؤذيهم أبدا ») (١) ٠

وبعد ذلك يحكي السحار فضل آدم وتعليم الله له ٠ وحياته الهنيئة في الجنة ، ثم احساسه بالوحشة والوحدة وكيف أن الله أشفق عليه وآنسه بخلق حواء سكنا له ٠

وفي هذا الموقف يحرص السحار على اختيار الكلمات السهلة البعيدة عن الغموض أو التي تحتمل أكثر من معنى أو التي توحي بدلالات واشارات من شأنها اثارة البلبلة عند الأطفال ٠

فلم يتعرض مثلا لذكر أن حواء خلقت من ضلع آدم ٠ مكتفيا بذكر أن آدم نام ثم صحا (فوجد امرأة لم يرها من قبل تجلس قربه ، فنظر اليها وهو مدهوش وقال لها :

ـ من أنت وما اسمك ؟

فقالت : أنا امرأة ، ولكنني لا أعرف اسمي ٠ ونظر اليها مسرورا ، فرآها تتحرك ، وفي جسمها حياة فقال :

ـ انت حواء ٠

وعاش آدم وحواء في الجنة سعيدين ، في أمن وسلام لا يعرفان تعبا ولا خوفا ، يأكلان ما يشتهيان (٢) ٠ ثم يعرض السحار بعد ذلك بالذكر لمحاولة ابليس اغواء آدم وحثه على الأكل من الشجرة المحرمة ٠ وكيف أن الله وجه آدم وعرفه أن ابليس لا يحبه هو وذريته فلا يصح أن يستجيب اليه ٠ ولكن آدم استمع الى وسوسات الشيطان وأكل هو وحواء من الشجرة المحرمة ٠ وبعد ذلك حزن آدم لأنه خالف أوامر الله ٠٠ وجعل يضرع اليه أن يغفرله ذلته ٠٠ فغفر الله له ٠

والقصة على صغرها قد قدمت للأطفال معلومات تاريخية عن نشأة أبيهم آدم ، في صورة خالية من الجفاف لا يتيسر عرضها الا من خلال تلك الصورة القصصية ٠

---

(١) المصدر السابق ص ٧ ٠

(٢) المصدر السابق ص ٩ ، ١٠ ٠

كما أن القصـــة قدمت للأطفال مثلا حيا لقيمة الايمان بالله وطاعته فى نفوس المؤمنين ، وأن السعادة الحقة تكمن فى طاعة الله والشقاء الأليم فى عصيانه ومخالفة أمره ، فآدم كرمه الله وفضله وعلمه وجعله خليفة فى الأرض للعبادة والتعمير ، وقد طلب من الملائكة السجود له وبين فضيلته عليهم بالعلم الذى علمه ، وخلق له حواء ليأنس اليها وتأنس اليه · ثم عاشا سعيدين فى الجنة · ولكنه على الرغم من تحذير الله له من ابليس وجنده واعلام آدم بالكراهية التى يكنها له · يقع فريسة لوسوساته ويخالف أمر ربه · فيكون جزاؤه الطرد من الجنة ومواجهة الحياة بالكد والتعب فى الأرض ، وبهذه الطريقة تترسب فى أعماق الصغار مثل الخير والايمان فينهجون فى حياتهم وسلوكهم على ضوء منها ·

وفى (قابيل وهابيل) يقدم السحار صورة حية لأول صراع حدث على ظهر الأرض ترتب عليه سفك الدم بالقتل · وكان هذا الصراع بين (قابيل) الشرير ردىء النفس فاسد الطبع وبين (هابيل) الرقيق طيب القلب ، وكان بسبب أن الله تقبل من (هابيل) قربانه ولم يتقبل من (قابيل) ما تقدم به ·

يصور السحار ذلك فى أسلوب تهذيبى أخلاقى يعلى من قدر الخير ويرفع العاملين به الى أعلى مقام ، وينفر من الشر ويهدر كرامة السائرين على طريقه يقول السحار فى حكايته (زادت الفواكه والثمار التى رزق الله بها آدم وأولاده فأراد آدم أن يعلم ولديه الكبيرين كيف يشكران الله على هذه النعم الكثيرة ، فأمرهما أن يذهبا الى قمة الجبل ، وأن يضع كل منهما شيئا من محصوله ، ليأخذه ويأكله أى مخلوقات الله التى لا تعرف تربية الحيوان أو زراعة الأرض فيكون هذا زكاة وقربانا ، ففرح هابيل لأن قلبه طيب · أما قابيل فقال فى نفسه لماذا أخسر هذا! الذى كسبته بالتعب والعرق فأتركه وأرميه ولا أنتفع به ؟! ولكنه لم يقدر أن يرد على أبيه) (١) ·

وتقديم الحديث بهذه الطريقة يحفز الطفل الى متابعة الموقف وقد رأى طرفين ومسلكين يختلف كل منهما عن الآخر فى العمل والنوايا ، وفضلا عن ذلك فان النص السابق يتضمن توجيها ايحائيا للأطفال ورد من خلال حكاية الحدث · ويتمثل هذا التوجيه فى ضرورة تقديم الشكر لله على ما ينعم به علينا من فيض جوده وكرمه · وألا ننسى حق المحتاجين فى (مال الله بأيدينا) وعند الحـــدث ، نرى هابيل يقدم الى الله أطيب ما عنـــده (وهو مسرور لأنه سيقدمه الى الله الذى يرزقهم بالطعـــام والشراب (٢) أما قابيل فقد أجهد نفسه فى البحث عن شىء ردىء لأنه هو نفسه كان رديئا بخيلا) (٣) ·

وكان أن تقبل الله قربان (هابيل) ولم يتقبل قربان (قابيل) فبدأت علامات الحنق والغضب والكراهية تبدو عليه ·

---

(١) قابيل وهابيل للسحار ص ٥ وما بعدها ·

(٢) المصدر السابق ص ٦ ·

(٣) المصدر السابق ص ٧ ·

وبدأت الظنون تعرف طريقها الى قلبه فقد ظن أن آدم دعا الله لهابيل ولم يدعه له فتقبل الله من أخيه ولم يتقبل منه ولكن آدم · قال له :

ـ بل تقبل الله منه لأنه قدم أطيب ما عنده ، وقلبه صاف أما أنت فقدمت الى الله أردأ ما عندك ، وقلبك ردىء · ان الله طيب لا يحب الا الطيب (١) ·

ولا يخفى مافي هذا النص من اشارات وتوجيهات تعلن على مسامع الأطفال أن الله لا يتقبل من الأعمال الا ما كان خالصا مبرأ من زيف الطوية وشح النفس ، وأن المال المنفق في سبيل الله يجب أن يكون من أحب وأجود ما يملكه الانسان وان يتقدم به الى الله وهو قرير النفس والعين ، بلا من ولا أذى ·

وتمضى أحداث القصة فى تتابعها فنرى قابيل يزداد غيظا من أخيه كل يوم لأن الله فضل أخاه عليه ، وجاء الشيطان فأخذ يوسوس له · أقتل أخاك ·· أقتل أخاك · (واستمر يستمع الى الشيطان ، وهو يتقلب في قلق حتى اذا طلع النهار خرج من الكهف وقد عزم على أن يقتل أخاه) (٢) ·

وقد أنفذ ما عزم عليه فتناول صخرة وضربه بها فسقط هابيل مقتولا وجرى أول دم على الأرض (٣) ·

وأمام بشاعة الفعل لم يملك السحار الا أن ينفر من القتل وفاعله بيان ما ترتب عليه من ندم وخوف وما يواجه به القاتل غده من قلق وعذاب · وحتى تعطى اللوحة مزيدا من التأثير والتنفير انطلقت الصورة التى عبر بها السحار عبر الكون فى احتشاد عجيب استحال معه كل شىء في الوجود الى مصـــــدر نقمة وعـذاب لقابيل حتى أنه لم يتمالك نفسه فسقط الى جوار أخيه وقد أقلقه الندم · يقول السحار مصورا هذا الموقف ومعبرا عن العواقب الوخيمة التى تحل بالقاتل (ها هو ذا قتل أخاه ، فماذا كسب من قتله !؟ ·· انه لم يكسب شيئا ، بل خسر كل شىء ، انه يشعر بالخوف ، ويشعر بالحزن ، ويشعر بالندم ، خسر الراحة ، وخسر الأمن ، وخسر الاطمئنان · ان الريح تهب فيخيل اليه أنها تصرخ به : قاتل ·· قاتل ·· والأشجار تتمايل فيخيل اليه أنها تصيح به قاتل قاتل ، والوحوش تزأر فى الغابة فيتصور أنها تناديه ·· ياقاتل ياقاتل ·· انه خائف ، انه ينتفض ، ان رجليه لا تستطيعان حمله ، فسقط الى جوار أخيه وأخذ يهزه ·· هابيل هابيل ، ولكن هابيل بقى ساكنا لا يجيب ، فقد أصبح جثة فارقتها الحياة ··) (٤) ·

وهكذا تتحـول الحكاية التاريخيـة الى عبر ودلالات ومواعظ ولكن هذه العبر وتلك الدلالات لا تقدم الى الاطفال فى أسلوب تقريرى جاف ، بل تقدم اليهم على جسور

---

(١) المصدر السابق ص ٨ ·

(٢) المصدر السابق ص ١١ ·

(٣) المصدر السابق ص ١٢ ·

(٤) المصدر السابق ص ١٢ وما بعدها ·

من الظلال الفنية التي يلون بها الكاتب الأحداث والمواقف والشخصيات ٠٠ فتأتي القصة في صياغة جذابة تستحوذ على أفئدة الصغار وتلبي ما في نفوسهم من آمال وتطلعات ، وترضي ميولهم النفسية وعلى هدى من هذه المفاهيم انطلق السحار يرصد حركة التاريخ على مدى الزمن ، ويسترجع آفاق الماضي البعيد ليعرف الآخرين بأسرار الكون والحياة ويقدم اليهم العبرة والعظة من خلال ما يعرض من قصص ٠

فقد قدم من خلال قصة (سفينة نوح) ما آلت اليه أحوال البشر من فساد وطغيان بسبب ابتعادهم عن ساحة الدين (فقد نسي الناس ربهم الذي خلقهم ، وصنعوا بأيديهم أصناما من الحجارة ، وسجدوا لها وعبدوها واعتقدوا أن هذه الأصنام آلهة تنفعهم وتضرهم ٠٠) (١) ٠

وحتى لا يستمروا في ظلمات حياتهم أرسل الله اليهم نوحا يدعوهم الى عبادة الله الواحد الأحد ، ويذكرهم بنعم الله عليهم فهو الذي (خلق لهم الأرض بكل ما فيها من حيوان وماء ونبات وأشجار ، وأعطاهم العقل الذي يفكرون به ، والعين التي يبصرون بها ، والأذن التي يسمعون بها والفم الذي يتكلمون به ، والأنف الذي يشمون به ، والأرجل للمشي عليها والأيدي للعمل بها ، وخلق لهم الشمس والقمر والنجوم ، وسائر الأشياء ، في الأرض أو في السماء ٠٠) (٢) ٠

وهذه الطريقة في العرض لا تساق فقط تكملة للسرد القصصي وانما يهدف الكاتب من ورائها الى تعريف الأطفال بنعم الله عليهم ، ولهذا راح يعدد لهم بعضا منها بطريقة مبسطة تخدم الهدف وتحقق في الوقت نفسه وحدة الحكاية القصصية وتشحذ أذهانهم الى تتبع السرد للتعرف على موقف المحكي عنهم ، فاذا أعرضوا عن الدين وأداروا ظهورهم للمنعم عليهم كانوا أهلا للعقوبة وسوء الجزاء ٠ وهذا ما فعله السحار فقد استعرض موقف القوم من دعوة النبي ومحاجتهم له وكيف سخروا منه ومن دعوته واتهموه بكل نقيصة وظلوا في غيهم وطغيانهم ، ولم يؤمن به الا قلة من الفقراء كانوا أيضا موضع سخرية واستهزاء من الكافرين ٠ ولكنهم لم يبالوا بهم ولا بسخريتهم (فقد كانوا من الفقراء الطيبين ٠٠ وأما الأغنياء والمتكبرون فقالوا : من هو نوح حتى نسمع كلامه ، انه رجل مجنون ، فقير ، لا قيمة له ، ولن نسمع كلامه أبدا ٠٠) (٣) وظلوا على موقفهم المعاند ومحاجتهم الباطلة ٠ ولم يكتفوا بهذا بل راحوا يطلبون من نوح أن يبعد الفقراء ويطردهم فلا يليق بهم أن يكونوا معهم على مذهب سواء ٠ فقد قال له أحدهم : (اسمع يا نوح ؟ هل تريد أن نصدقك ونتبعك ؟ أطرد هؤلاء الفقراء ، ونحن أغنياء وأسياد !

فرد نوح قائلا : وما ذنب هؤلاء الفقراء ٠ ! انهم ناس طيبون مخلصون ٠ والله يحب الطيبين المخلصين ٠ وحرام على أن أطردهم من غير ذنب ٠

---

(١) سفينة نوح عبد الحميد جودة السحار ص ٢ ٠
(٢) المصدر السابق والصفحة ٠
(٣) المصدر السابق ص ٤ ٠

عندئذ قال له القـوم : اذن فاذهب بعيدا عنـــا ، ولا تحاول مرة أخرى أن تكلمنا) (١) ٠

ولا شك أن الهدف التوجيهي الذى يرشد اليه النص السابق يتمثل فى توجيه الناشئة الى أن الناس سواسية أمام الله لا يتميزون بالغنى والجاه والسلطان ٠ وانما بالعمل الصالح والايمان المتين ٠ كما يرشد الى عدم الاستماع والاستجابة لمن تتحكم فيهم نزعة الشر أيا كانوا وأنه لا يصح أن نقسو على الناس من غير ذنب ٠

وحتى تكتمل صورة الحدث ويتضح المغزى تابع السحار ما قصه القرآن الكريم بشأن السفينة والطوفان مبرزا جزاء السلوك ، وقد كان الغرق والهلاك جزاء عادلا للكافرين والمارقين والجاحدين لنعم الله ٠ بينما كانت النجاة لأهل الخير ممن تابعوا نوحا وآمنوا بدعوته ٠

وعلى هذا المستوى والأداء تناول الكاتب بالمعالجة (عادا) قوم هود ٠ الذين كانوا (ضخاما عمالقة ، أقوياء الأجسام أشداء جبارين ، فبنوا الحصون والقلاع ، وأسسوا مصانع لنحت الأحجار ، وعمل الأسلحة وغيرها ، وطغوا وتكبروا لأنهم أقوياء لا يغلبهم أحد) (٢) وبدلا من أن يشـكروا الله على ما أمدهم به من نعمة (نحتـوا الأحجار ، وجعلوها أصناما وقالوا : انها آلهة) (٣) ٠

فأرسل الله اليهم هودا (لينهاهم عن عبادة الأصنام ويرشدهم الى عبادة الله ، وينصحهم بأن يتركوا القسوة والوحشية ، ويكونوا رحماء بالناس ، فلا يؤذوهم) (٤).

ولكنهم تمادوا فى باطلهم وجبروتهم ولم يستجيبوا لنصحه فعاجلهم الله بالعقوبة وأرسل عليهم رياحا شديدة عاصفة (دمرت كل شيء ، وقتلت الناس والحيوان ، وأهلكت الزروع والثمار ، وخربت هذه الأرض العامرة ، فلم يعد فيها الا جـذوع الأشجار المهشمة ، وبجانبها جذوع الكفار يابسة محطمة الا هودا فقد نجـاه الله منها ٠٠) (٥) ٠

وظلت عدسة السحار الراصدة تقرب صور الماضى البعيد الى ذهن الأطفال ، وتعرفهم بمواقف البشر من قضية الايمان والدين ٠ فتعرف الأطفال على موقف (ثمود) من دعوة صالح فى (ناقة صالح) وتابعوا حركة ابراهيم وهو يجادل قومه ويحاور الملك فى قصة (ابراهيم يبحث عن الله) وكيف نجـاه الله من نارهم التى أعدوها لاحراقه ، مبينا من خلال ذلك أن الايمان لا يغلب ، وأن المؤمنين آمنين فى رحاب الله ، لا يخشون بأسا ولا يرهبون سلطانا ، ما داموا مع الحق واليه يدعون ٠ وأن الكافرين

---

(١) المصدر السابق ص ٥ وما بعدها ٠

(٢) ارم ذات العماد ٠ عبد الحميد جودة السحار ص ٥ ٠

(٣) المصدر السابق ص ٦ ٠

(٤) المصدر السابق ص ٧ ٠

(٥) المصدر السابق ص ١٥ ٠

ومن على شاكلتهم من أهل الباطل ، عاقبتهم الخيبـــة والخسران ، وبهذه الأمثلة الصالحة ، يقبل الأطفال على الايمان وأهله بكل ما ترسب فى وجدانهم من عبر الماضى، وتعلوا فى أفئدتهم قيم الخير والحق ، فيحاكون فى سلوكهم أمثلة الخير التى وقرت فى أذهانهم ، ويلزمون أنفسهم بالسير على طريق الايمان راشدين ٠

وفى (فداء اسماعيل) يقدم السحار لنا صورة رائعة لرحمة الله التى تظلل عباده المؤمنين ، لأنهم توكلوا عليه ، واستجابوا لأمره قانعين ٠ وتحكى القصة ما كان من أمر سارة زوجة ابراهيم عندما طلبت منه أن يتزوج جاريتها (هاجر) حتى تنجب له ولدا يفرح الجميع به ٠ وأمام الحاحها عليه فى ذلك تزوج هاجر وبعد عدة أشهر ولدت له ولدا (سماه أبوه اسماعيل ٠ وكانت سارة لم تلد الى هذا الوقت ، ففرح ابراهيم باسماعيل فرحا عظيما وأخذه وذهب ليريه لزوجته سارة ، ولكن سارة غارت غيرة شديدة حين رأت الطفل ؟ وقالت لابراهيم : اما أنا فى هذا البيت ، واما هاجر وولدها ، اذهب بهما بعيدا عنى فأنا لا أطيق أن أنظر اليه ، ولا الى أمه الجارية) (١) ٠

ولم يستطع ابراهيم اقناعها بالعدول عن موقفها هذا فتوكل على الله وأخذ هاجر وابنها وذهب بهما بعيدا فى الصحراء وتركهما فى مكان مقفر لا زرع فيه ولا ماء ٠ بعد أن دعا الله لهما بالخير والرزق ومضت مدة نفد فيها الماء الذى كان قد تركه لهما٠٠ فجعلت تسعى بين الجبال باحثة عن ماء تروى به ظمأها ٠٠ ولكنها لم تجد شيئا (وبعد جهد شديد قربت من الخيمة وهى تظن أن اسماعيل طفلها قد مات من الجوع والعطش ، لأنها لم ترضعه من زمن طويل ٠٠ ولكنها نظرت فدهشت : هــذا هو اسماعيل يحبو ويبتسم ويشير لها بيديه ! ٠ كيف لم يمت يا الله ٠٠ ؟ لم يمت لأنه وهو يحفر بأصابعه فى الرمال ، نبعت عين زمزم ، وفاض منها الماء ، فشرب منه (وبطبط) بيديه ورجليه ٠ وارتمت هاجر على الماء تشرب وتشرب ٠ ثم تضم اسماعيل وتقبله وتقول : الحمد لله ٠٠ الحمد لله ٠٠) (٢) ٠

وفى هذا الموقف ترشد القصة الى أن الله لا يضيع المؤمنين به المتوكلين عليه ٠ ما داموا قد فوضوا أمرهم لله ٠ وأن رحمته واسعة فقد ربط على قلب أم اسماعيل فلم تجزع ولم تستسلم بل راحت تبحث جاهدة عن الماء ٠ حتى نال منها الاعياء وعند عودتها كانت رحمة الله تغمر الصغير فقد تفجرت بسببه عين الماء ٠٠ فما كان من هاجر الا أن راحت تشكر الله على فضله وسابغ نعمه ٠٠

ويتجلى موقف الابتلاء والاختبار فيما حل بابراهيم واسماعيل بعد ذلك ٠٠ قد (صار اسماعيل فتى صبوحا جميلا ، وكان مؤمنا بالله ، لا يعبد الأصنام بل يعبد الله ، لأن أباه علمه الصلاة وهو صغير) (٣) ٠

---

(١) فداء اسماعيل عبد الحميد جودة السحار ص ٦ ٠

(٢) المصدر السابق ص ٩ ٠

(٣) المصدر السابق ص ١١ ٠

وفى ليلة رأى ابراهيم فى منامه هاتفا يقول له : (ان الله يأمر أن تذبح ابنك اسماعيل) (١) وبعد أن تكررت مقالة الهاتف للمرة الثالثة ، أذعن ابراهيم للأمر ونهض لانفاذه فقص على ولده قصة الهاتف فما كان منه الا أن استجاب للأمر وأطاع والده فيما أمر الله · وتجلت رحمة الله عليه وعلى والده ، فقد نجـاه الله من الذبح وافتداه بكبش عظيم · يعرض السحار ذلك مستخدما نص الآيات القرآنية الواردة فى هذا الشأن · فأكسب السياق روعة وفخامة لما للآيات من وقع وجرس خاص يجذب الألباب ويسبى العقول والقلوب ، وأضاف الى الحوار من رؤيته الخاصة ما يهيىء أذهان الناشئة لتلقى الحدث بذهن متفتح وبصيرة نيرة · مبرزا فى كل ما يحكى جوانب العبرة والاتعاظ مبينا أن الخير كل الخير فى طاعة الله ، دون أن يلجأ الى تزييف الصورة بالخيالات الخاطفة للأبصار ، فمع توفر القصة على بعض الآيات الخارقة ـ مثل نبع الماء من تحت اسماعيل ـ الا أن القارىء لا يشعر معها بشىء من التهويل والجنوح فقد اكتفى الكاتب بابراز عنصر المفاجأة وقد وضحت فى صورة الدهشة التى كست وجه هاجر عندما أقبلت عليه · وما لبثت أن عادت الى طبيعتها شاكرة لله ·

وفى الحلقة الثانية من قصص السحار الدينى ، تناول سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم بالعرض بادئا بذكر شىء مما عليه آباؤه وأجداده من سيادة ومجد ، وما اختصوا به دون سواهم من محامد ومكارم وأبرز من خلال ما قدم الظروف التاريخية التى كان العرب يعيشون فيها قبل مولده ، والعادات التى كانت متأصلة فى حياتهم والمعتقدات التى كانوا يدينون لها ، فأعطى صورة صادقة للحياة العربية ، تتناسب مع المستوى الذهنى ، والقدرة الادراكية للأطفال · ودرجة استعدادهم لتلقى ما يعرض عليهم من أفكار وقيم ذلك العصر ، فجاءت قصتا (هاشم بن عبد مناف) و (عبد المطلب جد النبى) على درجة عالية من الجودة الفنية ، والصياغة الملائمة · وفيها قدم السحار خلفية تاريخية لما سيقدمه من أحداث تتصل بحياة الرسول ودعوته ·

وفى (عبد الله وآمنة) عالج الكاتب أحداث الذبح التى تعرض لها عبد الله وقصة الفداء ، وارتباط عبد الله بآمنة ، مبرزا شيئا من ملامح كل منهما ومكانته فى قومه ، فى رؤية فنية واضحة بعيدا عن الشطط وجنوح الخيال وذلك لما للشخصيتين من أهمية تتعلق بشرف النبى الخـاتم ومكانته وصلة ذلك بالوجدان الدينى والعاطفة الروحيـــة ·

وفى « مولد الرسول » اعتمد فى بلورة الحدث على حشد من أخبار الأحبـار والرهبان ، وما أذاعوه بين الناس فى ذلك الوقت عن اقتراب زمان النبى ، مضيفا الى ذلك حلم عبد المطلب الذى رآه فى منامه عن الشجرة التى نبتت من صلبه حتى بلغت عنـان السماء ، وتفسـير الكاهنة للرؤيا · برجل يخرج من صلبه يملك المشرق والمغرب ·

---

(١) المصدر السابق ص ١٢ ·

كما أبرز ظروف حمل آمنة وكيف أنها لم تتعرض لمثل ما تتعرض له النساء من تعب وجهد ، والنور الذى رأت كأنما خرج منها فأضاءت له قصور الشام والهاتف الذى طلب منها أن تسميه محمدا ، فهيأ السحار بذلك أذهان الناشئة وشحذ أذهانهم لترقب مجيء النبي الذى شرف فى عالم الوجود ·

وفى (حليمة السعدية) صاحب النبي فى طفولته مبرزا جوانب البركة التى أحاطت بالأرض التى تنفس فيها فى ديار بنى سعد ، وعوامل البهجة والاشراق التى أحس الجميع بها لوجوده بينهم · مع استمرار استخدامه لمرويات الأحبار والرهبان ، وحكايات العرافين والكهنة التى تؤكد أنه النبي ، وفى (اليتيم) تتبع حياة الرسول وميله الى العزلة والظروف التى عاش فيها بسبب موت أمه وجده ، وكيف أنها كانت قاسية عليه ودافعا الى الوحدة والتأمل فى الكون والحياة وأكد السحار على ذلك فى متابعته لحياة النبي فى (خديجة بنت خويلد) مع ذكر شيء عن ارتباطه بها ، وحبها له ، وحرصها على توفير كل أسباب الأمن والسعادة لحياته حتى يتفرغ لتأمله وعبادته ، بعد أن لاحظت ميله الى ذلك · حتى نزل عليه وحى السماء ، وكانت النبوة ·

فيحكى السحار قصة الوحي ، والملابسات التى أحاطت به ، والروع الذى أصاب الرسول عندما رأى جبريل ، وما صنعته خديجة فى ذلك الموقف ، من تثبيت وتأييد ·

ثم يمضي الكاتب على هدى من أمر الدعوة راصدا حركتها من أول يوم فى قصص (المسلمون الأوائل) و (الاضطهاد) و (الهجرة الى الحبشة) و (أيام الشدة) مبرزا كفاح المسلمين فى سبيل رفع راية الدين ونشر دعوة الحق وما لقيه النبي ومن معه من المؤمنين من عنت وظلم على أيدى طغاة مكة ، ومدى ثباتهم على عقيدتهم ، بعد أن ذاقوا حلاوة الايمان ، وتمتعوا بسعادة اليقين ، ورأوا فى دعوة الاسلام تحررا من عبودية الهوى وماديات الحياة ، وخلاصا من ظلم الظالمين ·

وأنهم لكل ذلك لم يأبهوا لما لاقوه من أذى ، بل انهم كانوا يعيشون لذة الايمان فى أشد لحظات التعذيب ·

ولم يتوقف السحار عن متابعة أحداث الدعوة ، بل ظل يرقب حركتها بوعى رشيد وهى تقاوم الطغيان وتدفعه بعد الهجرة فى قصص (غزوة بدر) و (غزوة أحد) و (غزوة الخندق) وما تبع ذلك من قصص حتى تم الفتح المبين ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا · والسحار بهذا العرض السخي يحرص كل الحرص على تقديم جرعة علمية تاريخية عن وقائع السيرة وأحداثها ، باعتبار أنها أولا وقبل كل شيء تاريخ يتصل بحياة أفضل الرسل ، وأن ارتباط هذه الحياة بالوجدان الدينى البكر عند الصغار ، يجعلهم يقبلون فى شوق ولهفة على تلقى ما يقدم اليهم من خلالها من قيم تهذيبية ، وسلوكيات أخلاقية ترتسم فى أذهانهم ثم تتبلور فى حياتهم عن طريق المحاكاة والتأسى · وقد كان السحار حريصا على بلورة المثل العليا والقيم الايمانية وتجليتها من خلال الشكل الذى اعتمده اطارا لعمله الفنى ·

فقد حرص كل الحرص على تطعيم الحكاية القصصية بالمثل العليا التى تجلت فى مواقف الرسول وأفعاله ، وبرزت فى علاقاته بالآخرين ، كما برزت هذه المثل فى التزام الصحابة بالهدى ، وحرصهم على متابعة الرسول فى كل ما يقول وما يفعل ، كما أن السحار كان شديد الحرص على بلورة حياة العرب بعد الايمان ، وكيف أنهم انتقلوا بسببه من عالم الجهالة والغفلة والطغيان ، الى حياة مزدهرة بالعلم والوعى والعدالة . تأكيدا منه على صدق نظريته الخاصة بالتفسير الدينى للتاريخ ، التى تقوم على أن ازدهار الحياة والحضارة مرتبط بالدين ، وأن التخلف والضعف والهوان يكون فى البعد عن الدين ، وقد برزت ملامح تلك النظرية بروزا واضحا فى معالجته لقصة السيرة ، وهذا كله يؤكد بما لا يدع مجالا للشك : أن المضمون التاريخى لا يقل أهمية عن المضامين المعاصرة ، فى صلاحيته لاحتواء الأهداف التوجيهية والأغراض التربوية فى مجال قصص الأطفال .

كما يؤكد ضرورة توفر هذا الشكل على المضمون الجيد . وذلك لان المضمون فى أدب الأطفال (يلعب دورا خطيرا فى عمليات بناء الأجيال الجديدة التى ستحمل عبء تشكيل الحياة على هــذه الأرض فى الغد القريب ، لأن ما يكتسبه الطفل فى سنوات عمره الأولى من معلومات وعادات واتجاهات وقيم ومثــل يؤثر فى تكوين شخصيته وأفكاره ، وقيمه واتجاهاته فى المستقبل بدرجة يصعب تغييرها أو تعديلها فيما بعد) (١) .

ومن هنا فان القصص الدينى أكثر الأنواع التى تقدم للأطفال أصالة وقدرة على امدادهم بالقيم الأخلاقية ، والمثل الروحية ، فاذا وفق الشكل الأدبى فى تقديم ذلك بطريقة تتناسب مع مدارك الأطفال ، تحقق الهدف وكانت الجودة أما اذا اخفق الشكل الأدبى فى القيام بوظيفته التأثيرية كان ذلك راجعا الى عدم اقتدار الأديب على بلورة الهاماته الابداعية فى الصورة المناسبة .

ولا شك ان السحار قد وفق الى حد كبير فى توظيف المضمون التاريخى والشكل القصصى للأهداف التهذيبية والتربوية بالطريقة الفنية المطلوبة ، واستطاع بما قدمه من قصص تبصير الطفل بالقيم الخلقية الفاضلة التى يجب أن تسود فى حياته ، وفى كل علاقاته بالآخرين ، كما أنه تمكن من خلال صوره التى قدمها من تنمية اعجاب الناشئة وتقديرهم للخصائص الطيبة التى يتعرفون عليها فيما يقرؤون . واذا كان المضمون فى كتب الأطفال وقصصهم لا يكون جيدا الا اذا توفر له شرطان كما يرى بعض النقاد وهذان الشرطان هما :

١ ـ أن يناسب مستوى الأطفال ويتفق مع خصائصهم وفق مرحلة النمو التى يوجه اليها هذا المضمون .

---

(١) المضمون فى كتب الأطفال . للاستاذ / أحمد نجيب ص ٤٥ .

٢ ـ أن يصل الى تحقيق أهدافه طبقا لمعايير أدب الأطفال السليم وبأسلوب غير مباشر ، يستهوى الأطفال (١) ٠

فان السحار قد التزم بالشرطين في قصصه الى حد كبير ، وقد تعرفنا على شيء من ذلك في (قصص الأنبياء) ٠

ونجد له أمثلة حية وشواهد واضحة في قصص السيرة ٠ فقد قدم في قصة (هاشم بن عبد مناف) لوحة تاريخية حافلة بالمعلومات عن قبيلة قريش التى ستشرف بأن يكون النبى منها وقد راعى فيما يقدم تبسيط الصورة واستخدام الألفاظ السهلة التى لا تحتاج الى صعوبة فى الفهم ، فاذا كان ولابد من ذكر كلمة تتصل بمفاخر العرب في قريش وكانت هذه الكلمة فيها بعض الغموض ، فانه يقدم لها بشرح واف مبسط ثم يوردها بنصها بين قوسين ، وبهذه الطريقة يسهل للناشئة فرصة التعرف على مكانة قريش بين العرب وفي الوقت نفسه يمدهم بحصيلة لغوية تنمو بنمو مداركهم فى مستقبل حياتهم ٠ نجد ذلك في عرضه لتلك المفاخر في قوله (كانت قبيلة قريش أشهر هذه القبائل) (٢) وكان سيد قريش هو الذى يضيف من ماله ومال الأغنياء . الفقراء الذين يأتون من أنحاء الجزيرة لزيارة بيت الله وكان هذا التكريم والاطعام يسمى « الرفادة » ٠ وكان هو الذى يسقى الحجاج ، ويسمى « السقاية » ، وكان هو الذى اذا قامت حرب بين قريش وقبيلة أخرى ، يقدم راية الحرب الى القائد ، ويسمى هذا « اللواء » وكانت الرفادة والسقاية واللواء من علامات الشرف والسيادة ، وكانت كلها في قريش ، لأن قريشا كانت أغنى قبيلة فى العرب وأشرفها (٣) فاذا عرف الأطفال بعد ذلك أن هذه المفاخر كانت فى أيدى آباء الرسول وأجداده وقفوا على منزلة بيت الرسول بين العرب ، انهم سيجدون ذلك عند قصى ابن كلاب الجد الرابع للرسول ٠ فما كان (رجل أو امرأة من قريش يتزوج الا فى دار قصى ، وما كان الناس يتشاورون فى أمر ينزل بهم الا في داره ، وما كان لواء الحرب يعقد الا فى داره ، كان قصى يطعم الفقراء ، ويضيف الحجاج ويسقيهم) (٤) وبشيء من الايضاح عرض السحار لذكر الخلاف الذى نشأ بسبب تلك المفاخر بعد قصى بين أبناء عبد مناف وبين أبناء عبد الدار ، فقد أراد قصى أن يجعل من عبد الدار شريفا مثل أخواته فمنحه الحجابة واللواء والرفادة والسقاية ٠ وقد كان عبد الدار خامل الذكر ضعيفا ٠

وبعد أن تحزب الفريقان وانتصر لكل منهما من انتصر (اصطلحوا على أن يأخذ بنو عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن يأخذ بنو عبد الدار الحجابة واللواء ودار الندوة) (٥) ٠

---

(١) المصدر السابق ص ٤٦ ٠
(٢) يشير الى القبائل التى كثرت وانتشرت وكانت من نسل اسماعيل ٠
(٣) هاشم بن عبد مناف ٠ عبد الحميد جودة السحار ص ٤ وما بعدها ٠
(٤) المصدر السابق ص ٦ ٠
(٥) المصدر السابق ص ١٠ ٠

ثم بعد ذلك يعرض السحار بالذكر لعمرو بن عبد مناف (هاشم) ومنزلته في قومه ، وما حققه لهم من مكاسب بفضل قوة شخصيته ، فقد نظم التجارة وأمن طريق القوافل ، وعندما أصابت قريشا سنة جدب شديد لجئوا اليه فقدم اليهم ما عنده من الطعام حتى نفذ (فخرج الى الشام ، واشترى دقيقا كثيرا وكعكا ، وعاد الى مكة ، فقابله الناس بالبشر ، وراح يقدم لهم الطعام ويهشم الخبز (أى يكسره) ، وذبح لهم ابلا ، ثم أمر الطهاة فطبخوا ، فأشبع أهل مكة ، ولم ينس القرشيون له صنيعه ، ولا تهشيمه الطعام لهم فسموه هاشما) (١) ٠

وبهذه الطريقة المبسطة استطاع السحار من خلال الحكاية تقديم المعلومات التاريخية المتصلة بحياة أجداد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتهيئة الأذهان الى تلقى أخبار حياته وما أحاط بها من ظروف وملابسات بعيدا عن الشطط والجموح ، وقد أراد بتجلية النزاع بين أبناء قصى الايحاء بما سوف تدور عليه الحركة التاريخية ، من حروب ومعارك بين الأميين وآل بيت الرسول ٠ وقد وضحت لدى المتلقين البذور الأولى للخلاف ٠

وعلى الطريقة نفسها فى تقديم المعلومات التاريخية عن عادات العرب وحياتهم من خلال السرد القصصى عرض السحار بالذكر للقداح التى كان العرب يضربونها اذا هموا بفعل شىء ، وحتى تتضح الصورة وتقرب من الأذهان تناولها الكاتب بكثير من السهولة فى العرض والصياغة ٠ فنراه يقول (كان العرب اذا أرادوا أن يفعلوا شيئا يضربون القداح ، والقداح : عيدان من خشب البقس نحتت وملست ، وجعلت سواء فى الطول ، يكتب عليها (افعل) أو (لا تفعل) أو ما يشاءون أن يقترعوا عليه ، وكانوا يذهبون الى صاحب « هبل » ، وهو صنم يعبدونه : ثم يطلبون من الحاجب ـ ويطلقون عليه « السادن » أن يختار قدحا من القداح ، فاذا خرج القدح المكتوب فيه (افعل) كانوا يفعلون الشىء ، أما اذا خرج القدح المكتوب فيه : « لا تفعل » فكانوا لا يفعلون ما نهوا عنه » (٢) ٠

ولم يقدم الكاتب العرض السابق لذاته منفصلا عن الحكاية ، وانما لجأ الى بيانه وبسطه لارتباطه بالحدث الذى تحكيه القصة خاصا بعبد الله والد الرسول ، وما امتحن الله به عبد المطلب جد الرسول من بلاء حين جاءه الهاتف مذكرا بالنذر الذى نذره على نفسه يوم نذر لئن أعطاه الله عشرة ذكور ليذبحن واحدا منهم فجاءت القداح على عبد الله ، وبعد أن عرض الكاتب لقصة الذبح وتابع تطورها حتى انتهت بنجاة عبد الله ٠ أخذ يحكى شيئا عن والد الرسول الذى كان رائع الحسن (حتى ان نساء قريش كن يتمنين الزواج به ، وكان فى وجهه نور يتلألأ وأرادت امرأة أن تتزوجه ،

---

(١) المصدر السابق ص ١٢ وما بعدها ٠

(٢) عبد الله وآمنة ٠ عبد الحميد جودة السحار ص ٥ ٠

وأن تعطيه مائة من الابل ، ولكنه أبى : كان ذاهبا مع أبيه الى وهب بن عبد مناف ابن زهرة ليزوجه ابنته آمنة) (١) .

ولم يلجأ الكاتب هنا الى ما فعله حين عرض للموقف نفسه فى الجزء الخاص بمولد الرسول من قصة السيرة (محمد رسول الله والذين معه) فقد شاء خياله هناك أن يربط بين عبد الله وآمنة بعلاقة حب هامشية منطلقا من دائرة الاعجاب التى حظى بها عبد الله من النساء حتى انه كاد يقيم جسرا من الصراع بين رقيقة بنت نوفل — المرأة التى عرضت نفسها عليه — وبين آمنة بنت وهب . ولكنه هنا مراعاة لمستوى المتلقى واستعداده الذهنى والعاطفى أغفل ذكر ما لا حاجة لذكره مكتفيا بابراز جمال عبد الله ووسامته ، وبشائر الخير التى بدت على وجهه ارهاصا بمولد الرسول عليه السلام وتهيئة للذهن ، حتى أنه صرح فى القصة بأن ذلك النور الذى رأته المرأة كان نور النبوة . وأن المرأة افتقدته فى وجهه بعد أن دخل بآمنة . فقد انفصل عنه واستقر فى أحشائها نجد ذلك فى قوله (ومكث عبد الله عند آمنة ثلاثة أيام ، وكانت هذه عادة العرب اذا تزوجوا فى بيت أهل الزوجة ، وفى اليوم الثانى للزواج خرج عبد الله من عند آمنة ، ومر على المرأة التى عرضت عليه أن تتزوجه وأن تعطيه مائة من الابل ، فلم تحادثه ، ولم تعرض عليه الزواج ، فعجب عبد الله من ذلك ، وقال لها :

— لماذا لا تعرضين على الزواج ؟

فنظرت اليه طويلا ، ثم قالت :

— أى شىء صنعت بعدى ؟

فقال عبد الله :

— تزوجت بآمنة بنت وهب .

فقالت المرأة فى حزن :

— رأيت نور النبوة فى وجهك ، فأردت أن يكون ذلك فى ، وأبى الله الا أن يجعله حيث جعله .

لم يكن مقدرا أن تأتى هذه المرأة برسول الله ، بل كان مقدرا أن تحمل خير أهل الأرض . آمنة بنت وهب (٢) .

وفى الجزء الخاص بمولد الرسول من هذه الحلقة ، استعان السحار بمجموعة من الارهاصات والبشائر التى سبقت مولد الرسول بقليل انطلاقا مما ورد فى القرآن الكريم من أن اليهود والنصارى كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم . فجمع ما ورد من ذلك على لسان الأحبار والرهبان وصاغه فى حكاياته السردية اظهارا للظروف التاريخية التى صاحبت المولد الشريف وايحاء بعظمة الوليد وشرفه فى عالم الحياة ،

---

(١) المصدر السابق ص ١١ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢ وما بعدها .

فقص مقالة الراهب الذى عرج عليه بعض رجال مكة وهم فى طريقهم الى الشام ، فقد قال لهم بعد أن عرف أنهم من مكة :

ـ ان الله سيبعث فيكم نبيا وشيكا ، فسارعوا اليه ، وخذوا حظكم ترشدوا ٠
فنظر اليه الرجال فى دهش ٠ وقالوا :

ـ ما اسمه ؟

ـ محمـــد ٠

وكان الرهبان أهل علم وكانت أحاديثهم تدهش العرب الذين ما كانوا يعرفون الا التجارة أو اللهو) (١) ٠

ثم أضاف الكاتب الى ذلك قصة الحلم الذى رآه عبد المطلب من الشجرة التى نبتت حتى بلغ رأسها السماء ٠ وامتدت أغصانها فى المشرق والمغرب ، وتفسير الكاهنة للرؤيا بقولها :

ـ لئن تحققت رؤياك ، ليخرجن من صلبك (أى من أولادك) رجل يملك المشرق والمغرب وتدين له الناس (٢) ٠

وربط ذلك بالهاتف الذى جاء آمنـة بعد حملهـا وأخبرها بأنها حملت بخير العالمين ، واذا ولدته أن تسميه محمدا ، كما ربطه بالنور الذى رأت كأنه خرج منها فأضاءت له قصور الشام (٣) وولد محمد صلى الله عليه وسلم وفى ليلة المولد كان يهودى يرصد النجوم ، فرأى نجما لم يره فى السماء من قبل ، وكان هذا دليلا على مولد نبى ، فقام اليهودى على محل مرتفع وصاح :

ـ يامعشر اليهود ٠٠ يامعشر اليهود ٠
فاجتمع الناس حوله ، وراحوا يسألونه :
ـ ماذا جرى ؟ ٠٠ ماذا جرى ؟

ـ أمر جليل ٠
ـ ويلك ! مالك ؟
ـ طلع الليلة نجم أحمد (٤) ٠

وكان ذلك فى يثرب (المدينة) وفى مكة أيضا قال أحد اليهود لرجال قريش وهو يمر على مجالسهم :

ـ ولد الليلة نبى هذه الأمة (٥) ٠

---

(١) مولد الرسول عبد الحميد جودة السحار ص ٣ وما بعدها بتصرف ٠
(٢) المصدر السابق ص ٨ ٠
(٣) المصدر السابق ص ٩ ٠
(٤) المصدر السابق ص ١٢ ٠
(٥) المصدر السابق ص ١٣ ٠

وبهذا التجميع الحاشد هيأ السحار أذهان الناشئة لتلقى أخبار نبيهم ، وشحذ أذهانهم لمتابعة سيرته ، فقد بدالهم من خلال هذه الخلفية التاريخية التى قدمها اليهم ٠ جلال النبى وعظمته وشرفه فى عالم الوجود ٠

ويمضى الكاتب بعد ذلك فى تتبعه لطفولة الرسول فى بنى سعد فيعرضها فى جو من البهجة والاشراق ، مبرزا ملامح البركة والخير التى أصابت آل حليمة بفضل وجود محمد بينهم ٠ فقد كانت حياتهم يملؤها الجدب والجفاف من كل جانب ، فلما حل بساحتهم عم الرخاء ، وعاش الجميع فى سعادة ٠

وفى (اليتيم) و (خديجة بنت خويلد) قدم السحار الظروف التى عاشها الرسول بين أهله وقومه مبرزا تفرده من دونهم بالبعد عن الأصنام ، وعدم مشاركته لهم فى لهوهم ولعبهم حتى انه عندما فكر مرة فى اللهو كما يلهو الفتيان وذهب الى حيث كان أهل بيت فى مكة يسمرون (وجلس لينظر ، واذا بالنوم يغلبه ، فنام دون أن يرى أو يسمع شيئا ، ومر الليل وما أيقظه الا حر الشمس ، فقام وعاد الى غنمه ٠

ان الله الذى عصمه من أن يعبد الأصنام ، عصمه من أن يلهو كما يلهو فتيان قريش لأن الله كان يعده لأمر عظيم) (١) كما أبرز السحار نزوعه الى التأمل والوحدة ومداومة التفكير فى الكون بحثا عن أسرار الحياة ، وتهيأ له ذلك بعد أن اشتد عوده وقوى ساعده وعاش مع خديجة فى بيت سعيد ، فقد كانت خديجة (تلاحظ سكونه ، فتتركه لأفكاره ، ولا تضايقه بكثرة حديثها ، كما تفعل النساء مع أزواجهن ، كانت خديجة عاقلة ، فكانت تترك زوجها الى ما تميل اليه نفسه) (٢) ٠

فكان ينقطع للتأمل والتفكير بعيدا عن ضوضاء الناس يعبد الله فى ليله ونهاره حتى اهتدى (الى أن لهذا الكون الها واحدا هو الذى خلق الشمس والقمر ، والسماء والأرض ، والأنهار والجبال ، والانسان والحيوان ، وأن هذا الاله الواحد هو الذى يجب أن يوجه اليه الناس فى دعوتهم ، وهو وحده المستحق للعبادة) (٣) ٠

وكان يحب الخلوة ، ففى الخلوة اتصال الانسان بالكون ، وفيها يفرغ القلب من أشغال الدنيا ، ويصفو الذهن ، وتشرق أنوار المعرفة ، وكان محمد يقضى الشهر فى عبادة ، يطعم من يمر به من المساكين ، من الكعك والزيف الذى يحمله معه (٤) حتى جاءه الوحى وأمر بدعوة الناس الى دين الله ٠

قدم السحار ذلك ببصيرة نيرة ، وأسلوب مستقيم يتسم بالسهولة والوضوح وينأى عن الخيال الجامح ، والفكرة الشاردة دون أن ينسى فى زحمة السياق الحافل بالمعلومات التاريخية عن الرسول وحياته ٠ ابراز الجوانب التوجيهية والمثل الطيبة ،

---

(١) اليتيم عبد الحميد جودة السحار ص ١٤ ٠
(٢) الوحى ٠ عبد الحميد جودة السحار ص ٥ ٠
(٣) المصدر السابق ص ٦ ٠
(٤) المصدر السابق والصفحة نفسها ٠

والأخلاق التي كان يتصف بها الرسول وأصحابه والتي يجب أن نتحلى بها ، كما أنه لم ينس ابراز البطولة الاسلامية التي خاض المسلمون بها حروبهم ضد أهل الشرك ، وكيف أنهم كانوا يقدمون أرواحهم فداء للاسلام وهم قانعون ، نجد كثيرا من ذلك يورده الكاتب بأسلوبه وصياغته ، في بعض الأحيان ، وفي أحيان أخرى يقدمه من خـلال استخدامه لنصوص القرآن الكريم ، أو أحاديث النبي العظيم ومحاوراته مع الصحابة ، التي تأتي متداخلة مع السياق ومن أمثلة تلك الاشارات التوجيهية ما ورد في حكاية السحار خاصا بالظروف التي بدأ المسلمون فيها حياتهم بالمدينة · قال :

نزل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فالتف حوله المهاجرون والأنصار فآخى بينهم ، كان يؤاخي بين واحد من المهاجرين وواحد من الأنصار ، فالرجل الذي هاجر في سبيل الله ترك ماله في مكة ، وليس له مكان يبيت فيه ، فكان على رجال المدينة أن يؤوا مهاجري مكة وأن يعاونوهم على العيش ، حتى يستقروا في المدينة ، ويجدوا لهم عملا ، وكان مهاجرو مكة قد اعتادوا جفاف جوها فلما عاشوا في المدينة مرضوا . وقد مرض بلال وأبو بكر ، فدخلت عليهما عائشة بنت أبي بكر تعودهما ، فقالت لهمـا :

ـ يا أبت كيف تجدك ، ويا بلال كيف تجدك ؟

فذكر لها أبو بكر وبلال أنهما يحنـان الى مكة ، كانت مكة وطنهم ، فكانوا يحبونها ، على الرغم من أن أهل مكة اضطهدوهم وعذبوهم ، وأن أهل المدينة استقبلوهم استقبالا حسنا ، فما كان الوطن يهون على أهله ، فذهبت عائشة الى النبي وكانت قد تزوجته ، وقالت له :

ان أبا بكر وبلال يحنان الى مكة ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم :

ـ اللهم حبب الينا المدينة ، كحبنا مكة أو أشد) (١) ·

ولا يخفى ما في النص السابق من توجيهات ترشد الى ما كانت عليه حيـاة المسلمين من تآخ وتعاون وحب · كما ترشد الى أمثلة حية للسلوك القويم يجب على الجميع العمل على ايجادها في حياتهم ان لم تكن موجودة ·

فقد بين النص ضرورة تعاون المؤمنين بعضهم مع بعض وأن يساعد الغني الفقير فيما يحتاج ، فالمسـلم أخو المسـلم ومكمل له كما يوجه النص الطفل الى فعل الخير والسلوك الطيب في عيادة المريض · وينمي فيه غريزة حب الوطن والارتباط بالأرض التي ولد فيها وعاش عليها ·

وقد تأتي الاشارة التوجيهية منفصلة عن حكاية الحدث لا يربط بينها رابط اللهم الا وحدة الاطار العام للسلوك الذي تتصف به الشخصية · ومن ذلك ما نجده

---

(١) غزوة بدر ص ٥ وما بعدها ·

في قصة (النبي الصالح) فقد جمع السحار فيها عددا من مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم ٠ التي كانت كلها خيرا وبركة ورحمة ومن هذه المواقف ما حكاه بقوله (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كريما ، فكان اذا وجد محتاجا أرسله الى بلال ، وكان خازنه ، ليطعمه ويكسوه ، وفي ذات يوم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على بلال ، وعنده صرة من تمر ، فقال له :

ـ ماهذا يابلال ؟

فقال بلال :

ـ يارسول الله ، ادخرته لك ولضيفانك ٠

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ أما تخشى أن يكون له بخار فى النار ؟ انفق بلال ولا تخش من ذى العرش اقلالا ٠

وكان يعطى السائلين مستبشرا ، ولا ينهرهم وان آذوه ٠ كان مـرة يمشى مع خادمه أنس بن مالك ، وكان على النبى صلى الله عليه وسلم رداء غليظ الحاشية ، فجاء أعرابى ، وجذب رداءه جذبة شديدة أثرت فى عنق الرسول وآلمته وقال الأعرابى :

ـ يا محمد ، مر لى من مال الله الذى عندك ٠

فالتفت اليه رسول الله وهو يضحك ، لم يثر ولم يغضب ، وأمر للرجل بعطاء حمله وانصرف (١) ٠

ولو حاولنا تتبع ما ورد من ذلك فى قصص السيرة لوجدنا العجب العجاب ، ولا نبالغ اذا قلنا ان أية قصة من هذه الحلقة حافلة بألوان شتى من الفضائل والقيم، وروائع السلوك الحسن ، لأن طبيعة العمل الذى يعالجه السحار يرتبط هنا بقصة حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما قصة حياته الا قصـة الاسلام بأمجاده الخالدة وقيمه النبيلة التى غيرت معالم الحياة على الأرض وارتفعت بالانسان الى مدارج السمو والكمال ٠

واذا كان السحار قد وفق الى حد كبير فيما عالجه متصلا بقصص الأنبياء وقصص السيرة ٠ فانه فى قصص الخلفاء الراشدين والعرب فى أوربا لم يوفق توفيقا كاملا فى تقديم الشكل الملائم للأطفال من حيث مستوى الأداء اللغوى ، وطريقة الصياغة الفنية الى جانب احتفائه خاصة فى القصص المشار اليها بالمعارك الحربية والصراعات السياسية التى صاحبت تلك الفترة ٠

فقد رأينا ذلك واضحا فى تقديمه لأحداث المعارك والصراعات بدقة تفصيلية ، وتكثيف شديد ، لا يتمكن الطفل معه من متابعة الحدث ولا التعرف على المغزى من ورائه بسهولة ويسر ، فضلا عن ذلك الحشد الهائل من أسماء الشخصيات التى تطالع

---

(١) النبى الصالح للسحار ص ٩ وما بعدها ٠

القارىء المبتدىء في القصة الواحدة ، فلا يستطيع التمييز بين ملامحها أو التعرف على سلوكها ٠

أما من ناحية اللغة والصياغة الفنية ٠ فقد وجدنا الأسلوب يختلف اختلافا كاملا عن الأسلوب الذى استخدمه فى قصص الأنبياء وقصص السيرة ، فقد ملأه بالكلمات الغامضة التي يستعصى على الناشئة فهمها بسهولة ، ولم يوضح الغامض كما كان يفعل ، ووجود ذلك فى أثناء السرد يوقف القارىء الصغير عن المتابعة انتظارا لفهم قد يطول مداه ٠ وذلك فضلا عن علو الطبقة التى ينتخب منها كلماته ، ويكون عباراته ، فهى مع فصاحتها وسلامتها اللغوية وسبكها الجيد لا تلائم المسنوى السنى للمتلقين ، وانما تحتاج الى خبرات لغوية سابقة ٠

والى جانب ذلك رأينا بعض القصص تكاد تكون كلها من تأليف غيره ، وذلك لما اشتملت عليه من خطب تاريخية أو رسائل متبادلة بين الخلفاء والأمراء ، جاءت متداخلة مع الحكاية القصصية واستوعبت قدرا كبيرا من القصة دون حاجة ماسة الى ذكرها كلها مما أفسد الصورة القصصية المحببة الى نفوس الأطفال ٠

ولعل أوضح مثل على ذلك ما ورد فى قصة (أبو بكر خليفة الرسول) فقد صاغها السحار مشتملة على كثير من الخطب التى دارت على ألسنة المتنازعين على الخلافة) (١) وعلى هذا المستوى كانت قصة (عمر أمير المؤمنين) (٢) ٠

ولا نجافي الحقيقة اذا قلنا ان معظم قصص الحلقتين ، اما وصف للمعارك الحربية بطريقة مملة لا تلائم الصغار ، واما تنسيق وترتيب للأخبار والمرويات التاريخية بنصوصها التى وردت بها فى مصادر التاريخ ٠ ولا يتسع المجال هنا لذكر ما ورد فى كل قصة مما يدعم ذلك ويؤكده وسنكتفى بايراد بعض الأمثلة للتدليل على ما نقول ٠

ففى مجال عدم ملاءمة الصياغة للمستوى الذهنى والسنى للأطفال نجد قوله عن الظروف المصاحبة لفتح دمشق (سار أبو عبيدة بالجيوش ، وقد جعل وجهته دمشق ، عاصمة الشام فجاءته الأخبار بأن المدد قد آتى أهل دمشق من حمص ، فأصبح لا يدرى أيبدأ بغزو دمشق أم بمدينة فحل من بلاد الأردن ، فكتب فى ذلك الى عمر بن الخطاب ، فلما جاء عمر الكتاب ، كتب الى أبى عبيدة « أما بعد ٠ فابدءوا بدمشق ، فانها حصن الشام ٠ وبيت مملكتهم ، واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكن بازائهم فى نحورهم » ٠

فسرح أبو عبيدة الى فحل عشرة قواد ، فلما رأت الروم أن الجنود تريدهم ، بثقوا المياه حول فحل ، أطلقوا ماء بحيرة طبرية ونهر الأردن فى الأرض حولهم ، فأردغت الأرض ثم توحلت ، وتعذر السير فيها ، فوقفوا بازاء الروم وحاصروهم ٠

---

(١) انظر ص ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ من القصة المشار اليها ٠

(٢) انظر ص ٦ ، ٧، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ وغيرها من القصة المشار اليها ٠

وأرسل أبو عبيدة جيشا آخر ، ليقف بين دمشق وحمص حتى يتعذر على هرقل ملك الروم الذى كان فى حمص ، أن يرسل المدد الى دمشق ، اذا ما هاجمها أبو عبيدة بجيشه · وسار أبو عبيدة الى دمشق ، وقد جعل على مقدمته خالد بن الوليد ، وعلى مجنبتيه عمرو بن العاص وأبا عبيدة ، وانطلقوا قاصدين دمشق ·

سار خالد حتى أشرف على موضع يقال له الثنية ، فوقف هناك وركز راية العقاب ، فسميت « ثنية العقاب » ثم ارتحل منها الى دير ، وأقام على الدير ينتظر قدوم أبي عبيدة فسمى ذلك الدير فيما بعد « دير خالد » ···· الخ ·· (١) ·

ويستمر السحار في تتبعه لجميع الخطوات التى تمت بالطريقة نفسها حتى تنتهي القصة · ولا ندرى لماذا يحرص على عرض جميع الجزئيات بكل ملامحها ؟ وكان من الأفضل أن يعرض شيئا من ذلك مضيفا اليه عنصر البطولة الاسلامية ويجليها فى مثل هذه المواقف · وأن يركز على شخصية أو شخصيتين ومن خلالهما يرسم الصورة ويحكى الحدث · بعيدا عن الطريقة الجافة التى عالج بها أحداث القصة ·

ومن أمثلة كثرة استخدامه لخطب الخلفاء والأمراء · ما نجده فى (عمر أمير المؤمنين) · فقد كان المثنى بن حارثة الشيبانى قائدا على الجيوش الاسلامية التى تحارب فى فارس · ورأى أن الفرس قد جمعوا الجموع لحرب المسلمين ، فذهب الى المدينة ليبلغ أبا بكر ولكنه بعد أن وصل اليها وجده مريضا ، فطلب الاذن بالدخول وأخبره الخبر ، فأرسل أبو بكر الى عمر وأوصاه أن يستنفر الناس للقتال ان هو مات وألا يقصر فى ذلك · ومات الخليفة الأول وجاء عمر وبعد أن بويع بالخلافة قام وخطب فى الناس (٢) وانتظر أن يخرج أحد للقتال · ولكن أحدا لم يخرج ، ومضى يوم وأصبح الصباح فصعد عمر المنبر وقال :

ــ بلغنى أن الناس هابوا شدتى ، وخافوا غلظتى ، وقالوا :

قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله بين أظهرنا ، ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه ، فكيف وقد صارت الأمور اليه ؟! ومن قال ذلك فقد صدق ، اننى كنت مع رسول الله فكنت عبده وخادمه ، وكان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة ، وكان ــ كما قال الله ــ بالمؤمنين رءوفا رحيما · فكنت بين يديه سيفا مسلولا حتى يغمدنى أو يدعنى فأمشى ، فلم أزل مع رسول الله حتى توفاه الله وهو عنى راض ، والحمد لله على ذلك كثيرا وأنا به أسعد · ثم ولى أمر المسلمين أبو بكر ، فكان من لا تنكرون دعته وكرمه ولينه ، فكنت خادمه وعونه ، أخلط شدتى بلينه ، فأكون سيفا مسلولا حتى يغمدنى ، أو يدعنى فأمضى ، فلم أزل كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عنى راض ، فالحمد لله على ذلك كثيرا وأنا به ·· أسعد ·· الخ (٣) ·

---

(١) فتح دمشق ·· عبد الحميد جودة السحار ص ٤ وما بعدها ·

(٢) أورد السحار بعضا من خطبته · ص ٦ ·

(٣) عمر أمير المؤمنين ص ٧ ، ٨ ·

ويحرص السحار على أن يعرض الخطبة بتمامها ، وبعدها يورد خطبة المثنى بن حارثة الشيباني ودعوته الناس الى حرب الفرس ، ثم أخرى لعمر -- وهكذا حتى استحالت القصة كلها الى مجموعة من الخطب ففقدت بذلك خصائصها السردية ٠

وعلى الرغم من وجود هذه الملاحظات في بعض القصص الا أن ذلك لا يغض من قيمة المضمون الذى عرضه السحار وما حفل به من أعراض وخصائص تتصل في مجموعها بالقيم الكبرى التى قدمها الاسلام للبشرية ممثلة في سلوك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخلفاء والتابعين ، وبالاضافة الى ذلك كانت المعلومات التاريخية التى اشتمل عليها المضمون من أبرز خصائص الصياغة وأوضحها ٠

الباب الثالث

دراسات فنية

الفصل الأول : الرؤية الاسلامية والبناء الفنى ..

الفصل الثانى : خصائص الفن القصصى عند السحار ..

الفصل الأول

الرؤية الاسلامية والبناء الفنى

رأينا فى الفصل التمهيدى كيف استطاع التيار الاسلامى أن يشق طريقه فى مجال القصة ، وسط جو مشحون بالتيارات والمذاهب الوافدة ، وكيف أن القصة كفن أدبى أصيل له خلفيته العربية وأصالته الحضارية ، قامت منذ مطلع العصر الحديث برصد الواقع العربى ، والكشف عن دوافع حركته التاريخية ، والمتغيرات التى واكبت تلك الحركة فى جميع المجالات ، وما طرأ على أسلوب الحياة من سلوكيات شاذة ، وعادات أخلاقية وافدة لا تمت الى حياتنا وواقعنا بصلة ٠٠

كما أن القصة الى جانب ذلك قامت ـ بفضل التيار الاسلامى الناهض ـ بتأكيد القيم الاسلامية ، فى محاولة جادة لزحزحة الضباب الذى خلفه الغزو الفكرى ، والتيارات المنحرفة ، وقد تبلور هذا الاتجاه فى التعبير القصصى عندما كانت حركة احياء التراث العربى القديم تحظى باهتمامات المثقفين فى ذلك الوقت ، ترشيدا لحركة الاصلاح الاجتماعى فى مواجهة التقاليد والأنماط الغربية ٠

وكانت رواية « حديث عيسى بن هشام » لمحمد المويلحى أول رواية اجتماعية مقامية تهدف الى (تبصير المواطنين بطائفة من عيوبهم ، ليعدلوا سلوكهم) (١) ٠

وكان المويلحى يدين بالولاء فى فكرته الاصلاحية ، للمفكرين الذين يؤمنون ببعث التراث العربى الاسلامى القديم ، وعدم الوقوف ـ فى الوقت نفسه ـ موقف الجمود والانغلاق من بعض مظاهر الحضارة الغربية التى قد تكون صالحة لمجتمعهم (٢) ٠

وبعد المويلحى كان المنفلوطى الذى قدم نوعا من القصص متضمنا بعض القيم التهذيبية هادفا الى تعميق الاحساس بالمثل العليا والقيم الانسانية ، وهو منهج يتلاءم مع المنطلق الذى سار عليه المفكرون الاسلاميون فى حركتهم الاصلاحية ٠

---

(١) تطور الأدب الحديث فى مصر د ٠ أحمد هيكل ص ١٨٠ ٠

(٢) تطور الرواية العربية الحديثة فى مصر د٠ عبد المحسن طه بدر ص ٨٢ ٠

وكانت روايات جورجي زيدان التي تناول فيها تاريخ الاسلام بالمعالجة القصصية حدثا جديدا في القرن التاسع عشر ، فقد لفتت الأذهان الى ضرورة استلهام هذا التاريخ والاعتماد عليه في الابداع الأدبي • وعلى الرغم مما وجه الى جورجي زيدان من نقد يتصل بضعف الاحساس القوي وفتوره ، وعرضه لفترات من تاريخ الاسلام لا تمثل أمجاده ولا حركة ازدهاره الا أنه بما قدم في مجال الرواية التاريخية ، رسم الطريق ومهده لكل من جاء بعده (مما حدا بالكثيرين من مؤرخي الأدب الحديث أن يعدوه رائدا في هذا الميدان (١) •

ولم يتوقف التيار الاسلامي عن الانطلاق ، فقد واصل طائفة من الأدباء المسلمين مسيرتهم حريصين على أن يواجهوا التيارات الغربية الوافدة من هنا وهناك بأدب تسرى فيه روح الاسلام وقيمه وأفكاره ، قاصدين بذلك تأصيل أدب اسلامي يتلاءم مع البيئة العربية ويعبر عن واقعها وتطلعاتها في حياة آمنة مطمئنة •

وقد تهيأت له ظروف الانطلاق على نحو لم يسبق له مثيل مع بداية العقد الرابع من القرن العشرين حيث نشطت الحركة الاسلامية نشاطا ملحوظا نتيجة للظروف القاسية التي واجهت المجتمع ، وما تعرضت له البلاد من صراعات حزبية وتمزق سياسي ، وطغيان استعماري ، فضلا عن ظهور بعض التنظيمات الشيوعية المعادية للدين • وقد تبلور نشاط تيار الأدب الاسلامي في تلك الفترة وما بعدها ممثلا في القصص التاريخي الذي ألفه الأدباء مستلهمين فيه أحداث الاسلام وأمجاده الحضارية مقدمين للجمهور أمثلة حية للحياة الاسلامية التي كان عليها العرب في ظل الدين وحمايته ، وكانوا بذلك يهدفون الى تقديم البديل الأمثل والنموذج الفذ الذي يجب أن يحتذى ، وكانوا في صدورهم عن هذا الفهم يعبرون عن احساس بالانتماء القومي ، وايمان بالفكر الاسلامي وقدرته على حل معضلات الحياة •

وكان في مقدمة أدباء هذا التيار عبد الحميد جودة السحار ، فقد صدر له في هذا العقد وحده ست قصص كانت على الترتيب « أبو ذر الغفاري » (٢) و « بلال مؤذن الرسول » (٣) و « سعد بن أبي وقاص » (٤) و « أبناء أبي بكر الصديق » (٥) و « أهل بيت النبي » (٦) و « أميرة قرطبة » (٧) •

واستمر بعد ذلك على الطريق يصدر في كل أعماله التاريخية وغير التاريخية

---

(١) جورجي زيدان • للاستاذ محمد عبد الغني حسن ص ٩٧ •

(٢) صدرت سنة ١٩٤٣ •

(٣) صدرت سنة ١٩٤٤ •

(٤) صدرت سنة ١٩٤٥ •

(٥) صدرت سنة ١٩٤٦ •

(٦) صدرت سنة ١٩٤٨ •

(٧) صدرت سنة ١٩٤٩ •

عن منهج ورؤية تستمد أصالتها في معظم الأحيـان من الفكر الاسـلامي وعناصره الحضـارية .

وكان ممن شارك فى مجال الرواية التاريخية الاسلامية من الأدباء ، على أحمد باكثير ، ومحمد سعيد العريان ، ومحمد عبد الحليم عبد الله ، وغيرهم ممن جاء بعدهم مثل : نجيب الكيلانى ، وعبد الرحمن الشرقاوى . الى جانب أعمال أخرى صدرت لكثير من الأدباء وفيها تتجلى ملامح التيار الاسلامى وتتضح القيم الاسلامية .

غير أنه يلاحظ أن من شاركوا فى مجال الرواية التاريخية الاسلامية لم يكونوا جميعا يتحركون من منطلق واحد ؟ فقد كان منهم المدفوع بقوة الوطنية فى مواجهة التيار الاستعمارى فتناولوا التاريخ الاسلامى ضمنا ، وكان منهم المدفوع بقوة القومية العربية فى مواجهة الزحف الغربى وثقافته ، فاتجه الى استعراض التاريخ الاسلامى كذلك ، وكان منهم المنطلق دفاعا عن الاسلام فى مواجهة التزييف التبشيرى .

وهذه السعة وهذا الانتشار انما يدل على أن القصة الفنية قد استوعبت حركة التيار الاسلامى ، وعبرت من خلال شكلها الفنى الحديث عن قيم الاسلام وحضارته وتاريخ أبطاله : وهى كما عبرت عن ذلك فى بعض الحالات من خلال أعمال تتسم بالمضامين التاريخية ، عبرت أيضا عن بعض ملامح التيار من خلال أنواعها الأخرى، وقد ظهر ذلك واضحا فى القصة الاجتماعية والقصة القصيرة وقصص الأطفال . عند بعض أدباء العصر الحديث وكان السحار فى مقدمتهم أصالة وابداعا .

على أن بعض النقاد ممن ينتمون الى مدارس فكرية منحرفة ، واتجاهات سياسية متطرفة ، لا يستريحون لهذا الاتجاه ولا ينسجمون معه ، ولا يرون فيه آية من فن وابداع . بل عمقا وتخلفا وسلبية ، ونمطا من التعبير لا يحق له أن يسود ولا أن يوجه . لأنه ليس ابن المرحلة التى يعبر عنها ، وانما ابن مرحلة متناهية فى القدم لا تصلح قيمها ومثلها لصياغة الحياة ، فضلا عن عدم صلاحيتها كمضامين أدبية .

والشىء الذى لم يعلن من جانبهم فى تبرير كراهيتهم للتيار الناهض ، أنه يمثل حركة واعية تقف فى مواجهتهم ، وتعوق حركتهم ، وتسد عليهم مسالك السبل التى فتحوها لأنفسهم عبر المرحلة التاريخية الحديثة ، بما أشاعوا من اباحية ومجون ، وما قدموا للناس من أفكار مزيفة وعقائد منحرفة .

فرأينا منهم من ينكر هذا الأدب ويتهمه بالرجعية والجمود ، وعدم قدرته على التعبير عن احتياجات الانسان المعاصر ومطالبه المادية .

ووجدنا منهم من يتهم أدباء الاتجاه الاسلامى بانعدام الوعى والانعزالية والسلبية فى مواجهة قضايا المجتمع والناس ، وعـدم تفهمهم للحركة التاريخية التى يعيشها المجتمع المعاصر ، وما يحيط به من عوامل الظلم والطغيان ، وما يموج على ساحته من قلق ويأس وتمزق جراء ما يشهده كل يوم بل كل ساعة من عوامل الدمار والتخريب وأنه لا سبيل الى تخلصه من كل ذلك ، الا بالثورة والتغيير وفقا لقيم مادية جديدة ،

تتلاءم مع وعى المرحلة التطورية التى يحياها ، وتلتقى مع مثله المادية التى يسعى الى تحقيقها ٠

ورأينا منهم من ينكر الأدب الاسلامى اعتمادا على مقولة كاذبة تتعلق بمقومات الشكل الفنى وعناصره الابداعية وأن مقومات هذا الشكل ارتبط تقنينها برؤية مغايرة للرؤية الاسلامية فى بعض الفنون الابداعية كالقصة ٠ ومن هنا فلا تستطيع الرؤية الاسلامية التعبير عن نفسها من خلال الشكل الفنى الحديث ، فالقصة الناجحة لا توصف بهذا الوصف الا اذا عبرت عن قيم المجتمع الجديد وصراعاته المادية ، من خلال رؤية مادية للواقع تنبع من فلسفات المذاهب المعاصرة فى الأخلاق والسياسة والاجتماع ، لأن أصحاب تلك الفلسفات هم الذين وضعوا الأسس الفنية للأنواع الأدبية الحديثة ، بما يحقق لها القدرة على التعبير ، وعلى ذلك فارتباطنا بالماضى وقيمه الموروثة تعويق لقدرة الفنون عن الصياغة والابداع ، وافساد للشكل الأدبى ومقوماته الفنيـــة (١) ٠

وكانت القصة أكثر الفنون الأدبية وأوفرها حظا فى ارتباطها ــ كما يزعمون ــ بالرؤية المادية المعاصرة لارتباط نهضتها بنمو الطبقة الجديدة فى المجتمع ، تلك الطبقة التى تمثل البورجوازية الصغيرة والكبيرة على السواء ٠ وما واجهته من تحديات عصر الاقطاع وصراعها من أجل تحقيق المكاسب الثورية والأمن الاجتماعى ، ونظرا لهذا الارتباط الحتمى بين القصة فى تطورها وبين بروز وعى الطبقة الجديدة ، فلابد لها من الالتزام بالتعبير عن قضاياها ومشاكلها وتطلعاتها وفقا لما يمليه هذا الوعى الاجتماعى وطبقا للأسس الفنية المنصوص عليها فى أفكار دعاة المذهب وأسفارهم النقدية(٢) ٠

وهذه النظرة النقدية تتسم بكثير من التعسف وتفتقر الى كثير من الموضوعية ، لأنها تحصر الفنون بعامة والقصة بصفة خاصة فى دائرة مغلقة ، وفى اطار ضيق من التعبير ، وتحتكم الى رؤية جزئية مقيدة فى تصورها للواقع الاجتماعى ، كما أنهـا تفرض على الأديب نوعية خاصة من التجربة البشرية يكون ملزما برسم أبعادها وابراز ملامحها ، وهذا وحده يمثل قيدا يحد من حرية الأديب فى التصور ومن قدرته على الابداع ٠

فليست الحياة المادية وصراع الطبقات هى الصورة الواقعية لكل المجتمعـات والبيئات ، وليست مطـالب الانسان محصـورة فى اطار الغايات المادية والمكاسب الثورية ٠ فالحياة الانسانية مليئة بالتجارب الحية وبالقيم الروحية ، وبألوان شتى من التطلعات والأحلام ٠

---

(١) انظر د٠ طه وادى ٠٠ ص ١٢٣ من كتابه (صورة المرأة فى الرواية المعاصرة) ٠ بتصرف والرواية العربية فى رحلة العذاب لغالى شكرى ص ١٦ ٠

(٢) انظر الاتجاه الواقعى فى الرواية العربية الحديثة فى مصر ٠ د٠ حلمى بدير ص ٥٧ وما بعدها وصورة المرأة فى الرواية المعاصرة د٠ طه وادى ٢٤ وما بعدها ٠

والقصة ـ فن تعبيرى جماهيرى يقدم للخاصة وللعامة على السواء ـ لابد أن تكون صادقة فى التعبير عن مشاعر الفرد واحتياجاته وأحاسيس الجماعة وآلامها وتطلعاتها فما هى (الا مرآة تعكس الحياة وليعمل القاص الذى يصور شخصيات عصره على أن يصورها تصويرا صادقا حتى تكون روايته مرآة اجتماعية ينعكس فيها التاريخ الاجتماعى ، وشخصيات العصر الذى كتبت فيه) (١) ٠

على أن هذا الفهم ليس وحده بطل الحلبة فى تفسير طبيعة القصة وتحديد مسارها الفنى فقد اختلفت النظريات وتعددت الآراء نظرا لتعدد المذاهب وتشعب الاتجاهات ٠

حيث اختلف النقاد فى تقديرهم للبناء الفنى للقصة على أساس من انتماءاتهم المذهبية ومواقفهم الفكرية ٠ وطبيعة تصورهم لنوع المعالجة ٠

فمن النقاد من يرى (أن الأثر الأدبى لا يسمى قصة الا اذا صور معالم الشخصية، والخصائص الخلقية فى الظروف الخارجية والحالات النفسية المختلفة ، والا اذا كان من الطول بحيث يتسع لذلك التصور فى كل الحالات الممكنة) (٢) ٠

ومنهم من يرى أن القصة الواقعية (ليست نقل الحياة كما هى فى فوضى واضطراب ، بل على القاص أن يروى الواقع فى ترتيب وتسلسل ونظام ، ولا يضره أن يقدم الحوادث أو يؤخر ، أو يطيل أو يهذب ، أو يحذف ، ما دامت نتيجة ذلك انتظام عقد الحوادث وتسلسلها المنطقى ، ان عمل القاص الواقعى هو أن يبرز الحوادث التى تقع أمام أعيننا كل يوم فى ثوب جذاب ، وأن يفسرها لنا ويوضحها حتى ليجعلنا نخال أننا نراها لأول مرة جديدة مزهوة) (٣) ٠

وهذا الواقع الذى تعرضه القصة ليس واقعا محدودا فى تصور خاص واتجاه معين وانما هو واقع شمولى يتناول الحياة فى جميع مساراتها وعلى كل مستوياتها فهى (تعرض صورة من واقع الحياة ، سواء كان هذا الواقع أحداثا مادية ، أو عواطف انسانية ، أو خلجات نفسية ، فهى أقرب الى الفكر ، ولذلك اعتمدت فى أسلوبها على النثر دون الشعر ، وتعتبر بحق مرحلة من مراحل هذا الفن تلى مرحلة الرواية التى سبقتها مرحلة الخرافة ، فالقصة تعبر عن حياة الناس وشعورهم ، وتصور انفعالاتهم ، تعبيرا وتصويرا صادقا فهى مرآة يرى الناس فيها أنفسهم كيف كانوا ، وكيف يجب أن يكونوا ٠

بيد أن الواقع الجاف لم يكن يستمر عليه قبول الناس ، فمالوا الى شىء من الخيال ، فاتجهت القصة استجابة لذلك الى مزج الواقع بالخيال ، وكانت لذلك الحركة

---

(١) همزات الشياطين ـ عبد الحميد جودة السحار ص ٢٠٩ من التذييل الملحق بالمجموعة ٠
(٢) ابراهيم عبد القادر المازنى د٠ نمات فؤات ص ٢١١ ٠
(٣) همزات الشياطين ٠ عبد الحميد جودة السحار ص ٢٢٦ وما بعدها ٠

الابداعيـــة أو (الرومانتيكية) التى ظهرت تحقيقيـا لنزوع الانســان الى الواقع والخيــال ٠

وتمتاز باتجاهها الى احياء ذكريات الماضى ، واطلاق الخيال فى هذه الذكريات كما تمتاز بأن أحداثها محتملة الوقوع أكثر مما فى الرواية الخيالية) (١) ٠

واذا كان من مجالات القصة كما نفهم النص الســابق التعبـير عن العواطف الانسانية ، والخلجات النفسية كما هو مذهب الوجدانيين الذين ينطلق أدبهم معتمدا على (النفاذ الى صميم الوجدان وتحليل مشاعر الفرد وأحاسيسه فى مواجهة المواقف والأحداث التى تشكل نسيج حياته ، وهى بهذا تنصرف الى الاهتمام بالشعور الفردى دون الشعور الجماعى ، والى تصوير الفرد فى همومه وعلاقاته الخاصه ، لا الى تصوير المجتمع أو احدى طبقاته ، وقد طحنتها أزمة من الأزمات) (٢) ٠

فان أصحاب النظرة الماركسية لا يعجبهم هذا الأدب ، وانما يرون فيه ضيقا وسلبية وانعزالا عن واقع الحركة التى يموج بها المجتمع لأن نقطة الانطلاق فى أدبهم تنبع من النظرة الماركسية للأدب ووظيفته فى المجتمع ، تلك النظرة ترى (ضرورة تعبيره عن تفاعلاته المستمرة ، وصراعاته الداخلية وفقا لمبدأ الماركسية فى حتميـة التطور التاريخى) (٣) ٠

فهم يربطون الأدب بالصراع المادى لأنهم يرون (أن حياة المجتمع ما هى الا انعكاس للمادة وللصراع الطبقى القائم حولها (٤) فالمجالات الفنيـــة التى صـــدرت عنهـا الاتجاهات المختلفة أكثر من أن يستوعبها الحصر ، وقد رأيناها تختلف باختلاف نظرة النقاد الى الواقع وللمجال الذى يجب أن تتوجه اليه القصة ٠ وهى مجالات فسيحة تمكنها من استيعاب الماضى والحاضر ، والفردى والجماعى والحقيقى ، والخيالى وهى الى جانب هذا الاتساع المجالى تتلون فى تصميمها بلون المذهب الذى ينتمى الكاتب اليه ، والطريقة التى يراها جديرة باستيعاب تصوراته الخاصة لما يعرض من قضايا وأحداث وما يتناول من مشاكل واهتمامات ٠٠

وعلى الرغم من هذا التنوع فى الرؤى والأفكار حول القصـــة واختلاف طريقة التناول ومجالات العرض ، الا أن لها تصميما خاصا ، لابد وأن يشتمل على المقومات الأساسية للبناء الفنى ، الذى يجب أن تنهض عليه فى صياغتها ، وفى هذه المقومات من السعة ما يجعل القصة صالحة لاستيعاب أى فكر وتتوقف براعة الكاتب على بلورته لما يقدم من أفكار فى صياغة فنية ملائمة ٠

فالمقومات الفنية للقصة تتمثل فى البيئة ، والحدث ، والشخصيات ، والحبكة ،

---

(١) فى الأدب العربى المعاصر ٠ د٠ ابراهيم عوضين ص ١٤٩ ٠

(٢) اتجاهات الرواية المصرية ٠ د٠ شفيع السيد ص ٦٦ ٠

(٣) المصدر السابق والصفحة ٠

(٤) اتجاهات وآراء فى النقد الحديث ٠ د٠ محمد نايل ص ١٨ ٠

والأسلوب (١) وهي في مجموعها تؤدي الى تأليف قصة مترابطة متداخلة مكتملة البناء والصياغة اذا توفر لها الكاتب الموهوب الذي يستطيع تجميع الصورة من كل العناصر السـابقة ٠

وعلى الرغم من ضرورة توفر هذه المقومات جميعها بدرجة أو بأخرى في العمل القصصي الذي يتسم بالطول والدقة التفصيلية الا أن بعض هذه العناصر قد يستقطب جهد الكاتب ويحظى باهتمامه ، تبعا لأسلوب المعالجة القصصية الذي ينتهجه الكاتب ٠ ويرجع ذلك الى تفاوت الأذواق النقدية ، والتطور المذهل في أشكال القصة الحديثة ، والأساليب التي لم تتوقف الى الآن في استحداث ألوان جديدة من التعبير القصصي ٠

فاذا كانت البيئة تحظى باهتمام الواقعيين (٢) ، حيث يولونها أهمية خاصة تفوق غيرها من المقومات الأخرى للقصة فان الحدث قد يكون هو مجال الاهتمام في أنواع من القصص تعتمد على الاثارة والمفاجأة والتشويق كقصص المغامرات ٠

فهذا النـوع ٠٠ من القصص (يعتمد على الحـادثة أو الحـوادث وفيه تكون الشخصيات ثانوية لأن الحادثة الضخمة هي عمودها الفقري) (٣) ٠

وهناك نوع آخر يعتمد على الأشخاص وما ينجم عنهم من أفعال ، وأنهم وأفعالهم وما يدور في خواطرهم وصدورهم كل أولئك هو محور الرواية الرئيسي ، ولا يفهم من هذا أن رواية الشخصيات لا تحتوي على حادثة ، فهي أحيانا تحتوي على حوادث عديدة ، ولكن الغالب فيها أن تكون الحادثة محدودة ، لأن القاص يوجه كل التفاته الى الشخصية أو الشخصيات التي يحاول أن يبرزها حية ناطقة) (٤) ٠

وهذا وغيره يؤكد أن المقومات الفنية للقصة تستطيع أن تستوعب أي فكر ، وأن تعالج أي موقف ، وذلك نظرا للحريات الواسعة التي تمنحها للأديب حتى يبدع ما شاء له الابداع دون أن يعترض طريقه معترض ، أو يوقف من سيل أفكاره قيد ، وله الحرية المطلقة في التعبير عن آرائه وأفكاره وفق أي منهج ، وعلى ضوء أي مذهب (طالما أحسن العرض والتصوير وأبرز القصة في وحدة عضوية مترابطة تتماسك أحداثها في تدرج طبيعي ينمو بها حتى تصل الى العقـدة ثم الحل من غير تكلف ولا استكراه ، يصدمان وجدان القارىء ، ويشعرانه بالاصطناع والزيف) (٥) فالناقد الموضوعي المجرد من التأثر بواحد من الاتجاهات المختلفة أو الانحياز اليها هو الذي لا ينظر الى العمل الفني بمقياس عمل آخر ، ولكن هو الذي ينظر في العمل الأدبي بتقديره احدى وسائل البيان ، ليرى مقصده في موطنه وكيفية وصوله الى هذا المقصد،

(١) في الأدب العربي المعاصر ٠ د٠ ابراهيم عوضين ص ١٥١ ٠
(٢) المصدر السابق ص ١٥١ ٠
(٣) همزات الشياطين للسحار ص ٢١٣ ٠
(٤) المصدر السابق ص ٢١٤ ٠
(٥) اتجاهات وآراء في النقد الحديث د٠ محمد نايل ص ١٤٦ ٠

ثم يحاول أن يتعرف على المقومات والأسس التى أقيم عليها بناء هذا العمل الفنى ، فحقق مقصده ، غير ملق بالا الى ما بين هذا العمل والأعمال الأخرى من تقارب أو تباعد (١) ٠

وهذه الحرية الواسعة فى العمل الفنى للقصة تنتهى كلها الى قدرة الكاتب ، والى خبرته وثقافته ووعيه الاجتماعى والفكرى ، فهو الذى يحسن استغلال هذه الحرية على أوسع نطاق ، اذ يلتقط من تجارب الحياة ، أو يبتكر من صورها نماذج حية تبعث القيم العليا وتحل المشاكل المعقدة ، وتقوم الأوضاع المنحرفة وتنقل الانسان الى حياة أفضل ، وتلك هى القيمة الحقيقية لكل عمل أدبى (٢) ٠

وذلك هو مجال الأدب الاسلامى ، الذى سار فيه ومنهجه الذى يعتمد عليه فى الارتفاع بالحياة ودفع الطـاقات الانسانية الى الخـير ، والى كل ما يحقق الأمن والسعادة والكرامة للانسان ٠

فكيف تتسع القصة لمعالجة كل خاطرة وشاردة فى الحياة وتضيق عن استيعاب الفكر الاسلامى وتاريخه وحياة أبطاله ؟

وكيف تتسع القصة لكل الرؤى والتصورات المادية واللا أخلاقية وتضيق أمام الرؤية الاسلامية ؟ وهى أكثر تفتحا ووعيا ومرونة ووفاء بحاجات الانسان فى كل عصر وجيل !

ان كل محاولة للوقوف فى وجه هذه الرؤية وتعويق حركتها مهما اتسمت بروح الفن وتشدقت بمصطلحاته ٠ ما هى الا حلقة جديدة من حلقات الغزو الفكرى بما يحمل من أحقاد على الاسلام وأهله ، وان دعوى الفنية والانتصار للفن ليست الا ستارا يتخفى وراءه سدنة المادية وهم يحاربون الاسلام ٠

وقد ثبت بطلان هذه الدعوى بما لا يدع مجالا للشك أو الانكار فى القصص ذات الاتجاه الاسلامى التى أشارت اليها الدراسة فيما سبق ، وتأكد هذا البطلان فى الملامح الاسلامية التى تناولتها الدراسة بالكشف والبيان ، من خلال أعمال عبد الحميد جودة السحار ٠

فقد قدم ألوانا من القصص تختلف فى طبيعة تشكيلها بين تاريخية واجتماعية ، وبين القصة القصيرة وقصص الأطفال ٠

وصدر فى كل ذلك عن وعى تام بخصائص الفن القصصى ومقوماته من هذا المنطلق الموضوعى دون أن يتحول العمل الأدبى على يديه الى خطبة وعظية تقريرية ، لا تمت الى عالم الفن بصلة ٠

---

(١) البيان القصصى فى القرآن الكريم د٠ ابراهيم عوضين ص ٤ ، ٥ ٠
(٢) اتجاهات وآراء فى النقد الحديث د٠ محمد نايل ص ١٥١ ٠

ففي مجال القصة التاريخية رأيناه قد استعان بكل الوسائل الفنية المقررة في تقريب ذلك الماضي البعيد الى الجمهور خاليا من الجفاف التاريخي على اعتبار أن القصة الفنية غير التاريخ المجرد · وأن المادة التاريخية اذا كانت واحدة ، الا أنها تختلف في تناول المؤرخ عن تناول الأديب فاذا كانت وظيفة المؤرخ تقتصر على رصد الحقائق وتجليتها والتثبت من صدقها أو كذبها · فان وظيفة الأديب أن يستحضر الشخصية التاريخية أو الحدث التاريخي في وجدانه وينفعل به ، ويستمطر من التصورات الخيالية ما يهيىء الجو أمامه لاعادة تشكيل الماضي واحيائه من جديد ، فتبرز الأحداث أو الشخصيات من خلال معالجته حية وكأنهاتعيش واقعها من جديد ، بكل ما كان يحيط به من صراعات وأحداث ، وما كان يموج في داخله من قضايا ومشاكل ·

وكذلك فعل السحار فقد بلور من خلال قصصه التاريخي البيئة ومكوناتها ، وقدم لنا الشخصية في جوها التاريخي مبرزا ملامحها النفسية والعضوية ، ومدى تفاعلها مع البيئة ، والعادات الاجتماعية التي أثرت فيها وتأثرت بها ، وطريقة التفكير التي خضعت لها في سياق متكامل تتآزر فيه جميع العناصر وتتآلف لتحقق الاثارة المطلوبة والتشويق الجاذب ·

ولما كانت الموضوعات التي استقطبت جهده تتصل بتاريخ الدعوة الاسلامية وحياة أبطالها ، فقد اتسعت أعماله الفنية المتعددة لاستيعاب حركة الفكر الاسلامي وسياسته الراشدة ، ومنهجه المنزل لاسعاد الناس والارتفاع بهم الى الآفاق الروحية الرحبة ، دون أن يحول الشكل الفني بينه وبين التعبير عما يريد ·

وفي مجال القصص الاجتماعي كان السحار أحد الرواد الذين تأصل على يديهم فن القصة بصورته المستحدثة بعد أن مر بمراحل تطورية اختلفت من مرحلة الى مرحلة من حيث جودتها الفنية ومدى ملاءمتها للقيم النقدية الحديثة · حتى وصلت ـ بفضل جهود السحار وجماعته الى درجة عالية من النضج ، كانت منطلقا لكل من جاء بعدهم (١) ·

وكان عبد الحميد جودة السحار في هذا المجال الاجتماعي أكثر حيوية واتساعا من غيره ، من حيث تنوع المعالجات ، ووفرة الاهتمامات فلم يعالج في قصصه جانبا من قضايا المجتمع العربي المعاصر في دائرة محدودة ، بل انه استطاع بعينه الراصدة وفكره الثاقب أن يقدم تصورا شاملا عن العصر ، وحياة الناس فيه ، والأزمات التي واجهتهم ، والقضايا التي شغلت تفكيرهم في جميع المجالات ·

فجاءت (في قافلة الزمان) و (الشارع الجديد) ، (الحصاد) حافلة بنبض الحركة المعاصرة للحياة المصرية ، وما ملأ ساحتها من مواجهات حضارية تمثلت في

---

(١) انظر : صور وذكريات · للسحار ص ١١٤ المقدمة لتي قدم بها الاستاذ / محمد جبريل الصور المنشورة في هذا الكتاب ·

الاقطاع ، والفساد السياسي والسلوك الاجتماعي المتغير ، وموقف الانسان العربي من كل ذلك ايجابا أو سلبا ٠

كما قدم من خلال أعماله الاجتماعية الأخرى صورا حية عن معاناة الفرد وأزماته النفسية ، وصراعاته الداخلية بين نوازع الخير فيه ، وبواعث الشر المحتدمة من حوله دون أن يغب عن ذهنه في كل ما يقدم ، وعيه الاســلامي وثقافته الدينية ، وميوله المحافظة ٠ فجاءت رؤيته للواقع الاجتماعي نابعة من تصور اسلامي رشيد ، يعلي من قيم الحق والعدل والفضيلة ، وينافح الشر والفساد والرزيلة ٠ ويؤكد على ضرورة الايمان بالله في مواجهة الالحاد والطغيان المادي ، منطلقا في كل ذلك من نظريته الخاصة في تفسير التاريخ على أساس ديني ، حيث يربط ازدهار الحياة بالالتزام بالدين ، ويؤكد انحدارها وضعفها في البعد عنه ، وكان موقفه في كل ما قدم من ألوان القصص يؤكد ولاءه للاسلام وايمانه بقيمه وتعاليمه ، وقد رأينا ذلك واضحا وتعرفنا عليه في مكانه من الدراسة ٠ وفيه تتأكد حقيقة أن الرؤية الاسلامية لا تعوق الشكل الفني ولا تحد من حرية الأديب وقدرته على الابداع ٠ بل هي تثري هذه الجوانب في العمل الفني وتجعله أكثر رحابة واتساعا ٠

غير أن طائفة من نقادنا المحدثين ، ممن تأثروا بالاتجاهات النقدية الأوربية ، قد أخرجوا السحار من دائرة الفن الأصيل ، وأبعدوه عن ساحة الابداع فيه ، لأنه يصدر في تشكيله الفني عن قيم ومفاهيم لم تعد صالحة لعصر التطور الذي يعيشونه، فضلا عن وقوفها حائلا دون الابداع ، وعائقا في طريق الفن ٠

وتأثر هؤلاء بالغرب ليس معيبا في حد ذاته خصوصا اذا كان تأثرا واعيا يقتصر على الثقافة الفنية ، ومقومات الشكل الأدبي ، فذلك مطلب الوعي الناهض ، ومتجه الأمم الواعية عندما ترقب حركة الفكر العالمي ، وطرق الابداع فيه فتحاول اللحاق به عن طريق التأسي والمحاكاة في كل مالم تتوفر آدابها عليه ، ولا يتناقض مع سيرتها البيئية ، ولكن هذا التأثر اذا كان استسلاما لآراء الآخرين وتقليدا أعمى وما لا يناسب في الشكل أو المضمون أو المحتوى الفكري فذلك مالا تحمد عقباه ولا يؤمن جانبه ، لأن الوافد في معظم الأحيان يمثل بيئته الخاصة ، وما تموج به من قيم وعادات وتقاليد ومعتقدات لا تمت الى واقع الانسان العربي بصلة ، ولا تتلاءم في قليل ولا في كثير مع تقاليده الحضارية وقيمه الراسخة ، ومحاولة محاكاة الأمم الأخرى في العقائد والسلوك ، واقتلاع الانسان العربي من بيئته ، وتجاهل موروثاته الحضارية ، والزج به في متاهات الغرب وصراعاته ، مجافاة للواقع ، وتزييفا للصورة الانسانية في بيئتها ٠ وهذا مما لا تقره أبسط قواعد الفن القصصي ، التي يتشدق بها المزيفون ، والتي ينكرون أعمال السحار ومن سار على دربه ، على أساسها ٠

فهم يحتكمون في تقديرهم للأعمال القصصية الى الواقع ومدى صدق الأديب في تمثله واستيعابه ، وأنه مهما أوغل في تصوراته وخيالاته الا أن الواقع المعبر عنه لابد أن تبدو ظلاله حية نابضة من خلال ما يقدم ، والواقع العربي يختلف في كل

مساراته واتجاهاته وفى أصالة قيمه وموروثاته عن الواقع الغربى وتمزقاته والقيم التى تحكم حياته فى السلوك والاعتقاد ، فكيف يتأتى للناقد الموضـوعى أن يحكم على الواقع العربى بمعايير غربية غريبة عنه ٠٠ ؟ ٠

وقد كان هذا الاتجاه النقدى المتعسف ، يتمثل فى موقف نقاد الواقعية الاشتراكية من أعمال السحار وتقييمهم لها ، انطلاقا من رؤيتهم الخاصة للادب وأهدافه التعبيرية التى ترى (ضرورة تعبيره عن تفــاعلات المجتمع وصراعاته الداخلية ، وفقا لمبـدأ الماركسية فى حتمية التطور التاريخى) (١) فهم يربطون الأدب بالصراع المادى لأنهم يرون أن حياة المجتمع ما هى الا انعكاس للمادة وللصراع الطبقى القائم حولها (٢) ولهذا فقد أبعدوا نتاج السحار عن دائرة الفن الصحيح لأنه صدر فيه عن اهتمـام بالفرد ونوازعه وصراعاته النفسـية ، ومشاكله الخاصـة ، وتعمق دوافع سـلوكه الشخصى ، ومواقفه من الكون والحياة ، ولم ينصرف اهتمامه الى طبقة من طبقـات المجتمع على نحو يبرز عناصر الصراع بينها وبين غيرها من الطبقات ، وبالاضافة الى ذلك ابرازه للقيم الاسلامية من خلال ما يعرض من الشخصيات والأحداث واغفاله للقيم الجديدة التى تمثل وعى العصر وتطلعاته الجديدة ٠

وقد رأى بعض النقاد أن هذا الموقف النقـدى من الماركسيين يتسم بكثير من التعسف والبعد عن الموضوعية (لأنه يعنى الزام الكاتب بالتعبير عن لون معين ، من ألوان التجربة الانسانية بغض النظر عن عمق انفعاله وصدق احساسه بهذا اللون ، مع أن عمق الانفعـــال وصــــدق الاحساس ركيزتان أساسيتان من ركائز العمـل الأدبى (٣) ٠

بل ان تصوير الذات ، وتحليل مشاعر الفرد يمسان فى الواقع ذات الانسان ومشاعره من حيث هو انسان ، وتلك غاية يصبو اليها الفن الأصيل فى كل زمان ومكان (٤) ٠

وهم أيضا فى موقفهم من رؤية السحار الاسلامية ، وانتصاره للخير فى كل ما يصور من أعمال (يتعصبون للمفاهيم النقدية الغربية المنبثقة عن آداب مغـايرة لأدبنا ، ومزاج يختلف عن مزاجنا ، ومثل هؤلاء النقاد يصرحون علنا بأنهم لا يصفقون للخير ويذرفون الدموع لهزيمة الشر ، لأنه فى زعمهم ، لا فضائل ولا رذائل فى الانســان ، والقيم السامية البديلة فى مذهبهم قيم مغلقة لا وجود لها فى عالمنا ، والقوانين والشرائع والديانات والمثاليات اخترعها أناس مثلنا ، والانسان مادة ، مادة فقط ، ومن ثم فهو فان فنـاء مادته ، واذن فلننتهب اللذات فى حياتنا هذه التى

---

(١) اتجاهات الرواية المصرية د٠ شفيع السيد ص ٦٦ ٠

(٢) اتجاهات وآراء فى النقد الحديث د٠ محمد نايل ص ١٨ ٠

(٣) اتجاهات القصة المصرية د٠ شفيع السيد ص ١٨ ٠

(٤) المصدر السابق والصفحة ٠

لا حياة غيرها ، وهم يتسترون وراء الكلمات البراقة للترويج عمليا لمذهبهم هـذا بأحدث وسائل الانتشار (١) ٠

ومن أبرز نقاد هذا الاتجاه وأشدهم ضراوة « غالى شكرى » فقد تناول بعضا من أعمال السحار بالنقد من خلال منظوره المتطرف ٠ وراح يتهمه بالقصور والضعف وانعدام الوعي الى غير ذلك من النعوت التى توفر عليها فى كتابيه (أزمة الجنس فى القصة العربية) و (الرواية العربية فى رحلة العذاب) مرجعا سبب القصور والضعف الى طبيعة الموقف الدينى للسحار ورؤيته الاسلامية مؤكدا أن أعمال السحار لا يستطيع الناقد تحليلها الا اذا وضع نصب عينيه أثر تكوينه الدينى وثقافته الاسلامية واعتمد على ذلك فى (استكشاف طبيعة رؤيته الفكرية وانعكاسها على أعماله الفنية) (٢) وقد كان هذا الموقف من السحار سببا فى عدم اعجاب الناقد به ، وفى عده ضمن فريق من الأدباء فزع من التطور والتقدم فراح (يستشعر خوفا كبيرا على جعبة القيم القديمة من المثاليات والأديان والسماويات ويحس خطورة عظمى على هذه كلها من قبل التطور الجارى فى النظام الاقتصادى والاجتماعى والأخلاقى أيضا ، وهم ينظرون الى تلك المفاهيم باعتبار أنها مبادىء خالدة خارج الزمان والمكان ، ولا تخضع للتطورات المادية فى حياة البشر ، وهم يكرسون أنفسهم للحفاظ عليها دون أن يتبينوا تفاصيل هذا التطور ، وكيفية شموله الأخلاقى ، والقيم الروحية بطريقة حتمية) (٣) ٠

فالناقد هنا لا يعبأ بالقيم ولا بالأخلاق ، ولا يرى فى معالجة السـحار وغيره لقضايا المجتمع والناس ، من خلال منظوره الأخلاقى الا محاولة للحفاظ على قيم قديمة لم تعد صالحة لعصر التطور ، ويسخر الناقد من هذه القيم ومن الاعتقاد فى أنها خالدة لا تتغير ولا تتبدل بتطور الحياة ، لأن التطور فى رأيه شمل الجوانب الأخلاقية ، والقيم الروحية بطريقة حتمية ٠

وعلى نفس الوتر صـدر الدكتور طه وادى فى نقـده للسحار حيث يرى أن الكتابات الدينية التى أصـدرها تبرز (اهتماماته الفكرية وتبين موقفه من التطور الاجتماعى من ناحية ، ومن ناحية أخرى تحدد الرؤية التى يصدر عنها فى كتاباته الأدبية ، ويصبح نتيجة ذلك أنه لا يناقش موضـوعاته الأدبية الا من خلال الاطار الدينى ، فتكون القيم عنده أبيض وأسود ، خيرا أو شرا ، ولا مجال لتداخل الألوان أو الخطوط عنده ، ومن هنا تصبح النفس البشرية عامة والمرأة بصفة خاصة ذات طبيعة جامدة ، وترتب على ذلك أن قضية الحب عنده تناقش فى رواياته على ضوء الحلال والحرام ، ومن ثم تصبح المرأة ملاكا أو شيطانا ، وتصبح الصورة خاضعة لكل الموروثات السلفية ، وان خالفت منطق التطور والعقل ، ومن هنا يصبح السفور مدعاة للسقوط ، والتعليم مؤديا للخيبة والخسران ٠

---

(١) مجلة الثقافة عدد ٨٩ لسنة ١٩٨٠ من مقال للاستاذ / السيد أبو ضيف المدنى ٠ عن السحار ٠

(٢) أزمة الجنس فى القصة العربية ٠ غالى شكرى ص ٢١٧ ٠

(٣) المصدر السابق ص ٢١٦ ٠

ولعل هذا ما جعل مصطفى بطل أولى رواياته يفضل تحية ست البيت على فتاة الليسيه لا لشيء الا لأن الأولى ستستكين لغدر الزمان بينما الثانية ستدلى برأيها فيما تعرف وفيما لا تعرف ٠

وهذه الرؤية السلفية للسحار تمثل موقفا فكريا ازاء قضايا التطور لدى بعض المفكرين والأدباء ، الذين يتخوفون من التطور الاجتماعي خاصة في مجال القيم والسلوك ، ويعتبرون كل جديد فيه بدعة تؤدى الى ضلال ، ومن خلال هذا المنطلق الفكرى يجب أن تعالج قضية الفن عند السحار) (١) ٠

وواضح أن هذا الموقف النقدى من السحار يمثل وجهة نظر خاصة ترفض القيم والأخلاق ، وتتهم كل ما هو اسلامى بالجمود ، وترى أن معالجة الواقع فى قصة فنية يجب أن تكون بعيدة عن الموروثات الدينية ، فلا خير ولا شر ، ولاحلال ولا حرام، وأن أية معالجة فنية تعتمد على ذلك فهى قاصرة وجامدة لأنها تحتكم الى الماضى فى رؤيتها للحاضر وقيمه الجديدة المتطورة ٠ من ذلك مثلا أنهم رأوا فى خروج المرأة وسفورها ، وانطلاقها فى مخاصرة الرجال ومعاقرة الخمر واشباع الرغبة الجنسية تقدما وتطورا حدث بفعل الصراع المادى وهو حتمية تاريخية ، ومرحلة لابد من وجودها بعيدا عن القيم المغلقة ، أو ما يسمى بحياة الروح والدين والأخلاق وأن الجنس يجب أن تترك للناس حرية اشباعه بالطريقة التى يرغبون فيها وفى الوقت الذى يريدون ، ولهذا عابوا على السحار معالجته لقضية المرأة والجنس من خلال ما يؤمن به من قيم بالية تتناقض مع التطور الاجتماعى الذى حدث فى المجتمع ، والذى يجب أن يسود يقول غالى شكرى : ان بديعة (٢) ــ فى معالجة السحار ــ سقطت بين ذراعى صلاح لأنه كان لابد لها أن تسقط ، ما دامت قد أسفرت عن وجهها ، وأصحبت تمشى وحدها فى الطريق عارية الساقين والصدر وأصبحت تعمل عمل الرجال ، وهكذا ينقلب معيار التطور الاجتماعى فيصبح التقدم دعارة خلقية (٣) ٠

فالتطور الذى يتحدث عنه الناقد يتمثل فى صور التحلل الأخلاقى والاجتماعى التى وصلت اليها المرأة بفضل سفورها ، ويرى أن معالجة السحار لها مبتورة لأنها تدين هذا التطور وترى فيه دعارة خلقية يأباها الدين ، ويستدل بذلك على عدم فهمه للواقع المعاصر وما حدث فيه من تطور ، ومما يؤكد فهم هذا الناقد ومن نحا نحوه للتطور على أنه انحلال وتبرج ما علق به على الموقف المتناقض لشخصية (سليم باشا) أحد أبطال قصة الحصاد للسحار ٠

فقد كان (سليم باشا) هذا كما تعرفنا عليه فى الفصل الخاص بالقصة الاجتماعية ــ شخصية ذات اتجاهين فى وقت واحد فهو فى الظاهر متدين محافظ يتشدق بالأخلاق ، ويحفظ من القرآن الكريم ، ويتصدق على الفقراء والمحرومين ،

---

(١) صورة المرأة فى الرواية المعاصرة ٠ د٠ طه وادى ص ١٤١ ٠

(٢) بطلة اقصوصة « وسوسة الشيطان » ٠

(٣) أزمة الجنس فى القصة العربية ٠ غالى شكرى ص ٢١٩ ٠

ويحج بيت الله الحرام ، ولكنه في الخفاء شخصية ماجنة عابثة لا ترى بأسا في قضاء ليلة أو ليلتين في أحضان غانية بالاسكندرية ، حيث كانت الست أنهار وكانت جمعية الفتيات الصالحات ، والتي كان يذهب اليها كلما شعر بحاجة الى اشباع رغبته في اللهو والعبث · وقد صوره السحار على هذه الصورة المتناقضة كشخصية انفصالية نمطية تمثل ازدواجية السلوك البشري ، وضعف الوازع الديني ، وعدم مطابقة الواقع العملي لما تؤمن به وتدين له ·

ولكن الناقد قد يكشف لنا عن سر هذا التناقض بقوله :

«انني عثرت على تبريرها في التناقض بين القيم الأخلاقية المجلوبة من الخارج ، والتي يتسربل بها هذا الاقطاعي ، وبين القيم الحقيقية النابعة من كيانه الاجتماعي ، ان المسبحة التي لا يتركها من بين أصابعه أبدا تعبر عن هذه القيم التي انبثقت يوما عن واقع اجتماعي معين ، ولكنها أمست للزينة وذر الغبار في العيون ، عندما تولد عن الواقع الاجتماعي السابق ، واقع اجتماعي جديد لا يتلاءم معه قيم وأخلاقيات الواقع القديم والاصرار على تلك القيم هو سر التناقض الذي انزلق اليه الباشا (١) فالمنزلق الذي انحدر اليه الباشا في غوايته يمثل عند الناقد قيم المجتمع الجديد التي يدعو اليها ، لأنها نابعة من الكيان الاجتماعي المتطور · أما القيم الدينية التي يتسربل بها الباشا فهي مجلوبة من الخارج تولدت عن واقع اجتماعي قديم ولم تعد صالحة للناس في واقعهم الجديد والحرص على التمسك بها هو الذي أوقع الباشا في التناقض وبلورة السحار لها انما تمثل (رد الفعل العنيف لتطورنا الحضاري من جانب القيم القديمة ، كما أنه يمثل رد فعل طبيعي لأكوام الأدران الصفراء ، التي نمثل بعقولنا أفظع تمثيل باسم الجنس) (٢) ·

حقيقة ان السحار تناول الموقف المتناقض في شخصية الباشا بالمعالجة ، ولكن دون أن يضع في حسابه ابراز هذا التفسير الملتوي للتناقض ، وأنه كان بسبب الصراع بين القيم القديمة والاصرار عليها وبين القيم الجديدة التي يدعي الناقد أنها حقيقية ونابعة من الكيان الاجتماعي ، وانما أراد ابراز ملمح من ملامح الانحراف في الشخصية ، وعدم استجابتها وامتثالها لما تؤمن به من قيم صالحة لتحقيق الأمن النفسي والسعادة الروحية ، وأن الباشا عندما انزلق الى الحضيض في أحضان اللذة ، وترك وراء ظهره قيم الدين الصحيح ، كانت نهايته أليمة ، فقد فقد أرضه وشرفه وأمنه ، ولم يكن هذا الموقف نابعا من تصور جزئي اقتصر عليه جهد الأديب في عمله وانما كان نظرة عامة شاملة للمحيط الذي تنفست فيه الشخصيات على مستوى القصة كلها ، وفيها برزت مواقف الانحراف مرتبطة بفساد المسلك وسوء المصير ، في معالجة فنية واعية ، ترصد الواقع الاجتماعي الذي دارت فيه حركة الشخصيات بدقة وفهم ، وتعبر عن ظواهره الانحلالية وقيمه المريضة بصدق وأصالة ، هادفة من وراء ذلك الى

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣١ وانظر : الرواية العربية في رحلة العذاب له أيضا ص ١١٧ ·

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٧ ·

التأكيد على قيم الحق والخير والحلال ، وأن فى الالتزام بهما الأمن والسعادة ، وفى البعد عنها انحراف وزيغ وفساد وضياع ٠

انه الحصاد الذى عناه السحار عندما ختم الرواية بقوله على لسان الهام الشخصية الخيرة في القصة : من يزرع الزوابع يجنى الأعاصير (١) فلم تكن القيم القديمة سببا في التناقض ، وانما كان عدم الالتزام بها سببا فى الخيبة والخسران ٠ وهذا ما يؤكده السحار دائما فى كل أعماله ، انه ينتصر للخير ويفزع من الشر ، ولا يرى بأسا فى تصوير الانسان فى جميع حالاته ، على أساس أنه انسان (مشتمل على قدرات وطاقات ترفعه الى أعلى حين يعرفها ويحسن استخدامها ٠ ولكنه مشتمل كذلك على منافذ للضعف ومنافذ للغزو ، ينفذ منها الشيطان ، والمعركة دائرة على أشدها لا تفتر بين الانسان والشيطان منذ بدء الخليقة حتى يرث الله الأرض ومن عليها ٠ والانسان الأعلى يقضى حياته ـ رغم ضعفه البشرى ـ يحاول أن يسد فى نفسه منافذ الشيطان ، وهو انسان يقدر هذه المحاولة ، ويقدر ما يصطبر عليها أمام شتى المغريات ٠

وفى ميدان الصراع بين الانسان والشيطان يجد الفن الاسلامى آفاقا واسعة وجوانب رائعة ، وحقولا خصبة للابداع الفنى الأصيل والانسان يصور فى لحظة القوة ولحظة الضعف ، ولكن يهتف له دائما من جانب الصعود ، فجانب الهبوط موجود من نفسه لا يحتاج الى هتاف) (٢) ٠

وقد صدر السحار عن هذا الفهم وأكد ضرورة الالتزام به فى المعالجة الفنية ، بعيدا عن انحراف القصد وفساد النية ٠

فالانسان عنده (ليس ملاكا وليس شيطانا ، انه يجمع بين فضائل الملائكة ورذائل الشياطين ، وان كان الفن قديما يحاول ابراز الجانب الأبيض من الانسان ، فان بعض غلاة الفنانين المحدثين يحاولون تسجيل الجانب الأسود منه ، وتمريغه فى الوحل باسم الواقعية ٠ ان الطعام والكساء والجنس واقع ، وان كل نتاج البشرية فى تاريخها الطويل من آراء وأفكار وعادات ومعتقدات واقع كذلك ٠

صراع الجسد وغلبة النوازع الفطرية على المبادىء والمثل ، ضعف الانسان ورضوخه لنزواته ، حقيقة واقعة ، ولكنها ليست الحقيقة الوحيدة ، فلحظات الافاقة والندم ، والارتفاع فوق الواقع الهابط ، حقيقية أيضا ٠

اننا لا يمكن أن ننكر أثر الجنس فى تحريك البشر وسلوكهم ، ولا يمكن أن نلغى أثر الروح ، فعلى القاص الذى لا يحمل معاول الهدم أن يصور لحظات الهبوط ولحظات التسامى فى الانسان ، أن يسلط أضواءه على الجوانب السوداء والجوانب البيضاء على السواء) (٣) ٠

---

(١) الحصاد للسحار ص ٣٤٤ ٠

(٢) منهج الفن الاسلامى للاستاذ محمد قطب ص ١٢٢ ٠

(٣) القصة من خلال تجاربى الذاتية ٠ عبد الحميد السحار ص ١١٩ ٠

أما أن يعيش الكاتب مع الانسان في لحظة هبوطه فقط فيصورها على أنها هى الحقيقة الوحيدة التى تحكم سلوكه وتميز حركته ، أو يجرد الكاتب الانسان من كل قيمة فاضلة فيصوره غارقا فى ملذاته وصراعاته من أجل اشباع رغائبه وشهواته ، متجاهلا حقيقة وجوده الروحى ومطالبه السامية ، فذلك قصور ما بعده قصور ونظرة مبتورة الى واقع الانسان ، وعدم فهم لطبيعة تكوينه وتاريخه على الأرض ٠

فضلا عن أن ذلك لا يمثل حقيقة موجودة اذا نظرنا الى الانسان فى بيئته العربية ، فالصراع المادى رغم محاولته المستميتة ، وحصاره الدائم للحركة الانسانية فى البيئة العربية لم يستطع الى الآن انتزاع القيم التى تحكم حياة الناس وتوجه مسارهم ، فكيف يتأتى للكاتب أن يتجاهل ذلك فى كتاباته ، وقد أكد النقاد على ضرورة الالتزام بالصدق الموضوعى والفنى باعتبار أنهما يمثلان جوهر العملية الفنية ؟! ٠

فمحاولة تزييف الصورة وفق منظور خاص لا يحاكي الواقع في بعض جوانبه افساد للعمل الفنى وعدم فهم لطبيعة الأدب ووظيفته فى المجتمع ، وهى وظيفة تستمد وجودها الحيوى من الانسان نفسه باعتبار أن الأدب تعبير عنه وعن قيمه التى يؤمن بها ويصدر عنها ٠ ومن هنا كانت مهمته فى الحياة (لا تنفصل عن مهمه الدين ، لأنها تسير فى خط مواز لها فاذا كان الدين يسعى الى خلاص الانسان برفعه من المستوى الحيوانى ، فالأدب يجسد هذه المهمة من خلال الأعمال الأدبية الرفيعة) (١) كما نرى بعض الاتجاهات الأدبية ، وعلى هذا الرأى يرتبط الأدب بالدين ارتباطا كاملا من حيث مساعدته له فى انجاز مهمته فى الحياة ، ومحاولته الارتفاع بالانسان الى الآفاق العليا وحياة الروح ، ويحقق له الانسجام مع الكون والشعور بالأمن فى أحضانه ، وهذه وظيفة الأدب الهادف الذى يسعى الى خير الانسان فى الحياة باعتباره طاقة كبرى وخليفة الله فى أرضه ٠

وهناك اتجاهات أدبية كثيرة ترفض الدين وتعاديه ، وتتهم الأدب الذى يستوحى قيمه ومثله بالرجعية والجمود والتحجر ، وهى اتجاهات معظمها نبت فى بيئات مختلفة عن بيئتنا وفى ظروف مغايرة لظروف حياتنا ، ومع ذلك رأينا بعض نقادنا يعتبرون هذه الاتجاهات أسوة حسنة يسترشدون بها ويهتدون بهديها ٠ فى الحكم على الأعمال الأدبية ، وحتى تتضح ملامح الرؤية النقدية لابد من التعرف على بعض تلك الاتجاهات وموقفها من قضية الدين والأخلاق ٠ وصولا الى حكم موضوعى على طبيعة الرؤية الاسلامية فى تفردها وشمولها ، وقد تعرفنا على بعض ملامح الموقف الماركسى المادى ممثلا فى نقد غالى شكرى وطه وادى لبعض أعمال السحار ، واعتمادها فى نقدهما على طبيعة الموقف الدينى الذى التزم به ، واتهامهما له على أساسه ، وحتى تكتمل الصورة لابد من التعرف على المواقف النقدية الأخرى وطبيعة تكوينها ، ورؤيتها لوظيفة

(١) المذاهب الأدبية من الكلاسيكية الى العبثية د٠ نبيل راغب ص ٧٧ ٠

الأدب والفن وذلك للتأكيد على أن الرؤية الاسلامية أكثر الاتجاهات مرونة وملائمة لمعالجة قضايا الانسان ٠

فأصحاب مذهب الفن للفن يرفضون أن يكون الأدب وسيلة لغاية مهما كانت هذه الغاية دينا أو خلقا أو مذهبا اصلاحيا أو دعوة سياسية وحتى يفرغ الأدب من هذه التبعات جميعا توجهت همتهم الى الصورة الأدبية فجعلوها مقياس الفن الصحيح ، وأداروا ظهورهم للمضمون ، فلم يحظ عندهم بنفس الأهمية التى حظى بها الشكل الفنى لأنهم يرون (ان غاية الفنون هى الجمال وحده بما يثيره من نشوة وسعادة وامتاع ، وذلك انما يكون فى الصورة ، من براعة وفن وابداع ، فاذا حقق الفن هذه الغاية ، فلا عليه بعد ذلك أن يكون له مضمون يفيد الحياة أو لا يكون ، وكان هؤلاء فى تمسكهم بجمال الصورة واهمالهم أثر المضمون ، انما يخشون أن تنحرف هذه الفنون عن طريقها الجمالى الممتع بسبب المضمون ، وأن تصبح مطايا لذوى الأهواء والغايات ، وتنغمس فى تيار الصراع السياسى والنقدى فتفقد قيمتها وجمالها) (١) ٠

وهذا الموقف كما هو ظاهر يتسم بالانعزالية والسلبية فى مواجهة الحياة وقضاياها ، ولا يستطيع أن يضع للناس حلولا عملية لما يواجهون من مشكلات ، ولا أن يرسم لهم المثل الأعلى الذى تتطلع اليه الانسانية ، فى تشوقها الى الأمن والسعادة فى حياة راشدة ، وهو أيضا ينظر الى الأدب والفن وكأنهما ليسا من مظاهر النشاط البشرى ومن افرازات النفس الانسانية ، وما تنفعل به فى مواقفها من الكون والحياة ، وأن هذا الانسان الذى توفرت له وسائل الابداع يعيش فى جماعة وفى بيئة وفى عصر ، وله من مواريث العادات والتقاليد والعقائد ما يجعله امتدادا لماض يمثله ، وحاضر يعيش فيه بكل ظروفه وملابساته ، وغد يتطلع اليه بشوق الآمل فى الأمن والسكينة وأن لهذا الانسان غاية يسعى الى تحقيقها ، وهدفا منشودا يأمل فى الوصول اليه ٠

كما أن هذا المذهب فى انعزاليته وسلبيته يمنح الأديب حريةواسعة خالصة من أى قيد يكبح جماح نفسه ، ويرده الى الصواب ان تردى فى غفلته أو تمادى فى جموحه ٠

فالأديب عندهم يستطيع التعبير عن أى شىء كما يحلو له دون قيد من شرائع أو وازع من ضمير ، ما دام الفن عنده نوعا من التعبير (لا أزيد ولا أقل ، فلا عبرة بالموضوع فى ذاته وانما العبرة بمقتضيات التعبير ، فالفنان لا حجر عليه فى تصوير ما يشاء من المشاعر والأحاسيس ، اتفقت مع مواضعات الجماعة وأعراف الناس ، أم خرجت عليها ، لا يخضع لغير قانون التعبير) (٢) ٠

---

(١) اتجاهات وآراء فى النقد الحديث د٠ محمد نايل ص ١٦ وما بعدها ٠

(٢) تطور النقد والتفكير الأدبى الحديث فى مصر فى الربع الأول من القرن العشرين د٠ حلمى على مرزوق ص ٥٣١ ٠

وعلى الرغم من محاولة بعض النقاد التوجيه الى أن ما شاع من معاداة هـذا المذهب للدين والأخلاق غير صحيح ولا وارد فى أصل نشأته . الا أن ذلك لا يغير شيئا من طبيعة المذهب ، ورفضه أن يكون الأدب وسيلة وهدفا لشىء آخر فانه يتنصل بذلك من تبعة القوامة التى تتحملها الفنون فى ترشيد الوعي الانسانى ، والاعلاء من شأن الخير والحق والعدل فيه ، فالدكتور محمد مندور يرى أن المقولة الشائعة حول معاداة الفن للفن للدين والأخلاق خطأ فاحش لا أساس له من الصحة ولا يصدر عن فهم صادق للظروف التى نشأ المذهب فيها يقول :

(ومن الناس من يظن أن معنى الفن للفن هو الخروج على قواعد الأخلاق ، والضرب على غير هدى ، فيما يسمونه بالأدب المكشوف وهذا فهم خاطىء ، ومن الواجب أن نفهم مدلول هذا المذهب فهما تاريخيا ، حتى تتبين حدوده ، والحكمة التى دعت اليه) (١) .

فقد ظهر فى فرنسا كرد فعل للاتجاه الرومانتيكى الذى يعلى من قدر المشاعر الخاصة ، فرأى هؤلاء ضرورة أن يصبح الأدب غاية فى ذاته ، لا مجرد وسيلة للتعبير عن المشاعر الخاصة (٢) .

ومع هذا الدفاع عن المذهب ، لا يمكن اغفال الأثر الذى خلفه فى الأدب الحديث ، فقد ساهم فى انحراف الأدباء عن طريق الفضيلة والأخلاق ، بفضل الحرية التى توفرت لهم فى ظلاله ، وفتح المجال أمام الأصيل والزائف للدخول الى عالم الفن ، وأصبح ارضاء النزعة الفنية والقيم الجمالية ، تكئة يعتمد عليها العاطلون عن مواهب الابداع ، وأضحى المذهب تبريرا لكل تبذل مقصود ، وحجة يسوقها أنصاف الفنانين بين يدى الانحلال ، يريدون أن يضفوا عليها ثوبا عن المشروعية الزائفة (٣) .

تماما كما حدث من أصحاب النزعة المادية عندما راحوا يستمطرون من قيم الفن وحيا يعتمدون عليه فى رفضهم للقيم وللدين والأخلاق . من أجل ارضاء النزعة الفنية الموهومة . فقد رفضوا المعالجة الفنية فى القصة على أساس الخير والشر ، أو الحلال والحرام على اعتبار أن ذلك يمسخ التجربة البشرية ويسم الشخصية بالجمود والتحجر والسطحية ، أما أن تعالج القصة حياة الانسان مجردا من كل القيم وهو غارق فى صراعاته ونزواته فهذا هو الفن عندهم . وهذا التصور كما أشرنا اليه ينبع من تصور خاص ويهدف الى غرس قيم جديدة لا علاقة لها بالفن من قريب أو بعيد ، وانما تتمسح بالفن ، وتعتمد عليه فى الترويج لكل ما يهدم القيم النبيلة فى حياة الانسان .

---

(١) فى الأدب والنقد د. محمد مندور ص ٣٤ .

(٢) المصدر السابق والصفحة ، وانظر : الخلاصة فى مذاهب الأدب الغربى د. علـى جـواد الطاهر ص ٢٨ .

(٣) تطور النقد والتفكير الأدبى الحديث فى مصر فى الربع الأول من القرن العشرين د. حلمى على مرزوق ص ٥٣١ .

وأمام انعزالية دعاة الفن للفن ، أو أصحاب الأبراج العاجية كما يسمونهم ظهر اتجاه جديد يدعو الى ضرورة توظيف الأدب لخدمة الحيـاة وتمثل ذلك في مذهب (الفن للمجتمع) الذى يرى (أن الفن لابد أن يكون في خدمة الحياة والمجتمع ، يعبر عن مطالب الناس وآمالهم ، ويعيش في جوهم ومشاكلهم ، وبذلك يتحتم على الفن أولا وقبل كل شيء أن يكون ذا مضمون نافع يفيد الحياة شيئا ، يدعو الى مبدأ ، أو يوجه الى اصلاح ، أو يثور على ظلم ، أما الجمال فلا ينبغي الا أن يكون وسيلة لابراز هذا المضمون ، وللاغراء به ، واثارة المشاعر نحوه) (١) ٠

وقد تلتقي هذه الأهداف مجتمعة مع أهداف الأدب الاسلامي باعتباره أولا وقبل كل شيء أدب التزام نحو الانسانية ، يوجهها ويرشدها الى الطريق السوى حتى لا تنزلق في عتمات الحياة ، اذا صدق حدس الناقد ، وسلمت المقاصد ، وظل هذا المنهج هدف الساعين الى خلق أدب يخدم الجماعة الانسانية ٠

ولكن الطريق أمام دعاة الفن للمجتمع كان ملبدا بالغيـوم فتوزعت الأهداف السابقة بين مفكرى عصر القلق في أوروبا وبين دعاة الاشتراكية الماركسية ، فوظفوا المذهب الواقعي لخـدمة قضاياهم والتعبـير عن فلسفاتهم بطريقة صرفت الأدب عن وظيفته السامية في مقدمة الحياة وتوجيه الانسان ٠

فكانت الواقعية النقـدية التفريعة الأوربيـة الغـربية له ٠ وهي في أخص خصائصها كما قال بعض النقاد (ترى الحياة من خلال منظار أسود ، وترى أن الشر هو الأصل فيها ، وأن التشاؤم والخطر هما الأجدر ببني البشر لا المثالية والتفاؤل ، والنظرة النقدية للحياة لا تظهر الا الجانب المعتم . وهو الجانب الذى يظهر الشر والقبح والتشاؤم باعتبار أن السبب المباشر وراء الفقر والجهل وسائر الأمـراض الاجتماعية) (٢) ٠

وهذه النظرة السوداوية للواقع تتسم بكثير من القصور ، وتنبع من رؤية جزئية للواقع ، لا ترى الحياة الا شرا مطلقا لا خير فيها ، ولا ترصد من حركة الانسـان الا ما يبعث على السقم ويدعو الى التشاؤم ، متجاهلة في الانسان طاقته الخيرة وحياته السامية ، وتطلعاته الى المثل الأعلى بعيدا عن واقعه المعتم وحاضره الأليم ٠

أما الأدب الاسلامي ، فينطلق من رؤية شمولية للواقع وللانسان الذى يتحرك على ساحته ، وهو في التصور الاسلامي (عنصر ايجابي في هذا الوجود ، محسوب حسابه في تصميم الكون ، ومسخر له السموات والأرض من عند الله ، والحياة متأثرة بأفعاله سواء في الخير أو في الشر ، وارادة الله ماضية عن طريقه ، ومن خلال وجوده وتصرفاته ، وهو كذلك مخلوق ليس بالملاك ولا بالشيطان وانما هو انسان) (٣) ٠

(١) اتجاهات وآراء في النقد الحديث د٠ محمد نايل ص ١٨ ٠

(٢) الاتجاه الواقعي في الرواية العربة الحديثة في الرواية العربية الحديثة في مصر د٠ حلمي بدير ص ١٢ ٠

(٣) منهج الفن الاسلامي للاستاذ محمد قطب ص ١٢٢ ٠

ومن هذا التصور يجب ألا تعالج القصة حياة الانسان على الأرض من خلال نظرة جزئية مبتورة للواقع مهما كان مزدحما بالآلام ، وانما يجب أن تتناول حياة الانسان من جميع جوانبها ، وأن تبرز موقفه من حركة الكون من حوله (وأن تعرض الصورة كاملة ، بماديتها ومعنوياتها وقيمها الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والروحية ، مترابطة متداخلة ممتزجة ، كما هي في الواقع ، مؤثرة بعضها في بعض ، ومتأثرة كلها بعضهابيعض ، مع ابراز القيم الروحية والمعنوية ، لأن بروزها حقيقة كونية متصلة بصميم فطرة الكون المتجه بروحه الى الله ، السائر على هداه ، وحقيقة بشرية متصلة بصميم فطرة الانسان الذى لم يصبح انسانا مكرما الا بنفخة الروح العلوية فى قبضة الطين) (١) ٠

فمهمة الأدب الاسلامى اذن دفع حركة الحياة والارتفاع بها الى حيث أراد الله لها ، وليس الرضى بالواقع ، والاستسلام لنوازع اليأس وقوفا عند حالات التأزم والقلق ، بل مهمته أن يدفع الانسان الى عبور محنة ، والانتصار على نزعاته وهواجسه وأن يفجر فى نفسه طاقات العمل والابداع من أجل الوصول الى مستوى أفضل يليق به وبكرامته ٠

وقد تعرفنا قبل ذلك على بعض ملامح التفريعة الثانية لمذهب الفن للمجتمع والتى تمثلت فى الواقعية الاشتراكية ، التى شاعت فى أوروبا الشرقية ومنها تسللت الى آداب العالم وكيف أنها لا تقل عن الواقعية النقدية فى الانحراف عن القصد ونظرتها الجزئية للانسان فى اطار الحياة المادية فقط ٠ وتجريده من قيم الدين والأخلاق على أساس أنها قيم مغلقة قديمة لا تصلح لانسان العصر المتطور ٠

وهناك الواقعية الوجودية كما يسميها بعض النقاد (٢) وتمثل حلقة أخرى من حلقات المذاهب الأدبية المعادية للدين والأخلاق فقد أكد دارسو المذهب أن الفكر الوجودى (يدعو الى الثورة على المثل والأخلاق والتقاليد ، حيث زعم بعض الفلاسفة وعلى رأسهم « شوبنهور » و « نيتشه » أن الأخلاق ليست الا خرافات اخترعها الضعفاء ليتقوا بها سطوة الأقوياء فى معركة الحياة وقد ازدهر هذا المذهب عقب الحرب العالمية الأولى ، التى أدت الى انهيار الأخلاق الفردية وأدب السلوك الشخصى ، فطفت على العالم حينئذ موجات من التحلل والانحلال ، وجدت من الفرويدية مبررا علميا وفلسفيا لاتجاهاتها فى الأدب والفن ثم جاءت الحرب العالمية الثانية ، التى أحدثت فى الضمير الانسانى أزمة بالغة العمق فأخذ الناس ازاء ما صاحبها من غدر وعنف واستخفاف بالمثل والقيم يتشككون فى قيمة تراث الانسانية الروحى كله وبدأ هذا الشك يظهر بوضوح فى الأدب الوجودى ، والأدب الوجودى يتسم بالقلق ، والشعور بالضياع

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٨ ٠

(٢) انظر اتجاهات وآراء فى النقد الحديث د٠ محمد نايل ص ١٩ ٠

واليأس ، وليس فى هذا غرابة ، ما دام هذا الأدب قد عمد الى التحليل من القيم الأخلاقية والاجتماعية ، وضرب بها عرض الحائط (١) ٠

وقد عجز هذا الأدب باعتراف الناقد عن ايجاد حلول تعين أفراد المجتمع الأوروبى على قهـر نزواتهم والتغلب على شهواتهم وذلك لسبب بسيط هو خلوه من المثـل العليـا (٢) ٠

أما الأدب الاسلامى فهو أدب ملتزم يوجه الانسان الى الخير وينفره من الشر ، ويستمد أصول رؤيته من قيم أصيلة تنبع أساسا من الاسلام وترتكز على تعاليمه ٠

ومن خلال الرؤية الاسلامية يستطيع الأديب أن يعبر عن عواطفه وأحلامه وواقع حياته ، وعن حبه وبغضه ، وفرحه وحزنه واضعا نصب عينيه مثل الاسلام العليـا وقيمه الخالدة ٠ آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ، وليس معنى ذلك كما يقول بعض النقاد (أن يتحول العمل الفنى الى منبر للوعظ والارشاد ، فذلك لا مجال له فى الفن الذى يخاطب الوجدان ، وانمـا العمل الفنى يلتزم بالهمس ، الذى يضمن انحياز القارىء ـ مهما كان معتنقه ـ للقضية التى يعرضها ، ومن هذا المنطلق فكل عمل روائى قصد به الكاتب الوحدانية لله ، واقامة مجتمع العدل والحرية ، وادانة الشرك والفساد فى الأرض هو رواية اسلامية ، ينبغى الاحتفاء به ، والزود عنه ، حتى يتربع فى أفئدة القارىء المسلم وغير المسلم (٣) ٠

واستيعاب القصة لهذه المبادىء والقيم من خلال شكلها الحديث لا مجال للشك فيه بعد أن رأينا وضوح هذا الخط فى كثير من أعمال المعاصرين خصوصا السحار ، مما لا تصح معه تلك الدعاوى المطروحة التى ملأت الساحة الأدبية من أن الفن يعادى الأخلاق والدين ، وأنهما يسمان الأعمال الفنية بالجمود والتحجر ويعوقان حـركة الأديب عن التعبير ٠

فقد أكد المنصفون أنه (لا تضارب على الاطلاق بين الفن والأخلاق ، طالما كان الفن بالغا غايته ، وخلصت له فنيته من عوارض الضعف والزغل) (٤) ٠

وأن القاعدة الأخلاقية ليست على هذا الجمود المزعوم وانما تكمن وراءها آفاق من الشعور لا حصر لها فهى خلاصة موقف انسانى متشابك الأطراف ، أو هى أبعاد

---

(١) انظر مقدمة مسرحية « مصر فى السويد » للاستاذ / محمود حسن حلمى والمسرحية من الأدب الوجودى ـ تأليف فرانسواز ساجان ٠ ترجمة عايد الرباط ص ٤ ٠

(٢) المصدر السابق ص ٦ ٠

(٣) من حوار مع الاستاذ نجيب الكيلانى صدر فى كتيب بعنوان (حوار مع مجاهد مسلم) للاستاذ محمود حنفى كساب ص ٩ ٠

(٤) تطور النقد والتفكير الادبى الحديث فى مصر فى الربع الاول من القرن العشرين د٠ حلمى على مرزوق ص ٥٣٤ ٠

تجربة لا يمنع أن تكون تجربة فنية خالصة ، فالفنان ليست غايته ايصال التجارب كما يقال في العادة ، وانما هدفه البعيد أن يحمل الناس على الايمان بتجاربه ، وأن يلزمهم قيمه في العمل والتطبيق) (١) ·

والفنان لا يعيش وحده منعزلا عن عالمه ، وانما يعيش وسط مجموعة من البشر، لهم أحلامهم وآلامهم ، يحيا بهم ولهم ، وما دام هذا الرباط موجودا فان مسئولية الفنان من الوجهة الأخلاقية عظيمة الخطر ، جليلة الأثر ·

(وفي ظل هذه المسئولية الأخلاقية كان الدين أكبر مناصر للفن وحريته في حدود القيم الأخلاقية ، وفي حدود الاستمتاع القلبي والعقلي ، لا في حدود اللهو واللعب) (٢) ·

ومن هذا المنطلق ، وفي ظل هذا الفهم كانت ابداعات الأدباء ، الذين التزموا بالنهج الرشيد في كتاباتهم ، وصدروا عن وعي كامل بحقيقة الدور الذي يجب عليهم أن يقوموا به في سبيل خلق أدب اسلامي ، ينهض عملاقا في مواجهة الالحاد والقيم الوافدة ، التي لا تمثل حياتنا وحضارتنا وواقعنا وكان السحار أحد هؤلاء وأكثرهم انتماء للفكر الاسلامي ، وقد رأينا في أعماله ما يؤكد هذا الاتجاه ، وما يدعم قدرة الأدب الاسلامي في التعبير عن نفسه من خلال الأشكال الفنية الحديثة ·

---

(١) المصدر السابق ص ٥٢٩ وما بعدها ·

(٢) الفن والجماهير · عبد المنعم شميس ص ٩١ ·

الفصـــل الثـــانى

خصائص الفن القصصى عند السحار

يتوقف التعرف على الخصائص الفنية التى تميز أدب السحار ـ أحد كتاب القصة المعاصرين البارزين ـ على امكان تحديد الاتجاه الأدبى الذى آثره فى كتابته، والمنهج الذى التزمه فى صياغة أدبه وفقا لهذا الاتجاه أو ذاك، واللون الذى تفوق فيه من ألوان القصة وأشكالها المختلفة، وذلك لازدحام الساحة الأدبية بكثير من المذاهب والتيارات التى تأثرت بها الفنون فى نهضتها الحديثة ·

وكانت القصة ـ عند جماعة من النقاد ـ أكثر فنون الأدب تأثرا بما شاع فى الأوساط الأوروبية من مناهج التفكير، وطرائق التعبير، على تقدير أنها ـ فى زعمهم · فن غربى نقل الينا ضمن ما نقل من مستحدثات العلوم والفنون فى نهضتنا الصاعدة ولهذا بالغوا فى ربط الانتاج الأدبى فى مجالها بالتيـارات المذهبية، ووضعوا من التصنيفات والمسميات ما لا يتناسب مع البيئة العربية، التى انطلق منها هذا الأدب معبرا عن ملامحها الخاصة، وطبيعتها الذاتيـة بما اشتملت عليه من خصـــائص وسمات · وهذا المسلك النقدى يشتمل على كثير من الظلم والاجحاف ·

لأن فن القصة فى الأدب العربى، عربى النشأة والتكوين ـ كما بين البحث(١) ـ فى الفصل التمهيدى، وأن القصة الحديثة فى الأدب العربى مرت بمراحل تطورية حتى استوى عودها واشتد ساعدها وأصبحت قادرة على العطاء المتميز، والأداء الفريد، وأنها فى مراحل تطورها قد أفادت ولا شك من الفكر الغربى، نظرا للظروف العربية الحديثة، واحتكاكها كغيرها من الفنون بالفكر الغربى الوافد ولأنها كانت تسعى جاهدة للتعرف على ذاتيتها العربية، حتى توفرت لها ملامحها الحضارية وخصائصها الذاتية على يد جيل من الأدباء تخصص فى كتابة القصة وتفرغ للعطاء من خلالها ······ وكان السحار أحد الرواد الأوائل الذين تم على أيديهم هذا التحول، فقد بدأ انتاجه

(١) راجع ص ١٢ من هذا البحث ·

الأدبي يعرف طريقه الى الجمهور في المرحلة التي حدث فيها (التحول الحقيقي نحو اعتبار الرواية فنا يمكن أن تتوفر جهود الكاتب عليه ، وفيها اتضحت معالم اتجاهات فنية وموضوعية ، بحيث لم يعد الكاتب يعتمد على مغامرته الفردية ، وانما يستند الى تجارب سبقته على الطريق ، والى أسس ينطلق منها معاصروه من الكتاب ، فالاتجاه نحو استلهام التاريخ ، أصبح يشكل معلما واضحا ، والانعطاف الخالص نحو مشاكل العاطفة ، وقضايا القلب والحب، له المدافعون عنه من الكتاب ، والرغبة في نقد الأوضاع السياسية والقيم الأخلاقية كان لها روائيوها ، ثم الاقتراب الشديد من الواقع الفعلي ، اقتصاديا واجتماعيا ونفسيا ، بدأت ملامحه تظهر في نهاية هذه المرحلة كمحاولة لاستكشاف معالم الطريق الى المستقبل في هذه الجوانب معا فضلا عن الناحية الفنية) (١) ٠

والمرحلة التي يتحدث عنها الدكتور سيد النساج تمتد من نهاية الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ الى قيام الثورة المصرية ١٩٥٢ وفي هذه المرحلة أصدر السحار عددا من القصص تختلف فيما بينهما بين تاريخية واجتماعية ، كما تختلف من حيث الشكل الفني بين رواية وقصة قصيرة ٠ ففي مجال القصة التاريخية أصدر (أحمس بطل الاستقلال ١٩٤٣) و (أبو ذر الغفاري ١٩٤٣) ، (بلال مؤذن الرسول ١٩٤٤) و (سعد بن أبي وقاص ١٩٤٥) و (أبناء أبي بكر الصديق ١٩٤٦) و (أهل بيت النبي ١٩٤٨) و (أميرة قرطبة ١٩٤٩) و (المسيح عيسى بن مريم ١٩٥١) وفي مجال القصة الاجتماعية صدر له في الفترة نفسها (في قافلة الزمان ١٩٤٧) و (النقاب الأزرق ١٩٥٠) و (الشارع الجديد ١٩٥٢) ٠

كما صدر له في مجال القصة القصيرة ثلاث مجموعات كانت (في الوظيفة ١٩٤٤) و (همزات الشياطين ١٩٤٦) و (قصص من الكتب المقدسة ١٩٥٢) ٠

وهذا التنوع في مجالات الابداع ظل ملازما للسحار طيلة حياته دون أن يتفرغ في ناحية من هذه النواحي فيقصر جهده عليها ، ويبدع في فنه على أساسها ٠

مما لا نستطيع معه أن نحصره في اتجاه واحد منها ، أو نضع أعماله في اطار لون من ألوانها دون سواه ، لأنه أبدع في كل منها وصدر فيها جميعا عن وعي كامل بالفن القصصي وخصائص تكوينه في كل شكل من أشكال الابداع ٠

وهذا وحده ظاهرة فريدة في أدبنا الحديث ٠ فهذا التنوع لم يحدث في حياة السحار الأدبية ، نتيجة لتطور وعيه الفني ونموه من مرحلة الى مرحلة كما حدث مثلا لنجيب محفوظ الذى بدأ حياته الأدبية بالرواية التاريخية الفرعونية ، ثم هجر هذا اللون الى كتابة الرواية الاجتماعية المعاصرة ، ثم كانت المرحلة الثالثة في تطوره الفني كما يرى النقاد ممثلة في اتجاهه الى الواقعية الجديدة فبعد أن فرغ من ثلاثيته

---

(١) بانوراما الرواية العربية الحديثة ٠ د٠ سيد حامد النساج ص ٤٤ ٠

اتضح أنه (لو كتب بهذا الأسلوب فانه سيكرر نفسه لا محالة فالأسلوب الأدبي كالمنجم ، على الفنان المبدع أن يبحث عن غيره حين يحس أنه استنفذ ما فيه والا فلن يستخرج الا التراب بهذا أنقذ نجيب محفوظ نفسه من خطر التكرار مستفيدا من تجربته الفنية السابقة ، وما بلغه من عمر يتيح له أن يصل الى مرحلته الأدبية الجديدة التى كان قد أشرف عليها) (١) .

فهذا التقسيم المرحلي النابع من تطور النظرة الفنية ، ومن الاحساس بضرورة التعبير وفقا لأشكال جديدة متطورة تتواءم مع طبيعة المرحلة لا يمكن تطبيقه على أعمال السحار لعدم امكان الفصل الحاسم بين هذه الاعمال فى فترات مختلفة نتيجة لتداخل ألوان قصصه وصدورها فى أزمنة متقاربة ، يصعب معها تحديد المسارات الفنية بطريقة حتمية .

ولا يعنى هذا أن السحار لم يتطور فنيا ، وأنه ظل ذا طبيعة فنية واحدة ، جمدت عند موقف معين فاستمرت في أعمالها عليه ، وانما يعنى أنه استوعب الأشكال الفنية مجتمعة ووجد فى نفسه القدرة على التعبير عن أفكاره وفقا لأى منها فى أى وقت يشاء ، فصدر فى كل عمل من أعماله عن احساس صادق وتفهم كامل للشكل الذى يريد التعبير من خلاله . دون أن يحصر نفسه وفنه فى اطار اتجاه منها ، وقد أعانه على ذلك تعدد ثقافته واتساع آفاق فكره ، والتزامه بالصدق الموضوعى مع القارىء العربى ، الذى يعبر عنه ، والواقع الذى يعيشه فى بيئته ووضوح مساره الاسلامى أمام عينيه بحيث بدأ فى طريق واضح الأبعاد والاتجاهات والمقاصد فلم يشأ أن يجهد القارىء بألوان من التعبير لا تمثل طبيعته ، ولا تعبر عن أفكاره وميوله كما فعل غيره ، بل ظل على ولائه له يمده بفيض ابداعه ، وفقا لما عليه طبيعته الفنية الوثابة ، وثقافته الفكرية المتنوعة واستجابة للمقررات الاسلامية التى يدين بها .

فوجدناه قد جمع فى كتاباته بين القصة التاريخية والاجتماعية وبين القصة القصيرة وقصص الأطفال ، دون أن يقصر جهده منذ بدأت حياته الأدبية على نوع منها فى فترة بعينها ، ودون أن يضع فى حسابه تصميما مسبقا يصدر فى نتاجه على أساسه ، والنظرة الموضوعية لأعماله الفنية تؤكد صدق هذا التفسير وتدعمه .

فقد صدرت أعمال السحار الفنية بألوانها المختلفة المتتابعة متداخلة كما يوضحها الجدول التالى :

مسلسل	العمل القصصى	تصنيفه النوعى	تاريخ الصدور
١	أحمس بطل الاستقلال	قصة تاريخية	١٩٤٣
٢	أبو ذر الغفارى	قصة تاريخية	١٩٤٣

(١) الروائيون الثلاثة للاستاذ يوسف الشارونى ص ١٥ .

مسلسل العمل القصصي	تصنيفه النوعي	تاريخ الصدور
٣ محو الوظيفة	مجموعة أقاصيص	١٩٤٤
٤ بلال مؤذن الرسول	قصة تاريخية	١٩٤٤
٥ سعد بن أبي وقاص	قصة تاريخية	١٩٤٥
٦ أبناء أبي بكر الصديق	قصة تاريخية	١٩٤٦
٧ همزات الشياطين	مجموعة أقاصيص	١٩٤٦
٨ في قافلة الزمان	قصة اجتماعية	١٩٤٧
٩ أهل بيت النبي	قصة تاريخية	١٩٤٨
١٠ أميرة قرطبة	قصة تاريخية	١٩٤٩
١١ النقاب الأزرق	قصة اجتماعية	١٩٥٠
١٢ المسيح عيسى بن مريم	قصة تاريخية	١٩٥١
١٣ قصص من الكتب المقدسة	مجموعة أقاصيص	١٩٥٢
١٤ الشارع الجديد	قصة اجتماعية	١٩٥٢
١٥ صدى السنين	مجموعة أقاصيص	١٩٥٣
١٦ حياة الحسين	قصة تاريخية	١٩٥٤
١٧ قلعة الابطال	قصة تاريخية	١٩٥٤
١٨ المستنقع	قصة اجتماعية	١٩٥٧
١٩ أم العروسة	قصة اجتماعية	١٩٥٨
٢٠ وكان مساء	قصة اجتماعية	١٩٥٨
٢١ أزرع وسيقان	قصة اجتماعية	١٩٥٨
٢٢ أرملة من فلسطين	مجموعة أقاصيص	١٩٥٩
٢٣ الحصاد	قصة اجتماعية	١٩٥٩
٢٤ جسر الشيطان	قصة اجتماعية	١٩٦٢
٢٥ ليلة عاصفة	مجموعة أقاصيص	١٩٦٣
٢٦ النصف الآخر	قصة اجتماعية	١٩٦٤
٢٧ السهول البيض	قصة تاريخية	١٩٦٥
٢٨ أبو الأنبياء	قصص السيرة	١٩٦٥
٢٩ هاجر المصرية أم العرب	قصص السيرة	١٩٦٦
٣٠ بنو اسماعيل	قصص السيرة	١٩٦٦
٣١ العدنانيون	قصص السيرة	١٩٦٧
٣٢ قريش	قصص السيرة	١٩٦٧
٣٣ مولد الرسول	قصص السيرة	١٩٦٧
٣٤ اليتيم	قصص السيرة	١٩٦٨
٣٥ خديجة بنت خويلد	قصص السيرة	١٩٦٨
٣٦ دعوة ابراهيم	قصص السيرة	١٩٦٨

مسلسل العمل القصصي	تصنيفه النوعي	تاريخ الصدور
٣٧ عام الحزن	قصص السيرة	١٩٦٨
٣٨ الهجرة	قصص السيرة	١٩٦٨
٣٩ غزوة بدر	قصص السيرة	١٩٦٨
٤٠ غزوة أحد	قصص السيرة	١٩٦٩
٤١ غزوة الخندق	قصص السيرة	١٩٦٩
٤٢ صلح الحديبية	قصص السيرة	١٩٦٩
٤٣ فتح مكة	قصص السيرة	١٩٦٩
٤٤ غزوة تبوك	قصص السيرة	١٩٧٠
٤٥ عام الوفود	قصص السيرة	١٩٧٠
٤٦ حجة الوداع	قصص السيرة	١٩٧٠
٤٧ وفاة الرسول	قصص السيرة	١٩٧٠
٤٨ عمر بن عبد العزيز	قصة تاريخية	١٩٧٢
٤٩ الحفيد	قصة اجتماعية	١٩٧٤
٥٠ خفقات قلب	مجموعة أقاصيص	١٩٨١
٥١ صور وذكريات	مجموعة أقاصيص	١٩٨١
٥٢ كشك الموسيقى	مجموعة أقاصيص (١)	١٩٨١

فاذا كان غيره من معاصريه ، قد شارك بالابداع في لون منها قاصرا جهده عليه في حياته الأدبية ، أو شارك فيها جميعا وفقا لتصميم مسبق يختلف من مرحلة الى مرحلة ، فان السحار يختلف عنهم فى تمكنه من الابداع فيها جميعا بدرجة واحدة ، وفي عدم امكان اخضاع أى لون منها لمرحلة بعينها توفر عليها جهده وفنه فتميزت عن غيرها بهذا اللون أو ذاك .

فقد بدأ رحلة حياته الأدبية بالقصة التاريخية ، واستمر عطاؤه على طريقها ، ورغم معالجته الفنية للقصة الاجتماعية والقصة القصيرة وقصص الأطفال الا أنه لم يتحول عن القصة التاريخية ومما يؤكد هذا اصداره لقصة السيرة (محمد رسول الله والذين معه) فى عشرين جزءا صدر الجزء الأول منها سنة ١٩٦٥ بينما صدر الجزء الأخير سنة ١٩٧٠ وفى سنة ١٩٧٢أصدر قصته التاريخية الأخيرة (عمر بن عبد العزيز) وكان ذلك فى أخريات حياته .

وهذا التنوع الفريد فى مسلك السحار الفنى ، قد دفع بعض النقاد الى القول بأنه وان كان من جيل نجيب محفوظ الا أن كلا منهما يختلف عن الآخـر فى هذه

(١) اعتبرنا قصص (وكان مساء) و (أذرع وسيقان) و (جسر الشيطان) من الوان القصة الاجتماعية التى تنقل الكاتب بينها فى رحلاته خارج مصر .

الناحية • فنجيب محفوظ فى تحوله من مرحلة الى مرحلة (مهندس عظيم لأعماله ؛ أما السحار (فهو لا يخطط ولا يهندس ، انه يكتب بقلبه ، ويترك لنبضاته كل شيء ، تسير به كيف شاءت ، ولقد حمله قلبه الى الدين والتاريخ والميثولوجيا ، فسار فيه ليؤلف روايات وكتبا تاريخية ودينية عديدة ، ثم يعود الى الرواية والقصة ، تحس فى كل عمل من أعماله ، أنه مشحون له عاطفيا ونفسيا ، وتفاجأ به يلقى بنفسه فى أحضان عمل آخر ، كما لو كان كازانوفا يحب كل امرأة بنفس القدر (١) •

ولعل هذه الظاهرة من السمات البارزة التى يتميز بها أدبه فقد تنوعت أعماله الفنية واتسعت مضامينها لاحتواء أفكار الماضى والحاضر فى رؤية شمولية معتدلة ، تنهض ممثلة وعى الفنان وأصالته وايمانه بقدرة الفن على العطاء ، ان وجد الأرض الخصبة التى يستطيع الوقوف عليها ، فليس من الأهمية بمكان أن نبحث فى كل يوم عن الجديد والغريب ، الذى يخطف الأبصـار ويبهر العيـون من أشـكال الفن وأساليبه ، ولكن المهم هو أن نبحث عن الطريق ، وأن نتعرف على أصالتنا ، وبعدها ننطلق الى حيث نريد ما دمنا قد تعرفنا على مواقع خطانا من حركة الحياة • وكان هذا هو ما دفع السحار الى الوقوف كثيرا أمام التاريخ العربى الاسلامى ، يستلهم وحيه منه ويستمد رؤاه الفنية من الهاماته ، وقد اعترف بموقفه هذا فى قوله (أحسست أن التراث الاسلامى والثقافة العربية تمثلان شيئا هاما وجوهريا داخل حلقات التطور الفكرى لمصر عبر العصور وأنه لا يمكن تطوير الأدب ، وتطور الثقافة المصرية دون العودة الى استلهام هذا التراث وتحقيقه على المستويين الفكرى والفنى •

لذلك كتبت العديد من الأعمال القصصية بعد محاولة هضـم هذه الألوان من الثقافة ، التى لم تشارك فقط فى تطوير ثقـافة وفكر المنطقـة ، بل كان لها آثارها البعيدة فى تطوير الثقافة الانسانية العالمية بشكل عام (٢) •

ونتيجة لهذا الفهم الواعى كانت أعماله القصصية التاريخية المتصلة بتاريخ الاسلام وحياة أبطاله ، منطلقا للبحث عن الذات العربية فى رحلة حياتها المعاصرة ، ومحاولة للتعرف على أصالتنا الذاتية ، وفى الوقت نفسه كانت تأكيدا للانتماء القومى، الى هذا الماضى العريق بمثله وقيمه ، ولذلك رأيناه صدر فى جميع أعماله على اختلاف ألوانها وتعدد أشكالها عن تأثر واضح بسلطان الماضى وأمجاده الحضـارية ، وكان حريصا على الكشف عن قيمه وبيـان أثرها فى نفوس شخصـياته ، ومدى ثباتها وصلابتها فى مواجهة القيم الوافدة والتقاليد المغايرة لها •

ويعتبر التقاء أدب السحار ببعض التيارات الأدبية من السمات البارزة التى ينفرد بها • وقد تمثل هذا الالتقاء فى بروز بعض مظاهرها فى أدبه ، فوجدناه يلتقى كثيرا مع الوجدانيين والطبيعيين والواقعيين ولا يعنى ذلك أنه تأثر بهم فحذا حذوهم

---

(١) السحار مفكرو وأديبا وسينمائيا • عبد المنعم صبحى ص ٤٣ •

(٢) المصدر السابق ص ٢٨ وما بعدها •

ولكنه عاش تجاربه الأدبية بصدق ، وتأثر بالظروف الواقعية التي عاشها بوعي كامل ولم يعزل نفسه في اطار اتجاه محدد السمات والقسمات بل انطلق في كل تجاربه من نظرة شمولية ترصد حركة الحياة على كافة مستوياتها . فجاء أدبه حافلا بألوان شتى من مظاهر التعبير التي عرفت في الاتجاهات الأدبية . وذلك ان دل على شيء فانما يدل على اتساع النظرة الاسلامية التي انطلق منها كما يدل على اقتدار الأديب ورحابة فنه .

فمن مظاهر بروز المنزع الوجداني في أدبه لجوءه الى التاريخ واستلهام وحيه منه في كل ما أبدع في مجال القصة التاريخية خصوصا تلك القصص التي عالج من خلالها تاريخ الاسلام وحياة أبطاله .. فقد كان في لجوئه الى التاريخ متأثرا بالواقع المتأزم الذي عاش فيه تحت ظلال القهر والاستبداد ، فوجد في الماضي متنفسا لآلامه وآماله ، ومتسعا لعرض آرائه وأفكاره ، بعيدا عن سطوة الحاكم وبطش العادي المتربص .

وكان هذا الاتجاه أحد المسالك التي لجأت اليها الوجدانية العربية في التعبير عن نفسها ، فقد عمد كتابها الى (الاطار التاريخي هربا من الحاضر ، ليغفلوا آراءهم في الواقع بصورة مستمدة من خارجه فيصبح الرأي غير مباشر ، والنقد تورية ورمزا) (١) .

واذا نظرنا الى الأعمال التي قدمها السحار من هذه الناحية وجدناها تشي بهذا المغزى من قريب أو بعيد . فقد قدم صورا رائعة من كفاح الدعوة في مواجهة الطغيان، وعرض لمواقف رائعة . في حياة أبطال الاسلام ، تصدوا فيها للظلم وصمدوا أمامه حتى اندحر ، واستطاعوا بما وهبوا من نعمة الايمان تحقيق الأمن والعدل والمساواة بين البشر ، فحققوا المجتمع الأمثل والمدينة الفاضلة ، وانطلقوا يبذرون النور في كل مكان على الأرض .

واذا كان المجتمع المعاصر يرسف في ذل العبودية ويحيا مكبلا بأغلالها ، فقد عاش المجتمع الجاهلي نفس اللحظة القاسية وعاني من ويلاتها ، وتعرض في حياته لبطش الأقوياء وجبروت الطبقة المترفة . وظل سادرا في ظلمات الجهل وضباب المادة حتى انبلج نور الحق ، وظهر دين الله .. فنهض المؤمنون يجاهدون الفساد بكل ما يملكون من قوة ، وفي الوقت نفسه راحوا يبنون مجد الحياة بكلمة الايمان حتى ازدهرت النفوس وارتقت القلوب وكانت الحضارة .

عرض السحار ذلك على القاريء المعاصر من خلال معالجة فنية لأحداث تلك الفترة المزدهرة من عمر التاريخ ايحاء بالمطلوب واستنفارا للهمم من أجل التغيير والثورة على الفساد . وقدم نماذج رائعة من حياة المؤمنين عالج من خلالها كثيرا من القضايا المعاصرة في ثوب تاريخي ، وقدم المثل الصالح والقدوة الراشدة ، ولم يكن

---

(١) صورة المرأة في الرواية المعاصرة د. طه وادي ص ٢٣ .

في مقدوره أن يعبر عن رؤيته للواقع الا من خلال الاطار التاريخي ، حتى يكون بعيدا عن المساءلة ، والوقوع تحت طائلة العقاب ٠

كما نجد من مظاهر بروز المنزع الوجداني صدور أدبه عن اهتمام بالفرد وتحليل مشاعره ، والنفاذ الى صميم أعماقه في محاولة للتعرف على موقفه من الكون والحياة والتعبير عن النفس البشرية في صراعها الدائم بين نوازع الخير فيها ، وبواعث الشر من حولها ، وتصوير لحظات التأزم النفسى من أبرز سمات الاتجاه لوجدانى ، حيث ينطلق أدبهم من مبدأ (تقدير الفرد كانسان له كيانه الذى يجب أن يحترم) (١) ولهذا لا يجب أن يذوب الانسان الفرد وتضيع معالمه في بوتقة المجتمع أو الطبقة ، وانما لابد أن يظل محتفظا بكيانه الشخصي ، وأن تنهض جميع الفنون للتعبير عنه والغوص الى أعماقه للتعرف على مشاعره وانفعالاته تجاه المواقف والأحداث ٠

والوجدانية علىهذا كمايقول بعض النقاد (تنصرف الى الاهتمام بالشعورالفردى دون الشعور الجماعي ، والى تصوير الفرد فى همومه وعلاقاته الخاصة ، لا الى تصوير المجتمع أو احدى طبقاته ، وقد طحنتها أزمة من الأزمات) (٢) ٠

وقد برز هذا المظهر واضحا عند السحار ، فوجدناه في قصصه ، يصور حياة الفرد ، ويتوقف عند همومه ومشاكله ويغوص الى أعماق نفسه كاشفا هواجسه النفسية وانفعالاته الشخصية خصــوصا فى المواقف التى يحتدم فيهــا الصراع بين نوازعه ورغباته ، وبين المتطلبات الروحية التى يحاول الســمو اليها والارتفاع الى آفاقها الرحبـــة ٠

ففى قصــة « جسر الشيطان » التى قدم من خلالها صــورة حية للقاء الشرق بالغرب ، الذى تمثل فى لقاء (على) المهندس المصرى بالساقطة (آنى) التى لا تعرف لها هوية ، والتى تمارس حياة اللهو والعبث كل يوم وليلة ، وعندما تعرف عليهــا (على) وبذر فى أعماقها تعاليم الخير ، ووجدت فيه شخصا يختلف عمن يرتمون فى أحضانها كل ليلة ، أحست بالقرب منه ، وشعرت بحاجة شــديدة اليه وأصبحت تفتقده اذا غاب ، وتنتظر عودته فى شوق ولهفة انها أصبحت فريسة لمجموعة من الهواجس والأحاسيس لا تدرى كيف تسللت اليهــا ، وهى التى لم تكن تلق بالا لأى شيء ٠

انها أصبحت تحس أن لحياتها قيمة ، وأن وراء نفسها معان تريد أن تنطلق من أعماقها ، وأن عليا هو مفجر هذه الأحاسيس ومحدث هذا التغيير الذى طرأ على حياتها ٠ فقد (كانت قبــل أن تعــامل عليــا فى زحمــة الحيــاة لا تؤمن الا بما تحس به) (٣) ٠

---

(١) المذاهب الأدبية من الكلاسيكية الى العبثية د٠ نبيل راغب ص ٢٦ ٠

(٢) اتجاهات الرواية المصرية د ٠ شفيع السيد ص ٦٦ ٠

(٣) جسر الشيطان ٠ عبد الحميد جودة السحار ص ١٧٠ ٠

أما احتكاكها بعلي فقد خلف آثارا عميقة هيهات أن تمحى حتى وان اختفى علي من حياتها · انه نجح في أن يبذر بعض البذور في نفسها وقد أخذت هذه البذور تنمو على الرغم من محاولة اقلاعها) (١) ولكن هـذا تحبه وترى نفسها في لحظات انتشائها بهذا الحب تقبله وتعانقه ، وهي تردد أغنية أحب باريس في الشتاء ، وقام صراع عنيف في داخلها بين قوتين خفيتين واذا بالمرأة الأخرى تعلن على مسمع منها ، أن ما تحس في خيالها ليس حبا · انه مجرد اشتهاء !

ـ وهل هناك طريقة للتعبير عن الحب بين رجل وامرأة ، غير أن تضمـه الى صدرها ، وتقبله ويلتصق جلدها بجلده ·

وراحت المرأة التي في داخلها تعلن · أن حبها لعلي لون آخر حب خارج سلطان الجسد ·· حب يقع في دائرة النور ·

ـ حب روح لروح ؟

ـ أجل حب روح لروح ·

ـ لا يمكنني أن أتصور أن مثل هذا الحب يمكن أن يكون ـ انه كائن بين المعلم وتلميذته ـ واذا انفرد المعلم بتلميذته ، ألا تثور فيها مشاعر جنسية ، ألا تنطلق بين جنباتها شهوة عربيدة ·

ـ هذه المشاعر تسمو وترتفع فوق الجسد ، تقهرها حرارة الايمان فتعرج الى السماء كالبخور ، وتملأ المكان بأريجها المعطر المهدىء للنفوس (٢) · وتصارعت في داخلها الأفكار ، وهب نداء الشهوة يخيل اليها أنها واهمة ، وصوت الايمان النابت في الأعماق يحول دون تحقيق الرغبة الجسدية ·

انها عرفت الطهارة ، كما عرفتها المجدلية التي أحبت المسيح وانتصر الطهر على رغبات الجسد لتحقيق وتأكيد أن الجسد مهما انحط فالروح تستطيع أن تسمو به ، وأن تغسل أدرانه (٣) ·

وبهذه الطريقة الواضحة في تناول هذا الموقف العاطفي الغامض تمكن السحار من ترجمة خفايا النفس البشرية ، وعبر عن انفعالاتها وتطلعاتها ، ورغبتها في الارتقاء الروحي بعيدا عن شهوات الجسد ونزواته · وفي الوقت نفسه صـدر في تصوره للعلاقة بين الرجل والمرأة عن رؤية مثالية للحب يتأكد معها بروز المنزع الوجداني في فهمه للحب الذي تتحدد ملامحه عندهم في أنه (ليس حبا حسيا بل انه لا يختلط أبدا بأي معنى من معاني الحس ، انه حب روحي شفاف يسمو فوق نداء الغريزة ويختلف عن ذلك الحب الذي يعرفه الناس) (٤) ·

---

(١) المصدر السابق ص ١٧١ ·

(٢) المصدر السابق ص ١٨٠ ·

(٣) المصدر السابق ص ١٨٢ بتصرف يسير ·

(٤) أبو القاسم الشابي شاعر الحب والثورة · رجاء النقاش · ص ٥٣ ·

وعلى هذا المستوى في الكشف عن المشاعر الفردية رصد حركة النفس في لحظات توهجها عندما تتعرض للحظة ضعف تكاد تهوى معها الى الحضيض ، لكنها تثوب الى رشدها من جديد بعد أن تتكشف أمام عين بصيرتها معالم الهدى والرشاد في لحظة افاقة تشع في النفس وميضا من نور الحق فتنمحي جسور الضباب ٠

نجد ذلك في موقف على وقد تجمعت على صفحة ذهنه معالم العبث والعرى ، ولا شيء يقف حائلا دون تحقيق الرغبة الجسدية فهي ممنوحة لكل طالب ، بل وتمنح دون طلب ، فكيف لا يمتع جسده بما لذ وطاب من ألوان النساء قبل أن يودع المدينة العارية عائدا الى بلاده ؟

وتملكته الحيرة ، واستبدت به الرغبة وقام اليه شيطانه يهيىء له السبل الى الامتاع الجسدى ، ونشب صراع حاد في داخله ٠ ذلك الصراع الذى كثيرا ما توهج في لحظات النشوة على مذابح الاشتهاء ٠ بين الرغبة في الفعل الدنيء وبين الحرص على الطهر ، ويكاد يستسلم لهواجس شيطانه ويتردى في الهاوية لولا نفحة من ايمان أعادت اليه هدوءه وجعل يقرأ في الكتاب المقدس متخذا من هذه القراءة وسيلة لاحراق الشهوة العربيدة التى تتلظى في جنباته ٠

ويصور السحار حقيقة موقف على من تلك الهواجس الشيطانية والرغبات الدنيئة على أنها لم تكن الا أوهاما كاذبة ان عبرت عن شيء فانما تعبر عن الهيام الروحى والوجد الصوفى ٠ يقول السحار :

(انه لم يكن يشتهيها لما كان ينفعل انفعالات حسية كلما فكر فيها ، كانت روحه تهيم حبا بروحها ، ولم تكن تلك المشاعر الا تعبيرا عن الهيام الروحى ، فاذا ما تقابلا واتصلت الروح بالروح ، تبخرت كل الشهوات والرغبات ، ولم يبق الا الصفاء والهيام والانتشار في روح الوجود ، لم تكن النار المتلظية في جوفه شهوة بل اشتعالا ، ولم تكن قعقات قلبه رغبة جنسية بل وجدانا واشتياقا روحيا) (١) ٠

وفي قصة (في قافلة الزمان) يعيش مصطفى أحد أبطالها لحظة التأزم العاطفى عندما خطبت راشيل وكان يحبها على الرغم من تحللها ، وكم ضاق صدره ، وتسلل الحزن الى كيانه وهو يراها مع خطيبها تراقصه في انتشاء وسعادة ظاهرة ٠ جعلته يترك النافذة التى كان يرقب منها ما يدور في حفل الخطوبة الى الفراش في محاولة للنوم ، وينطلق السحار معه الى سريره مصورا ما يجوس في نفسه من أفكار ومشاعر (كان يتململ في فراشه لا يدرى به أحد ، ولا يحاول أن يسرى عنه أحد ٠٠

وهاله استسلامه لأحزانه ، فكبح جماح نفسه ، وراح يفكر في أمره ، ما باله يحزن لخطوبة راشيل ٠٠ ؟

---

(١) جسر الشيطان ٠ ص ٢٣٨ ٠

هو يحبها أجل · ولكن ما نهاية هذا الحب ؟ ليس له الا نهاية واحدة هى الفراق ، ثم ينطلق كل فى طريقه ، فلو أن لقلبه عقلا ما تعلق بحبها ، ولكن قلبه مجنون ·

هو يحبها ، يحبها لذاتها ، يحبها بلا أمل ، يحبها ولا يطمع فى أن ينال منها شيئا ، يحبها لأن حبها قد ملأ نفسه غبطة ، ولأنها أول من دقت قلبه فانفتح لها · والمحب يتمنى لحبيبه السعادة فلما لا يرجو لها حياة رغيدة سعيدة ، ما دام لا يستطيع هو أن يمنحها تلك السعادة ، ان عليه أن يسر لسرورها وأن يفرح لفرحها ، وأن يغتبط ما دامت راضية ، وأن يكبح جماح القلب الجموح ·

وأخذت سحب الحزن التى تبلدت فى صدره تنقشع ، وتبخرت أحاسيس الغيرة التى ضيقت من أنفاسه وكأنما استمع القلب الى صوت العقل مرة فهدأ · أو لعله هدأ مرغما لما رأى ضياع الأمل (١) ·

وتتأكد رؤية السحار الاسلامية للحب على أنه عاطفة سامية منزهة عن كل دنس فى تصويره لموقف مصطفى من راشيل فقد كان يراها من خلال روحه ، ويحاول أن ينأى دائما عن زلات النفس فى لحظات ضعفها · حتى أنها تخايلت له فى النوم على غير ما يريد منها فزع وجفل وهاله ما يرى فى النوم وكأنه حقيقة واقعة ففى ذات مرة (مس النوم جفنه فراح فى سبات ، ورأى فيما يرى النائم راشيل الى جواره تضمه فى اشتهاء ، وتقبله فى وله ، وتمسح شعره بيدها فى حنان ، فهب من نومه وقلبه يدق ، ولم يرتح الى الحلم اللذيذ ، فما كان يحب أن يضمها ، أو أن يلمسها ولكنه كان يحب أن يجلس اليها وينظر فى عينيها ، فتناجى الروح الروح) (٢) ·

انه فى حضرتها يحس خشوعا وقدسية ، ولا يتكلم الا بقدر ، انه فى حضرتها يحس رهبة العابد فى محرابه ، فلو أنه قابلها لآثر الصمت ، ولترك روحه تهيم طليقة لتتصل بروحها (٣) ·

وهذا التصور الاسلامى كما سبق أن أوضحنا يلتقى بنظرة الوجدانيين للحب وفهمهم لطبيعة العلاقة العاطفية بين الرجل والمرأة وقد أبرز السحار فى معالجاته القصصية صورا عديدة لمواقف أبطاله حول هذه القضية ملتزما بفهمه الاسلامى وطبيعته الوجدانية ·

ويرى الدكتور سيد حامد النساج أن السحار تأثر الى حد كبير بالمدرسة الطبيعية ، وأنه فى هذا التأثر يشترك مع نجيب محفوظ فى بعض أعماله التى صدر فيها عن تأثر بالطبيعيين فى رسمه للشخصيات ، واستغراقه فى البيئة ·

يقول النساج عنه (وهو فى رسمه للشخصيات ، واستغراقه فى البيئة كان

---

(١) فى قافلة الزمان للسحار ص ٣٠٣ ·
(٢) المصدر السابق ص ٣٠٤ ·
(٣) المصدر السابق ص ٣٠٦ ·

متأثرا بالمدرسة الطبيعية (١) الى حد كبير جدا ، يشاركه فى هذا زميله عبد الحميد جودة السحار فى روايتيه (فى قافلة الزمان) و (الشارع الجديد) الأولى تصور حياة أسرة كاملة يتتبع الكاتب جيلين بعد أن يعرض للجيل الأول فى مرحلة متأخرة من حياته · وفى الثانية تتبع ثلاثة أجيال لأسرة واحدة ، وهو يتوقف عند كثير من التفاصيل التى تتعلق بحياة أفراد كل جيل ، ويثبت عند وصف العناصر الوراثية ، والعوامل البيولوجية ، والعادات والتقاليد ، وسلوك الأفراد كما كان يفعل « زولا » ومن قبله « فلوبير » (٢) ·

وفى رأيي أن وضع السحار فى عداد الطبيعيين ـ كما يرى الناقد ـ لا يمثل شيئا من الصواب ، لأن بعض أفكار هذا المذهب كما حدد ملامحها النقاد تتناقض مع فكر السحار الاسلامى الذى يؤمن به ، ويبدع فى أدبه على ضوئه ·

من ذلك مثلا موقفهم من الروح واعتبارها ظاهرة ثانوية ، لا سلطان لها على البشر لا تنسجم مع فكر السحار ورؤيته الاسلامية التى تعرفنا على ملامحها فى فصول الباب الثانى من الدراسة ·

ففى هذه الرؤية نجد للروح وجودا ايجابيا فى حياة البشر بما تحقق من توازن وانسجام فى حركة الفرد ، وفى علاقاته مع الآخرين ، بل ان الوصول الى الحياة الروحية الحقة ، مطلب الساعين الى الكمال البشرى المنزه عن المطالب الأرضية ، والنزعات الجسدية ، وقد آمن السحار بها وأعلى فى أدبه من قدرها بل انه استلهم من حياة الروح والارتفاع عن شوائب المادة أساس نظريته فى التفسير الروحى للتاريخ ، ومن هنا لا نستطيع أن نعد السحار كاتبا طبيعيا مائة فى المائة لمخالفة منهجه الفكرى لبعض مبادىء المذهب واتجاهاته · ولكنه كان يحتفل برصد الواقع بدقة متناهية ليبرز صورة البيئة التى يكتب عنها فتجيء الصورة القصصية نابضة بالصدق ، ومعبرة عن معايشة كاملة للحدث وعن وعى كامل بكل ما يحيط به وما ينفعل له ، فبدت بذلك بعض مظاهر الاتجاه الطبيعى متمثلة فى تصويره الصادق للبيئة التى تدور عليها حركة الحدث مبرزا دقائق مكوناتها فى استيعاب عجيب ،

---

(١) والطبيعية كما يقول الدكتور / مندور (تؤمن بأن المسيطر على البشرية ، هو حقائق حياتها العضوية كالغرائز وحاجات البدن المختلفة واما الروح ثانوية لا سلطان لها على البشر ومن هنا يردون تصرفات الانسان الى عمل الغرائز الغامض) · ويعتبر أميل زولا واضع تقاليد هذه المدرسة ومحدد مبادئها والقصة عنده ليست مجرد ملاحظات يسجل الكاتب فيها ما تأتى به الحياة تلقائيا وانما هى تجربة ذاتية ينشأ عنها العمل الأدبى · ويدعو أنصار المذهب الى تطبيق النظريات العلمية فى الفن فينبغى للأديب ان يطبق مكتشفات داروين وكلود برنار ونظرية أصل الأنواع وقانون التأثير الحاسم للبيئة ، وقوانين الوراثة فالانسان مخلوق حيواني سلبى من نتائج الوراثة والبيئة وليس فى امكانه الافلات من المصير المحتوم ، وهو ليس مؤثرا بقدر ما هو متأثر بالظروف المحيطة به ·

أنظر :

فى الأدب والنقد د· مندور ص ١٣٦ ومذاهب النقد وقضاياه للدكتور عبد الرحمن عثمان ص ٣٩٢ ، والمذاهب الأدبية من الكلاسيكية الى العيثية للدكتور نبيل راغب ص ١٢٤ ·

(٢) بانوراما الرواية العربية الحديثة للدكتور / سيد حامد النساج ص ٥٦ وما بعدها ·

نجد ذلك في تصويره للبيئة التي دارت عليها أحداث الجيل الأول في قصة (في قافلة الزمان) يقول :

(وجاءت الى غرفة الحاجة زوجات أبنائها الثلاث ، وأزواج حفدتها ، فقد كن جميعا يقطن دارا واحدة ، وراحت زوجة محمد تعرض عليها خدماتها في اخلاص ، فقد كانت تحبها وتتمنى رضاها .

وتحركت الحاجة للهبوط الى صحن الدار ، فسار النسوة خلفها ، وكان من عادتهن أن يهبطن كل يوم الى الفناء ، فما كان في البيت الا صنبور واحد ركب فيه ، وكان الفرن قريبا منه ، فكن يعجن ويخبزن ويطبخن في الفناء ، ثم تحمل كل منهن ما طهت ، وتعود الى مسكنها تنتظر أوبة زوجها وأبنائها .

وأقبل خادم الحاج أسعد يسير في شارع الحسينية ، وهو الشارع الرئيسي للمدينة العتيقة ، وكان يحمل على عاتقه القفة الكبيرة التي اعتاد أن يحملها كل يوم ، وقد تكدست فيها أوراق اللحم الملفوف وأنواع الخضر المتباينة ، وسار حتى اذا ما بلغ الحارة التي يقطن فيها سيده دلف اليها ، وما انطلق أمتارا حتى انعطفت الحارة يمينا ثم يسارا ، ثم يمينا ، فبدت كثعبان كثرت التواءاته ، وظهر جليا أن الذين بنوا الدور المتواضعة التي تطل على الحارة قد تفننوا في تعريجها حتى لم يعد في طاقة بشر أن يفعل أكثر مما فعلوا للاكثار من منعطفاتها .

وبلغ المسمط القريب من الدار ، فألفى المعلمة جالسة على كرسي خشب خشن لم يشذب ، تشد أنفاسا طويلة من نارجيلة أمامها ، وكانت ترقب رءوس الضأن والأكراش والأكراع التي كانت تنقل الى المسمط وتعدها عدا ، فألقى عليها السلام فردت تحيته في صوت أجش ، وعرج الى اليمين فرأى أم عباس الندابة جالسة أمام قاعتها وقد حملت خدها على كفها ، وسرح خيالها كما سرحت كتاكيتها الصفر في الرقعة الصغيرة القريبة من الباب تنبش عن غذائها فانتقل من جوارها في خفة ، وأسرع الخطا قبل أن تلحظه ، فقد كان يتطير من رؤية وجهها في الصباح ، وكان يعتقد أن من يفتح عينيه على وجهها الجاف الخشن الملامح الذي ينم عن قسوة ، وجبروت لا يلقى طوال يومه الا عنتا وشؤما .

وانطلق قدما ، وسار بضع خطوات حتى عرج الى اليسار ، فاذا الدار أمامه ، فطرق الباب فأقبلت خادم وفتحت له ، وأخذت القفة منه وحملتها الى حيث كانت الحاجة وأزواج أبنائها وأزواج حفدتها) (١) .

وهكذا يمضي السحار في تتبع عرض ملامح البيئة بكل جزئياتها ، فلا يترك شيئا دون أن يذكره ، وقد بلغ الغاية في ذلك ، واستطاع بواسطة هذه الطريقة أن يكشف عن الظروف والملابسات التي يعيش فيها أبطاله بصدق وموضوعية ، وأن يبرز عاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم من خلال تلك البيئة .

---

(١) في قافلة الزمان . للسحار ص ٩ وما بعدها .

كما بدت بعض مظاهر الاتجاه الطبيعي ممثلة في احتفاله بالتناقضات الفكرية والسلوكية التي تغلف حياة الأشخاص وتحدد حركتهم ومواقفهم تجاه الأحداث التى يتعرضون لها ، والى جانب ذلك نرى كثرة الشخصيات فى المحيط الذى يعالجه فلم يقتصر على عدد محدد من الشخصيات ومن خلاله يعالج أحداث قصصه ولكنه يحشد كما هائلا منها مختلف الملامح والسمات ، وتتضح براعته الفنية في قدرته على استيعاب حركتهم جميعا ، ورصد مواقفهم والنفاذ الى مشاعرهم ، وكشف علاقاتهم بالآخرين ، وتفاعلهم مع الأحداث في بناء محكم قوى السبك ، لا تجد فيه موقفا شاذا ولا شخصية غريبة عن بيئتها ٠

ففي قافلة الزمان تطالعنا شخصيات الحاج أسعد عميد الأسرة فى الجيل الأول وزوجته وخادمه وأولاده وجاريته النوبية كما يطالعنا السحار بعدد من الشخصيات تمثل الامتداد الأول للحاج أسعد ممثلا فى ابنه محمد ونفيسه زوجته وأولاده حسن وأحمد ، وزكية وسكينة ، وممثلا كذلك في ابراهيم نجل الحاج أسعد وأبنائه ، ومن جيل الحفدة تطالعنا شخصيات حسن بن محمد وزوجته أمينة ٠ وأولاده ممدوح وأسعد وسليم ومصطفى وزكية ٠٠٠ الخ ٠

كما تطالعنا شخصيات أخرى ارتبطت بهـؤلاء جميعا عن طريق الصـداقة أو المجاورة وكان لها دور فى بعض الأحداث ، كشخصية أم عباس الندابة ، وولدها عباس، والمعلمة صباح ٠وراشيل وماري وكوثر وفتحية ، وهؤلاء جميعا ذكرهم السحار من خلال السياق وأجاد رسم ملامحهم بما يتناسب مع طبيعة كل منهم النفسية والعضوية ٠ ومن خلالهم أعطانا تصورا كاملا عن المرحلة التى تناولها بالتسجيل والتصوير بكل أبعادها السياسية والاجتماعية والفكرية ٠

وتعتبر هذه المعالم التى أشرنا اليها من أبرز ما يربط الكاتب بالمذهب الطبيعي٠

والى جانب بروز بعض المظاهر الوجدانية والطبيعة فى قصصه وجدنا أيضـا بعض المظاهر الواقعية ، خصوصا فى القصص التى اتجه فيها الى معالجة قضايا الواقع الاجتمـاعى ، ومشاكل الأسرة المصرية فى مواجهة أزماتها الاقتصـادية والتطورات الاجتماعية فى اطار يختلف كثيرا عن اطار الرؤية التسجيلية للواقع التى التقى فيها مع الطبيعيين وفضلا عن ذلك فقد ظل على ولائه للقصة التاريخية الى آخر حياته كما يوضـح الجـدول السـابق (١) ٠ فلم يقف اذن عند حـدود الولاء للمذهب الطبيعي كماذهب الدكتور سيد النساج عندما قال (استمر السحار على ولائه للمدرسـة الطبيعية ، وقدم أعمالا روائية كثيرة تناولت مشكلات الأسرة العربية فى مصر ، وهى المشكلات اليومية التى تعانى منها معظم الأسر ذات الدخل المحدود ، داخل المدينة ٠ كما عالج فى الحصاد موقف الاقطاع من الثورة وانهياره الداخلى ، ووقف عند مشارف المجتمع الجديد من خـلال أسرة نجح عائلها فى اقتناء عشرة آلاف فدان من الأرض

(١) أنظر ص ٤٢٩ وما بعدها ٠

الزراعية ولكنها لم تستطع أن توفر له السعادة والهناء ، فقد استنفدت عمره سنوات الصراع بينه وبين نفسه ، وبينه وبين العائلة ، وبينه وبين المجتمع الى أن قامت الثورة فكانت معها نهايته المحتومة بتطبيق قانون الاصلاح الزراعى) (١) .

والى جانب بروز المنزع الوجدانى والاتجاه الطبيعى فى قصصه يبدو كذلك المنزع الواقعى (٢) فقد حرص السحار على ابراز كثير من صور التحلل والانحراف الاجتماعى، ولعل ذلك أكثر تمثلا فى مجموعاته القصصية المتعددة خصوصا مجموعته الأولى (فى الوظيفة) فقد رأيناه ينسل فى خفة الى داخل المصالح الحكومية فى عملية تعرية كاملة للمفاسد الخلقية التى تعرف عليها عن قرب من خلال عمله كموظف فى سلاح الطيران الملكى ، فقدم صورا معبرة عن هذا الفساد ، وهو فيما يقدم منها كان يتشح بثوب المصلح الاجتماعى ، دون أن يحصر رؤيته فى اطار تصور جزئى للواقع المعتم بمساوئه وانحرافاته على غرار المذهب ، بل كان يصدر فيما يصدر عن نزعة خيرة تريد الارتقاع بالانسان الى مستوى الكرامة الانسانية بعيدا عن دوافع المنفعة الشخصية ، ونزوات الانحراف النفسى والخلقى ، وهذه النزعة تتلاءم مع الخط الفكرى الذى سار عليه وترتبط برؤيته الشمولية للواقع .

وهكذا وجدنا السحار فى أعماله القصصية المتنوعة يعكس كثيرا من المذاهب والتيارات فى مناهجها التعبيرية وأساليبها الفنية .

ولم يقف عند حدود مذهب منها قاصرا جهده وفنه عليه وما ذلك الا لأن التيار الاسلامى الذى قاده فى مسيرته الأدبية يشمل كل هذه الاتجاهات التى تتمثل فى مذاهب نقدية أو فنية ونتيجة لذلك بدا فن السحار موزعا بين عدد من الاتجاهات ، وجاءت فى ظاهرها جامعة لسمات عدة لا تصدر جميعها عن منهج واحد ، وطريقة مميزة فوجدنا منها ما يتصل بالنزعة الوجدانية (الرومانسية) ومنها ما يمثل الاتجاه الطبيعى ، ومنها ما يلتقى فيه مع النقدية التى عرفت عن الواقعية النقدية ولا يعنى هذا ضياع شخصية السحار بين هذه الاتجاهات كما يتوهم بعض الناقدين فقد سار السحار فى أدبه ـ كما وضح ـ استجابة للتيار الاسلامى الذى ملك عليه حسه وفكره فكان أدبه على تلك الصورة التى تضم من الاتجاهات الأدبية المختلفة ما يستدعيه التيار الاسلامى دون نظر الى المذاهب الفنية الوافدة ، من هذا المنطلق

---

(١) بانوراما الرواية العربية الحديثة د. سيد حامد النساج ص ٦٣ .

(٢) والواقعية فى الأدب تتحدد مفاهيمها فى رؤيتها السوداوية للواقع حيث ترى الحياة من خلال منظار أسود ، وترى أن الشر هو الأصل فيها ، وأن التشاؤم والخطر هما الأجدر ببنى البشر لا المثالية والتفاؤل وكتاب الواقعية حريصون على تسجيل الواقع كما هو وتناوله بالنقد والتجريح ، ولما كان الكشف عن أسرار هذا الواقع وحقائقه خليقا بأن ينتهى بالمرء الى التشاؤم واساءة الظن بالناس والأشياء ، فقد كان من الطبيعى أن ينزلق المذهب الواقعى الى معناه الاصطلاحى الذى يفهم منه الآن وهذا المعنى هو الاتجاه بالأدب نحو الكشف عن الشرور والآثام الكامنة فى النفس البشريه .

أنظر فى تفصيل ذلك الاتجاه الواقعى فى الرواية العربية الحديثة فى مصر للدكتور حلمى بدير ص ٢٢ وكتاب فى الأدب والنقد للدكتور محمد مندور ص ١٣٢ وما بعدها بتصرف .

بدا فى فنه القصصى متميزا بخصائصه التى تتصل بالمضمون الفكرى والشكل الفنى المتميز الذى أبدع من خلاله ٠

أما من ناحية المضمون ، فقد اتسعت قصص السحار لاستيعاب الحركة الفكرية لأزمنة متفاوتة من حيث القدم والحداثة ٠ على امتدادات واسعة من عمر الزمان فقد كتب رواياته التاريخية بدءا من الفرعونية وعلى اتساع العصر الاسلامى بادئا بقصة الرسول صلى الله عليه وسلم فى (محمد رسول الله والذين معه) واستمر فى عطائه فى هذا المجال متخطيا حواجز الزمان حتى كتب قلعة الأبطال والسهول البيض متناولا فيهما تاريخ مصر المعاصر ٠

كما اتسع أدبه لاستيعاب قطاعات عريضة من قطاعات الحياة البشرية ، تختلف فيما بينها طبيعة وبيئة وتفكيرا وسلوكا ٠ مما يؤكد تفرد السحار فى هذه الناحية ، واختصاصه دون سواه بالقدرة الابداعية ، والموهبة الخلاقة ، والعطاء الفريد فى ألوان شتى من أشكال الفن القصصى تنوعت فرأينا منها الرواية الطويلة والقصة القصيرة واللوحة المعبرة الى آخره ٠

وقد كان منذ بدأت حياته الأدبية شغوفا بتاريخ الاسلام وتعاليمه فحرص على احيائه وابراز معالمه ، من خلال صياغة عصرية اختار لها الأسلوب القصصى ، وأصدر عددا من الأعمال الفنية فى مجال القصة التاريخية يقف وحده شاهدا على تفرده فى هذه الناحية ، فقد وظف هذا اللون من القصص لاستيعاب حركة الفكر الاسلامى وجهاده ومراحل تطوره وازدهاره ، مبرزا المواقف المناوئة له من جانب أعدائه ، والخصومات التى شهدتها الساحة العربية بعد انبلاج نوره ، فقدم للقارىء المعاصر منهجا حيا نابضا بالحركة والحيوية ، استطاع أن يدحر الظلم ، ويقاوم الشرك والفساد ، ويعيد للانسان كرامته وحريته بعيدا عن استعباد الطغاة وظلم الظالمين ، وأعطانا فكرة شاملة عن الاسلام عقيدة وعملا ومنهاج حياة من خلال عرضه لقصص أبطال الاسلام ، وكيف أنهم استطاعوا تغيير شكل المجتمع العربى من مجتمع قبلى منعزل فى ماديته الهابطة وتقاليده البالية الى مجتمع مدنى متطور ترفرف عليه أعلام العدل والمساواة ، وتخفق جوانحه بالحب والرحمة والانتماء ، وكان الكاتب فى عرضه لذلك يهدف الى ابراز المثل ، وكشف معالم المجد الزاخر ، والحضارة العالمية ، حتى يتعرف الانسان المعاصر على شخصيته ، بعد أن زاحمتها مواكب التغريب الوافدة فقد كانت عين الكاتب ترقب حركة الحاضر وتناقضاته والصراعات الدائرة فيه ، وهو يقدم أعماله الاسلامية فلم يكن همه عرض ذلك التاريخ لمجرد العرض والتسلية وانما كان همه ايجاد الحل الملائم للمشاكل والتناقضات التى ازدحمت بها الساحة ، ووجد ذلك الحل فى مثل الاسلام وقيمه ومنهجه الراشد وهديه المبين ، فانطلق يستلهم تاريخه فى ابداعه ٠

وكانت سلسلة قصصه عن أبطاله التى توجها بالقصة الكبرى (محمد رسول الله والذين معه) والتى تناول فيها بالمعالجة حياة صاحب السيرة العطرة فى استيعاب

عجيب وقدرة فائقة ، حيث استطاع بلورة الأحداث التاريخية التى سبقت مولده عليه السلام بأزمنة متناهية في القدم منذ عهد ابراهيم عليه السلام ، واستمر فى عرضه الممتع حتى وصل الى حياة النبي الخاتم ، فتناول كفاحه وجهاده من أجل الدعوة حتى لحوقه بالرفيق الأعلى ٠

وكان لهذه المعايشة الواعية أثرها الواضح فى فكر السحار ، فقد امتد تأثير الفكر الاسلامي وتياره الى كتاباته الأخرى التى أبدعها فى غير المجال التاريخى ٠

فقد وجدنا ملامح الفكر الاسلامي واضحة فى القصة الاجتماعية وغيرها حيث عالج كثيرا من قضايا المجتمع المعاصر وأحداثه من خلال رؤية اسلامية رشيدة تمثلت فى موقفه من قضايا المرأة وسفورها وفى تأكيده على القيم الأخلاقية ، ومواقف الصراع بين الخير والشر فى نفوس أبطاله وفى نظرته المثالية للحب ، وعرضه لبعض ملامح الفساد والانحراف على مستوى الفرد والمجتمع بأسلوب يدعو الى التنفير منها والبعد عنها الى غير ذلك مما تناولته الدراسة فى الفصول الخاصة بملامح التيار الاسلامى ٠

ومن السمات المؤكدة لبروز هذا الاتجاه فى قصصه المنزع الصوفى فى معالجته لكثير من المواقف والأحداث ، فقد برز هذا المنزع واضحا فى معظم أعماله ٠ خصوصا الأعمال التاريخية ٠

فقد استوقفنا فى هذا المجال تدخله بالتعليق على الأحداث أو مواقف الشخصيات بأسلوب يستمد خصائصه الفكرية من النبع الصوفى الفياض من ذلك مثلا ما رأينا من احتفائه بفكرة الفناء فى ذات الله ، أو الاتحاد مع الطاقة الروحية التى تحكم الكون فقد ألحت عليه كثيرا خلال معالجته لقصة السيرة ، فراح يعلن عنها من خلال سياق الحدث ، وتأتى كتعليق على حادثة أو تفسير لموقف ، كقوله عن أوائل المؤمنين (اكتشف المؤمنون جوهر نفوسهم النقية فى نور الله ، واهتدوا الى أن الحياة دون الله لا معنى لها، فاجتهدوا فى نشدان الاتحاد مع الطاقة الروحية التى تعلن عن الكون وتحكمه وجاهدوا فى تحطيم الحواجز النفسية بينهم وبين ربهم ، فاذا بهم يذوقون لذة روحية سرمدية ، لذة الانس بالله فهانت الدنيا فى أعينهم ، وصغرت شدائدها ، وصارت لهم رسالة فى الدنيا يعملون على تحقيقها ، ويحتملون المكاره فى سبيلها ، فأصبحت نبضات قلوبهم المشرقة بالضياء الربانى رحلة أنفسهم فى طريق الهداية الى محبة الجنس البشرى) (١)

وفى موقف احتضار خديجة يتحدث السحار عن محاولة الرسول تخفيف القلق الذى تحسه وهى فى لحظات النهاية ، فقد كان لها كل شيء ٠ (انه ارتفع بها من دنيا الماديات الى عوالم السعادة الابدية ، فتح بصيرتها وفؤادها لاستقبال نفحات ربها ، وعرفها سبيل اللذة الحقة لذة النظر الى وجه الله والسعادة بالقرب منه ، والاستبشار باشراق أنوار المعارف فى عين ذاتها (٢) ٠

---

(١) عام الحزن ٠ عبد الحميد جودة السحار ص ١١ ٠

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٧ ٠

ويتضح منزعه الصوفي أيضا في ايمانه بفكرة المجاهدة والرياضة الروحية كوسيلة للوصول الى الحقائق والارتباط بذات الله ٠

وقد صدر في تصوره لشخصية الرسول على ضوء هذا المفهوم نجد ذلك في قوله عنه (انه معظم لله خائف اياه ، راجله ، شغل قلبه بالنظر اليه ، قد صفت له لذة المناجاة ، طهر باطنه لأنه موضع نظره ونقي سره وسريرته ، وأقام قلبه مع الله وجاهد النفس لكيلا تتشعب به الهموم في أودية الدنيا ، وهجر مباهجها في سبيل وجه الله (١) ٠

ومما يؤكد ايمان السحار بهذه الفكرة تناوله لشخصية أمية بن أبي الصلت من الزاوية نفسها فمنذ أن عرف نبوءة النبي المنتظر وهو هائم في الوجود (يقلب وجهه في ملكوت السموات والأرض ويجتهد في الوصال بالذات العلية ، التي يطمع في أن تبعثه هاديا ومبشرا ونذيرا) (٢) ولكنه في رأى السحار قد أخطأ الوسيلة لأنه (كان يحصل العلوم من الكتب ، فصار محجوبا عن الله باعتقادات تقليدية جمدت في نفسه ، ورسخت في قلبه ، وصارت حجابا بينه وبين درك الحقائق ، فلم يورثه الله علم ما لم يعلم) (٣) والوسيلة التي يراها الكاتب محققة للوصال تتمثل في اعتزال الناس ، ومداومة التفكر في ملكوت الله ، حتى تتكشف الحقائق أمام عين بصيرته ٠

والى جانب بروز هذا المنزع في القصة التاريخية ، وجدناه قد تسلل الى ألوان القصة الأخرى في معالجاته الفنية ، وتجلى ذلك في المواقف التي تزدحم فيها النفس البشرية بالآلام ، فتحاول التخفيف عن نفسها ، في أحضان تلك الروحية الشفافة ، كما يتجلى في مواقف الصراع بين قوتين تمثلان جانبي الخير والشر في الانسان أو في حركة الأشخاص بعضهم مع بعض ٠ ويبدو ذلك واضحا في أقصوصة « أنت نور لنوري » من مجموعة صور وذكريات ففيها نجد أبا الفيض الشرير الأحمق وقد تجمعت فيه كل الشرور والآثام ولكنه بعد أن واجه النور وذاق لذة الايمان ، انتزع نفسه من عالم الرذيلة وتعلق بالرحاب الطاهرة فقد رأى ذات ليلة امرأة (جميلة سافرة الوجه تترقرق الطمأنينة في محياها ، فاقترب منها متسائلا :

ــ من أين ؟

فلم ترتجف ، ولم تفزع ، ولم تند عنها صرخة ، بل قالت في صوت رقيق :

ــ من عند الحبيب ٠

وعجب من رباطة جأشها وقال لها :

ــ والى أين ؟

---

(١) خديجة بنت خويلد للسحار ص ٢١٤ ٠

(٢) دعوة ابراهيم للسحار ص ٤١ ٠

(٣) المصدر السابق والصفحة ٠

قالت وقد شردت ببصرها :

ـ الى بيت الحبيب ٠

واتسعت عيناه ، ونشط ذهنه ، وقال وهو يقلب بصره فيها :

ـ من عند الحبيب ، والى بيت الحبيب ، كيف يكون ذلك ٠ أأنت سكرانة ٠٠ ؟

فقالت دون أن تنظر اليه :

ـ أنا سكرانة وقلبى صاح ، أنا مفتونة بحب حبيب لست أبغى من بابه براح ٠

فمد يده اليها ليجذبها اليه ، فلم تذهب نفسها شعاعا بل قالت فى ثبات :

ـ ارجع يدك ٠ ألا تخش من بطش حبيبى ؟

قال فى ضيق :

ـ أين حبيبك ؟

ـ انه هنا معنـا ٠

فراح يتلفت ويقول :

ـ انى لا أرى أحدا ٠

فقالت فى صوت أخاذ :

ـ لو أردت أن ترى حبيبى ، فلابد أن يرتد بصرك الى بصيرتك (١) ٠

ويستمر الحوار بينهما على هذه الطريقة متسما بالصوفية الزاخرة بأطيب المعانى وأعمق الأحاسيس فنقرأ ضمن ما نقرأ من توسلاتها الى حبيب القلوب ، وسرور السرور ، وحياة النفوس ، ونور النور ، ما يملأ القلب خشية ، ويدفعنا الى الدخول فى ساحتها وتناول الطعام على مائدتها ، وما طعامها الا (الخشوع والتقوى ، وترك الذنوب ، واصلاح العيوب ، والتمتع بمشاهدة المحبوب) (٢) ٠

ومن سمات المضمون فى قصص السحار احتواء أدبه لقضايا العصر ومشاكله السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ويأتى ذلك من خلال شخصيات قصصه كتجلية للبيئة التى تدور عليها الحركة داخل العمل ، ويكون الهدف فى هذه الحالة بيـان موقف الشخصية القصصية من الأحداث فى مجالاتها المختلفة فقد عرض من خـلال (فى قافلة الزمان) و (الشارع الجديد) للأحداث السياسية التى شغلت الأذهان فى ذلك الوقت بدءا من أحداث الحرب العالمية الأولى وحتى قيام الثورة ١٩٥٢ ، فصور أحداث تلك المرحلة ، وما ازدحمت به الحياة المصرية من مشاكل نتيجة للوجود الأجنبى المتمثل فى المستعمر الدخيل ، والمعاناة التى حلت بالشعب من جراء ذلك الوجود غير الشرعى على أرضه كما صور كفاح الشعب ووقوفه الى جوار أبطاله فى ثورة ١٩١٩ ،

---

(١) صور وذكريات للسحار ص ١١ وما بعدها ٠

(٢) المصدر السابق ص ١٣ ٠

وكيف تعاطف الوجدان القومي في مواجهة أعداء البلاد نجد مثلا على ذلك في تصويره لقضية الشعب بعد القبض على سعد ورفاقه يقول : (امتلأت الصدور غيظا وغضبا واندفع الناس فى مظاهرات يعلنون سخطهم واحتجاجهم على ما بدا من عسف وظلم وبشع استعماری ·

وأضرب الأزهر ، وخرج طلابه فى مظاهرة كبيرة ، وأخذوا يطوفون على مدارس الحى فينضم تلاميذهم اليهم ، وترتفع حناجرهم بالهتاف بحياة مصر وسقوط الحماية ، وخرج أسعد وسليم مع الخارجين وانتقلت حماسة الجموع اليها ، فأخذا يهتفان في ثورة ، انهما يحسان كما يحس الجميع أن لهما عدوا ، ويتمنيان أن ينزل بذلك العدو الدمار ·· واستمرت المظاهرات فى القاهرة واندفع لهيبها ، فأضرب العمال وتعطلت وسائل النقل وراح الجنود البريطانيون يعتدون على المتظاهرين ويطلقون الرصاص على العزل الثائرين لكرامتهم ، فيسقطون صرعى الظلم والطغيان) (١) ·

وفى (الشارع الجديد) كانت قضية الكفاح ضد الاحتلال هي شغل « حسان » الشاغل ، فقد كان يرى (أن الوسيلة الوحيدة لطرد الانجليز من البلاد هى القتال) (٢) انه فعل ذلك عندما فر من مصر فى شبابه لينضم الى الجيش التركي من أجل تخليص وطنه من تلك الوصمة ، ولكنه عاد يجر أذيال الخيبة والخسران محطم النفس منهوك القوى كأن به خبل ، وجعل يخالط السكارى والمخمورين ولا يفيق من غفلته الا عندما يجد كتائب الفدائيين بعد تمزيق المعاهدة بين مصر وبريطانيا تهرع الى القناة لتوقع الرعب فى قلوب الانجليز ، فيتهافت على قراءه الصحف فى فرح شديد (وسار فى الحارة مشرق النفس يستشعر سعادة حقيقية لأول مرة منذ عاد الى أرض الوطن محطما ، ولا يجد الا السلوى في الشراب ، كان يخيل اليه أنه خلق خلقا آخر ، وجعل ينظر الى الناس الغادين الرائحين فى حب واعزاز ، وهو يغمغم فى أعماقه : « هذا شعب عظيم لن يموت ···· ») (٣) وتكتمل سعادته بعد قيام الثورة ومغادرة فاروق البلاد ، فاذا به (يحس الدموع تتحرك فى مآقيه ، وينطلق نشوان ، حتى اذا ما هدأت نفسه ، راح يغمغم :

ــ أصبح في الحياة ما يستحق أن أفيق من أجله ، أن أرى بزوغ الفجر الجديد) (٤) ·

وفى (الحصاد) شغل السحار بتتبع الفساد السياسى ممثلا فى الأحزاب وتنافرها وصراعها من أجل الوصول الى الحكم تحت شعار المصلحة الوطنية العليا ، فأبان زيف هذا الشعار من خلال عرضه للملابسات والظروف التى نبتت فيها الصراعات الحزبية ، ولعبت المصالح فيها دورا عظيما فى افساد الحياة وتمزيق الشعب ، كما صور الفساد

(١) فى قافلة الزمان ص ١٤٧ وما بعدها ·
(٢) الشارع الجديد ص ٥٤٤ ·
(٣) المصدر السابق ص ٥٤٥ ·
(٤) المصدر السابق ص ٥٥٣ ·

ممثلا فى الاقطاع وحياة الطبقة الاقطاعية التى أبدع فى رسمها من خلال شخصية (سليم باشا) وأسرته ٠

وفى (قلعة الأبطال) أبرز دور الشعب فى الكفاح الوطنى خلال الفترة التى عاصرت الثورة العرابية ، وكان ذلك منه تمجيدا للنزعة الوطنية بعد الثورة وتأكيدا على عراقة الشعب وأصالته ٠

وفى (السهول البيض) عالج قضية العدوان الثلاثى على مصر (١٩٥٦) مبرزا دور الطبقات الشعبية فى مواجهته ، وهو فى كل ما يعرض من قضايا وأحداث يستجيب لنزعه الدينى ورؤيته الاسلامية مما يؤكد ولاءه الأصيل للتراث الاسلامى وشغفه به ٠

ومن الخصائص التى توفر عليها مضمون قصصه تصويره للفكر المادى والاتجاهات الالحادية ، والتيارات الاباحية التى تموج بها الساحة العالمية ٠ فقد عرض ذلك من خلال البيئات التى تنقل بين ربوعها فى أوربا وآسيا ٠ واستلهم منها بعض أعماله الفنية ٠ ولعل قصة (جسر الشيطان) أبرز مثل على ذلك ٠

ففيها يحكى قصة المواجهة بين الشرق والغرب ممثلا فى لقاء (على) بالساقطة (آنى) ومن خلالهما أبرز كثيرا من قضايا الايمان والمواقف الالحادية

وما يموج فى البيئة الأوربية من تيارات ، وعلى هذا المستوى من المواجهة كانت مجموعته القصصية (ليلة عاصفة) حيث صدر فيها عن فهم عميق للتيارات العالمية ، وكشف النقاب عن زيفها وقد تعرفنا على شىء من ذلك فى تناولنا للملامح الاسلامية فى القصة القصيرة ٠

وهذا كله ان دل على شىء فانما يدل على اتساع ثقافة الكاتب ، وانفتاح رؤيته، وقدرته على استيعاب كافة الاتجاهات كما يدل على أنه لم يتقوقع داخل اطار محدد فى بيئته العربية ٠

أما خصائص قصصه من حيث الشكل الفنى ، فقد سبق أن أوضحنا بروز بعض مظاهر كثير من الاتجاهات الأدبيــة على اعتبار أن لكل اتجــاه منها خصائصه المميزة وسماته الخاصة ٠ وأن قدرة السحار على التلاقى مع بعض مظاهر هذه التيارات يؤكد براعته القصصية ومرونته الأدبية ٠ كما أكدنا أن ذلك كله كان له بفضــل النظرة الاسلامية التى يدين بهــا والتى يوظف أدبه من أجلها ٠ فكان له أسـلوبه الخاص وطريقته المتميزة فى التعبير عن أفكاره وآرائه ٠ وأول ما نصادفه فى هذا المجال : اعتماده على « الحدوتة » كشكل فنى فى جميع أعماله ، فلم يشأ ارهاق القارىء العربى بالمستحدث من الأشكال الفنية المعقدة ٠

وربما كان دافعه فى ايثار هذا الشكل دون سواه ، أن « الحدوتة » أقرب الى طبيعة الانسان العربى ، وأقدر على استيعاب كافة الأفكار والقضايا ، لاعتمادها على

بتجرد الحكي المباشر ، واشتمالها على عنصر التشويق وهو من أهم عوامل النجاح في العمل الفني .

ولعله كان مدفوعا الى هذا الشكل بطبيعته السهلة وميله الى البساطة في كل شيء ، ولهذا اختار أبسط الأساليب وأسهلها الى قلوب الناس ، حرصا منه على أن تصل أفكاره اليهم (١) . وقد أكد السحار نفسه التزامه بهذه الطريقة في العرض والتصوير نظرا لما تتيحه للكاتب من حرية ففيها كما يقول (يسرد القاص الأحداث في تتابع ويقدم أشخاص القصة ويفسر تصرفاتها ، ويحلل أفعالها ويسير بالأحداث والشخوص السير الطبيعي حتى تبلغ الأحداث نهايتها ، وقد اتبعت هذه الطريقة في جميع قصصي باستثناء (وكان مساء) التي كتبتها على لسان بطلها ، وتتيح هـذه الطريقة للقاص أن يتتبع جميع الشخوص ، وأن يعيش معهم ، ويعرض كل ما يهمه من تصرفاتهم ، وما تختلج به نفوسهم ، وما يعتمل في صدورهم وما يدور في رءوسهم، وما يشتجر بينهم من صراع (٢) .

ومن أبرز السمات الفنية التي تتميز بها قصص السحار . اعتماده على الشخصية كعنصر رئيسي تدور حوله المعالجة الفنية ، فالشخصية هي المحرك للحدث في التصميم الروائي ، وهي مناط اهتمام الكاتب ومحل تقديره . وعن طريق الشخصيات يقيم بناءه الفني ، فمن خلالهم يتم التسلسل الطبيعي للمواقف والأحداث ، كما يتم عرض القضايا والأفكار ، وتأتي معظم العناصر الفنية الأخرى المكملة للقصة لتكون في خدمة الشخصية ، وهـذه الطريقة تخالف منهج بعض الأدباء في اتخاذهم الحادثة محورا رئيسيا لحركة البناء الفني ، ولا يعني هذا أن قصص السحار خالية من الأحداث وانما يعني أنه ينظر الى الحدث في الرواية نظرة ثانوية على اعتبار أنه لا يصنع الشخصية ، ولا يأتي لذاته بل لتفسير سلوكها .

وقد التزم السحار بهذا المنهج في معظم قصصه فجاءت حافلة بنوعيات شتى من الأشخاص ، يختلفون في ملامحهم وطبائعهم وسلوكياتهم وعقائدهم ، وتجلت براعته في مقدرته الفائقة على تحـديد سماتهم ، ورسـم ملامحهم ، والكشف عن مكنون صدورهم ، وما تجيش به نفوسهم ، وقد نجح في ذلك الى حد كبير (فهو يعطينا في بداية الأمر الخطوط الرئيسية التي تكون الشخصية ، ثم يكشف عنها اللثام رويدا رويدا حتى تتبلور لنا الشخوص بكافة أبعادها) (٣) .

ويعتمد السحار في بلورته لملامح الشخصية أحيانا على الوصف الخارجي لها في اطار حركتها العملية على مسرح الحياة داخل القصة ، وفي بعض الأحيان الأخرى يلجأ الى تعميق الرؤية حول الشخصية بالكشف عن عالمها النفسي وحياتها الباطنية ،

---

(١) السحار مفكرا وأديبا وسينمائيا عبد المنعم صبحي ص ٣٣ .

(٢) القصة من خلال تجاربي الذاتية للسحار ص ٤٠ .

(٣) القصة عند عبد الحميد جودة السحار . فاطمة الزهراء عبد الغفار موافي ص ٤٣٤ .

وقد استخدم الوسيلتين معا في معظم قصصه ، ففي مجال رسمه للملامح الشخصية من الخارج تعرفنا على (سليم باشا) في الحصاد فوجدناه (ممشوق القـد ، عريض الكتفين فخما مهيبا ، فيه اعتداد وثقة في نفسه لا تحد) (١) أما حلمي ابنه فكان (منطلق الوجه ، طويل القامة ، نحيل القد ، أسود الشعر ، أسمر البشرة ، دقيق التقاطيع ، له عينان واسعتان تأتلقان ببريق أخاذ) (٢) وجاءت صورة عبد الخالق في القصة نفسها كما يقول (كان ممتلئ الجسم قليلا ، فارع القامة كأبيه على رأسه طربوش وكان أنيقا في ثيابه ، يحفل بدقائق ما يرتديه احتفاء الغانية بزينتها وقد ورث عن أبيه أناقته كما ورث عنه ملامحه ولون بشرته) (٣) .

أما بثينة فأبرز ما فيها شعر أسود ، وعينان خضراوان عميقتان لا يرى لهما قرار ، كانت ممتلئة الجسم ، ناهدة الصدر دقيقة الخصر ، مستديرة الأرداف ، تميل الى الطول ، وقد أكسبها طولها وامتلاء جسمها فخامة ، أما بشرتها فكانت في لون الخوخ) (٤) .

ويمضي السحار على هذا النهج في تصويره لأشخاص القصة بدقة متناهية لايقع معها خلط بين شخصية وأخرى في السمات الخارجية .

ومن أمثلة تعمق السحار أبعاد الشخصية من الداخل ، وكشف ما يجوس في نفسها من أفكار ومشاعر ما صور به الحالة التي استقر عليها مصطفى في قصة (في قافلة الزمان) عندما راح يقنع نفسه بالزواج من ابنة عمه سيدة البيت مفضلا اياها على كوثر المثقفة لسفورها ، وخروجها على مقتضيات الأعراف والتقاليد . يقول السحار مصورا هذا الموقف (وفي هجعة الليل دخل فراشه ؟ ولكنه لم ينم ، فقد كانت الأفكار تترادف على مخيلته ، وكان يفكر في فتحية ، وما كان يستمع الى صوت قلبه ، ولكنه كان يصيخ السمع الى منطق عقله انها فتاة من فتيات الأسرة لا تصلح الا للمطبخ والبيت ، فلن تشاركه في سبحات الخيال ، ولن تبث فيه روح الاقدام ، ولكنها ستدعه يشق طريقه وحده ، تقاسمه الغنائم اذا ما غنم ، وتستكين لغدر الزمان اذا مال ، ولخير له أن يربط حياته بمثلها على أن يربطها بمثل فتاة الليسيه التائهة التي لن تدعه يقتحم الصعاب وحده بل ستدس أنفها في كل شيء ، وستدلي برأيها فيما تعرف وفيما لا تعرف ، وستغضب اذا ما تصرف على غير هواها ، وستلقي عليه اللوم كله اذا ما باء بفشل أو خسران . فلن تكون له عونا ، بل ستكون قيدا يحد من سيرته ، وعبئا فوق عبء الزمان ، لخير له أن يتزوج ممن تعرف لها وظيفة ، على أن يتزوج ممن لا تعرف لها وظيفة الا الزينـة والخروج وارتياد الملاهي ومخـاصرة الرجال) (٥) .

---

(١) الحصاد للسحار ص ٥ .

(٢) المصدر السابق ص ١١ .

(٣) المصدر السابق ص ١٢ .

(٤) المصدر السابق ص ١٤ .

(٥) في قافلة الزمان ص ٢٩٨ .

ويمضى السحار فى عرض أفكار مصطفى ومشاعره على هذا النمط وهى كما ترى تحدد مسار الشخصية الفكرى وحالتها النفسية .

ومن الخصائص التى ينفرد بها فن السحار وتتصل ببناء الشخصية فى القصة . ابرازه للبطل القيادى أو الخيرى ان صح هذا التعبير . فهو مع حرصه على توزيع الأضواء فى قصصه على جميع الشخصيات بطريقة شبه متساوية . الا أننا نلمح من بينها شخصية فذة تتمتع بقدر أوفر من غيرها فى المرونة والايجابية والحيوية ، وتدور حولها الحركة الأساسية فى معظم الأحيان ، وليس من المصادفة فى شىء أن تأتى هذه الشخصية ، ممثلة للنزعة الدينية ومرتبطة فى تفكيرها وسلوكها بالتراث الاسلامى ، وتحاول جاهدة الالتزام بالقيم الأخلاقية وتعاليم الدين فى كل ما يصدر عنها .

ومن الشخصيات التى تطالعنا فى هذا الشأن (على » فى (الشارع الجديد) فقد كان مغرما بقراءة أسفار التاريخ فكان يقتنى كتب السيرة وتراجم أبطال المسلمين يقرؤها فى شغف ، وينفعل بها ، ويحاول أن يتمثل بالسلف الصالح ، فكان يثور على الظلـم ، وينتصر للحق ويدافـع عنه ، وان ركب فى سـبيل ذلك المصـاعب والأهوال (١) .

وكان اذا جلس ليكتب رسالة قفزت الى ذهنه رسالة النبى صلى الله عليه وسلم الى المقوقس (اسلم تسلم) فكان يكتب رسائله على نطمها موجزة قوية) (٢) .

وكان عندما يثور على الظلم ، ويقف صامدا أمام بطش الانجليز (يحس أن الروح السارية فى جسمه روح صحابى من صحابة الرسول ، الذين ثاروا فى وجه الطغيان دون أن يهابوا السلطان ، وقد عاشوا كراما لايخشون فى الحق لومة لائم) (٣).

وكذلك كان (حسن) فى « السهول البيض » فقد رسم السحار شخصيته فى اطار محدد ، جعله يتحرك فى كل موقف من خلال نظرة فقهية اسلامية ، كان مؤهلا لها بكل مقوماته النفسية والروحية فقد جاء من ملامحه كما رصدها الكاتب أنه (كان مغرما بقراءة الكتب الدينية يحفظ كثيرا من سور القرآن الكريم والأحاديث النبـوية ..

وكانت أحلام يقظته تدور حول الدعوة ، وكثيرا ما كان يرى نفسه بعين خياله يدعو الناس الى الهدى ويعيد الضالين الى الصراط المستقيم وكانت حماسته تثار كلما جاء فى رسالة من الرسائل التى يتلقاها ذكر الماضى ، وبطولاته وأمانى العودة الى العز التى كان فيها المسلمون أيام اتحاد الشعوب (٤) .

---

(١) الشارع الجديد ص ٢١ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٢ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٤ .
(٤) السهول البيض للسحار ص ١٩ بتصرف يسير .

ولما كان على هذه الدرجة من الوعي والحماس رأيناه يتحرك بحيوية فائقة داخل الرواية ، ويحاول تمثل الماضي ومحاكاته في كل ما يقول وما يفعل ، ولم يتوان عن مواجهة الأعداء والتأليب عليهم .

يعبر السحار عن ذلك بأسلوب سهل وعبارة واضحة ، فقد كانت اللغة التي يتعامل معها طيعة في يده ، يوظفها للتعبير عن أفكاره وآرائه وقضاياه بلا قسر أو اكراه فلا نجد كلمة نابية وسط السياق ، ولا جملة مفتعلة لا تتلاءم مع طبيعة الشخصية وظروف الموقف ، بل تجيء الصياغة في جميع أحوالها معبرة عن الحالة النفسية بصدق وواقعية ، وقد لفتت هذه الظاهرة بعض نقاده فقال (للسحار سمات في كتاباته القصصية ، فهو يركز على اللغة التي يكتب بها ، وهي لغة أدبية راقية ، تنشد الأسلوب السهل العميق ، وتبعد عن الحشو في الكلام ، وتميل الى الرصانة والواقعية) (١) .

غير أن أسلوب السحار ولغته وان كانت تتسم بالسهولة والبعد عن الغريب وغير المناسب للموقف بصفة عامة الا أن مستويات التعبير في قصصه تختلف من لون الى آخر حسب طبيعة المعالجة ، والبيئة التي يستمد منها أحداثه ، ففي القصة التاريخية نجد لغته القصصية تفيض رقة وعذوبة ، وتتسم بالسلاسة وشدة الأسر في عبارة فصيحة وقوة بيانية ظاهرة ، من ذلك قوله عن بلال بعد أن أخبره أبو بكر بمحمد والدين الجديد الذى جاء به فتبعه وأعلن اسلامه وأصبح يتردد على رسول الله لينهل من معين فيضه وفي ذات يوم (خرج من عند محمد قبل أن تدب الحياة في مكة ، وقبل أن يخرج الناس من دورهم ، واتجه الى الكعبة ليطوف قبل العودة الى دار مولاه فلما دخل وجد خلوة من البيت فراح يدور على الآلهة يتفرس فيها ويتساءل : كيف كان يعبد هذه الأصنام الصماء من قبل ؟ وكيف كان يتقرب اليها ينتظر منها الخير ، وهي لا خير فيها ؟ كيف كان يفرحه رضاها أو يغمه غضبها . وهي لا تدرى ما الرضا وما الغضب ، كيف لم يهتد الى أنها من صنع انسان ،وأنها من أحقر أن تسمع رجاء أو تجيب دعاء ؟ وقال في نفسه ، أكانت الدموع تنهمر من عيني عندما كنت أناجي هذه الآلهة ؟! أكنت أرتجف فرقا لما كنت أقف بين يديها ؟! لكم كنت غبيا ، يا للوهم الخادع جسم الخيال فجعله حقيقة ، وألبس القزم ثوبا فضفاضا فصيره عملاقا رهيبا ، وأضفى على الأحجار ثوبا براقا فجعلها قادرة مهيبة ...) (٢) .

ويحافظ السحار على هذا المستوى في أدائه اللغوى في كل ما عالج في مجال القصة التاريخية ...

أما في القصة الاجتماعية فنجده يوائم بين لغته وبين طبيعة الشخصيات التي يعالج من خلالها الأحداث ، والمواقف مع الالتزام الكامل باللغة الفصيحة ، حتى في

---

(١) السحار مفكرا وأديبا وسينمائيا عبد المنعم صبحي ص ٤٣ .
(٢) بلال مؤذن الرسول ص ١٩ وما بعدها .

الفوارق التي يدور بين الأشخاص العاديين ، ولكنه في هذه الناحية يستمد الفاظه من واقع البيئة التي يتعامل معها ، مرتفعا بها الى مستوى التعبير الصحيح ، ولم يكتب بالعامية الاقصة (أم العروسة) وتراجع بعدها الى لغته العربية الفصيحة ، نظرا لعدم قدرة العامية على التعبير الفني وقد قال في هذا الصدد (أحسست أن العامة لا تحلق أبدا . وبعد أن جبت البلاد العربية كلها وجدت أن الكلمة العامية تختلف في المعنى من بلد الى آخر ، وقد تختلف من اقليم الى اقليم ، وقد لا تفهم اطلاقا خارج نطاقها المحلى) (١) .

ولهذا أصر على الالتزام بالعربية الفصيحة فيما يعالج ويعامل معها في السرد والحوار على السواء ، ولكنها على حد قوله (عربية اللفظ يفهمها كل الذين يقرءون العربية) (٢) وقال مؤكدا هذا الاتجاه ، وداعيا اليه (أعتقد أنه ليس من الضرورى اثبات الحوار بلغته الطبيعية ، وانما على الكاتب أن ينقل الحوار من لغة الشخوص الى لغة عربية تناسبهم ، فيها سذاجة اذا كانت تلك الشخوص ساذجة ، وفيها سخرية اذا كانت ساخرة ، وفيها عمق اذا كانت مفكرة ، وفيها خفة ان كانت تحب الدعابة والضحك ، وبذلك يكتمل جو القصة ويتم الانسجام (٣) .

---

(١) القصة من خلال تجاربي الذاتية ص ٢١ .
(٢) المصدر السابق والصفحة .
(٣) المصدر السابق ص ٢٢ .

الفهرس

الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥٧٩٢ / ١٩٨٤

ISBN - ٩٧٧ - ٠١ - ٠٤٩٧ - ٧

هـذا الـكتـاب :

طواف حول مدى الوعى المبكر لدى « السحار » بأهمية التراث الإسلامى ينهل من عذوبته ويمتص رحيقه بقلب مفتوح وبصيرة نافذة وإحساس مرهف ، حتى ارتوت روحه وهفت للعلا أمانيه ، فانطلق يبدع آيات فنه على منهج خاص وطريقة أدبية فريدة ، وكانت القصة التاريخية الإسلامية أبرز مناحى التعبير على اتجاهه الإسلامى .

٢٢٠ قرشـاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب